



د. محمد نصر الدين الجبالي



تاريخ الأدب السري

سَيَر وَاَعْلَام ووظواهر



تاريخ الأدب الروسي

أ. د. محمد نصر الدين الجبالي: تاريخ الأدب الروسي، كتاب

الطبعة العربية الأولى: أكتوبر ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/ ٨٥٤٥ - الترقيم الدولي: 7 - 437 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب

لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة

وإنما تُعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

أ.د. محمد نصر الدين الجبالي

تاريخ الأدب الروسي

دُون



للنشر والتوزيع

يحتل الأدب الروسي مكانة كبيرة بين آداب العالم. وقد تميز الأدياء الروس عن غيرهم بمساعيهم الدائمة لسبر أغوار النفس الإنسانية والتناول الشجاع لما بها من متناقضات. ولا يمكن لأحد أن ينكر دور الشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين في تطور الشعر ونيقولاي غوغول في النثر. وهناك أسماء أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولا يخلوا عام من ترشح كاتب أو أكثر لجائزة نوبل للآداب.

تعود أصول الأدب الروسي القديم إلى القرن الحادي عشر الميلادي ويعتبر بذلك أحد أقدم الآداب العالمية. كانت روسيا في تلك الفترة تعيش بمعزل عن التحولات الجارية في أوروبا. وانعكس ذلك على الأدب وغيره من الفنون.

كما تعود أصول الأدب الروسي إلى الثقافة اليونانية وارتبط ذلك بانتشار الديانة الأرثوذكسية في روسيا في تلك الفترة. وكانت اللغة الروسية المعروفة في تلك الفترة هي اللغة السلافية الكنسية واعتمدت على اللهجة البلغارية التي كانت متداولة حينها في أطراف سالونيك. وكانت لغة الروس والرومانيين كذلك. وقد تأثرت هذه اللغة بنظيرتها اليونانية ومن هناك جاءت وفرة المفاهيم في اللغة اليونانية التي تحمل نفس المعاني وفي شكل الكلمة في اللغة السلافية.

شهد القرن الثامن عشر في روسيا سيطرة تيار الأدب الكلاسيكي أو الاتباعي وهو اتجاه محافظ يلتزم فيه الأديب بالتقاليد والقواعد التي أرساها سابقوه. وقد ظهر هذا الاتجاه في روسيا بعد التحولات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥م) حيث قام الشاعر والعالم الكبير ميخائيل لومونوسوف بإدخال كثير من التعديلات والإصلاحات في نظم الشعر الروسي حتى يُقرَّب بين القواعد الفرنسية الكلاسيكية واللغة الروسية. وتطور الاتجاه الكلاسيكي في روسيا تحت تأثير فكرة التنوير التي سادت تلك الفترة، حيث انتشرت أفكار المساواة والعدالة وكانت في بؤرة اهتمام الكتاب الكلاسيكيين.

يعتبر القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي في الأدب الروسي حيث أصبح أدبًا عالميًا بامتياز. ولا ريب أن ازدهار الأدب الروسي في تلك الفترة يرجع إلى النجاحات والإنجازات الأدبية التي تحققت خلال القرنين ١٧-١٨م. شهد هذا القرن تشكُّل اللغة الروسية الفصحى، وكان للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين الفضل الأكبر في ذلك.

وفي روسيا يحتل الأدب دائمًا مكانة هامة فالشاعر فيها هو أكثر من شاعر ودوره في الحياة الاجتماعية يتخطى بكثير مهام الشاعر والأديب التقليدية. ولذا كان مصير الأدب دائمًا ما يقلق المواطن الروسي خاصة عندما يعاني من عثرات وفترات اضمحلال ولذا فإن المواطن الروسي يهتم بقضايا الأدب بدرجة ليست أقل من اهتمامه بالشأن السياسي. وهذا ليس بمستغرب فقد كان

الأدب بوصفه وسيلة لنشر الأفكار أقدم بكثير من السلاح الناري أو الديمقراطية البرلمانية. فالأدب هو فن قديم ظهر في عصور ما قبل التاريخ تجسد حينها في أجناس شفوية غير مكتوبة. واليوم يعد الأدب وسيلة وأداة أساسية لصناعة المتعة والتسلية المفيدة كما أنه صناعة يعمل فيها الملايين. ويعيش الأدب الروسي مرحلة انتقالية جديدة في تاريخه تشبه تلك التي عاشها في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. شهدت العقود الثلاثة الأخيرة انتقال الأدب الروسي من مرحلة سيطرت فيها الرقابة على الإبداع في الحقبة السوفيتية إلى مرحلة جديدة استفاد فيها الأدب كغيره من الفنون من أجواء حرية التعبير.

ومن أهم الاتجاهات الأدبية المعاصرة في روسيا «ما بعد الحداثة» ويتمثل في إعادة تقييم المعايير الجمالية ومزج الأساليب واللغات والثقافات والاقتباسات الساخرة من التجارب الفنية العالمية. وعلى الرغم من أن الاتجاهات الحديثة في الأدب الروسي قد تخطت مرحلة ما بعد الحداثة وتمضي قدمًا إلا أن هذا الاتجاه ما زال صامدًا وخاصة بين النخبة من المثقفين. والأدب الروسي المعاصر يعيش مرحلة البحث عن الهوية ويحاول إثبات قدرات ومواهب الأدباء الجدد على مواصلة التقاليد العظيمة في الأدب الروسي وتحقيق اكتشافات إبداعية جديدة. كما يمكن القول أن وفرة الكتاب الشباب الواعدين يبعث على التفاؤل بمستقبل الأدب الروسي خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين.

هذا الكتاب يضم مجموعة المقالات الصحفية التي قمنا بنشرها في عدد من الصحف الأدبية والعامية عن تاريخ الأدب الروسي بعد إضافة المزيد من التفاصيل وعدد من الموضوعات الجديدة بهدف تقديم استعراض لبعض ظواهر وصفحات من تاريخ هذا الأدب غزير الإنتاج وعظيم التأثير والذي قدم روسيا للعالم. وتم الاستعانة بعدد من المراجع الروسية الأصيلة المرفقة في نهاية الكتاب التي تناولت حياة الكتاب الروس لسرد أهم مراحل حياتهم الأدبية وأهم مؤلفاتهم وتواريخ صدورهم على نحو دقيق .

يقدم هذا الكتاب عرضًا لعدد من الظواهر المميزة للأدب الروسي ومراحل تطوره المختلفة وكذا أهم الأدباء والأثر الذي تركوه في الحضارة الإنسانية. كما يتضمن بعض المقالات حول التأثير المتبادل بين الأدبيين الروسي والعربي وصورة مصر والشرق وإفريقيا في الأدب الروسي. كما يعرض الكتاب بعضًا من تاريخ آداب الشعوب الناطقة بالروسية حيث يتعرض لصفحات من الثقافات الكازاخية والطاقجية والأوكرانية.

وأرجو أن يتعرف القارئ الكريم من خلال هذا الكتاب وبشكل موجز على الأدب الروسي وأن يكون هذا الجهد مقدمة لجهد أكبر يتم من خلاله تناول هذا الأدب الثري بالدراسة المستفيضة لكل مراحل وإنجازاته وإسهاماته في تاريخ الأدب العالمي.

أ.د. محمد نصر الدين الجبالي

الباب الأول
نشأة الأدب الروسي

تعود أصول الأدب الروسي القديم إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ليعتبر -بذلك - أحد أقدم الآداب العالمية. فقد كانت روسيا في تلك الفترة تعيش بمعزل عن التحولات الجارية في أوروبا. وانعكس ذلك على الأدب وغيره من الفنون. أما عن المؤثرات التي صنعت هذا الأدب فإنها تعود إلى الثقافة اليونانية، وارتبط أيضًا بانتشار الديانة الأرثوذكسية في روسيا في تلك الفترة. بينما كانت اللغة الروسية المعروفة في تلك الفترة هي اللغة السلافية الكنسية، واعتمدت على اللهجة البلغارية التي كانت متداولة حينها في أطراف سالونيك. وكانت لغة الروس والرومانيين كذلك. وقد تأثرت هذه اللغة باليونانية، ومن هناك جاءت وفرة المفاهيم في اللغة اليونانية التي تحمل نفس المعاني وفي شكل الكلمة في اللغة السلافية.



كانت اللغة الروسية السلافية في بداياتها لغة فنية، تختلف تمامًا عن اللغة الدارجة حينها، ومع الوقت ازدادت السمات الفنية وتعرضت اللغة الدارجة للكثير من التغييرات. وبقيت اللغة السلافية الكنسية كما هي بل اقتربت أكثر فأكثر من اليونانية. وعملت أجهزة الحكم والإدارة في الأقاليم المختلفة في روسيا على تطوير أشكال من اللغة أكثر قربًا من لغة السكان المحليين؛ ولأسباب كذلك نجد اللغة تختلف من مكان إلى آخر في روسيا. ومع نهاية القرن الخامس عشر أصبحت لغة إمارة موسكو هي اللغة الرسمية للإمبراطورية، وكانت هذه اللغة تختلف عن اللغة الفصحى بشكل كبير. فقد كانت اللغة الروسية المتداولة متحررة من الألفاظ الكنسية واليونانية، وكان تركيب الجملة فيها بسيطًا جدًا، والحصيلة اللغوية من الألفاظ ضخمة. واتسمت اللغة الروسية حينها بكونها معبرة وقادرة على التصوير والوصف، لكنها لم تصلح لتكون بديلًا للغة السلافية الكنسية القديمة. أو للاستخدام في الأغراض الأدبية. حيث استخدمت اللغة الروسية للمرة الأولى للأغراض الأدبية في الربع الثالث من القرن السابع عشر الميلادي، وذلك على يد المبدع العظيم القديس أفاكوم. لم يكن الأدب في تلك الفترة من المهن المتعارف عليها في روسيا القديمة، ولم يكن هناك كُتّاب أو أدباء. وكانت القراءة وجمع الكتب يلقيان احترامًا كبيرًا إلا أن الأعمال الأدبية لم تظهر إلا

عندما برزت الحاجة إليها. لكنها لم تحظى بمكانة كبيرة في تلك الفترة، ولم تكن من أولويات القراء في روسيا القديمة. إذ كان القراء يبحثون في المقام الأول عن الكتب التي تتحدث في المقدسات والمواعظ الدينية. ومن يريد أن يقرأ في الفلسفة فإنه يتوجه إلى الإنجيل. كما كانت الطباعة مكلفة وهو ما أثر بالسلب على انتشار الكتب. وكانت المخطوطات هي الوسيلة الشائعة لذلك حتى منتصف القرن الثامن عشر. فقد كانت روسيا تعيش حياة القرون الوسطى، حتى تولت حكمها الإمبراطورة يكاترينا التي عملت على تطوير بلادها، وهو ما انعكس على سوق صناعة الكتب أيضًا.

ويرجع السبب في فقر الأدب الروسي نسبيًا في تلك الفترة إلى ارتباط الثقافة الروسية القديمة أكثر بالعمارة والرسم مقارنة بالأدب؛ ولذا عادة ما يتم تقييم تلك الفترة من حيث الإنجازات التي تحققت في مجال الفنون جميعًا وليس الأدب وحده.

وتُعد الطقوس الدينية أكثر المصادر تأثيرًا على الإنسان في روسيا القديمة. وعلى الرغم من محاولات السلاف في جنوب روسيا في القرن العاشر الميلادي محاكاة اللحن والإيقاع في اللغة اليونانية، إلا أن الطقوس الدينية الروسية القديمة لم تستجب لمحاولات جمعها على هيئة شعر؛ ولذا لا تحظى الأشعار التي بقيت من تلك الفترة بأهمية كبيرة.

وفضلاً عن الإنجيل وكتب الطقوس الدينية كانت كتب القديسين لها مكانة خاصة، وكانت عبارة عن سرد لحيواتهم. وأهمها كتاب حياة القديس ذهبي الفم. والذي كان معلمًا عظيمًا ومتحدثًا بليغًا. كما حظي القديس يوحنا الدمشقي بمكانة رفيعة أيضًا.

انتقل مركز الإمبراطورية الروسية القديمة إلى مدينة كييف في الفترة من القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. وبرز - في تلك الفترة - طبقتان اجتماعيتان كان لهما السيادة، وهما طبقة سكان المدن وطبقة الأرستقراطية العسكرية. واتسم الأدب والفن في تلك الفترة أيضًا بالطابع الديني. حيث خضع العسكريون لنفوذ الكنيسة،



ولم تشهد تلك الفترة سوى عمل أدبي واحد كبير، يمكن أن يعتبر من الروائع فعلاً، ألا وهو الملحمة الشهيرة «حملة الأمير إيجور».

وقد تم العثور على هذا الكتاب في عام ١٧٩٥م على يد أحد النبلاء في البلاط الإمبراطوري ويدعى أ. موسين بوشكين. وقد تم نسخ نسخة من الكتاب خصيصاً للإمبراطورة يكاترينا الثانية، وتمت طباعته للمرة الأولى في عام ١٨٠٠م. واحترقت النسخة الأصلية من الكتاب إثر حريق في موسكو عام ١٨١٢م، ما يضاعف من أهمية النسخة التي نسخت للإمبراطورة، وما تبقى من نسخ من الطبعة الأولى.

وقد بدا هذا الكتاب في البداية منعزلاً وبعيداً عن السياق العام من حيث موضوعه ولا يمت بصلة بما جرى من أحداث معاصرة حينها. ومن الواضح أنه قد تمت كتابته مباشرة بعد وقوع الأحداث التي وردت به، وربما في العام نفسه، ويتسم السرد فيه بكونه تاريخياً في الأساس حيث يتطابق مع ما ورد في المسرد التاريخي الأول لتاريخ دولة كييف. وتعكس هذه الملحمة استخدام الشعر العلماني في روسيا القديمة حينها، والذي بقي ولم يندثر بفضل المنشدين الذين كانوا عادة ينتمون إلى طبقة العسكريين. وقد تطور هذا النوع من الشعر في القرن الحادي عشر والثاني عشر.

ويُعد هذا الكتاب الوحيد من نوعه في النثر السجعي. ومن الصعب أن ننسب هذا الكتاب إلى جنس أدبي معين. فلا هو شعر غنائي ولا ملحمة ولا نص سياسي بل هو مزيج من كل هذا. ويدور مضمونه حول الحملة الفاشلة التي قام بها الأمير إيجور ضد شعب الكومان وانتصاراته في البداية ثم هزيمته ووقوعه في الأسر. ثم يبدأ الجزء الثاني من الكتاب، والذي هو عبارة عن استطراد طويل غنائي أو ربما خطابي يتحدث فيه المؤلف عن أمير كييف العظيم الذي يحلم بكابوس يرمز إلى حدوث مأساة لإيجور. ثم يتوجه المؤلف بالحديث إلى جميع الأمراء الروس واحداً تلو الآخر بدءاً من سوزدال إلى جاليتسي ويدعوهم جميعاً للتدخل وإنقاذ إيجور. ثم ينتقل المؤلف إلى الجزء الثالث من الكتاب، ويحكي فيه عن هروب إيجور من الأسر ويتحدث أيضاً عن نجاحاته الأولى ومن ثم هزيمته. وتتطابق الأحداث في الكتاب مع كل ما جاء في كتاب تاريخ دولة كييف.

وتُعد ملحمة «حملة الأمير إيجور» الأثر الأدبي الوحيد من الأدب الروسي القديم الذي يندرج بين كلاسيكيات الأدب الروسي. ولا يوجد شخص مثقف في روسيا إلا وقرأه ناهيك عن المتخصصين في الأدب والشعر. وبطبيعة الحال هناك فارق في المستوى بين الشعر الموجود فيه والشعر الكلاسيكي الروسي في عصر بوشكين مثلاً، إلا أنه لا يمكن أن نعتبره شعراً سيئاً. فإذا كان بوشكين شاعراً كلاسيكياً عظيماً، فإن مؤلف هذه الملحمة أستاذ بارع في الشعر الرمزي والرومانسي.

انتشرت كتب حياة القديسين، واعتبرت أشهر أنواع الأدب في حينها. وكان المؤلفون عادة من أصحاب الصيت الذائع والمكانة العالية، وكان الناس يتناقلون هذه الكتب ويعيدون نسخها وقراءتها. ولعل أهمها «قراءة في حياة واستشهاد يوريس وجليب» و«حياة الأب فيدوسي» في بدايات القرن الثاني عشر.

وعادة ما كانت قصص حياة القديسين، تكتب على يد أصدقائهم المقربين بعد وفاة القديس مباشرة. وأحياناً يقومون بذلك في حياتهم ولكن بعد أن يتولوا المنصب الكنسي الرفيع. وكان الهدف من كتابة هذه السير التعريف بحياة القديس، وذكر كراماته ومآثره، وتخليد ذكراه؛ حتى تتعرف الأجيال التالية على هذه الشخصية العظيمة.

وقد تمت ترجمة بعض سير حياة القديسين الأولى من اليونانية إلى الروسية ومنها «حياة أنطونيوس العظيم» و«حياة ألكسي الإنسان الرباني» وغيرها. وكان هذا الكتابان بمثابة اللبنة الأولى في تطور هذا الجنس الأدبي القديم. ومن سمات هذا النوع من الإبداعات أن القاص يتحدث بضمير الغائب، وكانت تتكون من ثلاثة أجزاء مقدمة وسيرة حياة القديس ثم الخاتمة. وعادة ما يقوم المؤلف في المقدمة بطلب العفو من القراء على عدم مقدرته على الكتابة وعلى ضعف السرد إلخ. ودائمًا ما تحتوي الخاتمة على مديح للقديس، هذا المديح يكون على شكل قصيدة غنائية نثرية. ويتطلب هذا النوع من الكتب الالتزام بتصوير البطل بطريقة معينة تتمثل إما في النقد الشديد أو المديح الشديد. فالشهير هو دائمًا الإنسان السلبي في الحياة، أما القديس فهو دائمًا الإنسان الإيجابي. ويختلف هذا الجنس الأدبي «حياة القديسين» عن السير العادية، ففي الأول لا يشترط حدوث تطور في العمر أو في شخصية البطل. فالقديس ثابت. هو قديس من لحظة ميلاده وهو مختار من الله.

ويسعى مؤلف هذا النوع من الكتب إلى استبعاد كل السمات الفردية في شخصية القديس، وهو لا يعكس الواقع المحيط بقدر ما يفرض على هذا الواقع مثله ومبادئه. وتأثرت هذه الكتب عن حياة القديسين بالحكايات الشعبية والفلكلور عمومًا.

أما أسباب ظهور هذا النوع من الكتب، فهي التعرف على ترجمات لكتب سير حياة القديسين البيزنطية، وكذا كتب الأساطير، وهو ما أثار لدى المثقفين الروس حينها السعي لتجربة مهاراتهم في هذا النوع من الكتابة.

ومن السمات المميزة أيضًا لسير حياة القديسين التجريد، حيث يتجنب المؤلف التحديد والدقة وسرد التفاصيل التي يمكن أن تشير إلى فردية الحدث أو المواقف. وهو أمر متعمد من جانب المؤلف، حيث يسعى لدراسة حياة القديس خارج سياق الزمن والمكان إلى اللازمان واللامكان؛ ولذا من المعتاد إسقاط الأسماء وتسميتهم بمكانتهم الاجتماعية، وإسقاط المواقع الجغرافية والتواريخ

المحددة وغيرها.

وقد استمر هذا الجنس في التطور في القرن الثالث عشر، وشهد التزامًا صارمًا من المؤلفين بقواعد هذا الجنس الأدبي إلا أنه كثيرًا ما فرضت الأحداث السياسية والتاريخية على المؤلف أن يضطر إلى الخروج عن تلك القواعد، ويسهب في وصف الأحداث التاريخية والواقع المحيط والأحداث الواقعية في حياة البطل. فقد أضافت الحياة الواقعية لجنس سير حياة القديسين نوعًا من الحيوية والتنوع الأدبي وعنصر التشويق في المضمون. وأصبحت هذه الكتب أقرب إلى الأدب الاجتماعي والتاريخي العلماني.

ومن أهم الأعمال التي صدرت خلال القرن الثالث عشر «قصة حياة ألكسندر نيفسكي» والتي تصور الأمير والقائد العسكري ألكسندر نيفسكي بصفته محاربًا من أجل العقيدة الأرثوذكسية ويستشهد في سبيلها.

ويُعد ألكسندر نيفسكي من الأبطال البارزين في التاريخ الروسي، وتولى إمارة منطقة نوفجورود بين عامي ١٢٣٦ - ١٢٥١م، ثم تولى إمارة فلاديمير من ١٢٥٢ - ١٢٦٣م، وقاد حروبًا شرسة ضد المحتلين الألمان والسويديين، وقد اعتمد هذا القائد على حب شعبه من البسطاء، واستفاد من دعمه في حماية الأراضي الروسية من الأعداء.

ويرى النقاد أن «قصة حياة ألكسندر نيفسكي» تنتمي إلى جنس السير الغيرية، ويهدف الكتاب إلى إظهار أنه ورغم خضوع الإمارات الروسية إلى المغول والتتار، فقد بقي في روسيا أمراء قادرين على مواجهة الأعداء.

كيف حكى الروس عن رحلاتهم؟

لعبت كتب الرحلات أيضًا دورًا كبيرًا في تطور الأدب الروسي القديم. فقد بدأ الروس رحلاتهم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين بعد دخول المسيحية رسميًا، وتحولت هذه الكتب إلى نافذة للإبداع وإظهار المقدرة على البلاغة في الوصف. ونذكر منها كتاب «حياة ورحلة حج رئيس الدير دانيال من أراضي روسيا» وهو لمؤلف مجهول سافر إلى الأراضي المقدسة في الفترة ما بين ١١٠٦ - ١١٠٨م ونقل من خلال كتابه انطباعاته عما رآه في تلك البلاد ووصف مدينة القدس ونهر الأردن والأماكن المقدسة. وينتمي الكتاب إلى حد ما إلى جنس يوميات الرحلة.

وفضلاً عن هذا الكتاب فإن كتب سرد الأحداث التاريخية المهمة تعتبر أكثر الكتب والآثار الأدبية انتشارًا في تلك الفترة. ويمثل هذا الجنس الأدبي سمة مميزة للأدب في فترة دولة كييف. والذي استمر حتى القرن السابع عشر. وكان المؤلفون في البداية من الرهبان ثم الكُتّبة الرسميين. وهناك مجموعتان من كتب السرد التاريخي تغطي فترة دولة كييف، أولها يتناول الفترة من نشأة الدولة الروسية حتى عام ١١١٦م. ثم هناك مجموعة كتب تاريخ كييف، وتتناول الفترة من ١١١٦م

إلى ١٢٠٠م. ويتناول الكتاب الأول تاريخ السُّلاف وأصولهم، ثم انتشأهم في أصقاع روسيا وأوروبا وعاداتهم. كما يسرد الكتاب الأحداث التي وقعت في نهاية القرن التاسع وخلال القرن العاشر الميلادي. وينتهج الكتاب أسلوب التسلسل الزمني لسرد الأحداث من القديم للحديث. وفي أثناء ذلك يستخدم المؤلف الحكايات والأساطير الشعبية والتقليدية، ما يمنح الكتاب جاذبية وتشويقاً. وكان الكتاب الثاني أقل جودة وإتقاناً غير أنه يبقى مرجعاً وأثراً مهماً وأساسياً. ويتناول نضال الأمير إيزياسلاف الثاني للوصول إلى عرش كييف في الفترة من ١١٤٦ - ١١٥٤م. وتتكشف من خلال الكتاب حياة الطبقة العسكرية الروسية، والكتاب يفوح بالروح العسكرية والتعطش لتحقيق النصر والفوز بالشرف العسكري في ساحات القتال، ويتميز بالحيوية في السرد؛ ولذا يُعد هذا الكتاب من روائع الأدب التاريخي في فترة دولة كييف؛ حتى إنه يتفوق على كثير من الكتب التي ظهرت لاحقاً في القرون الوسطى.

وهكذا يمكن القول إن أصول وجذور الأدب الروسي القديم تتأرجح بين الديني والتاريخي وتتسم بإعلاء القيم الروحية والدينية والأخلاق والمثل. كما أنها تدعو إلى إذكاء الروح الوطنية، والدعوة لخدمة الوطن والأرض الروسية.

الباب الثاني
تطور الأدب الروسي عبر السنين



شهد القرن الثامن عشر في روسيا سيطرة تيار الأدب الكلاسيكي، وهو اتجاه محافظ يلتزم فيه الأديب بالتقاليد والقواعد التي وضعها من سبقوه. وقد ظهر هذا الاتجاه في روسيا بعد التحولات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥م)،

الوقت الذي قام فيه الشاعر والعالم الكبير ميخائيل لومونوسوف بإدخال كثير من التعديلات والإصلاحات في نظم الشعر الروسي حتى يقرب بين القواعد الفرنسية الكلاسيكية واللغة الروسية. وتطور الاتجاه الكلاسيكي في روسيا تحت تأثير فكرة التنوير التي سادت تلك الفترة، حيث انتشرت أفكار المساواة والعدالة حتى مثلت بؤرة اهتمام الكُتّاب الكلاسيكيين. ومن أهم سمات هذا الاتجاه التزام الأديب بالقواعد الصارمة التي تميز جنس أدبي ما. كما كان هؤلاء الكُتّاب يختارون الموضوعات المرتبطة بالتاريخ والثقافة والفلسفة والفنون في اليونان وروما القديمة. وعادة ما كان يتم تصوير كل ما يرتبط باليونان القديمة وروما القديمة بكونه مثلاً يُحتذى ونموذجاً للجمال ينبغي تقليده؛ ولذا كان من المسموح للأديب سواء الشاعر أو الناثر أن يختار من بين موضوعاته المسائل والقضايا الأبدية في الحياة أو التي لا تتعرض للتغيير وأهمها القضايا الفلسفية. وقد أكد الاتجاه الكلاسيكي في الأدب الروسي على هرمية الأجناس الأدبية، حيث تم تصنيفها إلى نوعين: «الأجناس العليا» - كالمحمة والقصيدة الغنائية والتراجيديا و«الأجناس الدنيا أو السفلى» كالكوميديا والسخرية والحكاية الرمزية. كما لم يكن يسمح بالمزج بين الأجناس الأدبية في عمل واحد، وكان كل منها يلتزم بالقواعد الصارمة التي أرساها السابقون.

وقد قام الشاعر لومونوسوف بوضع نظريته في اللغة الروسية الفصحى مستفيداً من خبراته ومعرفته بعلم البلاغة اليوناني واللاتيني. ومع الدعوات التي أطلقها روسو للكُتّاب الكلاسيكيين للاقترب من الطبيعة وتصويرها ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر آراء تدعو إلى الكتابة عن

المشاعر الرقيقة والأحاسيس المرهفة وأطلق على هذا التيار الجديد - السنتمنتالية. وقد أطلق على هذا الاتجاه الجديد - اتجاه ما قبل الرومانتيكية. وازدهر هذا التيار بداية في الأدب الألماني وتحديداً في أعمال جوته وشيلير.

شهد عصر بطرس الأول أو الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥م) تغلغل الثقافة الأوروبية إلى روسيا حتى مست كل مجالات الثقافة خاصة بين نخب المجتمع الروسي. وتعلم الروس الكثير في الغرب إلا أنهم لم يقبلوا كل ما هو أوروبي، بل انتقوا ما هو ضروري بالنسبة إليهم من روائع الثقافة الأوروبية.

وشهدت اللغة الروسية أيضاً في تلك الفترة بعض التغييرات والظواهر المهمة. حيث لم تستطع روسيا القديمة صياغة لغة وطنية موحدة ولغة قادرة على التعبير عن كافة أنماط الاستخدامات اللغوية ومتطلبات الحديث. وكانت فترة حكم بطرس الأكبر بمثابة انقلاب وتحول مهم في اللغة كونها شهدت توحيد عناصرها التي بدت في السابق متفرقة ومتباينة. وكانت هذه التحولات قد بدأت في القرون السابقة، ولكنها كان تسير ببطء شديد، أما الآن فأصبحت الوتيرة متسارعة.

وقد جعلت حكومة بطرس الأكبر على رأس أولوياتها الإسراع بإرساء الأفكار التنويرية ونشر الثقافة في المجتمع الروسي. حيث قرر القيصر منذ السنوات الأولى لحكمه إرسال وفود من الطلاب الروس إلى أوروبا. كما أن ذلك وحده لم يكن كافياً لحل مشكلة توفير الكوادر المؤهلة؛ ولذا قام بطرس الأكبر بتأسيس مدارس فنية غير دينية جديدة في روسيا. وكانت المدارس الفنية هي الأكثر انتشاراً بين أنواع المؤسسات التعليمية في روسيا في تلك الفترة. وكان لهذه المدارس دور ليس فقط تعليمي بل وثقافي تنويري أيضاً. وقامت المدارس بدور كبير في نشر ثقافة التعلم بين الروس. لم يكن التعليم فيها كنسياً لاهوتياً كما كان في السابق عادة، ولم يقتصر التدريس فيها على علوم الخطابة والمنطق والفلسفة بل كان التركيز على معرفة العالم المحيط والدعاية للمعارف الحقيقية حول الطبيعة والمجتمع، وكل ما توصل إليه العلم في تلك الفترة.

وكان للصحافة دور مهم في تلك الفترة، حيث قامت بالدعاية للثقافة والسياسة التي تبناها بطرس الأكبر. وبلغ عدد الإصدارات والكتب التي صدرت في فترة حكم بطرس الأكبر أكثر من ستمائة كتاب ومطبوعة. ولم يصدر خلال حكمه أي عمل أدبي تقريباً حيث لم تكن هناك موارد مادية كافية لذلك، كما لم يكن لدى القيصر الإصلاحية وقت لذلك. ومن أمثلة الكتب المنشورة في تلك الفترة الكتب التعليمية في الهندسة والجغرافيا والرياضيات عموماً والشئون العسكرية. كما كانت هناك ترجمات لكتب في التاريخ وأمهات الكتب في القانون. كما نشر كتاب «حكايات إيسوب» عدة مرات ليس بوصفه عملاً أدبياً بل كدليل إرشادي وتهذيبي لمبادئ الأخلاق، كما نشرت كتب في الأدب الاجتماعي لبعض المؤلفين الروس.

أراد بطرس الأكبر بذلك أن يستطيع الروس الإلمام بعبادات وقواعد السلوك وطريقة الحديث

وحسن المظهر؛ ولذا فقد أمر بإصدار كتب إرشادية خاصة بذلك. وفي عام ١٧١٧م صدر للمرة الأولى كتاب عن قواعد السلوك والأدب في الحديث. ويشرح المؤلف في الكتاب كيف يجب التحدث مع الأكبر سنًا، وكيف يجب أن يسلك الفرد في المجتمع وفي تعامله مع الناس، وكيف يجب أن يتصرف الشاب في مقتبل عمره.

من بين إنجازات بطرس الأكبر إصدار الصحيفة الأولى في روسيا «الأخبار» في عام ١٧٠٣م. وهي السنة التي ولدت فيها الصحافة الروسية. ونشط الأدب الاجتماعي وصحافة الرأي في الدعاية للإصلاحات التي يقوم بها بطرس الأكبر والحروب التي خاضها، ومناهضة كل الأشكال ونماذج التفكير القديم، وأنماط الحياة القديمة، وإلى مساعدة الناس على استيعاب وفهم فكرة ومغزى سياسة القيصر.

وكان الربع الأول من القرن الثامن عشر فترة ازدهار للأدب الاجتماعي وصحافة الرأي. وقد عبرت هذه الصحافة ومقالات الكتاب عن الصراع الدائر حول جدوى الإصلاحات التي يقوم بها القيصر. ونظرًا لأن مقدرات الصحافة كانت بيد الحكومة فإنها كانت في أغلبها تؤيد هذه الإصلاحات وتلك السياسة وتدافع عنها وتشرح أهدافها وإيجابياتها. غير أن رد الفعل المعارض من جانب الكنيسة وقتها لم يعدم الوسيلة للتعبير عن نفسه أيضًا من خلال المقالات الصحفية. وقد اشتهر حينها رجل دين يدعى ستيفان يافورسكي راعي إحدى الكنائس بكتابة مثل هذا النوع من المقالات. وكان كاتبًا بارعًا وموهوبًا غير أنه عارض السياسة الإصلاحية لبطرس الأكبر.

على الجانب الآخر كان فيوفان بروكوبوفيتش من مناصري بطرس الأكبر، وهو أحد أكثر الكتّاب الموهوبين في عهده، وأشهر الأدباء في بدايات القرن الثامن عشر. وُلد عام ١٦٨١م وتوفي عام ١٧٣٦م. وكان رجل دين وراهبًا ذكيًا، تلقى تعليمه في كييف وفي إيطاليا؛ ولذا فقد تخطت قدراته واهتماماته حدود رجل الدين العادي. وأيد هذا الرجل المساعي التي يقوم بها القيصر لإرساء الأفكار التنويرية الأوروبية.

وفضلاً عن كتاباته الدينية كان أديبًا موهوبًا وشاعرًا قديرًا، وكانت أشعاره محاكاة لتقاليد الشعر الأوروبي عصر النهضة. وأثناء إقامته في كييف ألف دليلًا إرشاديًا في تعليم البلاغة وكتابة الشعر. وصدر الكتاب باللغة اللاتينية. كما قام بدراسة المنهج الكلاسيكي في الأدب القديم. وفي عام ١٧٠٥م كتب الكوميديا - التراجيديا الشعرية «فلاديمير» والتي يصور فيها تعميد روسيا القديمة ويصور القيصر بطرس الأكبر بوصفه مصلحًا كبيرًا ويهجو ساخرًا كل المعارضين للإصلاحات ويصفهم بالحمقى البربريين بما فيهم الإدارة الدينية في عهده. كما قام بروكوبوفيتش بكتابة مباحث في العقيدة وإرشادات تربوية جمعها في كتابه «التعاليم الأولى للشباب» بالإضافة إلى مقالات تاريخية وخطب. وقد استخدم الكثير من البديع والعناصر البلاغية في مقالاته وخطبه واشتهر بالسخرية من أعداء الإصلاحات.

كما كرس مجموعته الشعرية الغنائية «أبينيكون» (١٧٠٩) أيضًا للدعوة لبطرس الأكبر وإنجازاته وخاصة انتصاراته على السويديين في موقعة بولتافا. وبعد وفاة بطرس الأكبر تعرض لصدمة كبيرة حيث انهالت عليه الأزمات المادية والتقليل من شأنه، وكتب عدة قصائد تناول فيها الوضع المأسوي لأفضل رجال روسيا في عصر الرجعية ما بعد بطرس الأكبر.

لقد بعث النشاط التنويري الذي قام به بطرس الأكبر على إحياء الطاقات الإبداعية لدى الشعب. لم تشهد فترة حكم بطرس الأكبر إصدار أعمال أدبية كثيرة، إلا أن هناك مجالًا استرعى اهتمام القيصر والمحيطين به ألا وهو المسرح. كان المسرح وسيلة ناجحة للدعاية لإنجازات بطرس الأكبر وثورته الثقافية الجديدة. لم يكن يتطلب مستوى تعليمي وثقافي عالٍ من الجماهير، كما كانت أسعار التذاكر منخفضة وفي متناول الجميع. كما ازدهر المسرح الروسي بفضل المسرحيات المترجمة من الإنجليزية والألمانية.

وازدهر الشعر الغنائي أيضًا في النصف الأول من القرن الثامن عشر وأصبح جنسًا أدبيًا جماهيريًا في النصف الثاني. وتميز الشعر الغنائي الروسي في تلك الفترة بقربه من ناحية الأسلوب والمضمون من الدراما الشعرية في تلك الفترة وخاصة «المونولوج - الآريا» حيث كان أبطال المسرحيات يحكون عن مشاعر الحب الخاصة بهم. كثر استخدام مونولوجات الحب تلك في المؤلفات النثرية في النصف الأول من القرن الثامن عشر.

وربما تمثل القصص أهم الظواهر المميزة للأدب الروسي في عصر بطرس الأكبر. وقد وجدت انتشارًا واسعًا على غرار المسرحيات المترجمة. واختلفت تمامًا عن المؤلفات القصصية في القرون السابقة حيث تضمنت آفاقًا جديدة ومجالات أوسع وكشفت عن قدرات وإمكانات أكبر لدى الإنسان الروسي. نلاحظ فيها أن الإنسان الروسي لم يعد ذلك الشخص الانطوائي المنغلق على نفسه في فضاء ضيق وإرث روسي روحي قديم بل أصبح شخصًا أوروبيًا بكل معنى الكلمة.

وقد شاع في تلك الفترة ترجمة وحتى إعادة كتابة القصص الأجنبية العلمانية. وانتشرت قصص المغامرات التي تحكي عن مختلف التجارب الغربية وحتى الخيالية التي يقوم بها أبطال يثيرون الإعجاب هائمون في الحب وشجعان يجوبون البلاد وينتقلون من بلد إلى آخر، وعادة ما تنتهي القصة بزواج البطل من محبوبته.

واستفاد الروس من التجارب الغربية في كتابة روايات المغامرات وأبدعوا قصصًا روسية، وأعادوا كتابة بعض الأعمال الغربية بنكهة ومذاق روسي، وأضافوا إليها مضامين وتفصيل من البيئة الروسية. والقاسم المشترك في جميع هذه القصص شخصية البطل الجديد الشاب الروسي الذي فتحت إصلاحات القيصر بطرس الأكبر أمامه آفاقًا جديدة وعالمًا بأكمله، واندفع هذا البطل الجديد ليكتشف هذا العالم وينهل منه. لم تعد الأمور الروحية تشغل أبطال تلك الفترة ولا نجد بينهم

من يتحدث عن الصلاة أو العبادة والطقوس. هكذا نجد جميع أبطال القصص الروسية في عصر بطرس الأكبر متعطشون للحرية في الاستفادة بقدراتهم وإمكاناتهم. هؤلاء يسعون للسفر إلى الغرب حيث فضاء أرحب، وحيث لا قيود روحية أو ترتبط بإرث تاريخي قديم. هو البطل النموذج والمثل للإنسان الجديد، شخص ماهر يتقن الغناء والعزف وقرض الشعر. شخص لا ترهبه المخاطر أو المغامرات. بل يرى فيها بعد ما عانى من سنوات ركود حياتية طويلة حلمًا رائعًا وبعيدًا بدور ناصع ونشط ومفعم بالإرادة.

وكانت هناك قصص من نوع آخر تعنى ليس بالمغامرات التي يقوم بها الأبطال بل بمشاعرهم ومعاناتهم النفسية العميقة وخاصة مشاعر الحب. وتدعو هذه القصص إلى تعظيم نموذج الشخص النبيل المستنير متكامل الشخصية، كما تدعو إلى إعلاء مبادئ الإخلاص واحترام المشاعر الجادة. وهكذا طرحت هذه القصص نموذجًا جديدًا لشخصية الرجل الغني أو النبيل؛ ولذا فقد نالت شهرة واسعة، وكانت جد مهمة في تاريخ الأدب الروسي، حيث قدمت أول نماذج للتحليل النفسي، وجذبت الاهتمام إلى شخصية الإنسان، ونذكر منها على سبيل المثال قصة «حكاية الاسكندر. النبيل الروسي»

وهكذا انعكست في القصص والشعر الغنائي العاطفي في عصر بطرس الأكبر التطور الثقافي والأخلاقي الذي عاشه المجتمع الروسي والذي كان نتاجًا مباشرًا لما قام به القيصر والإصلاحي الروسي الكبير بطرس الأول.

ويمكن القول إنه وعلى الرغم من ارتباط الأدب الروسي في حقبة بطرس الأكبر بما سبقه فإن تلك الفترة قد شهدت تحولًا كبيرًا في تاريخ الأدب الروسي، حيث ولَّى وجهه تمامًا نحو الغرب و طرح مبادئ ومُثلاً علمانية دنيوية وبشرية. وضع الأدب الروسي في تلك الفترة حجر الأساس لثقافة روسية من نوع جديد ومرحلة جديدة ودشن لتقاليد ساعد في إرسائها العالم الروسي الشهير ميخائيل لومونوسوف، وتوجتها إبداعات الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين.

يُعتبر القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي في الأدب الروسي، حيث أصبح أدبًا عالميًا بامتياز. ولا ريب أن ازدهار الأدب الروسي في تلك الفترة يرجع إلى النجاحات والإنجازات الأدبية التي تحققت خلال القرنين ١٧ - ١٨م. شهد هذا القرن تشكل اللغة الروسية الفصحى، وكان للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين الفضل الأكبر في ذلك.

ظهر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عدد من المبدعين الذين ينتمون إلى التيارات القديمة أو المنظومة الكلاسيكية، حيث استخدم لغة راقية وشيوع بعض الألفاظ الكنسية السُّلافية. وفي الوقت نفسه شهدت تلك الفترة ميلاد تيارات جديدة ترى أن اللغة الفصحى يجب أن تعتمد اللغة الدارجة أساسًا ومنطلقًا لها.

وشهدت هذه السنوات أيضًا ازدهار تيار السينتمنتالية وإرساء قواعد تيار الرومانسية. وبدا ذلك واضحًا جليًا في إبداعات الشعراء الروس ي. باريتينسكي وك. باتيوشكوف وف. جوكوفسكي وف. تيوتشيف. في حين أن ألكسندر بوشكين يبقى الشاعر الأعظم بين شعراء هذا القرن والأدب الروسي بشكل عام. ومن بين الأجناس الأدبية الجديدة شاعت الرواية بأشكالها المختلفة بما فيها روايات المغامرات والرواية الشطارية أو البيكارسكية، وهذه الأخيرة تتناول عادات وتقاليد الطبقات الدنيا في المجتمع ومغامرات الشطار ومحنهم ومخاطراتهم؛ ولذا فهي غالبًا ما تكتب بصياغة سيرة روائية واقعية. كما شهدت القصة الرومانسية تطورًا وأخذت أطرها تتضح يومًا بعد يوم.

كما أن البلاد أو الأغنية التي تحكي قصة وكذلك القصائد الغنائية كانت الأجناس الأكثر شيوعًا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، واعتبرت من أهم السمات المميزة للرومانسية. ويطلق على هذه المرحلة في الشعر الروسي أحيانًا «العصر الذهبي للشعر الروسي»



يُعتبر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) أشهر الشعراء الروس وأميرهم. وهو الجسر الذي يتوجب على كل أديب روسي عبوره حتى ينال الشهرة والمجد. امتلك بوشكين موهبة نادرة متنوعة. ونلمح في إبداعاته سمات تيارات الكلاسيكية والواقعية والرومانسية. وقام بتطوير كافة الأجناس الشعرية والنثرية في كتاباته. ويتميز أسلوب بوشكين باستخدام الأشكال الكلاسيكية البسيطة.

ويُعد بوشكين مؤسس اللغة الروسية الفصحى المعاصرة. فقد نحى جانبًا كل الألفاظ الدخيلة أو القديمة، واستخدم اللغة الدارجة أو العامية استخدامًا راقياً ليثري بها اللغة الفصحى. قضى بوشكين حياته في خلاف مع القيصر، وتم نفيه بسبب مواقفه السياسية ومات إثر إصابته في مبارزة مع ضابط فرنسي.

ومن أشهر أعماله «روسلان ولودميلا»، كما أطلق على روايته الشعرية «يفجيني أونيجين» موسوعة الحياة الروسية. ومثلت أعماله «الفارس النحاسي» و«نافورة الدموع» و«العجر» تدشينًا لتيار الرومانسية الروسي.

وقد تأثر الكثير من الشعراء والكتّاب الروس بالشاعر بوشكين وفي مقدمتهم ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١). وحاول الشعراء التفكير في معني الحياة والدور الذي عليهم القيام به. واعتبر الشاعر حينها حاملًا للحقيقة الإلهية أو نبي. يدعو السلطة إلى الإنصات إلى نصائحه. وارتبط مصير الشاعر ميخائيل ليرمونتوف بمنطقة القوقاز حيث تم نفيه بسبب قصيدته «وفاة شاعر» والتي مدح فيها الشاعر ألكسندر بوشكين، وأعلن عن رفضه للنظام الاجتماعي القائم. وقد قتل ليرمونتوف في مبارزة ولقي نفس مصير أستاذه.

وبخلاف الشعر تطور النثر الروسي أيضًا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وبدا كتّاب النثر في تلك الفترة متأثرين بكتّاب الروايات التاريخية الإنجليز مثل والتر سكوت حيث شاعت في تلك الفترة ترجمات الأدب الإنجليزي في روسيا. وبدأت ملامح تطور النثر الروسي ظاهرة في الإبداعات الأولى المبكرة لألكسندر بوشكين ونيقولا يوجول. حيث رسم كل منهما ملامح وأطر

الأنماط الفنية الأساسية التي بقيت راسخة ومتكررة وباقية في أعمال الكتاب الروس طوال القرن التاسع عشر. ومن أهم هذه الأنماط شخصية «الإنسان البسيط» أو «الإنسان المهمش».

ورث الأدب الروسي في القرن التاسع عشر من القرن السابق له الطابع الاجتماعي والهجائي في الكتابة. ونلاحظ ذلك في أعمال نيقولاي جوجول حيث يتم تناول الواقع الروسي بنظرة ورؤية نقدية يفضح من خلالها الكاتب عيوب ومشكلات الواقع الروسي، وهي سمة أساسية في الأدب الروسي الكلاسيكي بشكل عام. ونجد هذه القضية مطروحة في كافة أعمال القرن التاسع عشر تقريباً. أما السمة المميزة للأدب الروسي عن غيره من الآداب فهو تناول هذا الواقع بلهجة ساخرة، يختلط فيه الضحك بالبكاء

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر برز بشكل لافت تيار الواقعية في الأدب والذي وضع بوشكين لبنته الأولى في أعماله.

ولعل الكاتب نيقولاي جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) أعظم كتّاب الواقعية في القرن التاسع عشر، ويعتبره الكثيرون بوشكين النثر الروسي. ويتميز جوجول بقدرة نادرة على الملاحظة والتغلغل في أعماق الظواهر الحياتية. ويعتبر مؤسس النثر التجريبي. ومنذ إبداعاته الأولى نلاحظ اهتمامه بالأحداث الغريبة وغير المنطقية وبتصرفات أبطاله. ويركز الأديب معظم اهتمامه على الأحداث التي تستدعي السخرية أو الأحداث الخيالية والسخف.

ومن أشهر أعماله «الأنفس الميتة» و«المعطف». وبعد عرض مسرحيته الشهيرة «المفتش العام» غادر جوجول روسيا إلى روما ثم إلى القدس. وقضى سنواته الأخيرة متأثراً بالغيبة الدينية في كتاباته.

وشهدت العقود التالية تطور التيار الواقعي في الأدب الروسي في ظل وضع اجتماعي وسياسي شديد التوتر عاشته روسيا في فترة حكم الإمبراطور نيقولاي الأول. حيث أخذت بوادر تداعي النظام الإقطاعي الذي سيطر على الحياة في روسيا لقرون، وبرزت التناقضات بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب. بدا أن هناك ضرورة ملحة في خلق نوع جديد من الأدب الواقعي الذي يتعامل بنوع من الحدة مع الوضع الاجتماعي والسياسي في المجتمع.

ومثلت إبداعات الناقد الروسي الكبير ف. بيلينسكي مرحلة جديدة في تيار الواقعية. ونشأ في تلك الفترة خلاف بين مجموعتين من الأدباء: الأولى أطلق عليها الكتّاب السُّلاف، والثانية - الأدباء المستغربون. وكان سبب الخلاف الأساسي هو رؤية كل مجموعة لسبل تحقيق تطور تاريخي في روسيا.

أصبح الأدباء يتناولون القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية في الواقع الروسي. وتطور جنس الرواية الواقعية بفضل إبداعات تورجينيف وتولستوي ودوستويفسكي وجونشاروف. وهيمن الطابع الفلسفي والسياسي والاجتماعي على معظم الأعمال الأدبية. كما تطور فن التحليل النفسي

في الأدب.

فيما كانت وتيرة تطور الشعر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أقل مقارنة بالنثر. إلا أن هناك شعراء بارزين في تلك الفترة أشهرهم نيكرا سوف.

كما شهدت الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي تيار المدرسة الطبيعية والتي أعلنت نفسها وريثًا للتيار الواقعي عند جوجول. وركز كتاب هذه المدرسة في أعمالهم على تصوير مختلف الأنماط الاجتماعية للأبطال على خلفية بيئاتهم المجتمعية. ولعل أبرز أدباء هذه المدرسة إيفان تورجينيف وفيودور دوستوفسكي.

وقد ساد تيار الواقعية في الأدب الروسي حتى تسعينيات القرن التاسع عشر. ويعتبر معظم مشاهير الأدب الروسي عالميًا من أبناء هذا التيار وبفضلهم أصبح القرن التاسع عشر عصرًا ذهبيًا في الأدب الروسي.

وشهدت الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تطور تيار الواقعية النقدية أو الواقعية الاجتماعية الفاضحة. ومن أبرز ممثلي هذا التيار الكاتب إيفان تورجينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣). وقد أولى هذا الكاتب في أعماله اهتمامه إلى مناقشة المشاكل الاجتماعية والسياسية الملحة في سياق غنائي عاطفي دقيق. ومن أهم أعماله روايته الشهيرة «آباء وأبناء» و«مذكرات صياد». ودائمًا ما نلحظ في كتاباته صراعًا محتدمًا بين البطل الذي يحمل أفكارًا جديدة عن العالم والمجتمع وبين أصحاب الرؤى المحافظة والتقليدية التي عفا عليها الزمن. وكثيرًا ما نجد البطل عنده ينتمي إلى طبقة الشباب الديمقراطي الثائر.

وفي السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر تفاعل الأدب مع التحولات الاجتماعية، واكتسب تيار الواقعية طابعًا فلسفيًا وجماليًا ونفسيًا. كانت تلك الفترة التي طرحت فيها القضايا الكبرى، وأخذ الأدب يبحث عن حلول لهذه القضايا التي ارتبطت غالبًا بالشرف والضمير الإنساني والقيم الحياتية، وحاول الأدب أن يجد مخرجًا ونجاة للإنسانية من مآسيها.

ومن أبرز كتّاب تلك الفترة فيودور دوستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) وهو كاتب عبقرى كان لأعماله أثر كبير على الأدب الأوروبي في القرن العشرين.

وقد عانى الكاتب نفسه من تجربة نفسية قاسية، حيث حكم عليه بالإعدام وتم استبدال العقوبة في آخر لحظة بالنفي. وكان أول من اهتم بالعالم الداخلي للإنسان وتحليل المشاكل النفسية الإنسانية، واستغرق في أعماق النفس البشرية وفي أدق تفاصيلها. ومن السمات المميزة لكتاباتهِ توفر موتيفات الأسرار والجرائم والأحلام والرؤى والشخصيات الشيطانية والهدى.

ويتعاطف دوستوفسكي بشدة مع معاناة الإنسان ويبرز الباعث الإنساني بقوة في كتاباته. ولكنه كاتب واقعي من الدرجة الأولى فهو وإن كان يحلم بأن يحل العصر الذهبي للإنسانية يومًا ما، إلا أنه يعي ويثق تمامًا أن الإنسان غير قادر على خلق النموذج المثالي للعالم.

أما أبطال دوستويفسكي فهم أناس يعانون من مصير مأساوي عادة، وتتغير طباعهم بفعل تأثير الظروف والعوامل المحيطة بهم. ويجسد كل منهم نمطاً معيناً من علاقة الإنسان بربه. ويضع الكاتب أبطاله دومًا أمام خيار صعب بين الخير والشر. ومن أهم أعمال دوستويفسكي روايته «الأخوة كارامازوف» و«الجريمة والعقاب» و«الأبله».

ومن عظماء تلك الفترة أيضًا الأديب الكبير ليف تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠)، وهو كاتب ينتمي للطبقة الأرستقراطية الروسية، وقد اختلف منذ شبابه عن أقرانه من النبلاء وعرف بالطيبة في التعامل مع الفلاحين في ضيعته حتى إنه أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين العاملين لديه. ويشبه تولستوي دوستويفسكي في اهتمامه بالجانب النفسي لدى أبطاله، ويتميز بكونه أيضًا محللاً نفسيًا يستطيع سبر أغوار النفس البشرية بمهارة نادرة. كما يستطيع وصف ما تموج به النفس الإنسانية من مشاعر وتطور روحي. وقد جسد ذلك ببراعة في إبداعاته المبكرة حين كتب سيرته الذاتية الشهيرة في ثلاثة أجزاء. ويولي الكاتب اهتمامه ليس بالمضمون كأساس للسرد بل بكيفية تقبل السارد للأحداث المحيطة.

كما عرف تولستوي بانتقاده للأعراف الأخلاقية السائدة، ويؤكد في أعماله على ضرورة السعي لتحقيق الكمال الأخلاقي لدى الإنسان وضرورة ألا يواجه الشر بالعنف. أما أشهر أعمال تولستوي فهي رواياته العظيمة «الحرب والسلام» و«أنا كارنيينا».

وقد دشن كل من تشيخوف وأستروفسكي وليسكوف لآخر مرحلة في تطور الأدب الروسي في القرن التاسع عشر حيث شهدت السنوات الأخيرة تطور فن القصة القصيرة والمسرحية. ولعل أنطون تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) آخر الأدباء العظام في العصر الذهبي للأدب الروسي. وتمثل إبداعاته ختامًا للحقبة الكلاسيكية في الأدب الروسي.

وقد رفض تشيخوف الالتزام بالشكل الكبير للرواية، حيث بدأ حياته الإبداعية بكتابة القصص القصيرة وغالبها قصص ساخرة وفكاهية عن معاناة صغار الناس والمهمشين. ويتميز أسلوبه بالإيجاز وهو ما يذكر القارئ بسابقه بوشكين وجوجل، كما يتميز بطرح مشاكل عميقة على غرار سابقه تولستوي ودوستويفسكي.

وشغل الكاتب بعالم السجون، وسافر إلى جزيرة ساخالين حيث يوجد المعتقل الشهير، لدراسة حياتهم. وفي تلك الفترة أصبحت إبداعاته أكثر تعقيدًا وفلسفة وكأبة. ونذكر منها قصته الشهيرة «عنبر رقم ٦».

وبرع تشيخوف في كتابه المسرحيات التي تطرق فيها أيضًا إلى تحليل النفس الإنسانية ومعاناة الأبطال من حياة التي بلا معنى. ولعل أشهر مسرحياته: «الأخوات الثلاثة» و«بستان الكرز».

وشهد العقد التاسع من القرن الذهبي للأدب الروسي بداية انتشار الأفكار الثورية في الأعمال الأدبية. بدأ تيار الواقعية يخفت تدريجيًا، وحل محله الأدب القائم على الخيال الديني والموتيفات

الدينية والأعمال الأدبية التي تتوقع حدوث تغييرات اجتماعية وسياسية كبرى في المجتمع.



كما شهد ازدهارًا لطباعة الكتب وشيوعًا للقراءة بين الناس وولعًا بين الكثيرين بالكتابة للشعر والنثر. وأصبح الأدب والأدباء يحظون بنفوذ واسع في روسيا في تلك الفترة. وربما أدى ذلك في فترات متقطعة إلى صدام بين الأدباء والسلطة. وتم نفي عدد كبير منهم واعتقال الآخرين وطرد للبعض خارج حدود روسيا.

وتدريجياً اختفى أدب الخيال الديني وظهر جيل جديد من الأدباء عرف بجيل الكتّاب الرمزيين. وهو ما دشن لمرحلة وعصر جديد في الأدب الروسي سمي بالعصر الفضي.

«القرن الفضي» - هو المسمى لمرحلة مهمة في تاريخ الأدب الروسي، تبدأ في عام ١٨٩٠م وتنتهي مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين. كانت تلك السنوات بمثابة مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ الحياة الاجتماعية والأدبية في روسيا، وأصبح المجتمع يستشعر يوماً بعد الآخر حتمية حدوث أزمة اجتماعية طاحنة، وضرورة تغيير منظومة القيم القائمة.

عاشت روسيا في منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر نهضة هائلة في الاهتمام بالقضايا الروحية والاجتماعية، وانعكس ذلك في الفلسفة والأدب والفنون والموسيقى والمسرح والباليه، وسُمح للمعاصرين وقتها بالحديث عما يسمى «بالنهضة الروحية» في روسيا وعن بداية العصر الفضي في الأدب.

وبشكل عام اتسم الأدب في بداية القرن العشرين بالتركيز على القضايا الفلسفية، حيث اكتسبت أي قضية اجتماعية أو جانب منها أهمية روحية وفلسفية. وكان من أهم ملامح أدب تلك الفترة: تناول قضية معنى الحياة للإنسان الفرد وللإنسانية كلها، والتركيز على سمات الشخصية الوطنية والتاريخ الروسي، وسيطرة الدنيوي والسماعي على الموضوعات المطروحة، والبحث المكثف عن وسائل فنية للتعبير، واستخدام المناهج غير الواقعية في الأدب، والتفاعل بين الأجناس الأدبية، وإعادة التفكير في ماهية الأجناس الأدبية المختلفة، واستكمال ما ينقص كل منها من عناصر ومضامين.

وقد ظهرت في تلك الفترة عدة اتجاهات جديدة في الأدب، وأولها المدرسة الرمزية.

المدرسة الرمزية الروسية

تشكل هذا الاتجاه الأدبي في أوروبا الغربية في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. أما في روسيا فقد تأخر إلى التسعينيات من القرن نفسه. وكان يطلق عليه حينها «الفن الجديد». ويستمد هذا الاتجاه أفكاره الأساسية من النظريات الفلسفية لكانط الذي أسس نظريته الفلسفية عن العالمين: عالم الظاهر وعالم الجوهر. وهذا الأخير يقف أمامه العقل الإنساني عاجزاً. كما كان للنظريات الفلسفية لكل من نيتشه وشوبنهاور تأثيرها القوي أيضاً على الاتجاه الرمزي في الأدب. وفي روسيا يُعد الفيلسوف الروسي العظيم فلاديمير سولوفيف الأب الروحي لهذا الاتجاه. وكانت أولى المؤلفات الأدبية في الرمزية من نصيب الكاتب الروسي دميتري ميرجكوفسكي «الرموز» والكاتب ف. بريوسوف «الرمزيون الروس».

ويتحدث الكُتّاب الرمزيون الروس عن عالمين: العالم الواقعي والعالم الآخر الغيبي، حتى إنهم

اخترعوا كلمة بالروسية تعني هذه الثنائية. ويلعب الرمز دورًا مهمًا في هذا المنهج الأدبي حيث يستخدم كوسيلة ووسيط بين هذين العالمين. كما يلعب إدراك الإنسان أيضًا أهمية كبيرة، وكذا حسه الغريزي والذي يعتبر وسيلة لإدراك العالم الغيبي. ومن السمات المميزة أيضًا للرمزية الدور المهم الذي يلعبه الصوت، فالأصوات تمثل للشعراء والكتاب الرمزيين أهمية أكبر من أهمية الكلمة. ومن أهم الوسائل التي يستخدمونها والتي تعد الأكثر فاعلية للإيماءات والكلمات الغريبة. ويتناقض هذا الاتجاه بشكل تام مع الواقعية. وغالبًا ما يتمحور مضمون المؤلفات الرمزية حول الغيبيات والمفاهيم الفلسفية والمضامين المرتبطة بخيالات دينية. كما أن معظم الرمزيين هم من أنصار حرية الإنسان في التعبير عن مشاعره الدينية.

وبشكل عام ينقسم الاتجاه الرمزي الروسي إلى فترتين زمنيتين: الأولى تضم الجيل الأكبر من الكتاب الرمزيين، وهم ميرجكوفسكي ومينسكي ودوبروليوبوف وجيبوس وبالْمونت وسالاجوب وبريوسوف. أما الجيل الأصغر فقد أحدث تطورًا في هذا الاتجاه في بداية القرن العشرين، ويضم بلوك وبيلي وسولوفييف وإيفانوف.

وقد قام الرمزيون بتأسيس جمعيات أدبية وفلسفية خاصة بهم نذكر منها «الجمعية الدينية الفلسفية» و«الجمعية الأدبية الفنية» و«البعث» و«البرج» وغيرها.

مدرسة الذروة

بعد الضعف الذي أصاب المدرسة الرمزية ظهر اتجاه أدبي جديد في روسيا سمي بمدرسة الذروة. وكان الأدباء يطلقون عليها أيضًا اسم المدرسة «الأدمية» نسبة إلى أول إنسان على وجه الأرض. وظهرت هذه المدرسة في الفترة التي بدأ فيها الرمزيون يعانون من أزمة داخلية عميقة. وقد تجسدت في مبادئ المدرسة الجديدة تلك توجهات جمالية جديدة على العصر الفضي للأدب. ويرجع بداية ظهور كتاب الذروة إلى عام ١٩١٠م. وقد أسسها أعضاء جمعية «أكاديمية الشعر» الأدبية الفلسفية. ثم ما لبثوا أن قاموا بتأسيس جمعية خاصة بهم وأطلقوا عليها «ورشة الشعراء». ويُعد كل من نيقولاي جوموليوف وسيرجي جوروديتسكي هما مؤسسَي مدرسة الذروة الروسية. وقد ناصر كتاب الذروة الفلسفة البرجماتية أو فلسفة الفعل. ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها قبول التنوع في الحياة الدنيوية والاهتمام بعالم الأشياء المحيط ورفض الخيال الديني والغيبيات واستخدام النماذج التصويرية التعبيرية بكثرة والتعبير عن العالم النفسي الداخلي للإنسان والتعبير عن الشوق للثقافة العالمية والتركيز على معنى الكلمة والسعي إلى الوصول إلى الكمال في شكل القالب الشعري.

ومن بين ممثلي هذا التيار نذكر أنا اخماتوفا وسيرجي جوروديتسكي ونيقولاي جوموليوف وأوسيب ماندلشتام.

ظهرت المدرسة المستقبلية في نفس الفترة التي نشط فيها أدباء مدرسة الذروة. وتعود التسمية إلى كلمة futurum اللاتينية وتعني «المستقبل».

وتمثل هذه المدرسة اتجاهًا طليعيًا في الفن الأوروبي خلال العقدين الأول والثاني من القرن العشرين وخاصة في كل من إيطاليا وروسيا. ويسعى أدباء هذه المدرسة إلى صناعة «فن المستقبل» ويتنكرون لتراث الماضي تمامًا. ودعى المستقبليون إلى نشر جماليات الإنجازات البشرية الحديثة والاختراعات والمدن الصناعية الكبيرة والضخمة وجماليات الآلة والميكنة. ويُعد فلاديمير خلبينيكوف وفلاديمير ماياكوفسكي من أبرز ممثلي هذه المدرسة في الأدب الروسي.



ويتميز أدب هذه المدرسة بالجمع بين التوثيق والخيال، وكذا التجريب اللغوي وحرية اللعب بالألفاظ. ومثلما هو الحال في جميع اتجاهات ما بعد الحداثة، اتسم هذا الاتجاه بالتناقض الداخلي. فهناك منهم من سمى نفسه بالشعراء المستقبلين التكعيبيين (خلبينيكوف ومايكوفسكي وكامينسكي) وهناك من أطلق على نفسه «المستقبلين المتمركزين حول أنفسهم تمامًا» ومنهم سيفيريانين. كما ينتمي إلى هذه المدرسة شاعر روسي حصل لاحقًا على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٨م وهو بوريس باسترناك.

ودعت المدرسة المستقبلية إلى ثورة في الشكل بصرف النظر عن المضمون وإلى الحرية المطلقة في اختيار اللفظة الشعرية ورفض كل التقاليد الأدبية. ويتضمن البيان المعلن من قبل المدرسة، ويحمل عنوان «لظمة للذوق العام» ١٩١٢م، دعوات «لرمي» كل من بوشكين ودوستوفسكي وتولستوي من «قارب الحياة المعاصرة». غير أنهم في الأمر الواقع لم يلتزموا بهذه المبادئ تمامًا. في البداية قام الأدباء المستقبليون بالفعل بإعلاء الشكل على المضمون حيث أصبح هدفًا بالنسبة للشاعر وعنصرًا أساسيًا في العمل الشعري، وكانوا يرفضون كتابة أي قصيدة تحمل فكرة.

وقد دعى منظر المدرسة المستقبلية الروسية فلاديمير خلبينيكوف إلى فكرة أن اللغة التي ستسود العالم في المستقبل هي «لغة ما وراء العقل»، حيث تخلو الكلمة من المعنى وتكتسب جمالاً ذاتياً. وقد ابتكر خلبينيكوف كلمات جديدة واشتقاقات غير تقليدية لجذر الكلمة في محاولة منه لتوسيع حدود اللغة وإمكاناتها.

المدرسة التصويرية الروسية

أثرت المدرسة المستقبلية بشكل كبير على المدرسة التصويرية الروسية، ويرجع أصلها إلى الكلمة اللاتينية image أو صورة. وهو اتجاه أدبي في الشعر الروسي في القرن العشرين. وأعلن ممثلو هذا الاتجاه أن الهدف من الإبداع يكمن في صناعة النموذج والصورة، وتلعب فيها الاستعارة دوراً كبيراً.

وترجع بدايات هذا الاتجاه إلى عام ١٩١٨م عندما تأسس في موسكو «وسام التصويريين». أما مؤسسو هذا الاتجاه في روسيا فهم أناتولي مارينجوف وفاديم شيرشينيفيتش وسيرجي يسينين. وفي العشرينيات أصبح المذهب التصويري أكثر تنظيمًا حيث قام الأدباء بتنظيم أمسيات إبداعية ومقاهٍ فنية وإصدار الدواوين الشعرية. وتم إصدار مجلة خاصة بهم. كما قام التصويريون بتأسيس دور نشر خاصة بهم.

كما نشط شعراء هذه المدرسة في مدن أخرى كلينجراد (سان بطرسبورج) وكازان وسارانسك وغيرها. ونشط ممثلوها في إلقاء المحاضرات والمشاركة في مختلف الفعاليات العامة. وقد امتدت حياة المدرسة التصويرية أكثر من غيرها من الاتجاهات الأدبية في روسيا في العصر الفضي للأدب، حيث استمر هذا الاتجاه حتى عام ١٩٢٥م. حيث هاجر البعض إلى الخارج فيما توجه البعض الآخر إلى النثر حتى يضمن كسب المال والعيش وكذا كتابة المسرحيات وقصص للسينما. وكان أكثر النهايات مأساوية هي نهاية الشاعر المؤسس للمدرسة التصويرية في روسيا سيرجي يسينين والذي مات منتحرًا في عام ١٩٢٥م بمدينة سان بطرسبورج.

المدرسة الواقعية الروسية



اتحد الكُتاب الواقعيون الروس في بداية القرن العشرين في جمعية أدبية واحدة ضمت

كلاً من كوبرين وتيليشيف وأندرييف وفيريسايف وغيرهم. كما ترأس ماكسيم جوركي جمعية أخرى تسمى «المعرفة» تولت نشر مؤلفات الكتاب الواقعيين والعمل على الارتقاء بتقاليد الأدب الديمقراطي الثوري الذي ساد في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر.

ماكسيم جوركي

وأثار جوركي في كتاباته قضايا التطور التاريخي للمجتمع ودور الإنسان الفعال والمؤثر في ذلك. ومثال ذلك رواية «الأم» حيث تتجسد بجلاء التوجهات الاشتراكية لدى الكاتب».

كما سعى شباب الكُتاب الواقعيين من أمثال يفجيني زامياتين وألكسي ريميزوف وغيرهم إلى ضرورة المزج بين مبادئ الواقعية والحداثة، وقدموا ذلك في أعمالهم.

وفي الأدب الروسي يعتبر العصر الفضي استمراراً للاتجاهات الأساسية في أدب القرن التاسع عشر والتي طرحها بوشكين في بداية القرن الذهبي للأدب الروسي وقام دوستويفسكي فيما بعد بتطويرها. وأضحت قضية مصير روسيا وجوهرها الأخلاقي والروحي ومستقبلها الموضوع الرئيس في إبداعات الكُتاب المنتمين لمختلف الاتجاهات الفكرية والجمالية. وشهدت تلك الفترة تنامياً شديداً في الاهتمام بقضايا الشخصية الوطنية وخصوصية الحياة الوطنية والطبيعة ونفسية الإنسان. وكان لكل كاتب طريقته في تناول هذه المشكلات ورؤيته الخاصة لحلها سواء من الوجهة الاجتماعية أو التاريخية وخاصة كُتاب ما سمي بالواقعية النقدية.

وبشكل عام تمثل الثقافة الروسية في العصر الفضي نتاجاً لطريق طويل معقد ومأساوي في الوقت نفسه. وعلى الرغم من قسوة رد الفعل من جانب سلطات الدولة والقمع الذي مارسه ضد كل الأفكار التقدمية إلا أن هذه الثقافة بقيت تتميز ببعض السمات الخاصة بها وهي الديمقراطية والإنسانية والشعبية. ويمثل العصر الفضي في الأدب الروسي خاصة والثقافة الروسية عامة تراثاً ثرياً أسهمت فيه أجيال متعاقبة من المبدعين (الفلاسفة والأدباء والفنانون والموسيقيون) وتعتبر مخزناً لا يقدر بثمن للثقافة الروسية بشكل عام.

تعود أصول أدب المنفى في روسيا إلى بدايات القرن التاسع عشر، حيث كتب الأديب الشهير نيقولاي جوجول عن المصير الذي ينتظر بلاده وهو بعيد في المهجر. كما مر أدباء كبار مثل ألكسندر جيرتسين ونيقولاي أوغاريوف بتجربة النفي أيضاً، وكان للأديب إيفان تورجينيف الفضل في تعريف أوروبا بالأدب الروسي. غير أن موجات الهجرة التي تلت ثورة أكتوبر مثلت ظاهرة خاصة سواء من حيث الحجم أو السمات والأهمية التي لعبتها في تطور الأدب الروسي خاصة، والأوروبي بصفة عامة.

ويعتبر أدب المنفى أحد أهم مراحل تطور الأدب الروسي في القرن العشرين، وهو أحد فروع الأدب الروسي الذي ظهر بشكل بارز بعد استيلاء البلاشفة على السلطة في عام ١٩١٧م. وقد صدرت إبداعات كتّاب المنفى الروس خارج حدود الاتحاد السوفيتي.

واتفق الباحثون على ثلاث موجات لهجرة الأدباء الروس خلال الحقبة السوفيتية. بدأت الموجة الأولى في عام ١٩١٨م واستمرت حتى قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال الألمان لباريس. وكانت هجرة جماعية لعدد كبير من الكتّاب والشعراء الروس. أما الموجة الثانية فبدأت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وتحديداً في عام ١٩٤٠م واستمرت إلى عام ١٩٥٠م. ولم تشهد الزخم نفسه الذي شهدته الموجة الأولى. والثالثة بعد انتهاء فترة ذوبان الجليد في عصر خروشوف وأدت إلى هروب عدد من كبار الأدباء الروس أمثال ألكسندر سولجنتسين ويوسف برودسكي وسيرجي داوفلاتوف. وتعد الموجة الأولى هي الأكثر أهمية من حيث قيمة ما تركته من إبداعات وتأثير على الأدب الروسي.

وقد تم استحداث مصطلح «أدب المنفى» بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧م عندما بدأت عمليات هجرة جماعية للسكان الروس إلى الخارج، وبلغ عدد اللاجئين الروس أكثر من مليونين، وكانت الوجهة الرئيسية إلى برلين وباريس. وشكّل هؤلاء مجتمعات روسية كاملة حاولت الحفاظ على الهوية الروسية والعادات والتقاليد والفنون. كما قاموا بإصدار المجلات والصحف باللغة الروسية، وتم افتتاح عدد من المدارس والجامعات بل وصل الأمر إلى تشييد كنائس روسية في المهجر. وعلى الرغم من حفاظ الموجة الأولى من المهاجرين على التقاليد الروسية ما قبل الثورة، عانى المهاجرون من صعوبات حياتية كثيرة، فبعد أن فقدوا أسرهم ووطنهم ومكانتهم الاجتماعية أصبح لزاماً عليهم أن يناضلوا من أجل البقاء، وكذلك من أجل التأقلم مع المجتمعات الجديدة. بدت آمالهم بقرب العودة إلى الديار صعبة المنال، وخاصة في عام ١٩٢٠م حيث أصبح واضحاً أن روسيا لن تعود كما كانت، كما بدا طريق العودة إليها مسدوداً. كانت المعاناة مزدوجة: الشوق والحنين إلى

الوطن وضرورة العمل البدني الصعب للبقاء على قيد الحياة وتوفير النفقات.

تحديات الموجة الأولى

كانت الموجة الأولى صفحة مأساوية في تاريخ الثقافة الروسية. وتعتبر ظاهرة فريدة سواء من حيث العدد الضخم للأدباء المنفيين أو من حيث إسهاماتهم الكبيرة في الثقافة العالمية لاحقًا. بدأت الهجرة الجماعية للأدباء في عام ١٩١٩م وضمت أكثر من ١٥٠ كاتبًا وشاعرًا ضمن مليوني شخص فروا من روسيا في العام نفسه. كما اتخذت الحكومة السوفيتية قرارًا بنفي أكثر من ١٦٠ أديبًا في عام ١٩٢٢ نظرًا لكتاباتهم الدينية والفلسفية وركبوا سفينة أطلق عليها «سفينة الفلاسفة» وضمت من الأدباء والفلاسفة الروس: نيقولايف بيرديايف ونيقولايف لوسكي وسيمون فرانك وسيرجي بولجاكوف. كما ضمت الكتاب: إيفان بونين وألكسندر كوبرين وبوريس زابيتس وألكسي تولستوي. وقد حافظت الموجة الأولى من الأدباء المهاجرين على سمات وخواص المجتمع الروسي وعبروا عنها في كتاباتهم. وأضحى الأدب الروسي في المهجر يصور الأحداث الثورية في روسيا والحرب الأهلية ويوثق انهيار التقاليد التي سادت قبل الثورة والتراث الروسي قبل الاشتراكية.

شهد عام ١٩٢٧م ذروة نهضة أدب المهجر، حيث أصبحت الكتب تنشر في الخارج باللغة الروسية. ولوحظ أن الأدباء الروس حرصوا على المحافظة على الحرية السياسية والثراء في الإبداع في سبيل نضالهم ضد الواقع المرير لحياة المنفى. ومن المدن التي أصبحت قبلة للأدباء الروس «برلين» عاصمة للأدب الروسي في المهجر حيث كان يقطنها معظم كتّاب الدراما والمسرح. كما كانت «براغ» نقطة تجمع الفنانين والشعراء. أما «باريس» فتستحق لقب عاصمة الثقافة الروسية في المهجر. كما اتجه بعض الأدباء إلى الشرق وتحديداً «شنغهاي». وبرز في هذه الموجة جيلان من الأدباء: الجيل القديم والذي تجسدت في كتاباته سمات الحياة الروسية بجلاء، وكانوا معروفين للقارئ الروسي ولهم أسلوبهم المميز وانتشرت كتاباتهم، ليس فقط في روسيا بل وخارجها. وكان معظمهم من الرمزيين (زيناديا جيبوس وقنسطنطين بالمونت ودميتري ميرجكوفسكي) والمستقبليين (إيجور سيفيريانين) وكتّاب الذروة (جيورجي ايفانوف وجيورجي أداموفيتش) والواقعية (ألكسندر كوبرين وألكسي تولستوي). وتجمعت حول هؤلاء، مجموعات من الأدباء ونظمت صالونات وجمعيات أدبية حضرها الجيل الأصغر والذي كان يطلق عليه حينها «الجيل غير الملحوظ». وهؤلاء الذين لم يكونوا قد خطوا خطوات كبيرة بعد في بلادهم روسيا قبل اضطرارهم إلى مغادرتها ولم تتشكل شخصياتهم الأدبية بعد. حيث تجمع بعضهم حول إيفان بونين وآخرون حول فلاديسلاف خوداسيفيتش. وقد مالوا إلى اتجاه ما يعرف بالكلاسيكية الجديدة واستخدام الأشكال والقوالب الصارمة في السرد ونذكر منهم تيرايبانو وسمولينسكي وبيربيروف.

ويجمع النقاد على تقسيم الموجة الأولى إلى فترتين: الأولى تمتد بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢٥م وهي الفترة التي تشكل فيها أدب المهجر الروسي واتسمت الكتابات بتمحورها حول الأمل في العودة مرة أخرى إلى الوطن. كما تركزت الموضوعات حول الهجوم على النظام السوفيتي البلشفي الجديد، والشوق إلى روسيا الإمبراطورية، وصور الكتاب الحرب الأهلية من وجهة نظر معادية للثورة الجديدة.

وتأتي الفترة الثانية والتي تمتد بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٩م وشهدت تطورًا لصناعة النشر وتأسيس الجمعيات الأدبية الروسية في المهجر. ويلاحظ هنا فقدان الأديباء الأمل في عودتهم مرة أخرى إلى الوطن. وتشيع في تلك الفترة كتابات المذكرات والسير الذاتية والدعوات إلى الحفاظ على عقب الجنة المفقودة وذكريات الطفولة والعادات الشعبية. كما انتشرت الرواية التاريخية التي تعاملت مع التاريخ بوصفه حلقة في سلسلة من الأحداث التي تعتمد في الأساس على إرادة الإنسان. كما تناول أدباء تلك الفترة موضوع

الثورة والحرب الأهلية وصوروا الحرب بشكل أكثر موضوعية مقارنة بسابقيهم، وظهرت أولى المؤلفات التي تصور الحياة داخل معسكرات العمل والاعتقال (إيفان سولونيفيتش «روسيا تسبح في معسكرات اعتقال» وم. مارجولين «رحلة إلى بلد المعتقلات» ويوري بيسونوف «٢٦ سجنًا والهروب من سولوفكي»

وفي عام ١٩٣٣م منحت جائزة نوبل إلى أحد كتّاب المنفى وهو إيفان بونين.

بداية الموجة الثانية

أما الموجة الثانية في أدب المهجر الروسي فقد ولدتها أحداث الحرب العالمية الثانية عندما هاجر عدد كبير من كتّاب جمهوريات البلطيق والتي ضمها الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩م، وكذلك الأسرى الذين خشوا العودة إلى الوطن حتى لا يتعرضوا إلى الاعتقال، والمنفيون للعمل في ألمانيا من الشباب السوفيتي وكل من تعاون مع الفاشية. واختار هؤلاء في البداية ألمانيا مكانًا لإقامتهم ثم انتقلوا إلى أمريكا وبريطانيا. وبدأ معظم كتّاب وشعراء الموجة الثانية نشاطهم الأدبي في المهجر، ونذكر منهم الشعراء: يلاجين وكليوفسكي وتشينوف وفيسينكو وغيرهم. وقد بدءوا بتناول القضايا الاجتماعية ثم انتقلوا إلى الكتابات الغنائية والفلسفية. ومن الكتّاب نذكر يوراسوف وريجيفسكي وفيليبوف وشيريبييف. وقد تناول هؤلاء الحياة في الاتحاد السوفيتي قبيل الحرب وصوروا عمليات التنكيل والخوف الذي ساد بين الناس، والحرب والطريق الشاق الذي تكبده الكاتب في رحلة هروبه إلى الخارج. وكان ما يجمع كتّاب وشعراء هذه الموجة تجاوز التوجه الأيديولوجي الذي قيد إبداعات سابقيهم. وتبقى كتابات أدباء هذه الموجة الأقل شهرة حتى الآن.

بداية الموجة الثالثة

أما الموجة الثالثة لأدب المنفى فترجع إلى نهايات الستينيات من القرن الماضي. ينتمي معظم أدباء هذه الموجة إلى فترة ذوبان الجليد في عهد خروشوف، وهي الفترة التي شهدت انتقاداً لنظرية عبادة الفرد في عصر ستالين والدعوة إلى العودة إلى «القواعد اللينينية في الحياة». وسمح للكتاب بتناول موضوع المعتقلات ومعسكرات العمل المحظور سابقاً، وأصبح من المسموح الخروج عن الأطر الفنية لاتجاه الواقعية الاشتراكية الذي ساد لعقود، وأصبح الكتاب يبادرون بتجربة اتجاهات جديدة. إلا أنه وفي منتصف الستينيات وضعت قيود مرة أخرى على الإبداع وتم تشديد الرقابة على الأدب وتعرضت الكتابات الناقدة للهجوم، وبدأت عمليات التضييق على الأدباء ومنهم ألكسندر سولجنيتسين وفكتور نيكراسوف الذي تم اعتقاله، ومن ثم نفيه إلى أحد معسكرات العمل. كما تم القبض على كل من سينيافسكي وتهديد أكسيونوف ودافلاتفوف وفوينوفيتش. وفي ظل هذه الظروف اضطر هؤلاء إلى السفر للخارج. وانضم إليهم الكثيرون أمثال أليشكوفسكي وليمونوف وجاليتش وجوبرمان وأمالريك.

ومن أهم سمات الموجة الثالثة التمازج الرائع بين الاتجاهات الأسلوبية للأدب السوفيتي مع منجزات الكتاب الغربيين وإيلاء الاهتمام الأكبر بالاتجاهات الطليعية. ويعتبر ألكسندر سولجنيتسين أشهر أدباء هذه الموجة ومن كبار الكتاب الواقعيين في روسيا السوفيتية. وقد كتب خلال فترة هجرته ملحمة كبيرة تحمل عنوان «العجلة الحمراء» يتتبع فيها تاريخ روسيا. وحصل على جائزة نوبل في الآداب عن روايته الشهيرة «أرخبيل الجولاج». كما ينتمي إلى الاتجاه الواقعي أيضاً كل من جيورجي فلاديموف وفلاديمير مكسيموف وسيرجي دافلاتوف. كما اتسمت إبداعات الكاتب فاسيلي أكسيونوف بالسخرية اللاذعة من الأوضاع وتعد ثلاثيته «ملحمة موسكووية» من أشهر الكتابات في هذا الجيل وتتناول فيها الحياة في روسيا في الثلاثينيات والأربعينيات. وتتجلي سمات أدب الحداثة وما بعد الحداثة في كتابات ساشا سوكولوف «مدرسة الحمقى» و«حوار بين ذئب وكلب» كما دارت كتابات يوري ماملييف في فلك الأدب السيربالي والواقعية الميتافيزيقية. واستطاع الكاتب أن ينقل حالة الخوف وانعدام قيمة الحياة في قصصه القصيرة «حكايات روسية» وروايته «الزمن الضائع». ومن بين أدباء الموجة الثالثة أيضاً يوسف برودسكي الحائز على جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٨٧م. وقد ترك كتاب الموجة الثالثة من أدب المنفى الروسي العديد من الأعمال في مختلف الأجناس الأدبية والأساليب الفنية.

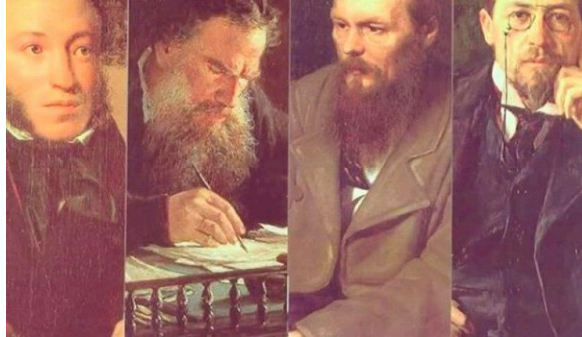
ومع انهيار الاتحاد السوفيتي، عاد الكثير من أدباء المهجر إلى روسيا وواصلوا نشاطهم الإبداعي. ففي عام ١٩٩٠م تم إصدار قانون «الصحافة ووسائل الإعلام» والذي نحي جانباً الأسباب التي أدت إلى نشأة ظاهرة أدب المهجر. وشهدت العقود الثلاثة الأخيرة صدور كتابات داخل روسيا سبق حظرها في الحقبة السوفيتية لكتاب أمثال: أكسيونوف وليمونوف وداولاتفوف ونيكراسوف وسولجنيتسين وبرودسكي وغيرهم.

(٥)

الأدب الروسي.. وعملية بناء الوعي

لطالما كان الأدب الروسي أدبًا غنيًا بالأفكار ووصف دومًا بكونه منبرًا اجتماعيًا يطرح القضايا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية المهمة. وكان القراء ينتظرون ويتوقعون من العمل الأدبي أن يتناول المسائل المهمة في حياتهم. واكتسب الأدباء سمعتهم كونهم يؤثرون روحياً وأخلاقياً على العامة. والأمثلة كثيرة ونذكر منهم بوشكين ودوستوفسكي وتولستوي في القرن التاسع عشر وتسفيتايفا وماندلشتام

وجوركي وشولوخوف وباسترنك وبرودسكي في القرن العشرين. فقد كان لهؤلاء عظيم الأثر على الأدب وكان هذا التأثير في أغلبه فكريًا وجماليًا، ساهم في بناء مكونات وسمات الشخصية الروسية. فقد دعى أدب المدرسة الطبيعية إلى محاكاة الواقع فيما سعى الأدب الكلاسيكي الروسي إلى بناء ورسم صورة للعالم والإنسان واستخدام التجريب لطرح النموذج الفكري المثالي في بناء المجتمع. وكان الدور المنوط بالأدب دائمًا أن يكون معبرًا عن آمال الشعب وأن يتخذ الكاتب موقفًا شعبيًا فعالاً وعندها فقط يمكن الحكم عليه كأديب وفنان.



وفي القرن العشرين ارتبط الأدب بالأيدولوجيا، حيث تأثر الأدباء بالنظريات الأيدولوجية وعانوا من ضغط الديكتاتورية السياسية. ففي أدب الواقعية الاشتراكية نلحظ محاولات لتجميل الواقع تطغى على الالتزام بالأسس الجمالية في السرد.

ومع انتهاء القرن العشرين وبداية القرن الجديد رفض الأدب الروسي الخضوع للأيدولوجيا واكتسب إمكانية التحرك بحرية. فقد استبدل الأدباء الدور التعليمي والإرشادي والاجتماعي بالحديث عن قضايا حياتية بعينها ومواضيع كانت في السابق محرمة. كما أصبح الهدف هو إمتاع القارئ. وللمرة الأولى في تاريخه توفرت للأدب الروسي فرصة كبيرة للتطور الطبيعي.

كان عام ٢٠١٥م هو عام الأدب في روسيا. ويعتقد الكثيرون أن مصير روسيا يرتبط بشكل كبير بمصير الأدب فيها وبدوره يعتمد تطور الأدب الروسي على مستقبل ومصير الدولة الروسية.

والحديث عن دور الأدب الروسي في الارتقاء بالوعي المجتمعي يحتاج الكثير من الوقت ويتسم بالكثير من التعقيد. غير أن هذا الموضوع يحظى بأهمية كبيرة كون الأدب الروسي كان دائماً جزءاً من الأيديولوجيا، وكان دائماً يشكل رؤية الفرد أو المجموعات الاجتماعية للعالم المحيط. وقد حاول الكتاب الروس دائماً تقديم الأدب بوصفه حجر زاوية في الفكر الثوري الروسي. وتناول مؤرخو الفكر الاجتماعي الروسي بالتفصيل عملية تشكيل الشخصية الروسية. كما ارتبطت عملية تشكيل الوعي الثوري والاجتماعي في روسيا أو حتى الرؤية البسيطة للعالم المحيط ارتباطاً وثيقاً بالأدب الروسي. فقد بدا الأدب والفكر الاجتماعي متقاربين لدرجة أنه أصبح من الممكن أن يحل أحدهما مكان الآخر. وأخذ المكون الأيديولوجي في الأدب الروسي في الاكتمال ما منح هذا الأدب أهمية وقيمة فكرية عالية.

وقد وضع الأدب الروسي من أهدافه وأولوياته التعبير عن التحولات والقضايا التي تدور بالمجتمع. وتطور الأدب بشكل متواز مع تطور الفكر الاجتماعي. بل وشارك كبار الأدباء الروس بأنفسهم في صياغة هذا الفكر حيث طرحوا تصورهم لفكرة النموذج الأمثل للتيارات الفلسفية والاجتماعية في المجتمع.

وشهد منتصف القرن التاسع عشر تنامي النضال السياسي والفكري الذي أضحى مضموناً وموضوعاً رئيسياً لمعظم المؤلفات الأدبية. وسعى كبار الكتاب من أمثال تشيرنيشيفسكي وتولستوي ودوستويفسكي إلى تجسيد النماذج المثالية التي يجب أن يحتذي بها الناس.

تأثير الأدب على المجتمع الروسي

يعود الدور المهم للأدب الروسي في المجتمع إلى كون مضامينه الرئيسية تدور حول الإنسان والحياة الإنسانية. فالبطل هو الإنسان الذي يشعر ويفكر ويفعل والذي هو نقطة التقاء الظواهر الحياتية سواء الاجتماعية أو الأخلاقية أو النفسية. والأدب يعلم ويربي ويساعد الإنسان على معرفة العالم ومعرفة نفسه ويثري مشاعره وأفكاره ويجعله أكثر إنسانية. كما يقرب الأدب للقارئ الأحداث التاريخية المختلفة والفضاءات الاجتماعية والطبيعية لدى الشعوب الأخرى ويصور الشخصيات الإنسانية والتقلبات داخل النفس البشرية وأحلامها ونضالها من أجل الخير وينمي من قدرته على التخيل.

وقد لعب الأدب الروسي دوراً مهماً في عملية الارتقاء بمستوى الشعب الروسي فكرياً وتعظيم مكانة الدولة الروسية. وقد تشكلت علاقة الغرب بروسيا في بدايات القرن التاسع عشر وما تلاها. وعلى مدى عقود طويلة كانت روسيا مصدرًا للتهديد وكانت النظرة لها في الغرب تتسم بالعدائية. واستمر هذا الشعور حتى السبعينيات من القرن التاسع عشر. غير أن الارتقاء بالثقافة الروسية عموماً والأدب على وجه الخصوص وصدور روايات تولستوي ودوستويفسكي جعل مشاعر

الكرهية والعداء والاحتقار والرفض من قبل الغرب لروسيا تتبدل بمشاعر جديدة يسودها الفضول والتعاطف والانبهار. واعتبر الأدب الواقعي الروسي في منتصف ونهاية القرن التاسع عشر واحدًا من أهم ثلاث اتجاهات أدبية عظيمة في الأدب العالمي ومنح روسيا احترامًا من العالم كله. وبفضل الأدب الروسي اكتشف العالم درجة الوعي الروسي والفكر الروسي واستوعبه واعترف به. كما كان الأدب الروسي دائمًا أدبًا يحمل مضمونًا فكريًا أيديولوجيًا واضحًا. وكثير من الأعمال الأدبية الروسية يمكن أن يطلق عليها اسم «موسوعة الحياة الروسية». وكان الناس تنظر للعمل الأدبي بوصفه كتابًا تعليميًا ودليلاً إرشاديًا للحياة الصحيحة القويمة. وبالنسبة للإنسان الروسي لم يكن الأدب أبدًا مجرد لعب بالألفاظ بل على العكس كان وسيلة للتوغل في حيوات الناس وتغييرها أو تشكيل نماذج جديدة منها.

وبالحديث عن صورة الكاتب في الثقافة الروسية فقد كان دائمًا يتمتع باحترام كبير. حتى إن كثيرًا من الأدباء الروس أصبح يمثل اتجاهًا ومدرسة تحمل اسمه. مثلًا هناك بوشكينيسكا ودوستويفسكا. وفي كل مرة كان الروس يدرسون بعشق شديد وبسعادة بالغة حياة كل كاتب والمضمون الداخلي لأعماله. ويمكن القول إن الأدباء الروس كانوا دائمًا يمثلون صوت المجتمع ويقومون بدور مفكري الأمة.

أما من منظور التأثير الاجتماعي والدور التنويري للأدب الروسي يمكن القول إن الأدب في روسيا كان الوسيلة الأهم للتعبير عن الأفكار ونقلها. فعلى سبيل المثال لا الحصر يصف الكاتب الشهير جيرتسين الحياة الأدبية في المجتمع الروسي في منتصف القرن التاسع عشر ويظهر كيف أضحت الأفكار قوة.

وهكذا يمكن القول إن الأدباء قد لعبوا دورًا في توجيه الشعب الروسي، أما الأدب فقد شكل الفكرة السياسية والاجتماعية. فما الذي ساعد على بقاء هذه الظاهرة الثقافية؟

ترجع الأسباب الأساسية في ذلك إلى بنية المجتمع الروسي. فعلى مدى قرون طويلة كانت روسيا بلدًا يسودها الحكم المطلق. في نظام كهذا لا يسمح بحرية التعبير أو النشر، كانت الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الغضب وعدم الرضا الشعبي هو الأدب. ومضى الزمن وأصبح الأدباء أكثر فأكثر يلعبون دور ضمير المجتمع. كما أصبحوا هم المفكرين بالمعنى الكامل للكلمة والمصدر للأفكار الجديدة والأيديولوجيات الجديدة.

كما فتح الأدب الروسي الطريق للثقافة الروسية لاحقًا. فالحضارة الروسية عمرها لا يزيد عن الألف عام وحتى القرن التاسع عشر بدت روسيا من الناحية الثقافية دولة متراجعة بعض الشيء. وبفضل إصلاحات القيصر بطرس الأول نهضت روسيا لتصبح في مصاف الدول العظمى القوية في أوروبا سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الجغرافية. وقد بقيت حالة عدم النضج الثقافي نقطة الضعف لدى روسيا على مدى مائتي عام قبل أن يصل القيصر العظيم إلى سدة

الحكم. فقد كانت بريطانيا تعيش أجواء الثورة الصناعية فيما تسيطر على فرنسا فكرة تأسيس الجمهورية الديمقراطية ولدى ألمانيا النظم الفلسفية. وبقي لروسيا الأدب والفن فحسب. واستطاع الأدب أن يرتقي بالثقافة الروسية إلى القمة حيث تحمل المسؤولية من واقع الشعور بالواجب نحو الوطن. أخذ كل ذلك في التراكم والتغلغل عميقاً في الثقافة الروسية وتشكيل وترسيخ المضمون الفكري المميز للأدب الروسي.

وبالإضافة إلى كل ما سبق ذكره ارتبطت هذه السمة في الأدب الروسي بطابع الشخصية الروسية. فقد امتدت مساحة روسيا من أوروبا إلى آسيا وتعتبر هذه «الأوراسية» أساساً وسبباً لتفردهم عن غيرهم من الشعوب. وفي الوقت الذي تفرد فيه الغربيون بالعقلانية والقدرة على التحليل المنطقي كان أهل الشرق يولون اهتماماً أكبر بالمشاعر حيث تواجد الروس في منطقة وسيطة ولذا جمعوا بين العقل والمشاعر والتحليل. وتعد الفكرة الأدبية المركزية أو الأدب الأيديولوجي الشكل والمظهر الأمثل لهذه الطريقة في التفكير؛ ولذا نجد هذا الخليط من النشاط المتباين في الوعي ينعكس ويتجسد في الأدب الروسي في أعمال دوستويفسكي وبيردياييف، ولم يساعد ذلك بالطبع في حدوث استقرار اجتماعي أو سياسي غير أنه ساعد بلا شك على ازدهار الثقافة والفن.

هكذا نرى كيف أن المضمون الفكري العميق والأهمية الأيديولوجية للأدب الروسي يرجعان لعدد من الأسباب منها السياسي الاجتماعي والثقافي التاريخي بالإضافة إلى عامل التقاليد الدينية. كل هذه الأسباب والعوامل ارتبطت فيما بينها وتفاعلت لتنتج هذا الأدب الروسي الثري... المفعم بالأيديولوجيا.



مع قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م شهدت روسيا أحداثًا مهمة ومصيرية؛ حيث انقسم المجتمع إلى معسكرين متناحرين، وهما: حركة البيض والبلاشفة. وأخذ مناصرو كل جانب يدافعون بشدة عن قيمهم، وأفكارهم وتقاليدهم، وحقهم في بقاء إما السلطة القيصرية أو الحكم السوفيتي الجديد. وكان لهذه الأحداث تأثيرها القوي

على الأدب والأدباء؛ حيث أصبحت الأحداث الجديدة، والمجتمع الجديد، والأفكار الجديدة في حاجة لمن يعبر عنها، ويلقي الضوء عليها من خلال الأعمال والمؤلفات الأدبية. وتطورت الحركة الأدبية في تلك الفترة في ثلاثة اتجاهات متباينة: أدب المهجر، والأدب السوفيتي، والأدب السري أو «الساميزدات».

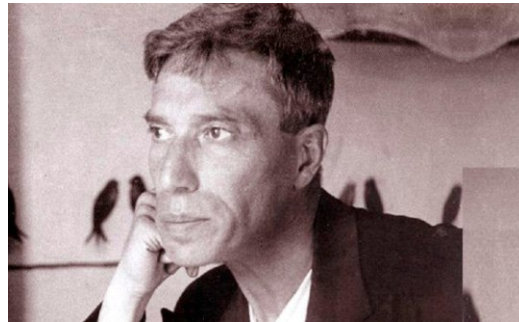
نشأة المصطلح

في بداية العشرينيات، شهدت روسيا هجرة ملايين من مواطنيها ممن لم يرغبوا في الخضوع لدكتاتورية البلاشفة، ونذكر منهم إيفان بونين وألكسندر كوبرين وفلاديمير نابوكوف وإيفان شميلييف ومارينا تسفيتايفا. ولم يستطع هؤلاء التأقلم مع ظروف المهجر، والبعد عن الوطن، كما لم ينسوا في يوم ما أديبهم، ولغتهم الروسية، وثقافتهم الأم، وأبدعوا أدبًا ثريًا، رغم كل شيء. وتعود تسمية الأدب السري بالأدب العائد لكون هذه المؤلفات قد «عادت» إلى القارئ لاحقًا في نهايات القرن، وتحديدًا في النصف الثاني من الثمانينيات، وما تلاها. كانت تلك فترة غروب شمس الإمبراطورية السوفيتية.

في منتصف الثمانينيات، وقبيل انهيار حائط برلين، الذي عزل الاتحاد السوفيتي عن أوروبا لسنوات وعقود طويلة، ظهر مصطلح «الأدب العائد» وانتشر بشكل واضح في الكتابات النقدية والصحافة الأدبية. سمحت السياسات الانفتاحية الجديدة بنشر عدد ضخم من الأعمال الأدبية لأدباء اضطروا للهجرة إلى فرنسا وألمانيا والتشيك في عشرينيات القرن الماضي. كان الكثير من هؤلاء الأدباء قد نالوا بالفعل شهرة عريضة في روسيا، ولكنهم تحدثوا بصراحة عن ثورة ١٩١٧م، وما تلاها من حرب أهلية عمّت البلاد. شهد هؤلاء الكتّاب أحداثًا قاسية، وكثير منهم تشكك في أهمية

ثورة ١٩١٧ م، بل سخرُوا منها، وقللوا من أهمية نتائجها؛ وهو ما عرضهم للاتهام بكونهم أعداء للوطن، وتمت مصادرة مؤلفات أغلبهم، حتى إن أسماءهم قد تم حذفها من جميع الموسوعات، وطوى النسيان أسماءهم طوال سبعة عقود، وأعلنت الدوائر الرسمية حينها أن هؤلاء توقفوا عن الإبداع في المهجر، في حين نذكر على سبيل المثال أن الأديب **بوريس زاييتسف** قام بكتابة أكثر من ٧٠٠ عمل في المهجر.

ويرتبط مصطلح **الأدب العائد** بظواهر سلبية في التاريخ الروسي. فقد كان البلاشفة قبل ثورة ١٩١٧ م يدعمون حرية الرأي والحقوق الديمقراطية للمواطنين. إلا أنهم وما إن وصلوا إلى السلطة حتى قاموا بقمع أية محاولة لمعارضة حكمهم، ومنعوا أي مساعٍ لإظهار عدم الرضى، وأسسوا لآلية صارمة للإشراف. ومراقبة الإصدارات الأدبية فاقت في قسوتها تلك التي طبقت أيام الحكم القيصري. فقد شهد عام ١٩١٧ م إصدار قانون تنظيم الصحافة، وفي عام ١٩٢٠م كانت هناك إدارة مركزية لشؤون الأدب. وكان البلاشفة يؤكدون دومًا أن هذا الإجراء مؤقت. غير أنهم لم يخففوا من قبضتهم تلك لاحقًا. وفي ظروف كذلك، كان الكثير من الأدباء المعارضين، وغير الراضين عن الحكم السوفيتي يكتبون دون أمل أن يصل صوتهم للقارئ. حتى كان منتصف الثمانينيات، ومع حالة الدفاء التي سادت المناخ السياسي في البلاد، أخذت هذه المؤلفات تعود تدريجيًا إلى روسيا، ويطالعها القارئ الروسي، ومن بين هذه الكتب روائع في الأدب، ومثلت هذه المؤلفات مصدرًا للقراء؛ للتعرف على الحقيقة المرة التي عانى ويعاني منها الشعب الروسي حينها. وكانت أهم الموضوعات التي تناولتها كتابات هؤلاء الأدباء، تتمحور حول الثورة وبناء العالم الجديد.



ويمكن هنا الإشارة إلى رواية «**دكتور زيفاجو**» لبوريس باسترناك كنموذج جلي، حيث تم فصل الكاتب من اتحاد الكتّاب الروسي، وإرغامه على رفض استلام جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٥م. وإذا كان باسترناك قد سمح لنفسه بالتشكيك في الثورة فإن **ميخائيل بولجاكوف** قد رفض الثورة بأكملها، وعبر عن ذلك في قصته الشهيرة «**قلب كلب**». وهناك قصة أخرى شبيهة بها وهي قصة «**الحفرة**» للكاتب **أندريه بلاطونوف** (١٩٣٠م)، التي تتشابه معها بمضمونها الفلسفي. إلا

أنها لم تنشر إلا بعد مرور قرابة الستة عقود، وتحديداً في عام ١٩٨٧م. ويصور الكاتب مجموعة من العمال الذين يحفرون حفرة لوضع أساس منزل ضخم. ويتناول المؤلف ظاهرة العمل الجماعي السوفيتي في بداياته. ويشير الكاتب في الرواية إلى عدم جدوى الجنة الاشتراكية التي تقوم على معاناة الأبرياء.

أما الموضوع الثاني في الأدب العائد فهو: القمع الستاليني. ولعل هذه الظاهرة تبدو بجلاء في أعمال **فارلام شلاموف «قصص من كاليم»** وتلميذه **ألكسندر سولجنيتسين**. وقد عاش الاثنان تجربة الاعتقال في عصر ستالين، ولم تشفع مشاركة الأخير في الحرب له، ولم تنقذه النياشين ولا الأوسمة العسكرية، التي نالها من العقاب الستاليني. ففي إحدى مراسلاته مع أحد أصدقائه انتقد الثورة وسياسات القادة السوفييت، فحُكم عليه بالسجن ثماني سنوات مع الأشغال الشاقة. وبعد موت ستالين تم الإفراج عنه وإرساله للعمل معلماً في إحدى المناطق البعيدة، وهناك كتب سرّاً أروع مؤلفاته. وفي الستينيات، وفي أثناء حكم **خروشوف** صدر بعضها. وفي قصته **«حوش ماتريونا»** ١٩٥٩م يعود البطل من المنفى، ويحلم بالحصول على الراحة والهناء في قرية هادئة نائية في روسيا، ويجد هذه الراحة في منزل إحدى الفلاحات التي تدعى **ماتريونا فاسيليفنا**. وتنطق هذه البطلة بلسان الحقيقة التي يراها الكاتب. فبعد أن فقدت زوجها وأطفالها لم تعد ترى معنى للحياة إلا في مساعدة الآخرين، وتحاول أن تثبت ذلك بالفعل لا بالقول. كما كرّس الكاتب قصته الشهيرة **«يوم واحد من حياة ايفان دينيسوفيتش»** (١٩٥٩ م) للحديث عن المصير المأساوي للشعب الروسي، وقدرته على الصبر والتحمل. وفي عام ١٩٧١م، أنهى **سولجنيتسين** روايته **«أرخبيل الجولاج»** التي أطلق عليها اسم **«بحث فني»**. وصوّر الكاتب في روايته تجربته في المعتقل، إلا أنه وبعد عزل **خروشوف** من السلطة تعرض الكاتب لمضايقات وملاحقات؛ مما اضطره للهجرة إلى الخارج، حيث مكث منذ ١٩٧٤م إلى ١٩٩٤م خارج بلاده. وقد سعت السلطات السوفيتية إلى محو ذكرى الكاتب ومؤلفاته تماماً. غير أنه بقي واحداً من أعظم الأدباء الروس.

وهناك مجموعة ثالثة من المؤلفات التي تنتمي للأدب العائد، يمكن وصفها بكونها محايدة من الناحية الأيدولوجية، إلا أنها تختلف كلياً من الناحية الجمالية مع سمات التيار الواقعي السائد حينها في الاتحاد السوفيتي، أو أن شخصية المؤلف كانت مثيرة للجدل. ونذكر منها على سبيل المثال: إبداعات الكاتب **نيقولاي جوموليوف** (١٨٨٦ م - ١٩٢١ م) و**ماريا تسفيتايفا** وأنا **أخمانوفا**، وغيرهم.

كما ينتمي إلى هذه المجموعة الكاتب **ساشا سوكولوف**، وهو من كتّاب الموجة الثالثة للمهجر، و**فلاديمير نابوكوف** و**يوسف برودسكي** وغيرهم.

وهناك أيضاً الروايات التاريخية لكل من: **م.الدانوف** و**ساشا تشيورني** و**ناديجدا تيفي** وأشعار **نثر ج.ايفانوف** و**جيورجي أداموفيتش** والمذكرات الرائعة للشاعرة **إيرينا اودويفتسوا** و**نينا**

بيربيروفا وأشعار فلاديمير خوداسيفيتش وعدد ضخم من المقالات النقدية في مجال الأدب الروسي.

أثر الأدب الروسي العائد

مما لا شك فيه أن هذا التيار الأدبي قد أثرى الأدب الروسي كثيرًا، وخصوصًا بعد الكشف عن الأرشيفات الكاملة للكاتب وكنوزهم. فقد ظل القارئ الروسي لعقود يجهل شريحة عريضة من المبدعين الروس ومؤلفاتهم. فكانت هذه الكتب إما محظورة أو منشورة في الخارج أو بقيت بخط يد المؤلف في أرشيفه الخاص. (ألكسندر سولجنتسين «أرخيبيل الجولاج» وبوريس باسترناك «دكتور زيفاجو» وميخائيل بولجاكوف «قلب كلب» وأنتولي ريباكوف «أطفال شارع أرباط» وغيرهم)، وهناك أيضًا عدد من المؤلفات في المهجر، وعدد من النصوص الأدبية المكتوبة في داخل الاتحاد السوفيتي) كانت الرقابة السوفيتية تحظر انتقاد النظام السوفيتي، وأي تناول للدين موضوعات الإثارة الجنسية، وضمن قواعد «الشكلية الجمالية». ونشأت ظاهرة أطلق عليها «ساميزدات» أو أن يقوم المبدع بإنتاج، وطباعة، ونسخ كتبه ومؤلفاته بيده سرًا. وانتشرت هذه الظاهرة على نحو ملحوظ في فترة ذوبان الجليد في عصر نيكيتا خروشوف، وفترة الجمود التي شابت حكم بريجنيف. ويمكن اعتبار ساميزدات أحد التيارات الأدبية في روسيا في الفترة من الخمسينيات والثمانينيات. ويطلق على كتّاب تلك الفترة وهذا التيار كتاب «الأندر جراوند». كان هؤلاء الكتّاب يقررون احتياجاتهم بأنفسهم، وكانوا أكثر حرية في اختيار الموضوعات، وفي البحث عن أشكال جمالية جديدة، وكانوا متحررين من ضغوط الناشرين والمراجعين.

وفي عام ١٩٥١ م صدرت مجلتان في بطرسبورج بشكل سري، تحتوي على أشعار ومقالات. وفي موسكو صدر في عام ١٩٦٠م ثلاثة أعداد من مجلة «علم النحو» وهي أول مجلة ساميزدات تصدر في موسكو، وبلغ حجم النسخ ٢٠٠ - ٣٠٠ نسخة. وشهدت فترة السبعينيات صدور عدد من المجلات الأخرى، ذات الطبيعة الاستقلالية في الكتابة، وبأعداد ونسخ قليلة، وبشكل سري تمامًا.

وبعد حقبة البيروسترويكما اختفى أدب الساميزدات لاختفاء الرقابة على الإبداع، حيث أصبح من حق أي إنسان نشر أي نص مهما كان. غير أن ثمة تهديدًا وخطرًا آخر تمثل في فيضان الأعمال غير الجيدة، التي يفتقد مؤلفوها إلى الموهبة الأدبية الحقيقية، واستبدلت الرقابة على الإبداع بقواعد السوق والعرض والطلب؛ ولهذا ازدهر ما يعرف بالأدب الجماهيري أو أدب العامة.

وإذا ما قمنا بتحليل مؤلفات كتاب كبولجاكوف وباسترناك وزامياتين وبلاطونوف وبيلنيك في سياق الفترة التي كتبوا فيها، يمكن وصف أعمالهم بكونها تنتمي إلى الأدب السري، الذي عاد إلى الأدب الروسي في التسعينيات، بعد طباعتها بشكل مكثف وعلى نطاق واسع. ويمكن أن يندرج تحتها أعمال كتّاب المهجر من أمثال كوبرين وبونين وشميليف وزايتسيف وغيرهم. والمثير

للهشة أن أدب المهجر الروسي من الثراء بحيث يمثل تيارًا مستقلًا ضخماً وغنياً. وهكذا يمكن القول: إن الأدب العائد أو الأدب السري في روسيا، هو مجموعة المؤلفات، والأعمال التي تعود للحقبة السوفيتية، وتحديداً في الفترة بين العشرينيات والثمانينيات، التي لم تحظَ بالنشر في حينها. وحظي الأدب العائد بالنشر في النصف الثاني من الثمانينيات وما بعدها. وقد سمح ذلك كله بإعادة رسم لوحة متكاملة للهزات التاريخية التي تعرضت لها روسيا، والنقل الصريح والشفاف للمعاناة التي كابدها الشعب الروسي عبر تاريخه الحديث.



إذا قمنا باستثناء الكاتبة البيلوروسية سفيتلانا الكسيفيتش من القائمة فإن آخر الأدباء الروس الحاصلين على جائزة نوبل للأدب قد فاز بها قبل ٢٩ عامًا كاملة. وتثير جائزة نوبل للأدب كثيرًا من الجدل سنويًا حول الفائز بها، وتكاد مساحة الجدل تساوي ما يثار حول الفائز بجائزة أخرى كبيرة وهي جائزة نوبل للسلام.

ومن بين أسماء الأدباء الكبار ذوي السمعة العالمية لا تكاد الذاكرة التاريخية تحتفظ سوى بعدة عشرات منهم فقط. ونورد فيما يلي الظروف التي صاحبت فوز الأدباء الروس بالجائزة. لا شك أن تأثير الأدباء الروس على الأدب العالمي كان عظيمًا؛ ولذا كانت أسماؤهم ترد دومًا بين المرشحين لنيل الجائزة سنويًا. وبعد مرور نصف قرن يحق للجنة الجائزة الكشف عن أسماء هؤلاء؛ ولذا لم يعد سرًا اليوم أن نعرف ليس فقط الحائزين على الجائزة بل وكل من لم يحصل عليها وبقي في صفوف المرشحين في قوائمها.

وكان أول من رشح للجائزة بين الأدباء الروس ليف تولستوي وذلك في عام ١٩٠٢م وكانت المفاجأة أن يتم ترشيح اسم روسي آخر غير شائع في عالم الأدب حينها وهو اسم المحامي الروسي أناتولي كوني. ولم يحصل أيهما على الجائزة في عامها. وقد بقي اسم ليف تولستوي على قائمة المرشحين حتى عام ١٩٠٦م.

وفي عام ١٩١٦م تم ترشيح الأديب الأوكراني إيغان فرانكو وفي عام ١٩١٨م تم ترشيح مكسيم جوركي للجائزة. وشهد عام ١٩٢٣م ترشيح ثلاثة كتاب روس دفعة واحدة لنيل الجائزة وهم مكسيم جوركي وإيغان بونين وفرنسطين بالمونت. ومثل ترشيح الكاتب غير المعروف حينها بيتر كراسنوف للجائزة عام ١٩٢٦م مفاجأة غير متوقعة. وقد تعرض الكاتب للشنق لاحقًا نظير تعاونه مع الألمان. وشهدت قائمة المرشحين للجائزة في عام ١٩٢٨م ترشيح مكسيم جوركي للمرة الثالثة في تاريخه وفي عام ١٩٣٠م تم ترشيح اسم كل من إيغان بونين ودميتري ميرجكوفسكي.

وشهدت الثلاثينيات ترشيح الثلاثي بونين وشميليف وميرجكوفسكي وكان عام ١٩٣٣ تاريخيًا حيث نال إيغان بونين الجائزة وأصبح بذلك أول أديب روسي يحصل عليها وبعد ترشحه لها لخمس مرات. ويعتقد كثير من الأدباء بما فيهم بونين نفسه أنه حصل على الجائزة بفضل روايته «حياة

أرسينيف» والتي كتبها أثناء إقامته في فرنسا. وقال بونين معقبًا على فوزه بالجائزة «لن أكون صادقًا إذا قلت، كما يقول الكثيرون في مثل هذه المواقف، أنها أكثر لحظة مؤثرة في حياتي. لقد كان الفيلسوف العظيم محققًا عندما قال إن مشاعر الفرح حتى النادرة منها لا تقارن بمشاعر الحزن الشديد. لا أريد أن أزعجكم أو أؤلمكم في هذا اليوم الاحتفالي والذي سأظل أتذكره طويلًا إلا أنني رغم ذلك أسمح لنفسي بالقول أن مشاعر الحزن التي مرت بي في السنوات الخمس عشرة الأخيرة تتجاوز بأضعاف لحظات السعادة. وهذه المآسي لم تكن شخصية... على الإطلاق».

وقد استقبل هذا الحدث بفتور شديد داخل روسيا رغم أنها كانت المرة الأولى التي يفوز بها أديب روسي بالجائزة. وكان بونين أحد أشهر الأدباء الروس في المهجر حيث غادر روسيا في عام ١٩٢٠م

وقد تسلم بونين الجائزة في عام ١٩٣٣م وقام بتوزيع جزء كبير منها على المهاجرين الروس وفي دعم مختلف الجمعيات الأهلية حتى إنه لم يتبق له شيء منها.

وشهدت الأربعينيات ترشيح العديد من الأسماء الروسية أهمها نيقولا بيديايف (٧ مرات) وبوريس باسترنك (٤ مرات) وألدانوف (٣ مرات) وشولوخوف (٣ مرات). وفي الخمسينيات ترشح الدانوف للجائزة حتى وصلت مرات ترشيحه إلى ١٢ بالإضافة إلى شولوخوف وباسترنك.

وفي عام ١٩٥٨م منحت الجائزة للمرة الثانية للأدب الروسي في شخص بوريس باسترنك ولم تجلب الجائزة للكاتب سوى المشكلات. وهناك قول شائع أن باسترنك قد نال الجائزة على روايته التي لم تكتمل «دكتور جيفاجو» والتي صدرت في إيطاليا عام ١٩٥٧. غير أن الكاتب قد رشح لنيل الجائزة قبل انتهائه من تأليف هذه الرواية كما أن لجنة الجائزة أشارت إلى إسهاماته في مجال الشعر في مسيبات فوزه بالجائزة. وتعرض باسترنك لهجوم لاذع واتهامات بالتعاون مع الدعاية الغربية. وقام البعض بمقارنته بالكاتب النرويجي كنوط هامسون الذي تنازل عن الجائزة لوزير الدعاية في الرايخ الثالث يوسف جيبيليس وذهب البعض إلى المطالبة بسحب الجنسية من باسترنك ونفيه خارج البلاد. ونشطت حملة ضده بعنوان «لم أقرأ ولكني أدين بشدة» كل هذا أرغم الكاتب أن يرفض الجائزة.

وفي عام ١٩٨٩م تسلم ابن الكاتب بوريس باسترنك الميدالية والشهادة. حيث توصلت الأكاديمية السويدية إلى نتيجة مفادها أن رفض الكاتب للجائزة كان رغبةً عنه وقررت إعادة الأمور إلى نصابها.

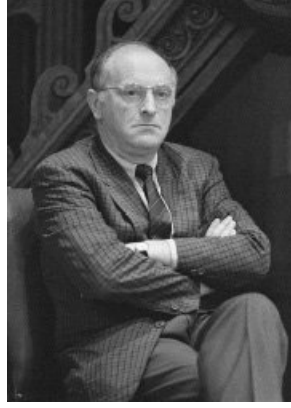
ولم يتم ترشيح أحد في العالم التالي لفوز باسترنك. وترشح شولوخوف للجائزة في الأعوام التالية جميعًا حتى نالها في عام ١٩٦٥م وربما هو الوحيد بين الكتّاب الروس الحاصلين على الجائزة الذي جرى تكريمه رسميًا.

وقد ترشح شولوخوف عدة مرات قبل نيل الجائزة حتى إنه كان على وشك الحصول عليها

مناصفة مع باسترناك في عام ١٩٥٨م، وظهرت دعاوى داخل الحزب برفض شولوخوف للجائزة في حالة الفوز بها مع باسترناك. غير أنه وبعض مرور سبعة أعوام يحصل شولوخوف على الجائزة ويحظى فوزه بترحيب رسمي كبير من السلطات السوفيتية. وقال شولوخوف مازحاً إن الأكاديمية السويدية تأخرت ٣٠ عاماً قبل منحه الجائزة نظراً لأن الأجزاء الأولى من رواية «الدون الهادي» قد صدرت في عام ١٩٣٢م. وتجدر الإشارة إلى أن شولوخوف يعد أحد تسعة فائزين بالجائزة نالوها نظير إسهاماتهم في إثراء الأدب العالمي بشكل عام وليس على عمل أدبي بعينه.

وهناك اعتقاد أن من بين العوامل التي ساعدت على اختيار شولوخوف كانت كلمة جان بول سارتر عندما اعتذر عن استلام الجائزة وقال «يؤسفني أن تمنح الجائزة لباسترناك وليس شولوخوف وأن يكون الكتاب الوحيد الروسي الذي فاز بجائزة نوبل قد نشر في المهجر وممنوع في داخل الوطن الأم».

وقد تبرع شولوخوف بجزء من الجائزة لبناء مدرسة في إحدى قرى نهر الدون. في عام ١٩٧٠ م نال الجائزة الكاتب الروسي ألكسندر سولجنستين وكان على لجنة نوبل أن تثبت بالدلائل أن هذا الاختيار لم يكن سياسياً في المقام الأول، كما اتهمتها السلطات السوفيتية حينها وحتى الكاتب نفسه. والغريب أن أهم روايتين للكاتب وهما «أرخيبيل الجولاج» و«الدائرة الحمراء» لم تكن قد نشرت بعد وقت حصوله على الجائزة. وقبل حصوله على الجائزة كان قد نشر له بضعة قصص قصيرة وترشحت قصته الشهيرة «يوم واحد من حياة ايفان دينيسوفيتش» لجائزة لينين الأدبية كما نشرت رواياته «عنبر السرطان» و«الدائرة الأولى» في داخل الاتحاد السوفيتي إلا أنهما انتشرتا عن طريق ما يعرف بالساميزدات أو النشر بالنسخ يدوياً وبشكل سري. كما تم نشر أعماله في الغرب بدون تصريح منه. وعندما علم الكاتب بفوزه بالجائزة اشتد الخلاف بينه وبين السلطات السوفيتية، واضطر إلى الاعتذار عن السفر إلى ستوكهولم لاستلامها رغم رغبته في ذلك خوفاً من عدم السماح له بالعودة إلى الوطن. إلا أنه لم ينجح رغم ذلك في تجنب الحملات الدعائية ضده، حيث تم اتهامه بخيانة الوطن وتم نزع الجنسية السوفيتية عنه ونفيه خارج الاتحاد السوفيتي. وقد تمكن الكاتب من استلام الجائزة شخصياً بعد نفيه إلى خارج الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٤م، وقد أنفق سولجنستين الجائزة على شراء ضيعة في ولاية فيرمونت.



وكان آخر الكُتَّاب الروس الحاصلين على الجائزة هو الشاعر يوسف برودسكي والمقيم في المهجر وذلك في عام ١٩٨٧م. وفي العام الذي حصل فيه الشاعر على الجائزة بلغ عدد دواوينه الشعرية ستة بالإضافة إلى مسرحية «المرمر» والعديد من المقالات باللغة الانجليزية. وكان برودسكي قد نفي من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢م وحصل لاحقاً على الجنسية الأمريكية. ونال الشاعر الجائزة والاتحاد السوفيتي يعيش مرحلة البيروسترويكا؛ ولذا لم يتعرض للهجوم الذي تعرض له سابقوه بونين وباسترناك وسولجنستين. إلا أن الإعلام السوفيتي لم يعلن خبر الفوز إلا بعد مرور أسبوعين. ولم يحضر المسئولون السوفييت حفل توزيع الجوائز فيما كان تعليق الخارجية السوفيتية على الفوز «بأن القرار غريب» و«أن الفوز بنكهة سياسية». وكان برودسكي أكثر الفائزين سعياً للاستفادة القصوى من قيمة الجائزة حيث قام بشراء مطعم في نيويورك. وهكذا يمكن القول إن بونين وشولوخوف وباسترناك وسولجنستين وبرودسكي يمثلون القائمة الكاملة لممثلي الأدب الروسي الحاصلين على جائزة نوبل ولم تشهد السنوات التسعة والعشرين الأخيرة حصول أي أديب روسي على هذه الجائزة العالمية إذا ما استثنينا بالطبع الكاتبة سفيتلانا الكسيفيتش، وإن كانت كتاباتها جميعاً بالروسية كونها بيلاروسية المولدة.

معيار الجائزة الأدبية

لم يعد يخفى على أحد المعايير التي تؤثر في اختيار الفائز بالجائزة الأدبية. وقد تناول الباحث الفرنسي بيير بوردي هذا الموضوع تفصيلاً في مقالة له بعنوان «بعد الأدب». حيث يرى أن منح الجائزة الأدبية لا يعد ضماناً أو دليلاً على اكتمال العمل الأدبي فنياً. كما أن الجوائز الأدبية لا تعد مؤشراً على الاعتراف المجتمعي بل هي في الحقيقة وسيلة لتوجيه الحراك الأدبي والاجتماعي بشكل عام. فالفن الحقيقي ليس وسيلة لربح المال بل هو وسيلة لفهم النفس والارتقاء بها. وباستثناء شولوخوف كان جميع الفائزين الروس بالجائزة على خلاف مع السلطات. فقد نفي سولجنستين وعاش بونين وبرودسكي في المهجر ونال باسترناك الجائزة عن رواية معادية للنظام وصدرت في الخارج.

وهناك الكثير من الأسماء الروسية التي لم تتل حظها المستحق وتم تجاهلها، ونذكر منهم ليف تولستوي وبولجاكوف ونابوكوف وتشخوف وجوموليوف وغيرهم. و تضم قائمة العظماء أيضاً بلاتونوف وماندلشتام وشوكشين وراسبوتين. قد بقي هؤلاء جميعاً في ذاكرة التاريخ والقراء في حين كثير من الفائزين بالجائزة طواهم النسيان.

فأما الأهم بالنسبة للكاتب الفوز بالجائزة أم المجد الأبدى؟ هناك من يفضل الفوز بالمال في حياته وهناك من يفضل تخليد ذكراه بعد مماته. لكل خياراته.

لقد رفض ليف تولستوي الجائزة في عام ١٩٠٦م كما رفض الحصول على ملايين من الروبلات نظير طباعة مؤلفاته. وكان يصر على طباعة كتبه مجاناً للقراء وعلى كتابة عبارة «طبعة مجانية» على الصفحة الأولى من كل جزء من أجزاء مجموعته الكاملة. كما رفض تولستوي الحصول على حقوق المؤلف عن كتبه المنشورة بعد عام ١٨٩١م.

يقول تولستوي «اعلموا فحسب أنكم لستم في حاجة إلى شيء على الإطلاق سواء أن تنقذوا أرواحكم وبذلك فقط نستطيع أن ننقذ العالم من حولنا» .

لم تكن حدة الجدل الدائر حول الانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة في الأدب الروسي تخفت قليلاً حتى اشتعل النقاش والجدل مجددًا حول تيار ما بعد الحداثة. عندما نتحدث عن تيار ما بعد الحداثة في الأدب الروسي فنحن نعني بالتأكيد تداخل مختلف الحدود الثقافية والأيدولوجية وما بين الأجناس الأدبية. ويحدث هذا التداخل والخلط في المقام الأول بين الأدب الجماهيري وأدب النخبة سواء في وعي القارئ العادي أو الناقد الأدبي. وتيار ما بعد الحداثة الروسي هو ظاهرة ضرورية ولا بديل عنها للمرحلة الانتقالية وفترة التخلص من كافة التناقضات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية والأيدولوجية التي ميزت وصبغت فترة التحول من النظام الشمولي إلى الديمقراطية. وتكمن خصوصية تيار ما بعد الحداثة الروسي في تغيير النظرة إلى الذاكرة الاجتماعية وإعادة تقييم الماضي. عانت الثقافة الروسية في نهايات القرن العشرين من تنامي تعظيم قيم الثقافات الأخرى وخاصة الغربية. كما تمت الاستعانة واستلهام عناصر من ثقافات أخرى واقتباس نتائج تجارب تاريخية مغايرة وغريبة. غير أنها في الوقت نفسه ومنذ البداية استشعرت قدرتها على المواصلة وحدها ولم تسمح لنفسها بمجرد اقتباس ما هو غريب عنها؛ ولذا فإن كل الظواهر الغربية على الروس سرعان ما اكتسبت واصطبغت بالصبغة الروسية.

ملامح الفروق بين التيار الروسي والغربي

هناك اختلاف بين تيار ما بعد الحداثة الروسي والغربي. فالتيار الغربي ظهر كرد فعل لتيار الحداثة وفي نفس الوقت كان مرتبطاً به بشكل مباشر. وعلى الرغم من كونه تياراً جديداً إلا أنه سعى أن يصبح قديماً بقدر الإمكان؛ ولذا فقد اهتم وسعى إلى استيعاب التجارب والتقاليد السابقة له. أما تيار ما بعد الحداثة الروسي فقد ظهر في آخر سنوات الحقبة السوفيتية في الفترة التي كان فيها الأدب السوفيتي يلفظ أنفاسه الأخيرة. وفي تلك الفترة كان تيار ما بعد الحداثة الغربي قد نجح في التغلغل في بنية الأدب وأصبح جزءاً ومكوناً مهماً وضرورياً لا بديل له في إبداعات الكتاب المعاصرين حينها.



وقد حافظ الأدب السوفيتي على ملمحين أساسيين: الحفاظ على قيم الأدب الكلاسيكي والحرص على وضوح النص بالنسبة للقارئ العادي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكُتَّاب كانوا يلتزمون بالقيام بذلك دون النظر إلى وجهة نظر ورأي الجماهير القراء. فلم يكن للقارئ أي دور سواء في عدد النسخ التي تطبع من الكتاب أو فترات العرض والبيع. بل كانت هناك رقابة على تعليقات القراء أشد من تلك المفروضة على الإبداعات الأدبية. حيث كانت تلك التعليقات والآراء تعكس بجلاء الرأي العام المجتمعي. وكان الهدف الأساسي لدار النشر هو تشكيل الرأي العام لا تحقيق نجاح تجاري للكتاب. كانت النظرة الأولى إلى أي نص باعتباره إعادة سرد للواقع ومرآة للحياة، وكانت نمطية الشخصيات تمثل سمة أساسية للواقعية الاشتراكية. وفي حين كان القراء معنيون أكثر بتقييم مدى حيوية الأدب وارتباطه بالواقع، كان النقاد يتناولون الخواص والسمات الأدبية بالبحث والدراسة.

ومع التغيرات الاجتماعية وصعوبة التواصل مع الثقافة الغربية والانفتاح عليها شهد تيار ما بعد الحداثة حالة من الجمود وعدم التطور، إلى أن ظهر الانترنت الأدبي الذي اعتبر تفعيلاً وتجسيداً لحلم ما بعد الحداثة بتحقيق المزج بين أدب النخبة والأدب الجماهيري. وقد جعلت الأعداد الكبيرة من المكتبات والمواقع الإلكترونية من النقاشات الأدبية فضاءات أكثر حيوية وثراء خاصة بين القراء.

وليس من المستغرب التزامن بين ظهور الانترنت وتيار ما بعد الحداثة في روسيا وكون عنصر التشويق والجذب مهيمًا على ما عداه. وبدا النقد الأدبي الروسي تتنازعه أقطاب مختلفة. ونشبت حرب نقاشية وجدلية بين أنصار الأدب الجماهيري التجاري وأدب النخبة غير التجاري. في البداية احتدم الجدل بين أنصار ومعارضين ما بعد الحداثة. وفي الفترة بين عامي ١٩٩١ - ١٩٩٥م أشعلت الصحافة الجدل في هذا الموضوع. ثم انتقل الجدل ليدور بين نقاد الأدب المحترفين في الصحافة المطبوعة ونظرائهم في صحافة الانترنت وكذا بين النقاد والقراء وبين المتعصبين لكُتَّاب بعضهم وحتى بين شرائح عمرية مختلفة. ثم ما لبثت أن ظهرت العديد من المجالات الافتراضية والجوائز الأدبية المرموقة والشهيرة وحتى الصغيرة. ويمكن أن يصبح ذلك مدعاة فخر للأدب الروسي حيث تساعد هذه المظاهر على تنشيط نشر الأدب وتناول الأعمال

الأدبية وبأقل تكلفة.

ومن خلال متابعة عملية تنامي انتشار الحديث عن الأزمنة والعصور القديمة في ثقافة المجتمع المعاصر فإن البعض ينظرون إلى هذا العصر ليس بوصفه ما بعد الحداثة بل ما بعد الحداثة. شاع رأي يقول إن العالم قد تجاوز مرحلة ما بعد الحداثة بنجاح. وأصبحت التحولات الاجتماعية والأدبية أكثر تعقيداً للدرجة التي أصبحت هناك ضرورة إلى ظهور تيار جديد. وهو تيار يتميز بتبني نفس الأفكار ولكن تحت قناع صنع على مستوى الإعلام الجماهيري المعاصر وفن العلاقات العامة. ويرى الفيلسوف ميخائيل إبيشتين أن الثقافة المعاصرة في روسيا تتحدد بمدى علاقتها بالماضي الشيوعي.

تيار ما بعد الحداثة

من السمات المميزة لتيار ما بعد الحداثة في الأدب الروسي الصدق في تناول الإنسانية الجديدة والبيوتوبيا الجديدة والمزج بين الاهتمام بالماضي والانفتاح على المستقبل. وقد انعكس الذوبان بين الحدود الأدبية ليس فقط على الأعمال الأدبية بل على مستوى النقد أيضاً. وينسحب الأمر على الأدب المطبوع التقليدي والأدب الإلكتروني الحر. حيث أصبح من الصعب التفريق بين المقالة النقدية والخواطر الخاصة التي يقوم بها الناس العارفون باللغة وبين الانطباعات الشخصية الذاتية والدراسات الموضوعية.

محور آخر مهم هو الجوائز الأدبية وتأثيرها على حركة الأدب في روسيا ودورها في انتشار وتنوع وتمازج الاتجاهات الأدبية. والجوائز الأدبية في روسيا تظهر وتختفي. وإذا ما قارنا الحال بأوروبا سنجد أن في روسيا حوالي ٧٠٠ جائزة أدبية في حين يبلغ العدد حوالي ٣٠٠٠ جائزة في أوروبا. ولعل أبرز الجوائز الروسية هي «البوكر» وهي أول جائزة حكومية تأسست في روسيا بعد عام ١٩١٧. وقد تم تدشين هذه الجائزة في عام ١٩٩١م وتمنح سنوياً للرواية الأفضل باللغة الروسية. وقد تغير ممول واسم الجائزة عدة مرات: «البوكر الروسية»، «سميرنوف بوكر» و«بوكر - روسيا المنفتحة»

وهناك أيضاً «جائزة الأكثر مبيعاً» والتي تمنح منذ عام ٢٠٠١م بوصفها جائزة أدبية وطنية روسية. ويتم ترشيح الأعمال النثرية التي نشرت خلال العام المنصرم للجائزة. كما يمكن التقدم بكتابات لم تنشر بعد بغض النظر عن تاريخ التأليف. وتهدف هذه الجائزة إلى الكشف عن القدرات السوقية للأعمال الأدبية. وتوفر إدارة الجائزة إمكانيات طباعة وتوزيع والدعاية للكتاب الفائز وبعده ضخم من النسخ. وهناك عدد من الجوائز التي تمنح حصرياً لروايات الخيال والفاكتازيا ونذكر منها جوائز «جسر النجوم» و«الفانتازيا الروسية» و«إي بي إس» وغيرها.

وهكذا يمكن القول إن علاقة الروس بالأدب قد عاشت العديد من العواصف الاجتماعية. كما

يمكن القول إن السمة الأساسية لتيار ما بعد الحداثة في روسيا هو الذوبان التام بين مختلف الحدود الثقافية والأيدولوجية وبين التيارات الأدبية وتراسل الفنون وامتزاج الأجناس، وهي الحال التي مازالت سائدة حتى يومنا هذا.

يمثل الأدب الروسي المعاصر مجموعة المؤلفات والأعمال الأدبية التي صدرت لأول مرة في روسيا منذ منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وحتى الآن. وقد لعب النقد الأدبي والمجلات والجوائز الأدبية العديدة دورًا كبيرًا في تشكيل عملية التطور الأدبي في روسيا. وخلافاً للستينيات والتي ساد فيها منفردًا اتجاه الواقعية الاشتراكية، يتسم الأدب المعاصر بتنوع اتجاهاته وتياراته.

وهناك عدد كبير من النقاد يعتبر أن عام ١٩٩١م هو البداية الحقيقية للأدب الروسي المعاصر والذي شهد بالإضافة إلى التحولات الاجتماعية العميقة انشقاق في اتحاد الكتاب السوفييت.

ويعيش الأدب الروسي مرحلة انتقالية جديدة في تاريخه تشبه تلك التي عاشها في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. شهدت العقود الثلاثة الأخيرة انتقال الأدب الروسي من مرحلة سيطرت فيها الرقابة على الإبداع في الحقبة السوفيتية إلى مرحلة جديدة استفاد فيها الأدب كغيره من الفنون من أجواء حرية التعبير. وهناك الكثير من أوجه الشبه بين تلك الحقبة وفترة العصر الفضي في الأدب الروسي.

وشهد النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين ثورة أدبية روسية. فقد تم إلغاء الرقابة تمامًا وإعلان سياسة المكاشفة والعلانية، وأدى ذلك إلى ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية الأجنبية إلى الروسية. كما عاد الكثير من الأدباء الروس الذين تم نفيهم أو هاجروا إلى الخارج أو منعت كتبهم من النشر في السابق. وقد أطلق على كتب هؤلاء «الأدب العائد» ونذكر منهم على سبيل المثال ألكسندر سولجنستين صاحب «أرخبيل الجولاج» ورواية بورييس باسترناك «دكتور زيفاجو» ورواية ميخائيل بولجاكوف «المعلم ومارجريت». وقد استفاد الأدب الروسي من غياب الرقابة وانطلق بحرية يتناول كل القضايا ويجرب نفسه في مختلف الأجناس الأدبية.

ملامح الأدب الروسي المعاصر

فضلاً عن الحرية في الطرح يتسم الأدب الروسي المعاصر بسيطرة موضوعات الحوار بين الحضارات والثقافات حيث يلتحم الكتاب الروس في فضاء واحد مع الكتاب المعاصرين في العالم. كما يتسم بغياب المنهجية الواحدة أو الأسلوب الواحد أو الزعيم الأوحد. وأخيراً يتميز الأدب المعاصر بكونه يجمع أكثر من جيل من الكتاب حيث يجمع النقاد على أن هناك أربعة أجيال من الكتاب ينشطون حالياً على الساحة الأدبية. الجيل الأول هو جيل الستينيات الذين بدعوا الكتابة في فترة ذوبان الجليد ومن أمثالهم فاسيلي أكسيونوف وفلاديمير فوينوفيتش وفالينتين راسبوتين وغيرهم. ويعتبر هؤلاء اليوم من الكتاب الكلاسيكيين في الأدب المعاصر. أما الجيل الثاني فهو

جيل السبعينيات أو الجيل السوفيتي. وقد بدأ هؤلاء الكتابة في أجواء الرقابة والمنع ونذكر منهم: أندري بيتوف وليودميلا بيتروشفيسكايا وفكتوريا توكاريوفا وهؤلاء يرون أن الإنسان بطبيعته جيد ولكن الظروف المحيطة هي السيئة. ومع البيروسترويكما ظهر الجيل الثالث ويضم تاتيانا تولستايا وفكتور بيليفين وليودميلا اوليتسكايا وفلاديمير سوروكين. وقد بدأ هؤلاء العمل دون رقابة وقاموا بالتجريب في مختلف فنون الأدب وطرح موضوعاته خاصة تلك التي كانت محظورة في السابق. أما الجيل الرابع فبدأ نشاطه في نهاية التسعينيات وأغلبه من الكتاب الشباب من أمثال دينيس جوتسكو وأندري جيلاسيموف ورومان سينتشين وزاخار بريليين.

موضوعات الأدب وتوجهاته

بعد أن مر الأدب بفترة انتقالية صعبة أخذ في التطور المتواصل فصار أكثر إمتاعًا وظهر التجريب وتم طرح مواضيع جديدة. واليوم يتوزع الأدب بين اتجاهات متعددة منها الواقعية الجديدة والتي تتناول بشكل تقليدي القضايا الاجتماعية والأخلاقية في الحياة ويواصل في ذلك تقاليد الأدب الروسي. ويتسم هذا الاتجاه بغلبة الفسيولوجي والفلسفي فيه وتفعيل دور البطل الباحث عن حل للمشكلات وتكرار الحوار بين المؤلف والقارئ. وهناك من يطلق عليه اتجاه «ما بعد الواقعية»، ويعرفونه بأنه منظومة محددة للتفكير الفني حيث يتم قبول الواقع بوصفه معطى موضوعيًا وتطابق بين ظروف مختلفة تؤثر على المصير الإنساني. وقد لوحظ في أعمال ما بعد الواقعية ابتعاد الكاتب عن الباعث الاجتماعي مع منح الأولوية لتصوير الحياة الشخصية للإنسان ونظرته الفلسفية للعالم المحيط. وقد استمر الاتجاه الواقعي في ترسيخ أقدامه في الأدب الروسي المعاصر بل وتشعب إلى فروع منها السيرالية والواقعية النقدية والواقعية السحرية. وتتطور المبادئ التي وضعها ماركس وبورخيس على أيدي جيل جديد من الكتاب من أمثال الفريدي يلينيك وجوران بيتروفيتش وماريو فارغوس وغيرهم.

وهناك أيضًا الأدب الجماهيري والذي يتسم باستخدام خليط من الأكلشيهات المضمونية ومنظومة أجناس فنية صارمة مثل الأدب البوليسي والميلودراما والفانتازيا وغيرها. كما يضعف وأحيانًا يغيب تمامًا موقف الكاتب في العمل الأدبي. ويتسم هذا الأدب أيضًا بتناول الموضوعات التي تناقش الغرائز والرغبات الإنسانية.

ومازال الأدب البوليسي يحتل الصدارة نظرًا لإقبال القراء على هذا النوع إلا أن الأعمال البوليسية أصبحت تتضمن موتيفات تاريخية وساخرة وخيالية وفكرية. ومن أشهر الكُتاب سيرجي لوكيانينكو وبوريس اكونين.

وإذا تحدثنا عن أدب السيرة الذاتية يمكن القول إنه يحتل مساحة ليست كبيرة. ويرجع ذلك لقلّة إقبال القراء على هذا النوع من الأدب بالإضافة إلى أن قيمتها الأدبية ليست كبيرة.

ومن أهم الاتجاهات الأدبية المعاصرة في روسيا «ما بعد الحداثة» ويتمثل في إعادة تقييم المعايير الجمالية ومزج الأساليب واللغات والثقافات والاقْتباسات الساخرة من التجارب الفنية العالمية. وعلى الرغم من أن الاتجاهات الحديثة في الأدب الروسي قد تخطت مرحلة ما بعد الحداثة وتمضي قدمًا إلا أن هذا الاتجاه ما زال صامدًا وخاصة بين النخبة من المثقفين.

وتتمحور أهم الموضوعات التي يتناولها الكتّاب الروس المعاصرون بين الحديث عن الأساطير (فلاديمير ارلوف واناتولي كيم وأليكسي سلابوفسكي وفلاديمير سوروكين وتاتيانا تولستايا) أو تناول القرية الروسية (يفغيني نوسوف وفاسيلي بيلوف وفالينتين راسبوتين وبوريس يكيموف) أو الفانتازي (مانويل سيمينوف وسيرغي لوكيانينكو وميخايل اوسبينسكي) والمذكرات المعاصرة (يفغيني جابريلوفيتش ودافيد سامويلوف وليف رازجون) بالإضافة إلى الأدب البوليسي الذي ما زال مزدهرًا (ألكساندرا مارينينا وبولينا داشكوف وبوريس اكونين).

وهكذا نصل إلى نتيجة أن الأدب الروسي المعاصر يعيش مرحلة البحث عن الهوية ويحاول إثبات قدرات ومواهب الأدباء الجدد على مواصلة التقاليد العظيمة في الأدب الروسي وتحقيق اكتشافات إبداعية جديدة. كما يمكن القول إن وفرة الكتّاب الشباب الواعدين يبعث على التفاؤل بمستقبل الأدب الروسي خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين.

الباب الثالث

تيارات وظواهر في الأدب الروسي

افتقد الأدب الروسي في القرون الوسطى إلى وجود كتابات عن الطفل، وذلك نظرًا لأن الأدب في تلك الفترة كان مرتبطًا بالكنيسة، وكانت معظم المؤلفات لرجال الدين الذين التزموا بقواعد وقوانين صارمة في الكتابة وبأهداف محددة. ولم تعرف تلك الفترة فكرة تصنيف الأدب وفق أعمار القراء. وكان الطفل ينظر إليه بوصفه نسخة مصغرة من الشخص البالغ، واستخدمت في تلك الفترة المؤلفات الكنسية، وخاصة كتب المزامير ككتب تعليمية للأطفال.

اتجاه الكتابة عن الطفل

يعتقد الباحثون أن الفترة بين القرنين ١٥ - ١٦ قد شهدت أولى الكتابات عن الطفل في روسيا، حينما تم الاعتراف بأهمية تلك الفترة من عمر الإنسان. وشهدت تلك الفترة علمنة للكتابات الأدبية وتخليصها من القوالب الدينية والكنسية التي هيمنت عليها لقرون. كانت المؤلفات الأولى عن الطفل في روسيا عبارة عن مخطوطات تحمل مضامين تربوية وتهذيبية وتنويرية. ونذكر منها «كتاب في وصف القواعد وبناء الكلمة» لمؤلفه فيودور كوريتسين، وكتاب «الحكايات الشعبية» للكاتب ديميتري جيراسيموف والذي صدر في نهاية القرن الخامس عشر. بينما في بداية القرن السادس عشر صدر كتاب «حكاية الحكم السبعة» حيث يتم تجسيد كل حكمة تتحدث وتحكي عن مزاياها. وهناك أكثر من عشرة كتب أخرى عن الطفل صدرت في الفترة ذاتها.

ولا يمكن أن نتجاهل أهمية الأدب الشعبي والذي أثرى أدب الطفل، وكان له تأثيره القوي على تطور الكتابة للطفل لاحقًا.

أما أول كتاب مطبوع عن الطفل فكان «الغبائية» للكاتب إيفان فيودوروف، وصدر في مدينة لفوف في عام ١٥٧٤. ثم شهد أدب الطفل في روسيا تطورًا كبيرًا، عندما تحول من أدب تعليمي إرشادي إلى أدبي فني وعلمي

وشهد الأدب الروسي صدور كتب للأطفال الأكبر سنًا، وكان منها ما يهدف للتسلية، ومنها ما هو تعليمي وتربوي، كما ظهرت للمرة الأولى مؤلفات شعرية للطفل. وارتبطت أول أشعار الطفل في روسيا باسم بالمحرر في مطبعة موسكو فاسيلي فيودوروفيتش بورتسيف بروتوبوب. ويرجع الفضل له في تأليف ١٦ كتابًا تعليميًا للأطفال في روسيا.

كما شهدت العقود الأولى من القرن السابع عشر صدور العديد من الكتابات النثرية للأطفال. وانتشرت ظاهرة تبسيط العلوم والمؤلفات الخاصة للكبار لتصبح سهلة الفهم على الطفل. كما تم فعل الشيء نفسه مع القصص الأدبية حيث تم تبسيطها واختصارها للأطفال ونذكر منها: «حكاية

قازاق الدون» و«قصة بطرس وفيرونيا» وغيرهما.

وتمثل إبداعات الكاتب سيميون بولوتسكي مرحلة مهمة في تطور أدب الطفل الروسي. وُلد الكاتب في عام ١٦٢٦ وتُوفي عام ١٦٨٠. وقد عمل لفترة طويلة مربياً لأبناء القيصر ألكسي ميخيلوفيتش. وتم جمع تراثه في كتابين «كتاب الشعر» (١٦٨٠) وهو عبارة عن أشعار عن مختلف الأحداث التي عاشتها الأسرة الحاكمة وجزء منها من وجهة نظر أطفال الأسرة. أما الكتاب الثاني فهو بعنوان «مدينة فيتراجراد زاهية الألوان» والذي يعتبر موسوعة شعرية، ويتضمن الكثير من قصص الحيوان والكائنات الخيالية والأحجار الكريمة والنوادر وأشعار الطبيعة والقصص الشعرية.

وفي تسعينيات القرن السابع عشر، صدرت ثلاثة كتب للأديب قاريون ايستومين: «الفبائية مصورة» (١٦٩٤) و«حياة وخدمة يوحنا المحارب» (١٦٩٤) و«الفبائية» (١٦٩٦). كما قام بكتابة عدد مخطوطات أشهرها «عن العلوم الاثني عشر وأسرار العالم والكنيسة» و«مدينة بوليسيس - مدينة مملكة السماء والتلميذ النجيب».

ومع تولي القيصر بطرس الأكبر شهدت حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى الروسية ازدهارًا كبيرًا، وتم ترجمة الكثير من كتب الأطفال في أوروبا إلى الروسية، ومنها كتاب «دون كيشوت» لسيرفانتيس وكتاب «رحلات غوليفر» لجوناثان سويفت و«روبينسون كروزو» لدانييل ديفو وغيرها. غير أن هناك تحولًا كبيرًا في وظيفة كتابات الطفل، حينها حيث لم يعد دورها دينيًا إرشاديًا أو حتى للتسلية بل تم توظيفها لتحقيق مصالح الدولة وخلق جيل جديد من الموظفين الحكوميين. وأصدر الكاتب فيوفان بروكوبوفيتش كتابه للأطفال بعنوان «التاريخ الروسي المختصر» وكتاب «قواعد السلوك للأطفال».

وشهدت تلك الفترة تحديد أطر وقواعد للكتابة للطفل، حيث اتسمت مؤلفات الأطفال بقصر الحجم وبساطة اللغة وكثرة الحوارات والمغامرات والخاتمة السعيدة حيث ينتصر الخير دائمًا على الشر.

كما شهد أدب الطفل طفرة هائلة في عصر الإمبراطورة يكاترينا الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) والتي عرف عنها سعيها الحثيث لنشر التنوير والتربية حتى إنها قامت بنفسها بكتابة العديد من المقالات التربوية وحكايات أطفال لحفيدها ألكسندر. كما اتسمت أشعار الطفل في تلك الفترة أيضًا بالطابع التنويري والتهذيبي والإرشادي ونذكر منها أشعار أ. سوماركوف.



شهدت حقبة الإمبراطورة يكاترينا الثانية أيضًا صدور العديد من كتب الأطفال التي تحتوي على كمّ ذاهر من المعلومات والمعارف بهدف توسيع مدارك الأطفال عن العالم المحيط. وفي عام ١٧٦٩ صدر كتاب «القواعد الروسية العامة» لمؤلفه «ن. كورجانوف» وكتاب موسوعي للأطفال فوق العشر سنوات. كما صدر كتاب للكاتب «أبولوتف» بعنوان «فلسفة الطفل أو حوارات عن الأخلاق بين سيدة وأطفالها». كما أبدع الأديب أشعارًا ومسرحيات لمسرح الطفل. وفي عام ١٧٧٧ صدرت موسوعة «مكتبة الطفل» لأستاذ علوم التربية الألماني إ. كامبي والتي تمت ترجمة الكثير منها إلى اللغة الروسية. وتم استلهام الكثير من المضامين منها وإعادة صياغته بروح روسية. وقام بترجمة وروسنة النص الكاتب أ. شيشكوف وأطلق على الكتاب عنوان «مكتبة الطفل أو مجموعة قصص وحكايات وحوارات وأساطير للأطفال شعرًا ونثرًا مترجمة إلى الروسية»، ويعد الكتاب أول مجموعة مختارة كبيرة الحجم لأدب الأطفال فوق العاشرة من العمر. وشهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر صدور أول مجلة لطفل في روسيا «كتاب القراءة للأطفال لتغذية العقل والقلب». وتولى رئاسة تحرير المجلة الكاتب إ. نوفيكوف. وصدرت المجلة بشكل دوري أسبوعيًا في الفترة من ١٧٨٥ - ١٧٨٩م وكانت مخصصة في المقام الأول للأطفال في المرحلة العمرية من ٦ - ١٢ سنة. واحتوت المجلة على الكثير من المقالات والقصص والقصص القصيرة والمسرحيات والحكايات والفكاهات والألغاز، وغيرها من المواد التي تهتم الطفل، وتميزت المجلة بمواكبتها للعصر، كما اتسمت لغتها بالسلامة والدقة. وشهدت تلك الفترة ازدهار تيار السينتمنتالية في الأدب، وهو ما كان له عظيم الأثر على ما تطرحه المجلة حيث لوحظ تغليب المشاعر والقلب على العقل في إبداعات كتاب المجلة وهي السمة المميزة لهذا التيار. وقام رائد هذا التيار في روسيا ن. كارامزين بالإسهام في الكتابة للأطفال، حيث قام بترجمة وتأليف حوالي ٣٠ مؤلفًا للأطفال، نذكر منها قصة «يفجيني وبوليا» وحكاية «الغابة الناعسة» و«الحكيم إليا» وغيرها، كما اعتبر بعض النقاد قصته الشهيرة «ليزا المسكينة» في عداد قصص الأطفال في تلك الفترة. واتسمت إبداعات الكاتب للأطفال بسعيه لصبغ الإنسان بصبغة مثالية، وكذا التغني بجمال الطبيعة وتجميل صورتها. كما اتسمت أيضًا بالاهتمام الكبير بالعالم الداخلي للأبطال وبالعلاقات المتبادلة فيما بينهم.

وقد اعترف كارامزين بقيمة وأهمية أدب الطفل وإمكانية استخدامه بهدف التسلية للكبار. أولع القراء من مختلف الأعمار بقراءة الحكايات الروسية للكتاب م. شولكوف وف. ليفشين وغيرهما. واتسمت الحكاية الروسية في عصر السينتمنتالية بالمزج بين بين التفاصيل العلمانية والشعبية والروسية والأوروبية والقديمة ومن القرون الوسطى. كما ظهرت الحكايات التي تتضمن عناصر تحليل نفسي وتتناول الصراع الأخلاقي والمتناقضات الفلسفية كالخير والشر على سبيل المثال. كما شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر انخراط الكثير من الكتّاب والشعراء الروس في الكتابة للأطفال، ولعل أشهرهم ميخائيل لومونوسوف وأ. سوماروكوف وج. ديرجافين وإ.دميتريف وغيرهم. غير أن تلك الحقبة اتسمت بنقل الكثير من المضامين والأفكار من الغرب وخاصة من الأدب الفرنسي.

وهكذا يمكن القول إن لأدب الطفل جذورًا قديمة في روسيا تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وأنه تحول تدريجي عبر القرون من أدب ديني كنسي إلى أدب تنويري ليبرالي بعد النهضة التي شهدتها روسيا في عصر القيصر بطرس الأول.

(٢)

شعراء.. ودبلوماسيون

ظاهرة فريدة في روسيا

هل هناك ثمة شيء مشترك بين الشعر والدبلوماسية؟ فالمعروف أن الدبلوماسي يدافع على الساحة الدولية عن المصالح الراهنة لدولته، أما الشاعر أو الكاتب فيبحث في أعماق روحه وتجربته الشخصية الخاصة عن بعض الأفكار الجامعة والإنسانية المشتركة ويحولها إلى صورة مكتملة متجانسة.

إلا أن هناك ما يجمعهما، فكل من الدبلوماسي والشاعر يتعامل مع الناس من خلال انتقائه للكلمة المقنعة والدقيقة والمنطوقة بالشكل والطريقة اللازمة وفي الظروف الزمنية والمكانية المثالية وبعد تفكير عميق. وباختصار هما يختاران الكلمات التي يتحملان المسؤولية عنها لعقود وربما لمئات السنين.

مفهوم الشعر لدى الدبلوماسي

الدبلوماسي الشاعر هو ظاهرة شائعة في روسيا، ويمكن القول إن روسيا تنفرد بذلك عن غيرها من بلدان العالم في اشتغال كثير من دبلوماسيها بالعمل الأدبي والإبداعي.

في العاشر من فبراير من كل عام تحتفل روسيا بيوم الدبلوماسي. ففي هذا اليوم تحديداً من عام ١٥٤٩م كان أول قرار بتعيين سفير روسي وإنشاء أول إدارة تعنى بالسياسة الخارجية في روسيا. وقد تميزت الدبلوماسية الروسية عبر التاريخ بتولي المبدعين من الأدباء والشعراء مناصب رفيعة. هؤلاء الذين استخدموا إبداعاتهم للتعبير عن علاقتهم بالحياة، وحاولوا من خلالها التفكير في ماضي روسيا وحاضرها ومكانتها في العالم واستشراف مستقبلها.

وتنشط في وزارة الخارجية الروسية جمعية أدبية تم تأسيسها من خمسة عشر عامًا تضم في عضويتها ما يزيد عن ٦٥ سفيرًا ودبلوماسيًا شاعرًا نذكر منهم سيرجي لافروف وأ.ب.بسميرتنيخ وإ.أ.ب.م.سكي ويفجيني بريماكوف وغيرهم... ويتأخرس الجمعية الدبلوماسي والشاعر فلاديمير ماسلوف والذي عمل سفيرًا لأكثر من عشرين عامًا في بريطانيا واليابان وبنجلاديش. وهو مؤلف لأكثر من عشرين مجموعة شعرية تم ترجمة بعضها إلى ٧ لغات أجنبية. وقد تأسست الجمعية الأدبية تلك بمبادرة من السفير والشاعر يوري عليموف. وتحمل الجمعية اسم «المتنفس». وتقوم بتنظيم الفعاليات الدورية والاحتفال بالذكرى السنوية لكبار الدبلوماسيين الشعراء الروس من أمثال فونفيزين وجريبيودوف وتيوتشيف. كما تقوم بدعم إصدار المجموعات الشعرية والدواوين والكتب. وتقوم الجمعية بالتعاون مع السفارات الروسية بالخارج بتنظيم الصالونات الأدبية والموائد

المستديرة والأمسيات الشعرية للمواطنين الروس المقيمين في هذه البلدان. بالإضافة إلى مساعدة الدبلوماسيين الشعراء من الشباب في نشر إبداعاتهم في الدوريات المختلفة. وقد صدرت أول مجموعة شعرية للجمعية في عام ٢٠٠١م وتلاها سبع مجموعات أخرى تحمل عناوين «المتنفس» و«النفس الثاني» و«من قرن لآخر» و«سمالينكا» و«الدبلوماسية والشعر» وغيرها.

يقوم جوهر وظيفة الدبلوماسي على إرساء العلاقات والصلات مع البلدان الأخرى، وكذا مع الثقافات والحضارات ودراسة حياة الشعوب الأخرى وهو ما يشجع على إطلاق العنان للإبداع الفني. كما يشجع على اتجاه الدبلوماسيين للشعر تحقيق هدف جذب انتباه الشركاء الأجانب إلى منجزات الثقافة الوطنية وإسهاماتها في التطور العالمي وزيادة الاهتمام بدراسة اللغة الروسية.

أشهر الشعراء الدبلوماسيين

من أمثلة الشعراء الدبلوماسيين الروس نذكر دينيس فونفيزين والذي شغل منصب سكرتير وزير الخارجية الروسي وفيودور تيوتشيف وعمل سكرتيرًا للبعثة الروسية في ميونيخ. وقد عمل الكاتب والفيلسوف الروسي قسطنطين ليونتوف بقنصليات روسيا في البلقان، كما أن قسطنطين باتيوشكوف عمل دبلوماسيًا في إيطاليا وتولستوي في ألمانيا، والقائمة تطول.

ومن الدبلوماسيين الشعراء أيضًا نذكر أناتولي لوكيانوف رئيس المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتي وأول رئيس للبرلمان السوفيتي ومن قام على إعادة إصلاح الحزب الشيوعي السوفيتي. وكان يكتب الشعر طوال حياته باسم مستعار هو أناتولي أوسينوف.

ونذكر أيضًا ألكسندر بيسميرتنخ الذي عمل وزيرًا للخارجية في بداية التسعينيات وقبلها عمل سفيرًا للاتحاد السوفيتي في الولايات المتحدة الأمريكية. كما كان وزير الخارجية الأسبق يفجيني بريماكوف أيضًا يكتب الشعر.

ولعل ألكسندر جريبويدوف من أشهر الشعراء الذين عملوا بالدبلوماسية الروسية. ولد في عام ١٧٩٥م بمدينة موسكو وهو دبلوماسي وشاعر وكاتب مسرحي وعازف بيانو. ومن أروع أعماله مسرحية «ذو العقل يشقى». وقد وصفه الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين بأنه واحد من أهم عقول روسيا. فقد أتقن جريبويدوف ٣ لغات أجنبية وهو ما زال في السادسة من العمر ضاعفها إلى ٦ لغات فيما بعد. وقد عمل الشاعر سفيرًا لروسيا في طهران وتعرض للقتل من قبل منظاهرين إيرانيين هاجموا السفارة وقتلوا من فيها حتى إنه لم يتم التعرف على جثته إلا من خلال جرح قديم في يده. وتوفي الشاعر عن عمر يناهز ٣٤ عامًا فقط.

ولا يمكننا تصور موسكو التاريخية في القرن التاسع عشر دون المبنى القابع على بوابات بوكروف والذي كان يضم الأرشيف الرئيس في موسكو التابع للخارجية الروسية. وقد عمل في

هذا المبنى في أوقات مختلفة كل من ك. باتيوشكوف ود. فينفييتينيف ون. أوجاريوف وأ. تولستوي. وقد عمل في أرشيفات الوزارة أيضًا كل من ن. كارامزين وس. سولوفيفوف وف. كليوتشيفسكي والتي تعد أعمالهم من كنوز الأدب الروسي.

ومن المعاصرين نذكر أوليج بوريسوفيتش أوزيروف سفير روسيا في السعودية وهو شاعر معروف في روسيا ولد في عام ١٩٥٨ م. وهو دبلوماسي روسي عمل بالعديد من الدول العربية منها سوريا وتونس. ومنذ عام ٢٠١٠ م يشغل منصب سفير روسيا بالمملكة العربية السعودية ومندوب روسيا الدائم في منظمة التعاون الإسلامي.

ويعتبر أوليج أوزيروف من المستشرقين الروس المعاصرين ويعد نموذجًا للدبلوماسية المستعرب الذي يكن احترامًا كبيرًا للتراث والحضارة والثقافة العربية والإسلامية. ومن أهم مؤلفاته الشعرية مجموعة «عيد تاتيانا» الشعرية التي صدرت في عام ٢٠٠٢ م.

وتضم القائمة أيضًا سيرجي لافروف وزير الخارجية الحالي. وقد نشر الأخير مجموعة من أشعاره مؤخرًا. وضمت ثلاث قصائد بصحيفة «روسكي بيونير». وقد تولى لافروف منصب وزير الخارجية الروسي منذ عام ٢٠٠٤ م.

ولعل من المهم أن نذكر أن الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين قد عمل بوزارة الخارجية الروسية لفترة بلغت ١٤ عامًا. ويعود السبب إلى تجاهل هذه الفترة من حياته إلى أن مؤرخي تلك الفترة ومن عمل في كتابة سيرة حياة بوشكين لم يكن يسمح لهم بالتعرف على وثائق وزارة الخارجية الروسية لطابعها السري. وبعد أن تم الاطلاع على أرشيف بوشكين بالخارجية الروسية تبين أنه وقع على قرار تعيينه بها في عام ١٨١٧ م وبعد انتهاء دراسته مباشرة. ثم هناك وثيقة أخرى بتاريخ ١٨٣٢ م وقع عليها بوشكين بقبول تعيينه مستشارًا بالخارجية.

وهكذا ترسخ عبر عقود طويلة هذا التقليد المميز للدبلوماسية الروسية والمتمثل في اهتمام الكثير منهم بالأدب عامة والشعر خاصة. ويمكن القول إن الدبلوماسية الروسية كانت دائمًا مرتبطة بالثقافة الوطنية والشعر تغترف منه الطاقة الروحية، وبدورها تثري الحياة الأدبية والثقافية بأفكار جديدة وأفق دولي رحيب.

يختلف النقاد والأدباء في تعريف «الأدب النسائي» حيث يرى البعض أنه الأدب الذي يطرح قضية المرأة وحقوقها حتى ولو لم تكن المؤلفة أنثى. وهناك فريق آخر من النقاد يرى أنه ذلك النوع من الأدب الذي تتميز الكتابة فيه عن كتابة الرجل.

وهناك فريق ثالث يرى أنه الأدب المرتبط بحركة المرأة وحريتها وصراعها نحو تحقيق المساواة مع الرجل. وهناك تسميات أخرى للأدب النسوي في الغرب حينما يطلقون عليه أدب «الملائكة والسكاكين» فيما أطلق الأديب الكبير أنيس منصور على هذا النوع من الأدب اسم «أدب الأظافر الطويلة» وأطلق عليه الأديب إحسان عبد القدوس اسم «أدب الروج والمانيكير». وهناك من يفضل مصطلح «الأدب الأنثوي» ويعرفه بما تكتبه المرأة من أدب في مقابل ما يكتبه الرجل.

أما عن الأدب الروسي فيعود هذا المصطلح إلى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات. فقد شهدت تلك الفترة ظهور موجة جديدة في الأدب، حيث تنوعت الاتجاهات إلا أن ما كان يوحد الأدباء هو السعي للبحث عن أشكال فنية جديدة. ومن بينها ما اصطلح على تسميته بالأدب النسائي. وهناك جدل كبير حول أحقية هذا المصطلح في البقاء. فهناك من يعارض مفهوم «الأدب النسائي» ويدلل بحقيقة أن الأدب لا يمكن أن ينقسم إلى نسائي ورجالي بل يجب تقسيمه إلى أدب جيد وآخر رديء. فيما يرى آخرون في روسيا أن سعي المرأة إلى التعبير عن نفسها يختلف عن الرجل. حيث تقول الكاتبة الكبيرة لودميلا أوليتسكايا «إن الفن ينقسم إلى رجالي ونسائي. وهذا التقسيم ليس مطلقاً غير أن علماء الأنثروبولوجيا يعرفون جيداً أن هناك شعوباً تحمل فيها المرأة لواء الحفاظ على الفلكلور الشفهي المنقول. وأن عالم النساء وعالم الرجال مختلفان. وفي عالم المرأة تغلب أكثر القضايا التي ترتبط بالحب والعائلة والأطفال».

وقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي ازدهار الأدب النسائي في روسيا حيث تضاعف عدد الكاتبات مقارنة بالعقود السابقة. ويرجع ذلك إلى العديد من الأسباب لعل أهمها النهضة الثقافية التي شهدتها النخبة المثقفة في روسيا والتي تمثل المرأة جزءاً أصيلاً منها.

وتجدر الإشارة إلى أن الكاتبات الروسيات ظهرن في روسيا منذ القرون الوسطى وتحديداً في القرن الثالث عشر الميلادي. غير أن أعدادهن كانت دائماً قليلة مقارنة بالكتّاب الرجال. وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي صدور مجلات مخصصة للأدبيات من النساء وكانت الموضوعات تتركز حول تصوير دور المرأة الروسية في التنوير والأدب وتدعو المرأة إلى احتلال المكانة التي تليق بها في ساحة الأدب.

وفي محاولة منهم لفهم وتحليل ظاهرة الأدب الأنثوي في التسعينيات وبداية القرن الجديد

استخدم النقاد مصطلح Gender أو نوع الجنس. وتعود تسمية هذا النوع من الأدب في روسيا إلى عدة عوامل. أولاً أن يكون المؤلف امرأة وأن البطل الرئيس امرأة أو أن قضية العمل الأدب ترتبط بشكل أو بآخر مع مصير المرأة. كما أن النظر إلى الواقع المحيط من وجهة النظر الأنثوية ومع الأخذ في الاعتبار بفسولوجية المرأة من الأمور المهمة أيضاً. وقد نال هذا النوع من الأدب اعترافاً رسمياً في روسيا في نهاية القرن العشرين ويمثل حالياً فينومين راسخاً في الأدب الروسي. ويتناول النقاد بالتحليل أعمال الكاتبات الروسيات بالتحليل، حيث تنشر بحوث متخصصة لتحليل مختلف جوانب النثر الأنثوي، وتجرى مناقشات وتنظم المؤتمرات العلمية حول هذا الموضوع. كما يقوم علماء اللغة والتاريخ وعلم الاجتماع بدراسة هذه الظاهرة. ومن الموضوعات التي تحتل أهمية خاصة حالياً العناصر الجمالية الأنثوية الخاصة واللغة الأنثوية والقدرة الأنثوية في الكتابة. ومن أهم النتائج التي تم التوصل إليها من جانب الباحثين حقيقة أن النثر النسائي يشهد العمليات نفسها التي تحدث في باقي صنوف الأدب ومحاولات البحث عن علاقات جديدة في الفن وأساليب جديدة لترسيخها. وتعتقد الكاتبة والناقدة أ. سلافنيكوف أن المرأة كان لها قصب السبق دائماً في كشف المضامين الجديدة. ويؤكد ازدهار النثر الأنثوي اليوم في روسيا على حقيقة أن الأدب كان وسيظل دائماً ذا أهمية كبيرة. إن ظهور الأدب النسائي في روسيا يدحض حقيقة انتهاء عصر الأدب فالمرأة لا تلجأ أبداً إلى مكان مهجور. وفي الحالات التي يتوجب فيها على الرجل الموت نجد المرأة مضطرة إلى النجاة والبقاء.

ومن القضايا المهمة التي يتناولها الباحثون الروس حالياً هي ما يعرف «بالأخلاق الأنثوية». ويعتقد البعض أن الجانب الأخلاقي له علاقة مباشرة بالأدب أيضاً حيث إن كل فني وجمالي ما هو إلا تجسيد شكلي للعلاقات والصلات التي يحددها الإطار الأخلاقي.

أشهر رواد الأدب النسائي

بنظرة سريعة إلى الأدب الروسي المعاصر نجد العديد من المواهب النسائية تسيطر على المشهد ومنهم تاتيانا تولستايا ولودميلا أوليتسكايا وفيكوتوريا توكاريوفا ولودميلا بيتروشييفسكايا وف. ناربيكوف وس. فاسيلينكا وم. بالي وم. فيشنيفيتسكايا ون. جورلانوف وغيرهن. ولعل الدليل على ترسخ ظاهرة الأدب النسائي في روسيا المعاصرة هو احتواء القواميس والموسوعات الأدبية والمعاجم على مواد عن الكاتبات الروسيات وتعريفات بالمصطلح. كما تحتوى الكتب الدراسية على فصول مخصصة لهذا الموضوع ومنها على سبيل المثال كتاب «تاريخ الأدب في القرن العشرين» لمؤلفه ك. جوردوفيتش ويتم تدريسه في الكليات الإنسانية، ويحتوى على فصل كامل يحمل عنوان «الأدب النسائي» يصنف فيه هذا النوع من الأدب ويحلل بعض المؤلفات لكاتبات نساء. وهناك كتب أخرى كثيرة تتناول نفس الظاهرة. وربما يمكن القول وهذا الأمر جعل من

الضروري التفكير في ماهية مصطلح «الأدب الأنثوي أو النسائي» وكيف ينصهر في بوتقة الأدب المعاصر ككل. ومن بين أشكال الأدب النسائي الروسي الرواية العاطفية الاجتماعية والنفسية ورواية السيرة الذاتية والقصة والمقال والقصة القصيرة. ومن أهم القضايا التي يتناولها الأدب النسائي الروسي ما يرتبط بالحلم والسعادة والحب والطفولة. وقد ظهر صنف جديد من الأبطال وواقع جديد وعالم فني فريد. وقد فرض الواقع الجديد ظهور مؤلفات تظهر فيها المرأة كبطل رئيس وعدم الاكتفاء بدور المعبر عن أفكار الكاتبة. واليوم يمكننا القول إن النثر النسائي الروسي برز كفينومين راسخ ومهم في الأدب المعاصر ويثير اهتمامًا واسعًا بين القراء والنقاد بفضل مميزاته الإبداعية الرفيعة. أما الموضوع الرئيس في الأدب النسائي فيضم قضايا الأسرة والتناقض بين حياة الطفولة والكبر وقضية «الجنة المفقودة» والبحث عن معنى الحياة والعلاقة بين الفرد والمجتمع والإنسان البسيط.

ففي رواية «ميديا وأطفالها» تتناول لودميلا أوليتسكايا موضوع الكون النسائي عبر العصور التاريخية المتتابعة. وقد اختارت الكاتبة امرأة بطله للرواية بل وجعلت من اسمها عنوانًا للكتاب. ويعكس عنوان الرواية مضمون الأحداث.

فيما تهتم الكاتبة لودميلا بيتروشيفسكايا بتتبع التحول الذي يطراً على الشخصية الروسية بفعل البيئة المحيطة وتحاول أن تكشف عن العالم الداخلي للإنسان المعاصر وتكشفه للقارئ في ظروف ومواقف حياتية مختلفة حيث تتباين تصرفاته بين العادي والغريب. هذه السمة لأدب بيتروشيفسكايا تبدو واضحة في قصتها «جروزنايا الصغيرة» والتي تتناول فيها أيضًا موضوع الأسرة. وعادة ما تعيش شخصيات بيتروشيفسكايا حياة صعبة تعيسة ويعانون من مشاعر الحزن والكبت. ويمكن أن نصف عالم الكاتبة الأدبي بأنه عالم مؤلم يخلو من الأحاسيس الجميلة والطيبة.

أما تاتيانا تولستايا فتتسم أعمالها الأدبية بتناول قضايا الكون وموضوع الخير والشر والحياة والموت واختيار الطريق والعلاقات مع المحيطين والبحث عن الذات وفهم النفس والهدف في الحياة. وهناك دائمًا في أعمالها حنين إلى القيم الإنسانية المفقودة في الفن.

كما نجحت الكاتبة فيكتوريا توكاريوفا في تقديم وصف دقيق لنفسية المرأة وعالمها الداخلي وتواتر أفكارها ومنطقها في الحكم. وتولى الكاتبة اهتمامها بمفاهيم الأسرة والمنزل والإخلاص والزوج والزوجة والحبوبة والخيانة والتضحية من أجل الحب. حتى إنه عندما تتناول الدولة وتصفها فإنها لا تصفها من وجهة النظر السياسية والعلاقة مع العالم الخارجي بل من حيث الحياة في المدرسة وفي الشارع والتاكسي إلخ.



وتعد يلينا تشيجوفا كذلك من أهم الكاتبات الروسيات المعاصرات. وهي نائرة ومترجمة وكاتبة مقالات وحاصلة على الدكتوراه في الاقتصاد. كما عملت رئيساً لتحرير مجلة «الكلمة العالمية». وتعود أولى كتاباتها الاحترافية إلى عشر سنين مضت أما بداياتها فكانت في فترة انهيار الاتحاد السوفيتي. ومن أقوالها عن نفسها: «لقد درست بالجامعة وعملت في التجارة أما سنواتي الأخيرة فأكرسها للكتابة».

ويسيطر موضوع الحياة في بطرسبرج على كتاباتها حيث تحدد سمات شخصيات أبطالها وعالمهم النفسي. ومعظم أبطال تشيجوفا من النساء حيث تتناول مصائرهن وطباعهن ودورهن في المجتمع وعالمهن الداخلي.

رواية زمن النساء - يلينا تشيجوفا

تدور القصة حول الفتاة أنطونينا التي لم تستطع التأقلم على العيش في مدينة كبيرة وهي التي نشأت في قرية. استطاع أحد الرجال بسهولة أن يغرر بها فأنجبت منه طفلة عاشت سنوات لا تقوى على النطق. ولكن أنطونينا سرعان ما تمرض وكان عليها أثناء مرضها واحتضارها أن تترك ابنتها الصغيرة إلى جاراتها العجائز الثلاث جليكيريا وأريادنا ويفدوكيا، وترجون أن يتعهدهن برعايتهن. واستطعن بالفعل أن يقمن بالمهمة وشبت الفتاة رسامة موهوبة ومشهورة. حتى إن الجزء الأخير من الرواية عبارة عن حديث البطلة الصغيرة عن نفسها.

تتناول الرواية أيضاً حياة ومصير العجائز الثلاثة. ومن خلال حياة البطلات تلقي الكاتبة الضوء على الواقع الروسي في القرن الماضي. ومن الملفت براعة تشيجوفا في تصوير حياتهن في الشقة المشتركة وأيضاً في التعبير عن عوالمهن الداخلية ومعاناتهن.

والمثير للأهمية هو أن تكون العجائز بطلات للرواية. نرى كيف يعشن بمفردهن ويعانين من فقدان الأولاد أو الأزواج، كيف عشن سنوات صعبة أثناء حصار مدينة ليننجراد خلال الحرب العالمية الثانية وكابدين فقدان كل الأحبة؛ ولذا فقد أولوا كل عنايتهن إلى الصغيرة صوفيوشكا.

ويأتي السرد على شكل قصص وحكايات تحكى على أسنة كل بطلات الرواية الخمسة صوفيوشكا أو سوزانوتشكا الطفلة وأما البطلة الرئيسية أنطونينا والجدة يفدوكيا وجليكيريا

وأريادنا. بالإضافة إلى ذلك نجد بعضهن يلخص جزءًا من الأحداث من وجهة نظره الخاصة. وتمثل الديالوجات والمونولوجات مساحة كبيرة في الرواية. وربما كان ذلك من الأسباب الرئيسية لنجاح تناول الرواية في عروض مسرحية مختلفة. ورغم أن معظم الحوارات تبدو حول الحياة العادية في ليننجراد داخل الشقق الحكومية المشتركة في الخمسينيات والستينيات، إلا أنها في الوقت نفسه تعبر عن الكثير من الأفكار والقضايا خلف السطور. جمعت هذه الشقة المشتركة بين جدرانها مجموعة من النسوة، لكل شخصيتها وتجربتها ومستواها الثقافي والاجتماعي. ثلاثة نسوة عجائز. كل منهن مختلفة وساحرة. كل منهن لديها ماضيها الخاص وطابعها الخاص، لكنهن يتشابهن فيما بينهن في هشاشتهن وعند الضرورة... في جلدن وصبرهن.

وقد جعلت الكاتبة من أنطونيا القاص الرئيس في الرواية حيث تجسد حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل كما أنها في نظر الكاتبة تمثل الأم - مركز العالم.

تطرح أنطونيا في الرواية أفكارًا وقضايا مختلفة وتعكس كلماتها وعباراتها المشاكل الحياتية والاجتماعية والسياسية المعاصرة. وخلافا لها يدور حديث العجائز الثلاثة في أغلبه عن الماضي، حتى المفردات التي يستخدمونها هي مفردات من الماضي. كل ما يربطهن بالحاضر هو تربية الطفلة الصغيرة لا غير. لكل منهن رؤيتها الخاصة في تنشئة الصغيرة وكل منهن تحاول أن تنقل إليها خبرتها الحياتية وتحكي لها أخبار عن العالم وتعلمها كيف تعيش. كل ما تعرفه الصغيرة عن العالم استقنته مما سمعته من حوارات جداتها وحكاياتهن.

سوزانا أو صوفيوشكا بكما منذ مولدها؛ ولذا فإن شخصيتها تتكشف لنا فقط كم خلال حوارها الداخلي مع نفسها وما وراءه من معاني وأفكار. ترى سوزانا أن العالم الأكثر واقعية منها وقربًا هو عالم الموتى؛ ولذا فهي تنقل إليه نماذج وأشخاص من عالمها المحيط والذي يبدو بالنسبة لها خياليًا وغير واقعي؛ ولذا نجدها دائمًا مشغولة بالعالم الآخر.

استطاعت يلينا تشيجوفا في روايتها تصوير ثلاثة أجيال من النساء تجسد من خلالهن ماضي وحاضر ومستقبل روسيا وهي بذلك تسير على درب كبار أدباء روسيا، ولعلنا هنا نتذكر مسرحية الكاتب الروسي الكبير أنطون تشيخوف «بستان الكرز». استطاعت تشيجوفا ببراعة أن تفصل نفسها زمنيًا عن بطلاتها ومن خلال خلقها لصدمات وخلافات بين وجهات النظر والرؤى المختلفة، طرحت بشكل رائع ذلك التباين الواضح والخلاف الدائم بين الأجيال. ولعل مشهد اختيار اسم الفتاة خير تعبير عن ذلك.

«أعتقد أيضًا أن الاسم له دور كبير في الأمر. فمثلًا لو اخترت لها اسم تونكا نعم تونكا. كنت قد قررت أن اسمي ابني على اسم جده. فالرجال يحبون ذلك. أما لو كانت بنت فسأمنحها اسمًا جميلًا ربما تنعم بحياة أفضل من حياتي.

القانون يسمح لي أن أختار أي اسم أب للفتاة. وقد نصحتني زويا إيفانوفنا أن أمنح البنت لقب

جدها لأنها. لكنى لا أعرف. لا أعتقد أن ذلك أمر جيد. أشعر أنه غير إنساني. فليبق كل شيء على طبيعته. هذا ما فعلته.

تجلس العجائز الثلاث ويناقشن الأمر من وجهة نظرهن وعلى طريقتهن. «من شب على شيء شاب عليه. ويخلق فاسدًا من ظهر العالم.»

سألتهن: «إذن لا معنى لأي جهد تبذلينه في تنشئة طفلك ما دام العرق دساس والطبع غلاب.»
أومان برؤوسهن موافقات. «نعم لا فائدة.»

لكل من بطلات الرواية حقيقتها الخاصة التي تعبر عنها بلغة ومفردات خاصة بها. فحديث أنطونينا بسيط كحديث كل امرأة غير متعلمة؛ ولذا نجدها تستخدم الكثير من المفردات الشعبية وأحيانًا حتى تخطئ في الهجاء.

ولا يختلف حديث الجدات جليكيريا ويفدوكيا كثيرًا عنها وذلك بسبب افتقادهما للثقافة والمعرفة والعلم، أما الجدة أريادنا فحديثها أكثر دقة وثراء وذلك لأنها تعود بأصولها إلى عائلة أرستقراطية وتلقت تعليمًا جيدًا.

وفيما يتعلق بزمن ومكان الرواية فأحداثها تدور في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي في مدينة ليننجراد (سان بطرسبورج حاليًا). ورغم ذلك فإن القضايا التي تطرح في الرواية على لسان بطلاتها تتسم بكونها قضايا أبدية لا ترتبط بزمن معين بل تتكرر في كل زمان وعصر.
تبنى تشيغوجوفا حكايتها من وجهة نظرها الخاصة. لا يوجد قاص في الرواية بل هناك حكاؤون لكل منهم رؤيته ووجهة نظره الخاصة على الأحداث ولكل منهم أيضًا سماته النفسية والكلامية الخاصة.

وتحاول تشيغوجوفا الاستفادة من وفرة وجهات النظر والرؤى تلك في سبيلها لخلق لوحة فريدة للعالم تكون في مركزه المرأة حامية التقاليد والذاكرة التاريخية وربة البيت وأولًا وأخيرًا الأم.
تشيغوجوفا في رواياتها «زمن النساء» لا تصف الزمن بل تحاول جاهدة إلى اكتشاف وتستخرج ما في باطنه ومعناه. فكل معاني الحاضر تأتي من الماضي. هذا الأخير لا ينفك يؤثر على كل ما يعقبه من أزمنة وأجيال.

ربما لا يحتل المضمون الظاهري للعمل الأهمية الأولى بل أن أكثر ما يأسر القارئ هو هذه الهالة الروحانية التي تحيط بالبطلات وهي الهالة التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات وتشعر بها في كل سطر وكل صفحة من صفحات الرواية. نستشعرها في الخيوط وحبال الذكريات الخاصة عند البطلات وفي معاناتهم الخاصة وقضائهن أيامهن يومًا بعد يوم. كل هذا يدفعنا إلى النظر إلى الماضي والتمعن فيه والشوق إليه عند قراءتنا للرواية.

ربما هذا في نظري السبب الرئيس في فوز هذه الرواية بجائزة البوكر.

تقول الكاتبة في إحدى لقاءاتها الصحفية إن من بين الأفكار التي دفعتها لكتابة الرواية سعيها إلى

معرفة السبب في غياب الذاكرة التاريخية عند الروس. ففي اعتقادها يتوجب على كل جيل أن ينقل تجربته إلى الجيل التالي. ولكن هذا لا يحدث للأسف. فكل جيل يبحث عن لعبته الخاصة أو نظريته الخاصة الجديدة وغالبًا ما تكون مقتبسة من الغرب وينكر ما سبقها ويعتبره هراء لا معنى له. وقد كانت هذه الظاهرة ماثلة بقوة في القرن العشرين. تعمقت هذه الظاهرة في القرن الماضي وكان من أسباب ذلك مصرع أعداد ضخمة من الرجال أثناء الحروب أو في معسكرات الاعتقال. وأدى ذلك إلى أن أصبحت المرأة هي التي تحمل عبء الحفاظ على الذاكرة التاريخية لأنه حتى من بقي على قيد الحياة من الرجال كان يسعى إلى إثبات ذاته بمعنى أنه كان مضطرًا إلى أن يكون جزءًا من العقل الاجتماعي الراهن.

وقد جلبت الرواية للكاتبة شهرة واسعة واعتراقًا بموهبتها من قبل النقاد والقراء. كاتبة في روايتها نماذج مختلفة للمرأة الروسية.

ورغم أن أحداث الرواية تقع في منتصف القرن الماضي إلا أنها تنطبق على عالمنا اليوم فمن خلال تصوير حياة هذه النسوة تحاول الكاتبة أن تؤكد فكرة ضرورة أن يعيش الإنسان حياته بشرف واستحقاق.

بعد انتهائي من ترجمة الرواية تفهمت الاختلاف الذي حدث بين النقاد الروس في بيان أهميتها. فمن ناحية يمكن ان تصيب قراءتها القارئ بالإجهاد والمعاناة النفسية من جراء تعاطفه مع بطلاتها ومن ناحية أخرى تجعلك الرواية تشعر بسعادة غامرة وأنت تجر في عالم من النثر المرئي الغني بالاستعارات والصور البلاغية واللغة غير العادية. في عام ٢٠١١م شهدت الرواية انتشارًا أوسع بعد أن تم تحويلها إلى عرض مسرحي وجابت المسرحية التي تحمل الاسم نفسه ربوع روسيا. وأختتم الحديث عن هذا التيار بقول أن روح الإنسان الفرد البسيط تمثل للأدب النسائي اللغز الأصعب والأعقد. إلا أن هذا الأدب قد تمكن من حل العديد من القضايا ومنها العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط وآليات تدميره أو بالعكس المحافظة على الأسس الأخلاقية.

إن النثر النسائي الروسي يمثل مزيجًا بديعًا من سمات الواقعية والحدائثة وما بعد الحدائثة. ويعكس السمات الأساسية للفن الحديث ويمثل نتاجًا لإنجازات الأدب الروسي على مدى قرن كامل ويمكن التنبؤ بأفاق ومستقبل هذا الأدب من خلال ما نلحظ من تجارب فنية وأساليب جديدة في السرد. كما يعكس النثر النسائي الروسي البحث الدعوب والمؤلم أحيانًا عن المثل والقدوة حيث يمثل ذلك المعنى الأساسي لإبداع أي كاتب صادق. وأي سبل للكشف عن طوبولوجيا الإبداع النسائي يمكن أن يساعد في فهم وتحليل طبيعته، وهو ما يعد هدفًا يسعى للنقاد والباحثين في الأدب. كما أن دراسة خصوصية الأدب النسائي ستساعد على ترسيخ مكانته مستقبلاً وتطوره ضمن العملية الأدبية بشكل عام.

وربما يمكننا القول إنه وعلى الرغم من أن ظاهرة «الأدب النسائي» الروسي لم ترسخ تمامًا

في روسيا إلا أن هناك تسارعًا كبيرًا في تطورها واستيعابها من قبل المجتمع الروسي.

يُعتبر أدب الرّحلات، من أفضل وأحبّ أنواع الأدب إلى القارئ؛ وذلك لما فيه من متعة وروح المغامرة، وتنطبق هذه المقولة على الأدب الروسي، حيث يصعب أن تجد روسياً لم يطالع كتاب الأديب والرحالة الروسي أفاناسي نيكيتين «رحلة الي ما وراء البحار الثلاثة» أو كتاب ألكسندر راديشيف «الرّحلة من بطرسبورج إلى موسكو» أو رائعة شاعر روسيا العظيم ألكسندر بوشكين «الرّحلة إلى أرض الروم».

ويصعب أن نجد رواية أو عملاً كلاسيكياً في الأدب الروسي غير مرتبط بالسّفر أو الطريق. كما أن أشهر أبطال الأعمال الروسية مسافرون، ونذكر منهم على سبيل المثال: تشيتشيفوف، بطل رائعة نيقولاي جوجول «الأنفس الميتة»، وبيتشورين في «بطل من هذا الزمان» و«الأميرة ليجوفسكايا» للشاعر ميخائيل ليرمونتوف.

بداية ظهور أدب الرحلات

يرتبط ظهور أدب الرّحلات في روسيا بدخول الديانة المسيحية، حيث نشطت الرّحلات والأسفار من روسيا القديمة إلى مدينة القسطنطينية وإلى الشرق المسيحي، وخاصة إلى مدينة القدس. وكان رجال الدين المسافرون، يقومون بتسجيل ملاحظاتهم، ومعلومات عن الرّحلة والبلدان التي يمرون بها؛ فيما سُمّي بـ: «كتب الأسفار». وقد بلغ عددها سبعين كتاباً، تمثل أدلة لأهمّ نقاط توقف الحاج المسافر من روسيا القديمة إلى الأراضي المقدسة.

ومن أشهر هذه الكتب: «رحلة القمص دانيال» وكتاب: «رحلة الي ما وراء البحار الثلاثة» للكاتب أفاناسي نيكيتين، وقد صدر الكتابان في القرن الخامس عشر، وفي الكتاب الأخير يقوم البطل بوصف رحلته، وكيف يعيش الناس في بلاد الهند البعيدة عن روسيا.

ولاحقاً تطور شكل أدب الرّحلات ليصبح على شكل: «مذكرات سفر»، وكان هذا الشكل هو الأكثر شيوعاً بين كتب الرّحلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وانتشرت في تلك الفترة أشكال أخرى من أدب الرّحلات أهمها: «اليوميات» و«المذكرات».



ومن أشهر الكتب التي صدرت في القرن الثامن عشر «رسائل رحالة روسي» للأديب نيقولاي كارامزين؛ حيث قام المؤلف برحلة طويلة عبر روسيا وأوروبا، ووصف في خطابه كل الانطباعات والمشاعر التي خالجه أثناء الرحلة. وفي رسالته الأولى التي بعث بها من مدينة تفير الروسية، يحكي عن أن أكثر ما يؤثر فيه عند سفره هو اضطراره لفراق أصدقائه ومدينته موسكو، التي بكى كثيرًا وهو يشاهدها تبعد أثناء مغادرته في السفينة. وسافر الكاتب إلى مدينة كونيغسبرغ للقاء الفيلسوف الفرنسي (كانت). كما سافر إلى برلين، وبمجرد وصوله اتجه إلى المكتبة الملكية، وحديقة الحيوان، ووصف هذه الأماكن بالتفصيل في كتابه. ولم يكتفِ بسرد انطباعاته؛ بل وضمّن كتابه معلوماتٍ عن سير حياة الفنانين في أوروبا، كما واصل رحلته إلى ليبينسج، وزار العديد من المدن السويسرية والفرنسية، ووصف الأحداث التي شهدتها فرنسا حينها.

ومن أهم كتب الرحلات في القرن الثامن عشر كتاب: «الرحلة من بطرسبورج إلى موسكو» لراديشيف. ورغم احترام الكاتب لتقاليد أدب الرحلة الروسي، إلا إنه قام بتضمين كتابه بمضامين سياسية يومية؛ فضلًا عن ملاحظاته وانطباعات السفر المعتادة، وتحرر الكاتب من أنانية الأديب الرحّالة، الذي يكتفي بالحديث عن انطباعاته الشخصية، وأفكاره الخاصة؛ حيث نلحظ في الكتاب أن البطل مواطن مناضل، يبحث ويسعى لازدهار وطنه روسيا.

طبيعة الأدب ومحور رسالته

كانت معظم كتابات أدب الرحلات في القرن الثامن عشر وما قبله، تتمحور حول شخصية البطل المسافر، الذي يتناول الأحداث التي تقع أثناء سفره، ويصف انطباعاته الشخصية، والتحول الذي طرأ على تفكيره، بعدما تعرّف على بلادٍ جديدة ومعلومات جديدة. كما كان تطور أدب الرحلات في القرن الثامن عشر بفضل كُتب الأسفار وما طرأ عليها من تطور وتحولها إلى مذكرات رحلة، ولا يخلو الأمر من تأثر بالأدب الأوروبي، وتقاليد أدب الرحلات فيه. ويمكن بثقة القول إن أدب الرحلات قد تشكّل كجنس أدبي في القرن الثامن عشر، مستفيدًا من تطور جنس: «كتابات الحج» إلى الأراضي المقدسة، ورحلات القديسين، كما تأثر بنماذج كتابات الرحلات في أوروبا.

ويمكن تحديد مرحلتين لتطور أدب الرحلات خلال القرن التاسع عشر. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر شاعت الأعمال التي تصف رحلات السفر، سواء عن طريق الكتابات الصحفية أو الأدبية، وكانت تلك هي فترة توسع وانتشار اللغة والأدب الروسي عالميًا. ومع توسع الإمبراطورية الروسية ظهرت الكثير من الأعمال الأدبية التي تصف الأراضي الجديدة التي ضُمَّت للإمبراطورية. ونذكر هنا كتاب بوشكين «رحلة إلى أرض الروم»، ومن بعده أعمال جوجول، وتورجينييف، وجونشاروف.

أما المرحلة الثانية، فتمتد من الفترة بين عامي ١٨٤٠ إلى ١٩١٠. وفي تلك الفترة بدأ الأدب الروسي يتشبع ويستفيد من سمات وثرء الرّحلات؛ حيث شاعت الكتابات التي تتناول عادات، وتقاليد الشعوب، والقوميات الروسية. وفي بداية القرن العشرين شاع اسم فاسيلي روزانوف، الذي كتب عن «النيل الروسي»، وعن رحلاته إلى إيطاليا وألمانيا والقوقاز.

تطور أدب الرّحلات في القرن التاسع عشر، وظهرت أشكال جديدة منه، نذكر منها: المذكرات واليوميات، ذات الطابع الأدبي أو الأدبي الاجتماعي.

ويمكن من خلال قراءة أدب الرّحلات الروسي، أن نتتبع كيف تطورت شخصية البطل، وكيف يتصرف في مختلف المواقف على امتداد رحلته. وتمثل الرّحلة في الأدب الروسي فكرة البحث الروحي؛ حيث يتحول موتيف السّفر إلى أحد وسائل اكتشاف شخصية البطل.

وفي الأدب الروسي، يسعى الكتّاب إلى تقديم أنفسهم كأدباء، لديهم القدرة على سرد الأحداث والوقائع بشكل مشوق؛ خاصة أن كتابات الرّحلات يقوم بها إما كتّاب الصف الثاني أو أن تكون باكورة أعمال مشاهير الكتّاب.

ولعل من أهم الخصائص المميّزة لأدب الرحلات الروسي، هو حرية الجنس الأدبي، حيث لا توجد قواعد صارمة تقيد حرية المؤلّف في الكتابة؛ ولذا فإن دور البطل المؤلّف يصبح أكثر تأثيراً وانخراطاً في الأحداث، حيث نجده يشارك فيما يحدث، ويراقب، ويحمل وجهة نظر وعقيدة معينة، ويدافع عنها. كما نلاحظ وفرة المواد الوثائقية في كتابات أدب الرّحلات حيث يسعى الكاتب إلى إقناع القارئ بصحة وصدق ما يكتب وهنا تتعاظم أهمية دور الوثيقة والحقيقة.

تحلُّ في أبريل من كل عام ذكرى مولد الأديب الروسي السوفيتي الكبير بوريس تاتانوفيتش ستروجاتسكي، الذي كان له الفضل مع أخيه الكاتب أركادي ستروجاتسكي في وضع الأساس لتيار الخيال العلمي والاجتماعي في الأدب الروسي الحديث. وقد اشترك الكاتبان في تأليف عشرات المؤلفات، حتى إنهما عُرفا في تاريخ الأدب السوفيتي باسم «الأخوان ستروجاتسكي».

وعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، ظل الأديبان ستروجاتسكي يحتلان المرتبة الأولى بين كتاب الخيال العلمي الروس في روسيا، وفي عام ١٩٩١ بلغ عدد الإصدارات التي تحمل اسمهما أكثر من ٣٢١ كتابًا باللغة الروسية، وأكثر من ٤٢ لغة عالمية.

ودائمًا ما يتم التعامل معهما وتناول إبداعاتهما سويًا، وعادةً ما يُطلق عليهما النقاد «الأخوان ستروجاتسكي». تتسم سيرتهما بالتنوع والضحامة، فقد أنجزا أكثر من ٣٠ عملاً قصصيًا وروائيًا، وأكثر من ٢٠ قصة قصيرة. وقد ألهمتا أعمالهما المخرجين الكبار، من أمثال: أندريه تاركوفسكي، وألكسندر سوكوروف، وألكسي جيرمان. ومن خلال إبداعاتهما تعرّف القراء على عالم جديد متخيّل غير عادي وشيق للغاية، غير أنه على الرغم من خيالهما الجامح ظل الإنسان هو محور اهتمامهما بمناقبه ومناقبه.

وقد وُلد الأخ الأكبر أركادي ستروجاتسكي في شهر أغسطس ١٩٢٥ بمدينة باتومي، ثم عاش في مدينة ليننجراد، ومع بداية الحرب العالمية الثانية عمل في تشييد التحصينات العسكرية، ثم في مصنع للفذائف، وفي نهاية ١٩٤٢ فرَّ مع أبيه من ليننجراد التي كانت تحت الحصار الألماني، ونجياً بأعجوبة؛ حيث قُتل كلُّ من كان معهما بعربة القطار. ودفن والده بمدينة فولوجدا، وبقي هو وحيداً في مدينة أورنبورج، حتى لحق به أخوه الأصغر بوريس الذي حُصر مع والدته في ليننجراد. واستكمل دراسته هناك، وفي عام ١٩٤٣ وقبل تخرُّجه من الجامعة بشهور تم استدعاؤه للدراسة بالمعهد العسكري للغات الأجنبية الذي أنهاه في عام ١٩٤٩ في تخصص الترجمة من اللغتين الإنجليزية واليابانية. وعمل مترجمًا في الجيش حتى تم تسريحه، وعُيِّن محررًا في دار نشر أدبية حكومية، وتوفي في عام ١٩٩١.

أما الأخ الأصغر بوريس، فقد وُلد في الخامس عشر من أبريل من عام ١٩٣٣ في مدينة ليننجراد (سان بطرسبورج حاليًا)، وكان أبوه قد عُيِّن لتوه عضوًا في المجمع العلمي للمتحف الروسي الحكومي، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت ووالدته لمعاناة شديدة بفعل حصار

لينجراد من قبل القوات الألمانية، وفي عام ١٩٥٠ أنهى الدراسة في المدرسة بتفوق، وأراد الالتحاق بكلية الفيزياء بجامعة لينجراد، إلا أنه لم يُقبل بها، فاتجه للدراسة بكلية الرياضيات والميكانيكا، وأنهى دراسته في عام ١٩٥٥. وبعد التخرج من الجامعة التحق بالدكتوراه، ولكنه فشل في إكمال الرسالة. وقد بدأ الكتابة منذ عام ١٩٥٠، وعُين عضوًا في اتحاد الكتاب السوفييت، حتى حصل على جائزة الدولة في الاتحاد الروسي في عام ١٩٨٦، وتوفي في عام ٢٠١٢.

كانت الكتابات الأولى للأخوين ستروجاتسكي قبل الحرب العالمية الأولى، وقد فقدوا للأسف الكثير من المخطوطات بسبب ظروف الحرب. ويعود تاريخ أول عمل مشترك قصصي لهما إلى عام ١٩٤٦، ولم يُنشر إلا في عام ٢٠٠١، ألا وهو قصة «كيف استشهد كانج الفاتح؟». وقد واصلًا كتابة نثر الخيال العلمي في الخمسينيات، وتعود قصتهما «حُكم الأسرة الرابعة» إلى عام ١٩٥٢.

أما أول عمل نُشر لهما سويًا فهو قصة «الصورة من الخارج»، والتي كانت في البداية عبارة عن قصة قصيرة، ثم قاما بتحويلها إلى قصة، ونشرت في عام ١٩٥٨.

كما جرب الكاتبان في القصص الأولى قدرتهما على استخدام منهج بناء تصوّرهما الخاص للمستقبل. وخلافًا لغيرهما من أدباء الخيال العلمي السوفييت في تلك الفترة، فإن المستقبل القريب في رأيهما لا يتم وفق تسلسل أحداث دقيقٍ وصارم؛ بل كان يُفهم من خلال تناؤل شخصيات عابرة للزمن.

وفي عام ١٩٥٩ صدر أول كتاب مشترك لهما بعنوان «بلاد الغيوم القرمزية»، وقد انتهيا من المسودة في عام ١٩٥٧. ثم تبع ذلك العديد من المؤلفات المشتركة، وهي: «الطريق إلى أمانتيا»، و«المتدربون»، و«٦ أعواد ثقاب». وقد صدرت هذه المؤلفات في كتاب واحد في عام ١٩٦٠، وكانت تلك اللبنة الأولى في مسار طويل من الكتابات عن عالم المستقبل، أو كما أطلقا عليه: «عالم منتصف اليوم»، وقد اعترف الكاتبان لاحقًا أنهما لا يعارضان العيش في عالم مماثل.

نال الكاتبان شهرةً واسعة بعد نشر هذه المجموعة القصصية الأولى، والتي مثلت نموذجًا لتيار الخيال العلمي في الأدب السوفيتي، وتميزت عن غيرها بالاهتمام الكبير بالتحليل النفسي للشخصيات. ونالت قصتا «٦ أعواد ثقاب» و«افتراضات شخصية» نجاحًا كبيرًا.

وعلى مدى عقودٍ شغل الأخوان ستروجاتسكي موقعًا رائدًا بين كتّاب الخيال العلمي السوفييت ثم الروس، وتميزًا عن أقرانها في هذا الجنس الأدبي عالميًا. وتطورت مهارتهما في الكتابة مع الوقت، وتشكلت مدرستهما الخاصة في هذا الفن. ونالت كل مؤلفاتهما اهتمامًا وإشادة كبيرة، وأثارت الكثير من النقاشات الأدبية.

ويلاحظ التزام الأدبيين في كتاباتهما الأولى بقواعد الواقعية السريالية، ولكن المميز أنهما جعلًا للأبطال شخصية مميزة قوية وصفات متفردة؛ فأبطالهما الرئيسيون هم أناس مثقفون، يُقدرون

الإنسانية، باحثون، متفانون في عملهم، يسعون إلى تطوّر العالم وتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي. وفضلاً عن ذلك، فالأبطال يتحدثون بلغة متفردة، وبفضل ذلك بدا وكأنهم أبطال حقيقيون يعيشون بين الناس وواقعيون. ظهرت تلك الشخصيات في فترة ذوبان الجليد في عصر نيكيتا خروشوف، وهي الحقبة التي شهدت تخفيفاً من القيود على الإبداع الأدبي، وعاش الناس على أمل تحسّن ظروف الحياة وتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي للبلاد، وزيادة مساحة حرية الإبداع.

وكان الكتاب الأشهر في تلك الفترة هو قصة «منتصف اليوم في القرن الثاني والعشرين» (١٩٦١)، والتي كان أبطالها عبارة عن أناس من ذوي الثقافة الرفيعة، سعداء، يُجرون أبحاثاً وتجارب شجاعة عن الفضاء.

ثم يحدث تغيير جذري في الموضوعات التي يطرحها الأخوان ستروجاتسكي، ويبدو ذلك في روايتهما «الطيف البعيد» (١٩٦٣)، والتي تصف كارثة تحيق بكوكب بعيد، وتحدث نتيجة لفشل تجارب بعض الباحثين، وتجد البشرية نفسها أمام خيار صعب يمكن أن يُفضي إلى هلاكها. أما أبطال قصة «محاولة للفرار» (١٩٦٢)، فيجدون أنفسهم في مواجهة مشكلة أخرى؛ حيث اطلعوا على ماضيهم، والآن يسعون إلى التخلص من هذا الإرث القديم وتنقية وعيهم منه. وفي رواية «من الصعب أن تصير إلهاً» (١٩٦٤)، يجد جميع العاملين في معهد التاريخ التجريبي أنفسهم وجهًا لوجه مع المشكلة ذاتها.

كما يطرح الكاتبان المشكلات المعاصرة والمُلحة في قصة «ظواهر القرن المتوحشة» (١٩٦٥)، وكان ذلك هو العمل الأول في الأدب الروسي الذي يُقدّم المدينة الفاسدة داخل مدينة فاضلة، وهو ما يجعلها من الأعمال الرئيسية في تاريخ الأدب السوفيتي.

وفي الستينيات صدرت العديد من الأعمال الأصيلة للأخوين ستروجاتسكي، ومنها على سبيل المثال «يوم الاثنين يبدأ يوم السبت» (١٩٦٥)، والذي يتسم بمسحة من الفكاهة المميزة. وقد نالت القصة استحسان القراء، فصَدَرَ الجزء الثاني منها بعنوان «حكاية عن عربية الترويكَا» (١٩٦٨)، ويمكن أن تُنسب إلى فن الكتابة الساخرة. وأثارت الرواية جدلاً كبيراً، فتم إغلاق المجلة التي قامت بنشر القصة، ولم يُعدّ نشرها لسنوات طويلة. كان ذلك هو نفس المصير الذي واجه قصة «الحلزون على المنحدر» (١٩٨٦)؛ حيث تدور أحداثها عن إحدى الإدارات التي تُعنى بشؤون الغابات.

وفي السبعينيات خضعت أعمال الأخوين للحظر من قِبَل الرقابة السوفيتية. كانت أشهر قصة لهما وهي «نزهة على جانب الطريق» (١٩٧٢) قد مُنعت من النشر طوال ٨ سنوات، وفي عام ١٩٧٩ قاما بتحويلها إلى سيناريو، وبإدارة المخرج الكبير أندريه تاركوفسكي بتحويله إلى عمل سينمائي بعنوان «المطارد». وفي عام ١٩٨٠ انتهت من كتابة مجموعة قصصية تحت عنوان

«لقاءات لم يُنقِ عليها»، وضمنا كتابهما قصتهما الشهيرة «نزهة على جانب الطريق». ثم أخذت أعمالهما تُصدر واحدًا تلو الآخر خلال حقبة الثمانينيات، ونذكر منها: قصة «قبل مليار عام من نهاية العالم»، ورواية «المدينة البائسة» (١٩٨٨)، و«الأمواج تجمد الرياح» (١٩٨٦)، ثم أصدرًا لاحقًا رواية «المصير المعوج» (١٩٨٢)، والتي يتشابه أبطالها مع شخصية المؤلفين في كثير من الأشياء.

أما آخر عمل مشترك للكاتبين فهو قصتهما «حوارات حزينة على أضواء الشموع»، والتي صدرت في عام ١٩٩٠. وبعدها بعام واحد توفي الأخ الأكبر أركادي، واستكمل بوريس مسار الإبداع بمفرده.

اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا وهو «س. فيتيتسكي»، وأصدر روايتين: «البحث عن معنى الحياة، النظرية السابعة والعشرون في الأخلاق»، و«ضعاف العالم».

واتسمت الأعمال الأولى للأخوين ستروجاتسكي بكونها تتفق ومتطلبات الواقعية الاشتراكية، وهو المذهب الذي كان سائدًا في الأدب حينها، إلا أن الأبطال كانوا يتسمون بكونهم أكثر ثقافة وإنسانية، ومُؤلِّعين بالبحث العلمي والمسؤولية الأخلاقية أمام البشرية. كما اتسمت أعمالهما - عن غيرهما من نظرائهما في تلك الفترة - بكونهما يطرحان أفكارًا أكثر شجاعة وأصالة وخيالًا حول تطوُّر العلوم والتكنولوجيا، ودور ذلك في تقدم المجتمع. اتسمت إبداعاتهما بالمستوى العالي من الفنية، وحس الفكاهة، وتفرد الأبطال بلغتهم ومفرداتهم الخاصة. كان الأبطال وكأنهم قد قدموا من المستقبل، ومن حقبة نوبان الجليد التي اتسمت بتمنح الأدباء قسطًا من الحرية في الإبداع، وعكست كتاباتهما الإيمان والثقة في المستقبل المشرق للبلاد، والتقدم المستمر في العلاقات الاجتماعية. وتنتمي معظم كتابات وإبداعات الأخوين ستروجاتسكي إلى تيار الخيال العلمي، غير أنه عادةً ما كانت تُصنَّف كتاباتهما ضمن تيار الخيال الواقعي.

وقد تُرجمت أعمالهما إلى أكثر من ٤٢ لغة في ٣٣ بلدًا حول العالم، كما تم تحويل الكثير من هذه الإبداعات إلى أعمال سنيمائية، ومن أشهرها: «أيام الكسوف» عن روايتهما «مليار عام قبل نهاية العالم»، و«من الصعب أن تصبح إلهًا»، و«الجزيرة المأهولة».

لم يكن من المعروف عن الأخوين الحديث عن تفاصيل حياتهما الخاصة، ولكن من المعروف أن أركادي قد تزوج، فيما لا تتوفر معلومات عن بوريس.

وقد توفي أركادي في ١٢ أكتوبر ١٩٩١ في موسكو، أما بوريس ستروجاتسكي فبعده باثني عشر عامًا في يوم ١٩ نوفمبر ٢٠١٢ بمدينة سان بطرسبورج. ولا توجد مقابر للأخوين؛ حيث أوصيا بحرق جثتيهما وذرّ الرماد في الهواء، وحددًا مكانًا دقيقًا لذلك.

وهكذا خطَّ الأخوان ستروجاتسكي لنفسيهما مسارًا فريدًا في تاريخ الأدب السوفيتي والروسي، وأبدعا خلال حياتهما العديد من الأعمال التي حصلت على لقب «الكتب الأكثر مبيعًا» في روسيا

والاتحاد السوفيتي؛ ولهذا السبب تُعدّ سيرة حياتهما وإبداعهما ملهمة للغاية للكثير من الأدباء الشباب في روسيا والعالم اليوم.

ما السر الذي يدفع الأديب والمبدع أن يُقدِّم على حرق مخطوطته الخاصة؟! ربما يرجع السبب إلى كونه أكثر الناس وعياً وإدراكاً لمعنى الحياة. والأدب العربي يحفل بالكثير من الأمثلة التي أُقدِّمَ فيها أدباء على تدمير كتبهم تحت وقع إصابتهم باليأس من الحياة. ولعل أشهر هؤلاء الأديب «أبو حيان التوحيدي» الذي أقدم على حرق كتبه ليأسه من الناس، ولم يشأ أن يترك لهم كتبه وهو الذي لم يجد منهم خيراً طوال ٢٠ عامًا.

وسبقه إلى ذلك الأديب والشاعر «أبو سفيان الثوري» الذي مزق معظم كتبه، وألقى بها في الهواء، وكذلك فعل «داود الطائي» الذي طرح كتبه في البحر.

«المخطوطات لا تحترق» مقولة شهيرة للكاتب الروسي الكبير «ميخائيل بولجاكوف» وردت في رائعته «المعلم ومرجريتينا» التي تعتبر أروع ما كتب في الأدب الروسي في القرن العشرين. وعلى الرغم من إصرار «بولجاكوف» وقناعته التامة بهذه المقولة إلا أن العديد من أساتذته في الأدب الروسي يعتقدون عكس ذلك.

وقد تناول العديد من النقاد الروس هذه الظاهرة بالرصد والتحليل، وفيما يلي عرض لأهم الأسماء التي أجمعوا على أنهم قاموا بحرق أو تمزيق أو دفن مخطوطاتهم، والأسباب التي دفعتهم إلى هذا الفعل.

يعتبر «نيقولاي جوجول» من أعظم كتاب النثر في روسيا، وهو لا يقل مكانته عن «بوشكين» في تاريخ الأدب الروسي. لم يكن «جوجول» أول من حرق كتبه، إلا أنه الأشهر على الإطلاق. كان ذلك في فبراير من عام ١٨٥٢، حيث كان يعاني من انهيار عصبي- حسبما اتفق الأطباء حينها - كما كان مصاباً بالرهاب والإحساس بقرب الموت، وكان وحيداً وعانى من الاكتئاب الشديد. استدعى «جوجول» خادمه «ستييان» وخطف الشمعة من يده، وألقى بمخطوطات الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة» إلى نار المدفأة رغم سابق إعلانه أنها تعد أروع ما كتَب. وبعد حرقه لكتابه لم يمر عامان إلا وكان قد تُوفي. وما لا يُعرف عن الكاتب أنه أقدم على إحراق كتبه في فترة مبكرة من حياته؛ حيث لم يكن راضياً على الإطلاق عن كتابه الأول «هانز كيوخيلجارتين» التي تعرض بسببه لانتقاد شديد من قبل النقاد. وكان «جوجول» مرهقاً ورومانسياً بدرجة كبيرة، فأخذ يجوب محال بيع الكتب، لدرجة أنه كان يشتري كل ما يجد من نسخ، ثم يقوم بإحراقها جميعاً، وكان مازال في الثامنة عشرة من عمره.

والمثير للاهتمام أن «جوجول» كان قد وضع خلاصه أفكاره الفلسفية والدينية في الجزء الثاني من روايته الشهيرة «الأنفس الميتة»، إلا أنه أقدم على حرق هذا الجزء في تصرف غريب وقُبيل

موته بقليل. كان «جوجل» حينها يعيش في موسكو في منزل على شارع «نيكييتا»، ويعتقد الباحثون أنه قام بذلك يوم ٢٤ فبراير ١٨٥٢. وفي اليوم التالي أدرك الكاتب حجم ما ارتكبه من خطأ، وحزن كثيرًا، واعترف لأصدقائه أنه مصدوم من فعلته تلك.

كان الحرق أيضًا هو مصير العديد من أعمال الشاعر الشهير «ألكسندر بوشكين»؛ حيث التهمت نار مدفأته الفصل العاشر من رواية «يفجيني أونيجين»، والجزء الثاني من «دوبروفسكي». وكان «بوشكين» ناقدًا قاسيًا لأعماله الخاصة. كذلك قام الشاعر بتدمير مسودات قصة «ابنه الأمر» وقصيدة «قطاع الطريق»، فيما استخدم ما تبقى منها سليمًا بعد الحرق في رائعته «نافورة باخش ساراي»، وكان كثيرًا ما يختار مقتطفات كاملة من الكتب ويمزقها لعدم رضاه عنها. ويقول الباحثون في إبداعات «بوشكين» أنه مزق الكثير من الأشعار التي كان من الممكن أن تثير غضب القيصر ضده، خاصة بعد اللقاء الذي تم بينهما بالبلاط.

كما ندم الكاتب الكبير «ليف تولستوي» على كتابة رائعته «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا»، وود لو لم تخرجا للنور. وكان ذلك بسبب انغماس الكاتب في أفكار فلسفية دينية. وقد أكد ذلك الباحث المتخصص في إبداعات تولستوي «بافل بيلينسكي» الذي كتب أن تولستوي تبرا من كثير من أعماله في سنواته الأخيرة. وأن هذا الشعور قد بدأ يسيطر عليه وهو بعد في الخمسين من عمره، وكان لا زال في أوج قوته النفسية والبدنية.

ومن مشاهير الأدب الروسي الذين أقدموا على حرق كتبهم الأديب الشهير «فلاديمير نابوكوف»؛ فقد قام «نابوكوف» بحرق روايته «لاورا وأصلها». وكان السبب بكل بساطة أنه لم يستطع إنهاء العمل. كما حاول إحراق روايته الشهيرة «لوليتا» لولا تدخل زوجته التي أنقذت المخطوطة من لهيب نيران المدفأة. اتسم «نابوكوف» بالحساسية الشديدة، ولذا لم يكن ليقبل أن تنتشر روايته «لاورا» غير مكتملة من وجهة نظره.

وقبل وفاته في عام ١٩٧٧، قدم «فلاديمير نابوكوف» مقتطفات من رواية «لاورا وأصلها» لزوجته «فيرا»، وطلب منها حرقها بعد وفاته. إلا أنها لم تملك الإرادة الكافية لتنفيذ وصيته تلك. وبعد وفاتها قام ابنه الوحيد «ديمتري» بالاحتفاظ بالمخطوطة دون حرقها أو نشرها. وفي عام ٢٠٠٨، قرر «ديمتري» أن الوقت قد حان لإظهار رواية والده للقراء.

كاتب آخر روسي عظيم أقدم على هذا الفعل وهو «فيودور دوستويفسكي»، حيث قام بإحراق مخطوطات «الأبله» و«الشياطين» أثناء عودته إلى الوطن بعد رحلة إلى الخارج. وكان «دوستويفسكي» شديد القسوة على نفسه في تقييم أعماله الخاصة، ولم يكن يرضى بسهولة عما يكتب. وعندما كان يشعر بعدم الرضى عن عمل ما كان يقدم على إحراقه بكل بساطة، ثم يبدأ في الكتابة من الصفر. وقام بذلك في أثناء كتابته لرواية «الجريمة والعقاب».

ومن النساء هناك الشاعرة الروسية الشهيرة «أنا إخماتوفا» التي أقدمت على إحراق كتبها، ليس

بسبب عدم رضاها عنها، بل لخوفها من التعرض للسجن؛ فقد عاشت الكاتبة فترة صعبة من الملاحقات والتشديد من قبل السلطات بالاتحاد السوفيتي. وكانت تقرأ قصائدها الخاصة على صديقتها «ليديا تشوكوفسكايا» قبل إحراقها. وعندما هدأت الأمور بعض الشيء حاولت استعادتها مرة أخرى بمساعدة صديقتها. ومن أشهر الأعمال التي قامت بإحراقها «سنوات شبابي» التي لم يبق سوى بعض المقتطفات منها.

كما قام الكاتب والشاعر الشهير «بوريس باسترناك» بحرق قصته «في هذا العالم» بعد أن تعرضت للنقد الشديد لضعفها الفني، إلا أنه قام بتضمين روايته الشهيرة «دكتور زيفاجو» بعضاً من مشاهدتها فيما بعد. وأحرق «باسترناك» الكثير من أعماله الخاصة بسبب عدم رضاه عن مستواها. والأمر نفسه قام به الكاتب «ميخائيل بولجاكوف» الذي كتب يقول: «لقد قمت بنفسني بإلقاء مسودة رواية «الشیطان» في الموقد، وكان يقصد بها روايته الشهيرة «المعلم ومارجريتا»، وحدث ذلك بعد حظر عرض مسرحيته «مولير». كما اعترف الكاتب أكثر من مرة أنه «لجأ إلى موقد المدفأة كثيراً» للتخلص من أعماله التي كان يعتبرها رديئة، فقد التهمت نيرانها جزأين من روايته «الحرس الأبيض»، وفشل الكاتب في استعادتهما، كما أحرق الكثير من يومياته. أما روايته «المعلم ومارجريتا» فقد نجح في استعادة الكثير منها، بينما جمع العديد من أصدقائه القصصات والمقتطفات التي كان يُرسلها إليهم يستطلع رأيهم فيها.

وبمحاولة معرفة الأسباب التي تؤدي إلى تلك الحالة، فإن العديد من الكتاب كانوا يقدمون على تدمير وحرق كتبهم حتى لا يطلع عليها أحد غيرهم، فالبعض لم يكن يثق فيما يكتب، والبعض الآخر كان يخشى أن ينتهي به الأجل وكتابه لم يكتمل على النحو الذي يريد أو يرضى. وفي النهاية، تبقى حقيقة أن «المخطوطة لا تحترق»، والأفكار تعيش أبداً، وهناك من يحرص دومًا على إنقاذها من الضياع.

أنهي القدرُ حياة عدد كبير من كُتَّاب روسيا الكبار، وذلك إما بالقتل أو التعذيب أو الانتحار. وعاش أغلب عظماء الأدب الروسي حياة قصيرة، فقد قُتل «بوشكين» وهو في السابعة والثلاثين، وكذا «ليرمونتوف» في السادسة والعشرين من عمره. أما نهاية الشاعر الكبير «سيرجي يسينين» فكانت وهو في الثلاثين من عمره عندما مات منتحرًا، و«ماريا تسفيتايفا» في التاسعة والأربعين. وتذكر والدة الشاعر الروسي «فلاديمير فيسوتسكي» حديثًا دار بينها وبين ابنها، حدثها فيه أنه يتوقع قُرب وفاته هو أيضًا.

في روسيا كان الموت المبكر علامة على صدق الشاعر، ومعدنه الحقيقي. ربما يبدو ذلك أمرًا خياليًا بعض الشيء، ولكن الشعراء الروس الكبار كانوا يتوقعون دنو أجلهم؛ حتى إن هناك من كان يتساءل: هل يستطيع الشاعر الحقيقي العيش أكثر من ٤٠ عامًا؟ كانوا يروُن أنه من الصعب على المبدع الحقيقي تحمل قسوة الحياة ومعاناة البشر حوله سنوات طويلة.

والأمر لا يقتصر على الشعراء فحسب، بل نلاحظ ذلك عند كُتاب النثر أيضًا، فقد توفي «نيقولاي جوجول» العظيم عن اثنين وأربعين عامًا، و«إسحق بابل» عن ٤٥ عامًا، و«فاسيلي شوكشين» عن ٤٥ عامًا.

ومن الصعب ألا نطلق وصف المأساة على نهايات الأدباء الروس، نهايات يكتنفها الغموض، وحتى اليوم لا تزال تثير حيرة النقاد والباحثين والمهتمين بالأدب الروسي. مات «ك. ريليف» في عام ١٨٢٦م مشنوقًا مع أربعة من قادة ثورة الديسمبريين، ومات «جريبويدوف» مقتولًا من الثوار في إيران، وأصيب الشاعر «بوشكين» إصابة قاتلة على يد البارون «جورج دانتييس»، وهو المصير نفسه الذي أصاب الشاعر «ميخائيل ليرمونتوف»، الذي قُتل في مبارزة على يد «نيقولاي مارتينوف».

وهناك شكوك كبيرة تشير إلى أن «ليرمونتوف» و«بوشكين» قُتلا بأمر من القيصر الروسي، أما «جريبويدوف» فقد تسبب القيصر بقتله، حينما تعمّد إيفاده إلى إيران غير المستقرة حينها. كما اتهم الأديب «ب. تشاداييف» بالجنون رسميًا، وتم حظر أعماله من النشر على جميع أراضي الإمبراطورية الروسية.

وفيما يلي، سنتوقف ببعض التفصيل عند وفاة عدد من كبار الأدباء الروس، ونطرح أهم الروايات التي صاحبت وفاتهم، وهل يمكن بالفعل وصفها بالنهايات الغامضة؟ يُعتبر الكاتب «ألكسندر نيقولايفيتش راديشيف» (١٧٤٩-١٨٠٢م) أديبًا مبدعًا ومدافعًا صلدًا

عن الدولة الروسية، ومن أهم أعماله كتاب «الرحلة من بطرسبورج إلى موسكو»، والتي فضح فيها تدني أخلاقيات الأثرياء، وحرمانهم للفقراء من كافة حقوقهم. وكانت طبقة الملاك الكبار تسيطر على مقاليد الأمور، فحكّم عليه بالإعدام بمرسوم من القيصر، ثم سرعان ما تم العفو عنه، واستُبدل بالنفي إلى سيبيريا، حيث عاش «راديشيف» حتى عام ١٧٩٦م، إلى أن أصدر القيصر الجديد «بافل الأول» قرارًا بالعفو عنه تمامًا، وسُمح له بالعيش بقرية قريبة من كالوجا إحدى ضواحي موسكو، وفي عام ١٨٠١م تمت دعوته إلى بطرسبورج وتعيينه عضوًا في لجنة صياغة القوانين. ويبدو أن «راديشيف» لم يفهم المغزى من قرار القيصر باستضافته، وظل يصرُّ على تحقيق حرية الصحافة، والمساواة بين الناس أمام القانون، وكانت النتيجة أن حُيكت ضده مؤامرة، وتُوفي فجأة في ١٢ من سبتمبر ١٨٠٢م.

كان «راديشيف» حينها في الثالثة والخمسين من العمر، وكانت وفاته محل تشكك وريبة من محبيه، وسارت إشاعات بقتله عن طريق وضع السم في كأس النبيذ الخاص به. كما تُوفي الأديب «ألكسندر جريبويدوف» في فبراير ١٨٢٩م مقتولًا أثناء سفره إلى طهران، وقع ذلك تحديدًا في مدينة تبريز، حيث كانت القنصلية الروسية. كان «جريبويدوف» أديبًا وموسيقارًا ودبلوماسيًا، سافر لأداء واجبه في إيران. وفي أثناء إقامته بالقنصلية اندلعت ثورة في المدينة، وأُشيع بأن الدبلوماسيين الروس سخرُوا من التقاليد والعادات الإسلامية. وتجمع قرابة عشرة آلاف شخص حول القنصلية وشرعوا في إحراقها.

وحتى اليوم، لا توجد معلومات تفصيلية موثقة عن الطريقة التي تُوفي بها «جريبويدوف»، ولكن من هذه الروايات أنه خرج إلى الجموع بسيفه، وأصيب بحجر كبير في رأسه، فسقط فاقداً وعيّه. وفي رواية أخرى أنه أغلق على نفسه مكتبه، وأطلق النار على الحشود في الخارج، ولم يستطع هؤلاء اللوج إلى مكتبه من الباب، فقاموا بتحطيم السقف والإجهاز عليه وقتله، وتقطيع جسده إلى أشلاء، حتى قيل إنه تم التعرف على شخصه بصعوبة بالغة.

أما «جوجل» صاحب رواية «المعطف» الشهيرة، فحقيقة وفاته أنها وقعت في ١٨ من فبراير ١٨٥٢م، حينما رفض الكاتب تناول الطعام، واجتمع الأطباء للتشاور، وخشية فقدان الأديب العظيم اتخذوا قرارًا بإرغامه على تناول الطعام. ومن بين الأساليب التي اتبعوها في ذلك استخدام العلقيات، وهي فصيل من الطفيليات التي تشبه الديدان، وكان «جوجل» يشمئز من رؤيتها؛ ولذا فقد قاوم قدر الاستطاعة، ومع شروق شمس ٢١ من فبراير أخذ يهذي، وفقد وعيّه، ثم تُوفي بعد بضع ساعات.

تقول إحدى الروايات: إن «جوجل» قرر تجويع نفسه سعيًا لإثبات انتصار الروح على الجسد. فيما يؤكد علماء النفس على مقولة إن جوجل كان يعاني طيلة حياته ضغوطًا نفسية، وكان يجب عدم الاكتفاء بعلاج أمراضه الجسمانية، بل والنفسية أيضًا.

من ناحية أخرى، يرى المحبُّون للكاتب العظيم أن حالات النشوة الدينية، وتقمص شخصية الناسك التي عاشها الكاتب في سنواته الأخيرة - هي ظاهرة صحية تمامًا، ويؤكد هؤلاء أن المرض الذي عانى منه «جوجل» لم يكن محددًا بعد، وأنه من الصعب أن يموت إنسان بسبب امتناعه عن الطعام لثلاثة أيام. وصرح الطبيب الخاص بـ«جوجل» «ألكسي تاراسينكوف»، والذي صاحبه في ساعاته الأخيرة، بأن انهيار قُوَى «جوجل» وهذيانه وقعت في الساعات الأخيرة قبيل وفاته، ويبدو أنه كان هناك سبب عضوي ليس له علاقة بالجوع أو بالتصوف الديني، وهو ما أدى إلى الوفاة، إلا أن هذا السبب بقي سرًّا حتى يومنا هذا.

ويعتقد الكثيرون أن «أنطون تشيخوف» (١٨٦٠-١٩٠٤م) قد تُوفي ليس بسبب السكتة القلبية، كما هو شائع، بل بفعل سكتة دماغية نتيجة توقُّف وصول الأوكسجين إلى المخ. وكما هو معروف أن «تشيخوف» كان مريضًا بالسُّل. وفي أثناء الاحتفال بمرور ٢٥ عامًا على أولى كتاباته، كان المرض قد تمكَّن منه تمامًا، حيث بدأ «تشيخوف» ضعيفًا لا يفارقه السُّعال، وأصبح هذا السعال مؤلمًا للكاتب حتى إن أطباءه نصحوه بالسفر إلى منتجع «بادن فيلر» للتعافى قليلًا، ولو لفترة قصيرة.

وفي الخامس عشر من يوليو ١٩٠٤م، طلب للمرة الأولى من زوجته أن تستدعي الطبيب فورًا الذي قام بحقنه بعقارٍ ما، وبعد بضع دقائق أخذ «تشيخوف» يهذي ويحكي كلامًا عن اليابانيين والبحارة. وأرادت زوجته الفنانة «أولجا كنيبير» أن تضع على صدره كيس ثلج، إلا أنه أوقفها قائلاً: «لا يُوضع الثلج على القلب الفارغ»، وطلب منها كأسًا من النبيذ، ثم ابتسم وركد على جانبه الأيسر، واستقبل موته. وقال بالألمانية: «إنني أموت الآن». غير أن الأطباء ذكروا أن السبب الرئيسي للوفاة هو سكتة قلبية وليست دماغية.

أما الاعتقاد الجديد، فقد تأكَّد ببحث قام به علماء بريطانيون نجحوا في تحليل نسيج عالق على قميص الكاتب كان يرتديه أثناء وفاته. وكانت النتيجة صادمة للجميع، وخاصة الباحثين في تاريخ حياة الكاتب وإبداعاته؛ إذ أظهر التحليل الكيميائي الدقيق لهذه الأنسجة حدوث انسداد في الأوعية الدموية الموصلة للمخ، وهو ما أدى إلى إصابته بنزيف دماغي، تسبب في وفاته، وأن سبب الوفاة لم يكن نوبة قلبية، بل سكتة دماغية حادة.

مثال آخر هو الشاعر «إيفان كونيفسكوي» الذي ولد في عام ١٨٧٧م، ولم يعيش سوى ٢٣ عامًا فقط، ويعتقد الرمزيون الروس، أنه لو فُدر له العيش لعشرين عامًا أخرى لأصبح الشاعر الأشهر في روسيا. ومنذ بداياته انشغل إيفان بالبحث عن العالم المثالي وعن أصل الحكمة، ويرى أنه كان في حاجة إلى إرادة قوية لا تهتز لتحقيق هذه الأهداف. ولعل ذلك كان السبب في مأساته. ففي صيف عام ١٩٠١م توجه «كونيفسكي» للاستجمام في منطقة ريجسكوي، إلا أنه لم يصل إلى هذا المكان أبدًا، حيث توقف في قرية سيجولدا. ثم توجه في رحلة مبتعدًا عن المدينة، وضلَّ طريقه في

الغابة، وظل يبحث حتى وصل إلى شاطئ نهر صغير، وفي أثناء رحلته القصيرة وقعت المأساة دون تواجد أي شهود. ولعل السبب الأكثر منطقية أنه غرق في النهر.

وفي السابع والعشرين من مايو ١٩٣٦م عاد «مكسيم جوركي» إلى موسكو قادمًا من جزيرة القرم، وكان يشعر بالإرهاق، وعرّج أثناء عودته على أحفاده، وهناك أصيب بعدوى الإنفلونزا. وفي اليوم التالي توجه إلى مقبرة ابنه، حيث اشتد المرض عليه، وساءت حالته الصحية تدريجيًا، وفي الثامن من يونيو أصبح جليًا أنه لن يُشفى من مرضه، وأصيب الكاتب باضطراب في التنفس ومعدلات النبض، وازرقت أطرافه، وعاش عدة أيام فقط بعدها، زاره خلالها الرئيس السوفيتي «جوزيف ستالين».

وفي ١٨ من يونيو توفي «جوركي»، وثبت لاحقًا أن رثتي الكاتب كانتا في حالة سيئة تمامًا، حتى إن الأطباء تعجبوا كيف كان قادرًا على التنفس، غير أن الإشاعات التي سرت حينها أن «ستالين» أو «تروتسكي» قد أمرا بدس السم له في الطعام، وقد صرّح بذلك «جنريخ ياجودا» أحد قادة اللجنة الشعبية للشئون الداخلية للاتحاد السوفيتي، و«بيتر كريبوتشوف» السكرتير الشخصي للكاتب، حيث حكمت المحكمة بإعدامهما رميًا بالرصاص، عقابًا على هذه التصريحات.

وكانت وفاة الشاعر الروسي الكبير «فلاديمير ماياكوفسكي» (١٨٩٣-١٩٣٠م) أيضًا غامضة، ومثّلت لغزًا وحيرة كبيرة للباحثين، فقد توفي الشاعر في إبريل ١٩٣٠م وبقيت الرواية الرسمية حتى يومنا هذا أنه انتحر، غير أن هناك العديد من النقاط التي تحتاج إلى تفسير. ففي عام ١٩٢٨م تعرّف «ماياكوفسكي» في باريس على «تاتيانا ياكوفليفا» وأنجبا طفلة، وكان الشاعر يرغب في الرحيل عن الاتحاد السوفيتي، بيد أن السلطات لم تسمح له بذلك. كان الاتحاد السوفيتي آنذاك في حاجة إلى بقاء «ماياكوفسكي» بوصفه شاعر الثورة، والمنبر الذي يتحدث باسمها في العالم كله. وقد تحدث أصدقاء «ماياكوفسكي» عن هذا الخلاف الذي نشب بين الشاعر والسلطات، وهو ما يعضد من فرضية تعرضه للقتل في عمليات التطهير التي شنتها السلطات خلال الثلاثينيات.

كانت الفنانة «فيرونیکا بولونسكيا» آخر من رأى الشاعر قبل موته، وفي أثناء خروجها من شقته سمعت صوت إطلاق رصاصة فعدت فورًا، ووجدت الشاعر قد توفي. وعثر في منزله على ورقة صغيرة كتبها قبل وفاته مباشرة، وقال فيها: «لا تتهموا أحدًا بقتلي ولا تثيروا شائعات، فالميت لا يحب ذلك.. المعذرة يا أمي ويا أختي ويا أصدقائي، ليس لدي خيار آخر». وقد أكد أصدقاء الشاعر - ومنهم «سيرجي إيزينشتاين» - أن اللغة التي كتبت بها هذه الورقة ليست لغة «ماياكوفسكي» على الإطلاق.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد حقيقة هذه الظاهرة، ولعل نسبة الانتحار المرتفعة بين الأدباء الروس دليل إضافي على ذلك. وستظل نهايات هؤلاء المبدعين مصدر حيرة بين محبي الأدب الروسي في العالم، كما كانت كتاباتهم دومًا مصدر إعجاب وإلهام.

«الدراما الروسية الجديدة» يختلف النقاد في روسيا حول هذا المسمى وإطاره الزمني، وقد بدأت هذه الحقبة مع سعي كتاب الدراما لإصدار إبداعات جديدة مثلت ظاهرة في منتصف تسعينيات القرن الماضي، واستمرت حتى وقتنا هذا.

شهدت نهاية القرن العشرين أحداثاً ثورية كبرى في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية من حياة المجتمع الروسي، وقد انعكس ذلك على شكل ونمط حياة المواطن الروسي الذي تعامل مع هذه الصدمة الكبيرة بصبر واستيعاب. وكان المسرح والدراما أول الفنون التي لم تستشعر وتعكس التحولات التاريخية في البلاد فحسب، بل ولعبت دوراً هاماً في إحداث هذه التحولات؛ حيث اتسمت الأعمال المسرحية التي سبقت انهيار الاتحاد السوفيتي بنزعة نحو التمرد على الواقع والسخرية منه. ويمكن تقسيم تطور المسرح الروسي الحديث والمعاصر إلى ثلاث مراحل مهمة ارتبطت بخصوصية الوضع الثقافي في كل منها، الأولى: هي التي سبقت البيروسترويكيا مباشرة، واتسمت بالواقعية، الثانية: مرحلة الحداثة، وأخيراً: مرحلة ما بعد الحداثة. وقد عانت الدراما الروسية شأنها شأن الأدب الروسي عامة من حالة من الازدواجية الجمالية في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحالي، حيث نجد فيها في آن واحد ملامح وسمات لتيارات الواقعية والحداثة وما بعد الحداثة. وشارك ممثلو أجيال مختلفة من الأدباء في كتابة إبداعات هذه المرحلة، ولعل أهمهم «ليودميلا بيتروشييفسكايا» و«ألكسندر كازانتسيف». ومن ممثلي تيار ما بعد الحداثة هناك «فلاديمير ساروكين» وجيل التسعينيات أيضاً. وثمة مجموعة كبيرة من كُتاب الدراما الروسية تستحق أن يُلقى الضوء على أعمالهم، منهم: «ميخائيل أوجاروف» و«إدوارد جريشكوفيتس» و«كسينيا دراجونسكايا» و«يفجينيا ميخايلوفا» و«ألكسي سلابوفسكي».. وغيرهم. كما تأثرت الدراما الروسية المعاصرة بما يعرف بالوثائقية أو التوثيق، فقد كان «ألكسندر سولجينيتسن» الروائي الروسي الكبير وصاحب جائزة «نوبل» رائداً لهذا النوع من النثر. وانعكس ذلك على الدراما في تلك الفترة؛ حيث نجدها تقترب في معظمها من الإنسان الحقيقي والبيئة الواقعية.

وتعد الدراما الوثائقية من أهم الظواهر الأدبية في المسرح الروسي المعاصر، وساعد الأسلوب التوثيقي على إحداث تغيير مستمر في حالة المؤلف المسرحي، حيث لا يلزمه التأليف بقدر ما يلزمه انتقاء وتهيئة حوار حقيقي استمع إليه أو قام بتسجيله.. فلا حاجة هنا للخيال. تلك المنهجية السهلة والمقتبسة من المسرح الإنجليزي أتت بثمار واضحة في المسرح الروسي؛ حيث ظهر في موسكو مسرح جديد يحمل اسم «المسرح الوثائقي»، ومن أهم المؤلفين في هذا

المجال: «يلينا إيسايفا» بمسرحية «الرجل الأول».

وفي نهايات القرن الماضي ظهر جيل من كتاب الدراما الروسية أطلق عليه «جيل ذوي العشرين ربيعاً». واتسمت كتاباتهم بنوع من التشاؤم، وتمركزت حول موضوعات: الشر، وإبراز العنف، وانعدام الإنسانية التي غالباً ما لم تكن من الحكومة، بل الشر الكامن في العلاقات بين البشر الذي يؤكد أن أرواحهم قد بلغت حدًا لا علاج له من التشوه. ونذكر من هؤلاء الكتاب كلاً من: «فاسيليسيجاريف» صاحب مسرحية «الحليب الأسود»، و«قنسطنطين كوستينكو» صاحب مسرحية «كلاوسترافوبيا» و«إيفان فيرابايف» ومسرحيته «الأوكسجين». هذا العدد الكبير من المسرحيات التشاؤمية يؤكد حالة اليأس وانعدام الأمل التي سادت هذا الجيل من الشباب وفقدان الثقة في القيم الحضارية المعاصرة وفي الإنسان نفسه. وحاول الكتاب الشباب في مسرحياتهم الدفاع عن مبادئ الإنسانية وقيمها.

ومن السمات الأساسية للدراما الروسية المعاصرة البعد عن التعميم وقلة الاهتمام بدراسة القيم الثقافية في المجتمع، والتركيز على التجارب الفردية الشخصية اليومية. أما فيما يتعلق ببنية النص المسرحي واللغة فنجد أن الكاتب يسمح لنفسه باستخدام مختلف مستويات اللغة بحرية تامة، كما يتحرك بحرية تامة أيضاً في بناء الرواية المسرحية دون التقيد بأطر صارمة، حتى إن الكثيرين من النقاد يرون أن الدراما الروسية المعاصرة تفتقد الأسلوب الخاص بها، فهي متنوعة مثل الحياة، وتتغير من وقت لآخر وبوتيرة مستمرة.

ويعد الموضوع الأساسي للدراما الروسية المعاصرة الإنسان والمجتمع، فمعظم كتاب الدراما الواقعيين اهتموا بالتعبير عن العصر من خلال أبطالهم، ومن هذه المسرحيات نذكر: «المسابقة» لـ«ألكسندر جالين»، و«شغف فرنسي في ضواحي موسكو» لـ«رزوموفوسكايا»، و«إنترفيو حول موضوع الحرية» لـ«أرباتوفا».. وغيرها. وقد احتلت الكاتبة «ماريا أرباتوفا» مكانة هامة بين كتاب التسعينيات بفضل تركيزها على الأدب النسائي في كتاباتها، وهو موضوع جديد على الأدب الروسي بصفة عامة.

ومن الموجات المهمة التي ظهرت في تلك الفترة أيضاً إعادة الكتابة المسرحية للعديد من المؤلفات الشهيرة، فقد توجه كتاب الدراما الروس إلى أعمال شكسبير مثلاً، وظهرت نسخة مسرحية روسية من «هاملت» للمؤلف الكاتب «بوريس أكونين»، ونسخة أخرى من تأليف «بييتروشفيسكايا»، ونسخة ثالثة من تأليف «كليم»، كما قام بعض الكتاب المسرحيين بتحويل الأعمال الكلاسيكية الروسية إلى مسرحيات، ومنها: أعمال «ألكسندر بوشكين»، و«فيودور دوستوفسكي»، و«أليف تولستوي»، و«أنطون تشيكوف».. وغيرهم.

ويمكن القول إن الدراما الروسية المعاصرة استطاعت تجديد معايير الجمال في إطار واقعي، واستحدثت اتجاهات ونماذج جديدة من الأبطال، وتناولت الواقع اليومي بقسوته، وأعدت إحياء

شخصية «الإنسان البسيط» التي عرفها القارئ في أعمال عظماء الأدب الروسي «أنطون تشيكوف» و«فيودور دوستيوفسكي».. وغيرهما.

وبقيت تقاليد تشيكوف حاضرة في إبداعات المسرحيين الروس في أواخر القرن الماضي، وكان ذلك ماثلاً بوضوح في أعمال «ن. كوليادي» مسرحية «النورس يغني»، و«ب. أكونين» في مسرحية «النورس»، و«ي. جيرمينا» في مسرحية «الزوجة السخالينية».

ومن أهم كتاب المسرح الروسي حالياً: «بيتروشيفسكايا» و«كوليدي» اللذان يتمتعان برؤية خاصة للعالم المحيط، بالإضافة إلى المنظومة الدرامية الخاصة بكل منهما والتي تتطور من عمل لآخر. ولهذا يحظى هذان الكاتبان باهتمام كبير من النقاد والقراء ورجال المسرح.

وهكذا لا يمكن وصف الدراما الروسية المعاصرة بكونها اتجاهاً أدبياً كاملاً، غير أنه يمكن النظر إليها كظاهرة هامة تستحق التحليل. كما يمكن القول إن التنوع يمثل السمة الأساسية للدراما الروسية المعاصرة، وهو ما يعكس الطابع الفني التجريبي للحياة الأدبية في روسيا الحديثة.

يؤكد العلماء، أن الأدباء هم الأكثر عرضةً للضغوط النفسية والاكتئاب، وهناك من يجد صلةً وثيقةً بين الإبداع والانحرافات النفسية، ومن هذا المنطلق، يوجد العديد من الأمثلة والنماذج في تاريخ الأدب العالمي والروسي لعباقرة ومشاهير، عانوا من أمراض نفسية مختلفة. وطبقًا لإحصاءات منظمة الصحة العالمية، يعاني أكثر من نصف مليار شخص من أمراض نفسية، ويتزايد هذا العدد سنويًا بفعل تدفق المعلومات والأزمات السياسية والاقتصادية.

ويمثل الانشغال بالأدب والكتابة، أرضية مثالية لظهور واشتداد الانحرافات النفسية لدى الشخص، وتؤكد الدراسات أن الأدباء أكثر عرضة من غيرهم بهذه الأمراض، وبمقدار الضعف. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة من تاريخ الأدب الروسي ولأدباء روس مشاهير.

لعل الكاتب الروسي الكبير نيقولاي جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢م) خير مثال على ذلك، فقد قضى جوجول معظم سنوات عمره يعاني من مرض الهوس الاكتئابي أو الاضطراب الوجداني ثنائي القطب. كتب يقول: «كنت أعاني من وقت لآخر من مرض يجعلني أبقى بلا حراك في غرفتي لأسبوعين إلى ثلاثة». هكذا وصف جوجول حالته. وعندما أصبحت هذه الحالة تنتابه كثيرًا، قرر أن يعزل نفسه في غرفته، ويضرب عن الطعام حتى وافته منيته.

عانى مؤلف كتاب «الأنفس الميتة» من مرضه النفسي، الذي تفاقم بسبب النوبات المتتالية عليه، واشتكى جوجول من هلوسات مرئية وصوتية، ولم يستطع أن يلاحظ الخطر المميت الذي بات يهدده. تناوبت عليه حالات اليأس مع النشاط المفرط والإثارة. في كثير من الأحيان، كان الخوف من الأماكن المغلقة يطارده، وتفاقمت الاضطرابات الذهنية لديه، خاصة بعد وفاة أخت صديق مقرب له وتدعى يكاترينا خومياكوفا؛ عندها بدأ جوجول يرفض تناول الطعام، وأخذ يشكو من الضيق والضعف، وفي إحدى ليالي فبراير ١٨٥٢، أحرق جوجول مخطوطاته. وبدأت حالة الكاتب في التدهور تدريجيًا وبشكل حاد. وفي ٢١ فبراير، تُوفي جوجول من فرط الإرهاق، وهناك من يربأ أنه انتحر.

كان صدور كتابه الأخير «الأماكن المختارة»، والهجوم الذي تعرّض له من قبل الأصدقاء سببًا في تقويض صحته العقلية. كتب طبيبه الخاص يقول: «كان جسده نحيفًا للغاية، وبدت عيناه يملأهما الحزن والملل، ووجهه قد استنزف بالكامل، وتهدلت خدوده، وأصبح صوته ضعيفًا، وكان لسانه يتحرك بصعوبة، وأصبحت تعبيراته غامضة، وغير قابلة للتفسير. لقد بدا لي من الوهلة الأولى كرجل ميت».

وحتى الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧م) عانى فترات ليست بالقصيرة من الاكتئاب والضغط النفسية، فمنذ شبابه المبكر لوحظ على الشاعر بعض أعراض عدم التوازن النفسي فكان شديد الحساسية في التعامل مع أقرانه في المدرسة، وسريع الانفعال. ويربط الباحثون في إبداعات بوشكين بين هذا السلوك العدوانى للشاعر، وتوقُّد مشاعره الذي يفوق غيره من البشر، عانى الشاعر لسنوات طويلة من الاكتئاب، بعد إنهاء دراسته في المدرسة، وتوقَّف عن الإبداع تقريبًا. ويؤكد النقاد، أنه يمكن بسهولة تتبع فترات الجمود الإبداعي عبر مراحل حياة بوشكين، وفترات المعاناة من الاكتئاب والوحدة.

ويرى بعض الباحثين في إبداعات الشاعر ميخائيل ليرمونتوف، (١٨١٤ - ١٨٤١م) أنه قد عانى من الشيزوفرينيا، ويؤكد النقاد أيضًا أن ليرمونتوف كان معروفًا بالعدوانية في التعامل، وبكونه غير اجتماعي على الإطلاق.

كان ميخائيل يوريفيتش ليرمونتوف يعاني الكثير من الأمراض الوراثية والمكتسبة وأهمها المشيمة، العصبية المفرطة. انتحر جده بالسم، وكانت أمه عدوانية ووالده قاسيًا طائشًا، مدمنًا على لعب الورق. وفي طفولته المبكرة بدت على الصبي علامات انفصام: فكانت شخصيته تجمع بين القسوة الشديدة واللفظ المفرط، وحب العدل وكراهية الظلم. وكان يشعر برغبة في التدمير، وكان شديد الانفعال، متقلب المزاج، متعنتًا. راودته فكرة الانتحار أكثر من مرة وهو في سن مبكرة من حياته. كان دائمًا منغلغًا على نفسه، كما أنه لم يكن جميلًا؛ مما أدى ذلك إلى عزله أكثر، ولم يكن النساء يعجبن به، وهو ما أهان غروره كشاعر كبير.

في القرن التاسع عشر، كان الشاعر الروسي قسطنطين باتيوشكوف (١٧٨٧ - ١٨٥٥م) يعاني من مرض عقلي وراثي، مصحوب بالاكتئاب، ومحاولات الانتحار. وقد كتب طبيبه المعالج أنطون ديتريتش يقول: «يتفق الجميع أن باتيوشكوف كان رجلًا نبيلًا، وصديقًا مخلصًا، محبًا للطاء، ومحبًا لوطنه. غير أنه الآن يبدو كوحش، لا تجرؤ على الاقتراب منه دون خوف، أصبح يعتقد أنه إله، لم يعد يتعرف على أي شخص، وليس لديه حب لأي إنسان».

كاتب آخر عظيم هو ليف تولستوي، (١٨٢٨ - ١٩١٠) صاحب «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا». عانى تولستوي من نوبات اكتئاب شديدة، ومتكررة، وأعراض رهاب مختلفة، وقاوم الكاتب حالة الاكتئاب والملل هذه سنوات طويلة. كما عرف تولستوي بكونه ذا ميول عدوانية شديدة.

وقد اشتهر تولستوي بأعماله العظيمة، وبكونها كتابات شديدة التعقيد، تفيض بالاستطرادات والأطروحات الفلسفية والتاريخية. وبدا أن مؤلف «الحرب والسلام» يسعى من خلال ذلك إلى تناسي الإحساس بالخوف، والهلع، والملل، التي عانى منها في إطار بحثه عن إجابات لأهم القضايا التي تتعلق بمعنى الحياة والكون.

وعندما بلغ الثالثة والثمانين، قرر أن ينتقل بين المدن الروسية وفر من منزله. إلا أن هذه الرحلة كانت الأخيرة، ولم تدم طويلاً. حيث مرض تولستوي بالتهاب في الرئتين، واضطر إلى التوقف في بلدة أستابوفا، حيث سرعان ما وافته المنية هناك. وقد تم تغيير اسم البلدة إلى «أليف تولستوي» تكريمًا له.

ويُعد سيرجي يسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥م) من أكثر شعراء روسيا موهبةً، ومن خلال إبداعاته، أكد الكثير من الباحثين أن الشاعر كان يعاني من حالة الاكتئاب الوجداني، ولوحظت لديه - لسنوات طويلة - رغبة في إنهاء حياته بالانتحار، ومما زاد الطين بلّة إدمان الشاعر على شرب الخمر.

وكان أول من تحدث عن جنون سيرجي يسينين هي زوجته راقصة الباليه الأمريكية الشهيرة إيزادورا دنكان، التي اصطحبت الشاعر إلى الأطباء النفسيين الأمريكيين والفرنسيين والألمان. إلا أن علاجاتهم لم تؤد إلى نتيجة جيدة. وقد أكّد النقاد والمهتمون بكتاباتة، أنه كان يعاني بالفعل من الهوس الاكتئابي، وكانت تنتابه حالات من هوس الاضطهاد بين الحين والآخر، ونوبات الغضب المفاجئة، والسلوك غير المتزن ثم تعقبها فترة من الراحة والسلام. وقال البعض إنه طُرد من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب «مشاجرات» بعد أن قام بتدمير الأثاث، وتحطيم الأطباق والمرايا، وإهانة المحيطين به، وتطورت حالته المرضية بسبب إدمانه للكحول، وقبل أيام قليلة من وفاته اشتكى يسينين من إرهاق شديد، ووصف نفسه بأنه «رجل منته». بدا أنه ينتظر الموت، ويرغب فيه، وكان يردد دومًا أنه كان مريضًا بعقل كثيرة، وأنه اكتشف هذا الأمر في سن مبكرة. ففي سن السادسة عشرة، من عمره، كتب: أنه لا يعرف ما إذا كان سيتغلب على آلامه أم لا؟. ووفقًا للرواية الرسمية، قام الشاعر بشنق نفسه على أنبوب تسخين البخار في فندق بمدينة سان بطرسبورج، ومن المعلومات المثيرة للاهتمام أن لفظة «الموت» ومرادفاتاها قد وردت في قصائده أكثر من ٤٠٠ مرة.

كما كانت لدى مكسيم جوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦م) ميول ملحوظة لأن يهيم على وجهه، ويسافر من مكان إلى آخر دون هدف واضح. فضلًا عن ذلك كان جده وأبوه غير أسوياء، ولديهما ميول سادية. وعانى جوركي من مرض الميول للانتحار، وقد قام بأول محاولة، وهو بعدُ طفل صغير. ولا تزال القائمة طويلة، وتضم أسماءً كبيرة مثل الشاعرة ماريا تسفيتايفا وفيودور دوستويفسكي وغيرهما.

وهكذا نلاحظ أن حياة الأديب الموهوب، ترتبط دومًا بخطر كبير يتعرض الوعي عنده، كما أن وصوله إلى المجد والشهرة يكاد يكون دائمًا مصحوبًا بظواهر خطيرة من الجنون، والانحراف، والإقدام على كل ما هو ممنوع. وهناك سمة مشتركة بين الشيزوفرينيا والعبقرية، تتمثل في عدم محدودية التفكير أو التفكير بلا حدود ولا منتهى. ويجب القول إن المرض العقلي لا يقتصر على

مشاهير الأدباء، بل هو شائع بين المشاهير عمومًا. وللأسف فإن كثيرًا من هؤلاء، قد أنهوا حياتهم إما في مصحات عقلية أو أقدموا على الانتحار طوعًا.

ورغم أن جميع الدراسات -تقريبًا - تؤكد على وجود علاقة مباشرة بين توافر الموهبة الإبداعية لدى شخص ما، وإصابته بانحرافات نفسية، غير أنها تؤكد في الوقت نفسه أن هذه الانحرافات تحديدًا هي صاحبة الفضل الأول في إنتاج هؤلاء لروائعهم ونواديرهم، وحينها تذوب الفواصل تمامًا بين العبقرية والجنون.

أدباء منتحرون... ظاهرة روسية فريدة

انتحار الفكر... أم فكر الانتحار؟

يقول شاعر روسيا الخالد ألكسندر بوشكين:

والموت فكرة

أراها قريبة إلى نفسي

وإلى روعي.

كتب على أحد أقدم أوراق البردي المصرية حوارًا شعريًا دار بين رجل تعب من الحياة مع نفسه. وما لبث أن تحول الحوار إلى جدال ساخن. وكان السؤال الرئيس: هل يجب أن يتشبث الإنسان بالحياة، أو أنه من الأفضل أحيانًا اختيار الموت.

وتقدم القصيدة أفكارًا قيمة للشاعر المصري القديم الذي يعاني من مشاعر الحزن واليأس والعجز. ويقول فيها «الموت... أضحى اليوم قريبًا من بصري... لكن روعي قالت لي: نح همومك جانبًا... يا أخي وصديقي وقدم قربانًا للإله وتمسك بالحياة».

لا يختلف الروس كثيرًا عن العرب في التعامل مع لفظة «انتحار» فعادة ما تنطق همسًا، وتعتبر من التابوهات سواء بالنسبة للضحية أو من بقي على قيد الحياة. وعادة ما يرتبط الانتحار بأمراض نفسية وشعور بالوحدة أو عدم الإيمان بما يجري في الحياة، أو بآلام روحية وعذابات نفسية. ويعد الأدباء سواء الكُتَّاب أو الشعراء من أكثر الناس عرضة لمثل هذه الأمراض. حيث تصل بهم إلى درجة يصعب تحملها حيث يشعر الأديب بالألم والمعاناة، ليس فقط لكون هذه المشكلات قائمة من حوله، بل ولشعوره بمسئوليته في حدوثها وفي تخليص المجتمع منها.

والمثير للاهتمام في الأدب الروسي أنه لا يوجد أديب روسي لم يتعرض لهذا الموضوع في أعماله، ولم يصور مشهد الانتحار. ولعل مشهد انتحار البطلة أنا كارنينا في رواية تولستوي التي تحمل الاسم نفسه من أهم المشاهد العالقة في عقول محبي الأدب العالمي. كما صورها بوشكين وجوجل وراديشيف وغيرهم. وينتمي الأدباء خاصة والمبدعين بصفة عامة إلى قائمة الناس الأكثر عرضه لخطر الانتحار. ويرجع ذلك لهشاشتهم العاطفية وتعري مشاعرهم وحالة الصراع مع الثوابت التي تغلب على حياة معظمهم. ويعتقد علماء النفس أن كل إنسان لا تقتصر حياته على المتعة الجسدية بل يعمل على تغذية عقله قبل جسده، قد فكر ولو مرة واحدة في الانتحار. أما المبدع والأديب خاصة فيستشعر قرب هذه الفكرة منه طوال الوقت. وهي تغويه من أن لآخر.

ويعد ألكسندر راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢م) أول الأدباء الروس الكبار الذي أنهى حياته بنفسه. حكم عليه بالإعدام وسجن في سجن بتروبافلوفسكايا؛ بسبب قصيدته الثورية «رحلة من

بترسبورج إلى موسكو» ولكن الحكم خفف إلى النفي لعشر سنوات قضاها في المنفى السيبيري (إيليمسك) وهناك كتب رسالة فلسفية بعنوان «في الإنسان: فناؤه وخلوده». وقد عانى الشاعر مما أسماه شعور الاستهانة بالقيمة الإنسانية. وقد حاول كثيرًا الدفاع عن هذه القيمة ودفع ثمنًا لذلك من حريته وثروته، وأخيرًا حياته.

يقول راديشيف في إحدى قصائده:

هل تود معرفة من أنا؟

ما أنا؟ إلى أين أسير؟

سأظل كما كنت طوال حياتي

لست قطيعًا ولا شجرة ولا عبدًا

أنا إنسان!

أشق طريقي في دروب

لم يعهدا أحد قبلي

وشهدت الفترة من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين أكبر عدد من حالات الإنهاء الطوعي للحياة من قبل الأدباء الروس، حتى أطلق عليها فترة انتشار وباء الانتحار بين الأدباء. فقد شهدت تلك الفترة انتحار كل من: فيكتور جوفمان عن ٢٧ عامًا، وإيفان إيجناتيف عن ٣٣ عامًا، وفيفولود كنيازيف عن ٢٢ عامًا، وفاسيلي كوماروفسكي عن ٣٣ عامًا، وأندريه لوزيتسكي عن ٣٠ عامًا، وأنا مار عن ٢٨ عامًا وغيرهم. ولم تشهد فترة في تاريخ روسيا قبلها أو بعدها عددًا مماثلًا. وقد رأى الأدباء المنتحرون في الكاتب ليونيد أندريف (١٨٧٤ - ١٩١٩م) ملهمًا لهم. وهو الذي تناول موضوع الموت بكثافة في أعماله، وسحر به كثيرًا. وتزخر كتاباته بالنتشائم والقنوط المفرط ولكنه لم يشتهر في حياته باضطرابات نفسية أو جنون الرغبة في الانتحار.

وقد تحول الانتحار إلى ظاهرة في تلك الفترة التي شهدت تحولات سياسية وثورية كبيرة في روسيا في بداية القرن العشرين. وكان كثير من المقدمين على الانتحار يرسلون بخطاب إلى أندرييف بوصفه زعيمًا وملهمًا بدا وكأنه أنار لهم الطريق في إبداعاته بأن، في الموت الخلاص من الآلام والعذابات الروحية. وجمع أندرييف مجموعة كبيرة من الرسائل الأخيرة التي كتبها هؤلاء الأدباء في اللحظات الأخيرة قبل إقدامهم على الانتحار، حتى إنها أصبحت عادة عند كل من يريد الانتحار من الأدباء الروس أن يكتب رسالة إلى أندرييف.

ونتوقف سويًا عند أشهر ثلاث حالات انتحار بين الأدباء الروس:

مارينا تسفيتايفا (١٨٩٢ - ١٩٤١م). قضت نصف حياتها بعيدة عن وطنها حيث اضطرت إلى

الهجرة؛ لموقفها المعارض من الثورة الاشتراكية، وعاشت في عوز شديد خلال تلك الفترة وكان

زوجها معدماً؛ ولذا اضطرت للعمل ومحاولة كسب المال من الكتابة، وأحياناً من الترجمة. عانت كثيراً في المهجر، واضطرت للعودة إلى الوطن أثناء الحرب، وتنقلت مع ابنها بين المدن الروسية حتى استقرت في تيارستان. وهناك قامت بشنق نفسها وتركت ابنها وحيداً وأوصت زملاءها الأدباء برعايته. وحتى الآن لم يتم التعرف على قبرها. وقد تركت تسفيتايفا لابنها ورقة كتبت فيها «سامحني يا بني! لو انتظرت أكثر لساء الوضع أكثر. أنا مريضة بمرض خطير. أشعر بأنني لست أنا. أحبك بجنون. أرجو أن تفهم أنني لم يعد بإمكانني البقاء. أبلغ أباك وأختك إذا رأيتهما أنني أحببتهما حتى آخر لحظة في حياتي، وقل لهما إنني وصلت إلى طريق مسدود».

كما كتبت في وصيتها إلى زملائها الأدباء ليتعهدوا ابنها برعايتهم: «عزيزي نيقولاي نيقولايفيش! أعزائي بنات عائلة سينياكوفي! أتوسل إليكم أن تأخذوا ابني «مورا» وتتنبوه وتساعدوه أن يكمل دراسته. لم أعد أستطيع تقديم شيء له وبقائي سوف يقضي عليه. تركت لكم في الحقيبة ٤٥٠ روبلاً، كما يمكنكم بيع كل أغراضي. كما تركت بضع دفاتر بها أشعار وعدة قصص أتركها لكم. حافظوا على ابني مورا العزيز؛ فصحته ليست على ما يرام، وأحبوه كابن لكم فهو يستحق. وسامحوني فلم أعد أحتمل. لا تتركوه أبداً. سأشعر بالارتياح والسعادة في قبوري لو عاش معكم، وإذا سافرتم خذوه معكم. لا تهملوه!».

كتبت الشاعرة أبياتاً قبل انتحارها بعامين. ويمكن وصف هذه الأبيات بنشيد المنتحرين:

لا حاجة لي لأذن تسمع

لا حاجة لي لعين ترى

لا حاجة لي

لعالمك المجنون هذا!

فلاديمير ماياكوفسكي (١٨٩٣ - ١٩٣٠م) عاش الشاعر الشهير ماياكوفسكي حياة غير مستقرة. وقد لاقت كتاباته رفضاً شديداً من قبل السلطات السوفيتية، و تعرض للهجوم من جانب القراء والنقاد الموالين للثورة البلشفية. إلا أن ذلك لم يكن السبب الرئيس في إقدامه على الانتحار، بل رفض حبيبته فيرونيا بولونسكوي العيش معه. وقد أطلق النار على نفسه بعد لقاء أخير جمع بينهما. وكان قد ترك قبلها بيومين ورقة كتب فيها: «لو مت فلا تتهموا أحداً، ورجاءً لا تغتابوني. فالميت يكره الغيبة بشدة. أمي وأخواتي وزملائي. أرجوكم التمسوا لي العذر فلم يكن لدي خيار آخر....» وقد تحالف الشاعر في البداية مع الشيوعيين، ثم ما لبث أن تراجع وندم على فعلته؛ ولذا هناك رأي قوي يقول إن الشاعر قد وعي بذنبه كشاعر باع موهبته في البداية ثم استيقظ وندم.

قالت الشاعرة ماريا تسفيتايفا عن ماياكوفسكي «عاش ماياكوفسكي ١٢ عاماً كاملة تحت وطأة الشعور بأنه يقتل الشاعر الذي في داخله، وفي العام الثالث عشر استيقظ الشاعر وقتل الإنسان. إذا كان من وجود هنا لما يسمى الانتحار في هذه الحياة، فإنه ليس حيث يراه الناس، بل استمر كامناً

في أعماقه لانتني عشرة عامًا»

سيرجي يسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥م). كثيرون لا يصدقون حتى يومنا هذا أن يسينين قد انتحر. فلا توجد أدلة على موته انتحارًا. والجدير بالذكر أنه كان مدمنًا على الشراب حتى إنه تعرض للاعتقال كثيرًا بسبب ذلك. كما حاول الشاعر مرات عديدة الانتحار. وكان زملاؤه والمحيطون به ينقذونه في اللحظات الأخيرة. وليس من المعروف حتى الآن الحالة العقلية التي كان عليها الشاعر صاحب الثلاثين عامًا، عندما شنق نفسه بأن ربط عنقه في أنبوب التدفئة في فندق «انترناشيونال» مستخدمًا حزام حقيبتة. وقد كتب أشعارًا في وداع أصدقائه ومحبيه قال فيها: «إلى اللقاء. يا صديقي. إلى اللقاء... فالموت في هذه الحياة ليس بأمر جديد والحياة بالطبع ليست أجدد... لا أرى أي فرصة للاستمرار في الحياة. فالفن الذي منحته جل حياتي يخضع لسيطرة قيادة حزب جاهلة مغرورة... حياتي ككاتب لم يعد لها معنى. وأنا أغادرها الآن بكل سعادة لأتخلص وأنجو من البقاء العفن، حيث يتم وصمك بكل أصناف القذارة والكذب والوشاية».

وشهد القرن العشرون العديد من حالات الانتحار بين الأدباء الروس، نذكر منهم الشاعر ليونيد أرونزون (١٩٣٩ - ١٩٧٠م)، وماكس باتورين (١٩٦٤ - ١٩٩٧م)، ودميتري جولوبكوف (١٩٣٠ - ١٩٧٢م) وألكسندر باناموريوف (١٩٣٤ - ١٩٧٩م)، وليونيد سوبوليوف (١٨٩٨ - ١٩٧١م) وغيرهم كثيرون. ولعل التحولات السياسية والاجتماعية الحادة التي شهدتها روسيا في العقود الثلاثة والقيود التي فرضت على الإبداع كانت السبب الرئيس في وقوع معظمها، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، من دوافع وأسباب خاصة بالمبدع والأديب.

هناك مقولة شهيرة بين الشعراء في روسيا: هؤلاء الذين أنهوا حياتهم بطريقة مأساوية... أولئك هم الشعراء الحقيقيون. بالطبع لا يمكن القطع بصحتها تمامًا، ولكن لا شك أنها تعبر وصدق عن حالة وظاهرة روسية فريدة.

الباب الرابع
سيرة أهم أعلام الأدب الروسي

(١)

ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين

يُعتبر ألكسندر بوشكين شاعرًا وكاتبًا روسيًا كبيرًا، تربح على قمة المبدعين في زمانه. ويرجع إليه الفضل في تأسيس اللغة الروسية الفصحى الحديثة. وقد نال أثناء حياته لقب شاعر روسيا الوطني، ولقيت إبداعاته تقديرًا عاليًا من قبل معاصريه.



وُلد بوشكين في السادس من يونيو ١٧٩٩م بمدينة موسكو في عائلة أحد النبلاء الروس ويدعى سيرجي لفوفيتش بوشكين ذا الأصول الأرستقراطية. وكان أبوه مولعًا بالشعر. فيما تعود أصول والدته إلى أحد الخدم الأفارقة لدى القيصر بطرس الأول، ونال هذا الخادم مكانة مقربة من القيصر حتى منحه لقبًا في البلاط. ويدعى الجد الأكبر لبوشكين إبراهيم جانبيال. وقد تحول هذا الرجل من خادم بسيط إلى مهندس عسكري ثم جنرال. أما عم بوشكين فيدعى فاسيلي لفوفيتش بوشكين وكان شاعرًا محترفًا. وكان لدى بوشكين أخت كبرى تدعى أولجا وأخ أصغر يدعى ليف. وقد بدا بوشكين كتابة الشعر وما بعد طفل صغير. وكانت تقوم على تربيته مربية تدعى ارينا راديونوفنا. وقد أحبها بوشكين كثيرًا وبقي يكنُّ لها احترامًا وحبًا حتى آخر حياته حتى إنه كتب قصيدة شعرية عنها.

وقد تلقى بوشكين تعليمًا راقياً في الليسيه، وهي مدارس خاصة أسسها القيصر ألكسندر الأول (١٧٧٧ - ١٨٢٥م) لتربية وتعليم أبناء النخبة الروسية، وكانت تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية. وكانت المدرسة تقع بالقرب من مقر القيصر في ضواحي مدينة سان بطرسبورج والتي كانت في تلك الفترة عاصمة للبلاد. ويطلق على هذا المكان تساريسكوي سيلو. وكان بوشكين من أول الطلاب الدارسين في هذا الليسيه بعد افتتاحه في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٨١١م. ويتم حتى يومنا هذا الاحتفال سنويًا بعيد افتتاح مدرسة ليسيه قرية تساروسكوي سيلو تقديرًا للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين. وشهدت فترة الدراسة اكتشاف بوشكين لموهبته في كتابة الشعر. وقد تعرف في

المدرسة على أبناء النبلاء الروس، ارتبط معهم بصداقات طويلة وكتب لاحقاً عن فترة الدراسة تلك القصيدة التي تسمى «١٩ أكتوبر».

وتتسم أشعاره المبكرة بكونها تنتمي إلى الاتجاه الكلاسيكي الروسي والفرنسي. وقد تأثر بوشكين كثيراً بالشاعر الروسي الكبير فاسيلي جوكوفسكي والمعروف بانتمائه إلى السينتمينتالية في الشعر.

وفي حفل المدرسة السنوي عام ١٨١٤م قرأ بوشكين قصيدته «ذكرياتي عن قرية تسارسكوي سيلو» فأعجب بها الحاضرون وكان بينهم الشاعر الروسي الكبير جابريل فونفيزين. كما كتب بوشكين في هذه الفترة قصائد أخرى منها «المدينة الصغيرة» و«الحلم» و«الأمنية» و«إلى أصدقائي» و«الوردة» وغيرها.

وانخرط بوشكين مبكراً وهو لا زال في المدرسة في جمعيات أدبية تمردت على القواعد القديمة في الأدب والتي كانت تميز الاتجاه الكلاسيكي أو الاتباعي.

وأنهى بوشكين دراسته في الليسيه عام ١٩١٧م وحصل على الشهادة التي كانت تعادل الشهادة الجامعية حينها، فتوجه للعمل بوزارة الخارجية. وفي عام ١٨١٩م انضم إلى الجمعية الأدبية «المصباح الأخضر» والتي كان لها دور مستقبلاً في ثورة الديسمبريين في عام ١٨٢٥م ضد القيصر ومحاولة القضاء على النظام الملكي والحكم المطلق وتطبيق الدستور وإلغاء النظام الإقطاعي واستعباد وظلم الفلاحيين. وشهدت هذه الفترة نشاطاً إبداعياً لدى شاعرنا الذي تركز اهتمامه على الموضوعات السياسية دعى فيها إلى إلغاء قانون الرق والإقطاع وتطبيق الدستور وتقييد سلطات القيصر. ومن بين القصائد نذكر «القرية» و«الحرية». وعمل بوشكين في تلك الفترة على كتابة رائعته «روسلان ولودميلا» والتي صدرت في مايو ١٨٢٠م.

وقد جلب له انتقاده للسلطات الكثير من المتاعب، حيث أغضب ذلك الإمبراطور وأمر بنفي الشاعر إلى جنوب روسيا. وقضى بوشكين في الأقاليم الجنوبية أربع سنوات ١٨٢٠ - ١٨٢٤م. ويطلق النقاد على هذه الفترة «المنفى الجنوبي» لبوشكين. حيث أقام بعض الوقت في شبه جزيرة القرم وفي القوقاز. وقد أعجب الشاعر كثيراً بالطبيعة في الجنوب واستلهم منها الكثير من قصائده وشهدت هذه الفترة ذروة إبداعاته الرومانسية. وشهدت فترة إقامته في القرم صدور قصيدته الشعرية «أسير القوقاز» والتي صدرت عام ١٨٢٢م وبفضلها ذاع صيته في روسيا كلها. كما بدأ هناك في كتابة قصيدته الشعرية «نافورة باختيساراي» (١٨٢٤) وروايته الشعرية «يفجيني اونيجين» ثم غادر بوشكين القرم متجهاً إلى مدينة كيشينيوف في مولدافيا حيث منفاه الرسمي، ولكن كان يسمح للشاعر بالسفر إلى المدن القريبة؛ ولذا سافر إلى كييف عاصمة أوكرانيا وإلى مدينة أوديسا على البحر الأسود. وفي مدينة كيشينيف انتهى الشاعر من كتابة رائعته النادرة وروايته الشعرية «يفجيني اونيجين» التي أطلق عليها النقاد فيما بعد «موسوعة الحياة

الروسية». واتسمت كتابات الشاعر في هذه الفترة بالرومانسية التي صبغت معظم أشعاره. وفي عام ١٨٢٤ أصدرت الحكومة الإمبراطورية مرسومًا بفصل بوشكين من وظيفته ونفيه إلى مكان جديد حيث ضيعة والدته في قرية ميخايلوفسكي على بعد ٤٠٠٠ كيلومتر من العاصمة. وفي ميخايلوفسكي قضى بوشكين عامين وأبدع خلال تلك الفترة أكثر من ١٠٠ عمل أدبي. ولعل أشهرها قصيدته «من وحي القرآن» و«نحو البحر» و«طالجر» و«النبيل نولين». وفي عام ١٨٢٥م التقى بوشكين سيدة تدعى أنا كانت هي بطله قصيدته الشهيرة «ما زلت أذكر اللحظة الرائعة».

وتقول كلماتها:

مازلت أذكر اللحظة الرائعة

التي ظهرت فيها أمامي

وكأنك بشارةً وامضة

طيفٌ ساحر مفعم بالجمال

كنتُ سجين كآبتي ويأسي

أعاني التيه وصخب الحياة

جاءني كثيرًا صوتك الجذاب

وحلمت بملامح وجهك الخلاب

ومضت السنون عنيفة كالرياح

تعصف وتبدد أحلامي الماضية

ونسيت معها صوتك الجذاب

ونسيت ملامح وجهك الخلاب

عشت أسيرًا في ظلامي ووحدتي

تمضي أيامي طويلة متصارعة

فقدت إلهامي وغابت رفعتي

وغابت الدموع والحب والحياة

حتى ظهرت ثانية أمامي

فنهضت روعي من سباتها

وكنت كما البشارة الوامضة

طيف ساحر مفعم بالجمال

قلبي يخفق بوله شديد

وهو الذي صار يشعر من جديد

بأحاسيس الرفعَة... والإلهام

والدموع.... والحب... والحياة.

في عام ١٨٢٥ م أنهى بوشكين كتابة تراجيديا «بوريس جودونوف» والتي ظهرت فيها بدايات تأثره وانتقاله إلى المنهج الواقعي في الأدب وهو الأسلوب الذي طبع إبداعاته الأخيرة. ويحاول بوشكين في كتابه هذا طرح تقييم موضوعي للحياة الإنسانية.

وبعد انتهاء فترة المنفى اختار بوشكين البقاء في قرية ميخايلوفسكي ليستريح من صخب الحياة في المدينة وفي عام ١٨٢٧ م بدأ العمل على روايته «عبد بطرس الأكبر» والتي تناول فيها حياة جده الأول إبراهيم جانيبال. واستغل بوشكين الفترة التي قضاها في القرية وقرأ الكثير من الكتب والمخطوطات القديمة ودرس تاريخ روسيا وقرأ عنه ودون الكثير من الأغاني والحكايات الشعبية. ويرجع الفضل إلى مربيته في الطفولة في حبه الشديد ولعه بالحكايات والأغاني الشعبية الروسية. كما اطلع بوشكين في تلك الفترة على القرآن الكريم الذي ترك أثرًا عظيمًا في نفسه وانعكس ذلك في عدد من الأعمال، اقتبس فيها بوشكين آيات من القرآن منها ما سبقت الإشارة إليه «من وحي القرآن» وكذا قصيدته الشهيرة «النبى» (١٨٢٦م)

وعند عودته إلى بطرسبورج شرع بوشكين في كتابة قصيدته الوطنية الملحمية «بولتافا» (١٨٢٩م) والتي يدور موضوعها حول العلاقات السياسية بين روسيا وأوروبا والأحداث التاريخية وتأثيرها على حياة الإنسان الفرد.

وفي ديسمبر ١٨٢٨م تعرف بوشكين على زوجته في المستقبل ناتاليا جونساروفا والتي كانت تبلغ من العمر حينها ١٦ عامًا. وقد أغرم بها كثيرًا ومن اللحظة الأولى غير أن عائلة الفتاة لم تقبل به زوجًا بسبب سمعته كشاعر مناهض للسلطة وكذا بسبب فقره. وحزن بوشكين لذلك وتوجه إلى القوقاز كي ينسى حزنه. وفي عام ١٨٣٠ م قبلت عائلة ناتاليا بعرض بوشكين للزواج ويرحل بوشكين إلى ضيعة والده بولدينو والتي كانت تعاني وقتها من وباء الكوليرا، فمنع بوشكين من مغادرتها لمدة ٣ أشهر وكتب عن تلك الفترة قصيدته «في خريف بولدينو». كما ألف بوشكين في تلك الفترة ٣٠ قصيدة ومجموعة قصصية حملت عنوان «قصص بيلكين» وكذا التراجيديات الصغيرة، كما انتهى تمامًا من روايته الشعرية «يفجيني اونيجين» في عام ١٨٣٢م

وتعتبر هذه الرواية الأهم بين إبداعات الشاعر ومن أهم الأعمال في الأدب الروسي وشهدت الثلاثينات بداية توجه بوشكين لكتابة النثر حتى إنه غلب الشعر من حيث الكم. فكتب روايته «دوبروفسكي» والتي تتناول حياة شاب نبيل، انتزعت أملاك أبيه ظلمًا فصار قاطع طريق.

وفي عام ١٨٣٣م أصدر بوشكين قصيدته الشعرية «الفارس النحاسي» و«حكاية الصياد والسمة» و«حكاية الأميرة الميتة والعمالقة السبع» وغيرها. وقد سمحت الرقابة حينها بنشر

قصيدته «الفارس النحاسي» في عام ١٨٣٣ م، واختير بوشكين عضوًا في أكاديمية العلوم الروسية.

وفي نهاية ١٨٣٣م عاد بوشكين إلى بطرسبورج واستكمل إبداعاته ونذكر منها قصة «ابنه الأمر» والتي صور فيها أحداث ثورة الفلاحين في سيبيريا.

وقد استشهد بوشكين أثناء مبارزة مع ضابط فرنسي يدعى جورج دانتييس، وكان ذلك في عام ١٨٣٧م. وتلقى إبداعات الشاعر شهرة ليس فقط داخل روسيا بل وفي مختلف بلدان العالم وترجمت أعماله إلى كل لغات العالم تقريبًا.

عيد اللغة الروسية يوافق يوم مولده

جوانب خفية في حياة أمير الشعر الروسي ألكسندر بوشكين

تحتفل روسيا في السادس من يونيو من كل عام بعيد اللغة الروسية، ويوافق هذا التاريخ يوم ميلاد الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين، وفي هذا اليوم تُنظم فعاليات عديدة داخل روسيا وخارجها لمناقشة قضايا اللغة الروسية واستراتيجيات تطويرها وسُبل نشرها في العالم، كما يشهد توزيع ميدالية تحمل اسم الشاعر الكبير لأصحاب الإسهامات الكبرى في نشر الثقافة الروسية في العالم. وليس من قبيل الصدفة اختيار يوم مولد بوشكين عيدًا للغة الروسية؛ فقد كان للشاعر الكبير بوشكين دورٌ كبيرٌ في تأسيس اللغة الروسية، التي يتحدث بها الروس اليوم، حتى أنه يمكن القول: إن اللغة الروسية بعد بوشكين تختلف بشكل كبير عنها قبل بوشكين.

عُرف بوشكين في حياته بكونه شاعرًا عظيمًا، وتحول بعد وفاته المبكرة إلى أمير الشعر الروسي، ورغم أنه عاش حياة قصيرة امتدت لسبعة وثلاثين عامًا فقط فإنها كانت ثرية بالأحداث والإبداعات. وسنرجع في هذا المقال على بعض الجوانب الخفية في حياة الشاعر الكبير، بعيدًا عن موهبته في الإبداع شعرًا ونثرًا.

وُلد بوشكين في عائلة رائد متقاعد يُدعى سيرجي لفوفيتش بوشكين، وزوجته ناديغا أوسيبوفنا هانيبال، كانت والدته حفيدة إحدى عبيد الإمبراطور ويُدعى إبراهيم هانيبال، الذي استطاع بذكائه أن يكون مقربًا من القيصر حتى أصبح له نفوذ قوي في البلاط؛ ولأن هانيبال كان من أصول أفريقية فقد ساد اعتقاد بأن بوشكين كان أسود اللون، غير أن الأمر لم يكن على هذا النحو، فهناك عدد غير قليل من الصور لبوشكين واللوحات التي ترسم حياته اليومية ورسمها فنانون مختلفون، ويتضح أن بشرته باهتة بعض الشيء، وعيناه زرقاوان، كما كان شعره أشقر في شبابه، ثم أصبح داكنًا بعض الشيء مع تقدمه في العمر.

ومن الجوانب الخفية أيضًا علاقة أمه به، التي اتسمت بالبرود وبعض التجاهل؛ فقد أولت اهتمامها بأخيه الأصغر ليف فيما أكلت العناية ببوشكين الأكبر بست سنوات إلى أمها ماريا

ألكسيفنا، وكان للأخيرة تأثير كبير على شخصية بوشكين، وبعد وفاتها عهد إلى المربية أرينا روديونوفنا برعايته، وكان لها أيضًا تأثير قوي، استمر حتى نهاية حياته. في السنوات الأولى من حياته، كانت المربية أرينا روديونوفنا لا تزال شابة نسبيًا، لم تتجاوز الأربعين عامًا، وكانت تقوم بإرضاع أخته الصغرى، واقترب بوشكين من مربيته أرينا في سنوات المنفى في ميخائيلوفسكي. في تلك الأثناء كتب عنها قصيدتين شهيرتين: «أمسية شتوية» و«مربية».

عندما بلغ بوشكين من العمر اثني عشر عامًا، التحق بمدرسة الليسييه، التي كانت تُعد أرفع المدارس في الإمبراطورية. قبل ذلك حصل بوشكين على تعليم خاص في المنزل، حيث أتقن اللغة الفرنسية، التي كانت لغة التواصل بين طبقة النبلاء، كما أنها كانت السبيل الوحيد للاطلاع على ثقافات العالم والاطلاع على إبداعات الكتّاب في أوروبا. وهكذا نشأ بوشكين في أحضان الأدب الفرنسي، وأتقن الفرنسية حتى أن باكورة أعماله الشعرية كانت بالفرنسية.

كانت مدرسة الليسييه في تسارسكايا سيلو «قرية القيصر» مؤسسة تعليمية متميزة للأطفال النبلاء، في البداية كان من المفترض أن يدرس فيها أخوه الإمبراطور، لكن هذا لم يحدث فسمح لأبناء النبلاء بالالتحاق بها، وكانت واحدة من المؤسسات التعليمية القليلة في العالم، التي يحظر فيها العقاب البدني للطلاب. كما تميزت بكون شهادتها تعادل الشهادة الجامعية.

عاش بوشكين في المدرسة مع أقرانه حياة كاملة، ولم يكن يغادرها حتى في عطلات نهاية الأسبوع والأعياد. ولكونهم غير مراقبين فقد انغمس الطلاب بطبيعة الحال في جميع أنواع المرح وأحيانًا المجون.

وفي عام ١٨١٧ تم إجراء أول اختبار لخريجي طلاب المدارس الثانوية، واجتاز بوشكين ١٥ اختبارًا خلال سبعة عشر يومًا من بينها الأدب اللاتيني والروسي والألماني والفرنسي، والتاريخ العام، والقانون، والرياضيات، والفيزياء، والجغرافيا. وحصل بوشكين على شهادته من الليسييه، وكان ترتيبه متأخرًا بين أقرانه حيث احتل المرتبة السادسة والعشرين من بين ثلاثين طالبًا هو مجموع طلاب الليسييه. ولم يظهر تفوقًا إلا في الأدب الروسي والفرنسي كما كان ماهرًا في فن المبارزة.

وقد التحق أغلب خريجي هذه المدرسة بسلاح الفرسان بعد إنهاء دراستهم فيها، واتسمت حياة بوشكين في هذه السن المبكرة بالمجون وملاحقة الفتيات، ولم يكن قد بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا بعد. وقد وصف الشاعر هذه الحالة التي عاشها في كتاباته، ومنها رسالة بعث بها إلى صديقه منصوروف، اعترف فيها أن حياته تسير كالمعتاد بين شرب الخمر والنساء.

وقبل زواجه من ناتاليا جونشاروفا، ورغم أنه لم يكن جميلًا، وكان قصير القامة فإنه استفاد من نجاحه الشعري المذهل مع النساء. قال الشاعر نفسه إنه مر بأكثر من مائة قصة حب غير أن

الحب الحقيقي في حياته كان حبه لزوجته ناتاليا جونشاروفا. كانت زوجته أطول منه بعشرة سنتيمترات؛ ولذا لم يكن يحب أن يظهر معها كثيرًا حتى لا يهزأ الناس من هذا التباين. وعلى غرار العديد من كبار الأدباء الروس كدوستوفسكي ونيكراسوف وأولع بوشكين بلعب القمار في شبابه. وفي حين حقق نيكراسوف أرباحًا طائلة من لعبه القمار، فإن بوشكين ودوستوفسكي تكبدا خسائر كبيرة. حتى أن الأخير اضطر إلى بيع ممتلكات زوجته لسداد ديون القمار. أما بوشكين فلم يخسر المال فحسب، بل خسر أيضًا مخطوطاته الخاصة التي رهن بها عندما فقد كل ماله، وكان الدائنون يلاحقونه بطلب المال، ولم يستقر وضعه إلا بعد أن أقطع عن إدمانه لعب القمار.

وكانت ديون بوشكين بسبب لعبه القمار كبيرة؛ ولأنه كان شاعرًا عبقرياً فقد كان يدفع ديونه شعراً حتى أنه ذات مرة جلس على الطاولة فأبدع قصيدة بعنوان «النبيل نولين» وحصل على مقابل كبير سدده به ديونه واحتفظ بالباقي. كانت الأموال التي يجنيها من بيع قصيدة واحدة تكفيه لسداد ديونه وحاجاته لمدة شهر كامل.

ومن الحقائق غير المعروفة عنه التحاقه للعمل بوزارة الخارجية وهو في الثامنة عشرة من عمره، إلا أن العمل لم يرق له، فقد كان يفضل حياة الحرية والانطلاق. وكانت حياته التي اتسمت بالعريضة والمجون لا تتناسب وطبيعة العمل في هذه الوزارة المرموقة، وكان دائم الشراب، كثير الشجار، وبدا بوشكين على حافة الموت أكثر من مرة؛ نظرًا لدخوله في مباريات خلًا على الفوز بامرأة ما أو للشغب والشجار مع الآخرين، وكانت معظم هذه المباريات بمبادرة منه، ويقال إن عددها قد بلغ عشرين مباراة. إلا أن أغلب المباريات انتهت قبل أن تبدأ، وغالبًا ما كان يتصالح مع خصمه بعد أن يدرك الخصمان تفاهة سبب المباراة.

وشهد يوم ٨ فبراير ١٨٣٧ آخر مباراة في حياة الشاعر، أصاب الطرفان هدفهما، وأصيبا كلاهما، إلا أن جرح بوشكين كان أصعب بكثير، وعندما علم الإمبراطور بحالته أرسل إليه أفضل الأطباء، غير أنهم عجزوا عن إنقاذه، وعاش الشاعر يومين فقط قبل أن توافيه المنية، واستغل بوشكين هذا الوقت القصير في ترتيب شؤون أسرته بعد وفاته، وبعث إلى الإمبراطور برسالة يرجوه فيها العفو عنه، وأن يغفر له عدم وفائه بعهده بعدم التورط في مباريات، وقد وعده الإمبراطور أن يتولى رعاية أسرته، حيث تم وضعهم تحت وصاية الحكومة، وتم سداد جميع ديونه.

أما عن سبب هذه المباراة، فكانت زوجة بوشكين ناتاليا جونشاروفا، وكان خصمه الضابط الفرنسي الأصل دانتيس الذي كان قريبًا منه، فقد كان متزوجًا من أخت زوجته، وتُدعى كاترينا جونشاروفا. ولم يكن هذا الضابط يحب بوشكين، وأخذ يطلق الشائعات عن خيانة زوجة بوشكين له، فاستدعاه بوشكين إلى المباراة، ولكن المقربين توسطوا فيما بينهما، وألغيت المباراة في المرة

الأولى، غير أن دانتيس لم يتوقف عن توجيه الإهانات لبوشكين، وإطلاق الكلام السيئ عنه وعن زوجته؛ الأمر الذي اضطر الأخير إلى دعوته مرة أخرى إلى المباراة التي أودت بحياته. وكان مصير الضابط الفرنسي مأساويًا أيضًا، فقد عانى من كراهية الروس له، ولاحقته الاتهامات بأنه السبب في مقتل شاعر روسيا الوطني، وتم طرده من البلاد، وعاش في فرنسا، ومات عن عمر يناهز ٨٣ عامًا. وعانى طوال حياته من الإحساس بالذنب.

جانب آخر خفي يتعلق بعلاقته القريبة وصداقته للقيصر. فعلى الرغم من الاعتقاد بأن بوشكين قد قُتل على يد القيصر وشيوع ذلك في الأدبيات السوفيتية، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو على الإطلاق. كان الإمبراطور نيقولا ي عاشقًا لبوشكين، وكان بوشكين من القلائل الذين تربطهم علاقة مباشرة ودون وساطة مع القيصر.

في عام ١٨٢٤ تم نفي بوشكين إلى ضيعة والدته بأمر من الإمبراطور ألكسندر. وقضى بوشكين هناك ما يقرب من عامين. وبعد تولى القيصر نيقولا ي الحكم أوفد إلى بوشكين يدعوه لزيارته في البلاط على الفور. وفي الطريق كان الشاعر خائفًا من سبب الدعوة، وتوقع أن يتم الزجُّ به إلى السجن؛ إلا أنه قبل بترحاب شديد من القيصر، وتحدث معه ووعد بال دعم والحماية. وعندما اشتكى بوشكين من الرقابة على كتاباته؛ أخبره نيقولا ي أنه سيكون الرقيب الوحيد على أعماله مستقبلاً، وطلب منه إرسال كل عمل جديد إليه. وكان ذلك بمثابة شرف عظيم يمكن أن يحصل عليه مؤلف، وكان لوقع الزيارة تأثير قوى على بوشكين؛ حتى أنه بكى من فرط السعادة.

بعد هذا التكريم عاد بوشكين إلى موسكو سعيدًا مزهوًا بنفسه، وعندما حضر إلى المسرح لأول مرة، كان الجمهور كله لا ينظر إلى خشبة المسرح بل إلى النجم الجديد المقرب من الإمبراطور. لم ينكص القيصر بعهدده لبوشكين بل أصبح من معجبيه، وغفر لبوشكين الكثير من التجاوزات التي سجلها أعضاء الرقابة على الإبداع ضده. كما ساعد القيصر بوشكين في الزواج من ناتاليا جونساروفا، التي أغرم بها وهي بعد فتاة صغيرة. وكانت أمها ترفض هذا الزواج نظرًا للفضائح التي شاعت عن الشاعر، كما كانت تطمح في تزويجها من شخص شديد الثراء. فحزن بوشكين كثيرًا وغادر إلى القوقاز، حيث التحق بالجيش، وتدخل القيصر وضغط على عائلة الفتاة حتى وافقوا على الزواج.

ومن الجوانب الخفية أيضًا أن الشاعر بوشكين كان عالمًا لغويًا كبيرًا، وكان بارعًا في القراءة، وأجاد عددًا كبيرًا من اللغات كالإنجليزية، والفرنسية، واليونانية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، واللاتينية، كما كان يتقن اللغات السلافية. وقد عُثر في مكتبته بعد وفاته على ٣٥٦٠ كتابًا ثلثها فقط باللغة الروسية أما الباقي فبلغات أخرى، وهي كتب اشتراها الشاعر من الخارج.

ويقدّر علماء اللغة عدد المفردات التي أدخلها بوشكين على الروسية بحوالي ٢١.٢ ألف كلمة. واعتمدوا في ذلك على إبداعاته الشعرية والنثرية ومقالاته، أما في حال قياس عدد الألفاظ التي كان

يستخدمها في حياته العادية فقد كانت أكثر بكثير.

وربما لا يعلم الكثيرون أن بوشكين قد أقدم على حرق عدد من مؤلفاته وكتبه الخاصة. حيث التهمت نار مدفنته الفصل العاشر من رواية «يفيجيني أونيجين» والجزء الثاني من «دوبروفسكي» بعد أن ألقى بنفسه المخطوطات للتخلص منها. وكان بوشكين ناقدًا صارمًا لأعماله الخاصة. حيث قام بتدمير مسودات قصة «ابنة الأمر» وقصيدة «قطاع الطريق». فيما استخدم ما تبقى منها سليمًا بعد الحرق في رائعته «نافورة باخش ساراي». كما كان كثيرًا ما يختار مقتطفات كاملة من الكتاب ويمزقها لعدم رضاه عنها. ويقول الباحثون في إبداعات بوشكين: إنه مزق الكثير من الأشعار التي كان من الممكن أن تثير غضب القيصر ضده خاصة بعد اللقاء الذي تم بينهما بالقصر.

تلك كانت بعض الجوانب الخفية من حياة الشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين، الذي ذاع صيته في العالم كله. فهناك ما يقرب من مائتين وسبعين تمثالًا للشاعر الكبير، منهم مائتان في روسيا. حيث تحتل تماثيله الميادين في أرمينيا، واليونان، وكندا، والمكسيك، وتركيا، وبلجيكا، والصين، وسلوفاكيا، وبلدان أخرى. ولعل أهم تمثال له يوجد في إثيوبيا، حيث أصول جده إبراهيم هانيبال.

كما تم تخليد ذكراه بإطلاق اسمه على الشوارع والمسارح ومحطات المترو، وعلى القرية التي انحدر منها. كما أن هناك العشرات من المتاحف في روسيا باسم الشاعر، والقليلون جدًا الذين يعرفون أن الاتحاد السوفيتي أطلق على الطائرة القتالية، التي تم إنتاجها في عام ١٩٤٣ اسم «ألكسندر بوشكين».

وقد توفي جميع أبناء بوشكين، ولم يعيش منهم سوى ابنتيه ناتاليا وألكسندرا، في حين أحفاده يعيشون في إنجلترا، وألمانيا، وبلجيكا، وروسيا.

وفي السادس من يونيو من كل عام، يحتفل العالم وروسيا بذكرى مولده وباليوم العالمي للغة الروسية، التي تدين له بالفضل الكبير، فيما تحقق لها من إنجازات خلال القرنين الأخيرين.

ألكسندر بوشكين وتاراس شيفشينكو

الشخصيتان الأكثر تأثيرًا

في الثقافتين الروسية والأوكرانية

يحتل كلُّ من الشاعر الروسي ألكسندر بوشكين، والشاعر الفنان الأوكراني تاراس شيفشينكو مكانةً مهمة في تاريخ الشعبين الروسي والأوكراني، ليس فقط بوصفهما أدبيين وشاعرين كبيرين؛ بل لكونهما رمزين تاريخيين، كان لهما دور مؤثر وعظيم في تشكيل الثقافتين واللغتين الروسية والأوكرانية.

اعتُبر ألكسندر بوشكين رمزًا لروسيا الإمبراطورية، ومن ثم السوفيتية، ومؤسسًا للغة الروسية الحديثة، وكذا اعتُبر شيفشينكو الذي ما زال يمثل أيقونةً لأوكرانيا المعاصرة، حتى بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١.

يتشابه الشعاران الكبيران في الكثير من الأمور، وأهمها الدور الذي تحمَّله كلُّ منهما من أجل نهضة شعبه، ورؤيتهما الفريدة في زمنهما لدور ورسالة الشاعر والأديب الذي يرتقي لدور النبي صاحب الرسالة الذي يتحمل الألام ويتكبد التضحيات من أجل شعبه، وينير له الطريق لتحقيق نهضته المادية والروحية.

وقد عاش كلاهما في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي شهدت تطوُّر الأدبين الروسي والأوكراني. ويمكن القول بثقة: إن تاريخ كليهما هو تاريخ نهضة كلا الشعبين؛ نهضة الثقافة والأدب الروسي، وبروز روسيا كدولة قوية تتمتع بامتداد ثقافي شرقًا وغربًا، ونهضة وإعادة بَعث الثقافة الأوكرانية واستقلالها عن نظيرتها الروسية؛ حيث كان شيفشينكو أول من بادر بالتعبير بقوة وجرأة عن ثقافة الشعب الأوكراني وتاريخه وسماته الخاصة بين الشعوب السلافية.

وقد نال كلاهما شهرةً واسعة على الصعيد المحلي والعالمي، وتُرجمت أعمالهما إلى العشرات من اللغات، وتُمثل إبداعاتهما مكونًا أساسيًا في الموروث الثقافي والتعليمي، ومادةً أصيلة في الكتب الدراسية في البلدين.

وقد تأثر شيفشينكو بالأديب الروسي ألكسندر بوشكين؛ نظرًا لكونه وُلد في الفترة التي كان فيها بوشكين شابًا صغيرًا يخطو أولى خطواته في ميدان الكتابة (بوشكين ١٧٩٩-١٨٣٧، وشيفشينكو ١٨١٤-١٨٦١)، وقد تعرَّف على بوشكين عندما انتقل إلى سان بطرسبورج عاصمة الإمبراطورية الروسية، كما تعرَّف على غيره من كبار الأدباء حينها، من أمثال: بليتينيف، وجوكوفسكي، وجوجل. وقد ارتبط بعلاقة وثيقة مع الأخير؛ نظرًا لأصولهما الأوكرانية المشتركة.

وفيما يلي نتحدث تفصيلًا عن حياة وإسهامات كلِّ منهما في تطوير وإثراء ثقافته الأم، والتراث

الإنساني بشكلٍ عام.

لم تُعرف الثقافة الروسية والأدب الروسي شخصًا استطاع التعبير عن الشخصية والروح الروسية كما فعل ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين؛ حيث استطاع وَضَع الأدب الروسي في مكانة لائقة بين الآداب الأوروبية، بعد أن كان أدبًا مقلدًا لغيره من الآداب. كما أبدع لغة روسية أصبحت لغة الأدب الروسي الحديث، وكان له تأثير قوي وواضح على مَنْ خلفه مِنَ الكُتاب والشعراء الروس في القرن التاسع عشر.

ويُعتبر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) أشهر الشعراء الروس وأميرهم، وقد امتلك موهبة نادرة متنوعة. ونلمح في إبداعاته سمات تيارات الكلاسيكية والواقعية والرومانسية، وقام بتطوير الأجناس الشعرية والنثرية كافة في كتاباته.

ويُعد بوشكين مؤسس اللغة الروسية الفصحى المعاصرة، فقد نحى جانبًا كل الألفاظ الدخيلة أو القديمة، واستخدم اللغة الدارجة أو العامية استخدامًا راقياً؛ ليُثري بها اللغة الفصحى.

من أشهر أعماله: «روسلان ولودميلا»، كما أطلق على روايته الشعرية «يفجيني أونيجين» موسوعة الحياة الروسية. ومثّلت أعماله «الفارس النحاسي»، و«نافورة الدموع»، و«العجر» تدشينًا لتيار الرومانسية الروسي.

وقد تأثر الكثير من الشعراء والكُتاب الروس بالشاعر بوشكين، وفي مقدمتهم ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤-١٨٤١). وحاول الشعراء التفكير في معنى الحياة، والدور الذي عليهم القيام به؛ حيث اعتُبر الشاعر حينها حاملًا للحقيقة الإلهية أو نبيًا صاحب رسالة.

وقد تلقى بوشكين تعليمًا راقياً في الليسييه، وهي مدارس خاصة أسسها القيصر ألكسندر الأول (١٧٧٧-١٨٢٥) لتربية وتعليم أبناء النخبة الروسية، وكانت تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية. وكانت المدرسة تقع بالقرب من مقر القيصر في ضواحي مدينة سان بطرسبورج، التي كانت في تلك الفترة عاصمةً للبلاد، ويُطلق على هذا المكان تساريسكوي سيلو. وكان بوشكين من أول الطلاب الدارسين في هذا الليسييه، بعد افتتاحه في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٨١١. ويتم حتى يومنا هذا الاحتفال سنويًا بعيد افتتاح مدرسة ليسييه في ضاحية تساريسكوي سيلو تقديرًا للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين. وشهدت فترة الدراسة اكتشاف بوشكين لموهبته في كتابة الشعر، وقد تعرّف في المدرسة على أبناء النبلاء الروس، وارتبط معهم بصداقات طويلة، وكتب لاحقًا عن فترة الدراسة تلك القصيدة التي تسمى «١٩ أكتوبر».

وتتسم أشعاره المبكرة بكونها تنتمي إلى الاتجاه الكلاسيكي الروسي والفرنسي، وقد تأثر بوشكين كثيرًا بالشاعر الروسي الكبير فاسيلي جوكوفسكي، والمعروف بانتمائه إلى السنتمينتالية في الشعر.

وفي حفل المدرسة السنوي عام ١٨١٤، قرأ بوشكين قصيدته «ذكرياتي عن قرية تساريسكوي

سيلو»، فأعجب بها الحاضرون، وكان من بينهم الشاعر الروسي الكبير جابريل فونفيزين. كما كتب بوشكين في هذه الفترة قصائد أخرى، منها: «المدينة الصغيرة»، و«الحلم»، و«الأمنية»، و«إلى أصدقائي»، و«الوردة»، وغيرها.

وانخرط بوشكين مبكرًا - وهو لا يزال في المدرسة - في جمعيات أدبية تمردت على القواعد القديمة في الأدب، والتي كانت تُميز الاتجاه الكلاسيكي أو الاتباعي.

وأنهى بوشكين دراسته في الليسيه عام ١٩١٧، وحصل على الشهادة التي كانت تعادل الشهادة الجامعية حينها، فتوجه للعمل بوزارة الخارجية. وفي عام ١٨١٩ انضم إلى الجمعية الأدبية «المصباح الأخضر»، والتي كان لها دور مستقل في ثورة الديسمبريين في عام ١٨٢٥ ضد القيصر، ومحاولة القضاء على النظام الملكي، والحكم المطلق وتطبيق الدستور، وإلغاء النظام الإقطاعي واستعباد وظلم الفلاحين. وشهدت هذه الفترة نشاطًا إبداعيًا لدى شاعرنا الذي تركز اهتمامه على الموضوعات السياسية، دعا فيها إلى إلغاء قانون الرق والإقطاع، وتطبيق الدستور، وتقيد سلطات القيصر، ومن بين القصائد نذكر: «القرية»، و«الحرية». وعمل بوشكين في تلك الفترة على كتابة رائعته: «روسلان ولودميلا» التي صدرت في مايو ١٨٢٠.

وقد جلب له انتقاده للسلطات الكثير من المتاعب؛ حيث أغضب ذلك الإمبراطور، فأمر بنفي الشاعر إلى جنوب روسيا. وقضى بوشكين في الأقاليم الجنوبية أربع سنوات (١٨٢٠-١٨٢٤)، ويطلق النقاد على هذه الفترة «المنفى الجنوبي» لبوشكين؛ حيث أقام بعض الوقت في شبه جزيرة القرم وفي القوقاز. وقد أعجب الشاعر كثيرًا بالطبيعة في الجنوب، واستلهم منها الكثير من قصائده، وشهدت هذه الفترة ذروة إبداعاته الرومانسية، كما شهدت فترة إقامته في القرم صدور قصيدته الشعرية «أسير القوقاز» التي صدرت عام ١٨٢٢، وبفضلها ذاع صيته في روسيا كلها. كما بدأ هناك في كتابة قصيدته الشعرية «نافورة باختيساراي» (١٨٢٤)، وروايته الشعرية «يفجيني أونيجين»، ثم غادر بوشكين القرم متجهًا إلى مدينة كيشينيف في مولدافيا حيث منفاه الرسمي. وفي مدينة كيشينيف، انتهى الشاعر من كتابة رائعته النادرة وروايته الشعرية «يفجيني أونيجين» التي أطلق عليها النقاد فيما بعد «موسوعة الحياة الروسية»، واتسمت كتابات الشاعر في هذه الفترة بالرومانسية التي صبغت معظم أشعاره. وفي عام ١٨٢٤ أصدرت الحكومة الإمبراطورية مرسومًا بفصل بوشكين من وظيفته ونفيه إلى مكان جديد؛ حيث ضيعة والدته في قرية ميخايلوفسكي على بُعد ٤٠٠٠ كيلومتر من العاصمة. وفي ميخايلوفسكي قضى بوشكين عامين، وأبدع خلال تلك الفترة أكثر من ١٠٠ عمل أدبي، ولعل أشهرها: قصيدته «من وحي القرآن»، و«نحو البحر»، و«النبيلى نولين». وفي عام ١٨٢٥ التقى بوشكين سيدهُ تُدعى أنا، كانت هي بطلة قصيدته الشهيرة «ما زلت أذكر اللحظة الرائعة».

وفي عام ١٨٢٥ أنهى بوشكين كتابة تراجمه «بوريس جودونوف» التي ظهرت فيها بدايات

تأثره وانتقاله إلى المنهج الواقعي في الأدب، وهو الأسلوب الذي طبع إبداعاته الأخيرة. ويحاول بوشكين في كتابه هذا طرْح تقييم موضوعي للحياة الإنسانية.

وبعد انتهاء فترة المنفى، اختار بوشكين البقاء في قرية ميخايلوفسكي ليستريح من صخب الحياة في المدينة، وفي عام ١٨٢٧ بدأ العمل على رائعته «عبد بطرس الأكبر» التي تناول فيها حياة جده الأول إبراهيم جانيبال. واستغل بوشكين الفترة التي قضاها في القرية، وقرأ الكثير من الكتب والمخطوطات القديمة، ودرس تاريخ روسيا وقرأ عنه، ودوّن الكثير من الأغاني والحكايات الشعبية. ويرجع الفضل إلى مربيته في الطفولة في حبه الشديد، وولعه بالحكايات والأغاني الشعبية الروسية.

كما اطلع بوشكين في تلك الفترة على القرآن الكريم، الذي ترك أثرًا عظيمًا في نفسه، وانعكس ذلك في عدد من الأعمال، اقتبس فيها بوشكين آيات من القرآن، منها ما سبقت الإشارة إليه «من وحي القرآن»، وكذا قصيدته الشهيرة «النبى» (١٨٢٦).

وعند عودته إلى بطرسبورج، شرع بوشكين في كتابة قصيدته الوطنية الملحمية «بولتافا» (١٨٢٩) التي يدور موضوعها حول العلاقات السياسية بين روسيا وأوروبا، والأحداث التاريخية وتأثيرها على حياة الإنسان الفرد.

وفي ديسمبر ١٨٢٨، تعرّف بوشكين على زوجته في المستقبل ناتاليا جونساروفا، التي كانت تبلغ من العمر حينها ١٦ عامًا، وقد أغرم بها كثيرًا، ومن اللحظة الأولى، غير أن عائلة الفتاة لم تقبل به زوجًا بسبب سمعته كشاعر مناهض للسلطة، وكذا بسبب فقره، وقد حزن بوشكين لذلك وتوجه إلى القوقاز كي ينسى حزنه. وفي عام ١٨٣٠، قبلت عائلة ناتاليا بعرض بوشكين للزواج، ورحل بوشكين إلى ضيعة والده بولدينو التي كانت تعاني وقتها وباء الكوليرا، فمنع بوشكين من مغادرتها لمدة ٣ أشهر، وكتب عن تلك الفترة قصيدته «في خريف بولدينو». كما ألف بوشكين في تلك الفترة ٣٠ قصيدة ومجموعة قصصية، حملت عنوان: «قصص بيلكين»، وكذا التراجميات الصغيرة، كما انتهى تمامًا من روايته الشعرية «يفجيني أونيجين» في عام ١٨٣٢.

وتعتبر هذه الرواية الأهم بين إبداعات الشاعر، ومن أهم الأعمال في الأدب الروسي. وشهدت فترة الثلاثينيات بداية توجّه بوشكين لكتابة النثر، حتى إنه غلب الشعر من حيث الكم. فكتب روايته «دوبروفسكي» التي تتناول حياة شاب نبيل، انتزعت أملاك أبيه ظلمًا، فصار قاطع طريق.

وفي عام ١٨٣٣، أصدر بوشكين قصيدته الشعرية «الفارس النحاسي»، و«حكاية الصياد والسمة»، و«حكاية الأميرة الميتة والعمالقة السبعة»، وغيرها. وقد سمحت الرقابة حينها بنشر قصيدته «الفارس النحاسي» في عام ١٨٣٣، واختير بوشكين عضوًا في أكاديمية العلوم الروسية. وفي نهاية ١٨٣٣ عاد بوشكين إلى بطرسبورج، واستكمل إبداعاته، ونذكر منها قصة «ابنة

الأمير» التي صور فيها أحداث ثورة الفلاحين في سيبيريا.

وقد استشهد بوشكين أثناء مباراةٍ مع ضابطٍ فرنسي يُدعى جورج دانتييس، وكان ذلك في عام ١٨٣٧. وتلقَى إبداعات الشاعر شهرة، ليس فقط داخل روسيا؛ بل وفي مختلف بلدان العالم، وترجمت أعماله إلى كل لغات العالم تقريباً.

وليس من قبيل الصدفة أن تُخصِّص الحكومة الروسية يوم السادس من يونيو (يوم ميلاد بوشكين) من كل عام للاحتفال بعيد اللغة الروسية، وقد اتُّخذ هذا القرار أثناء زيارةٍ قام بها الرئيس الروسي السابق دميتري ميدفيديف إلى معهد بوشكين للغة الروسية في موسكو.

كما أصدرت أكاديمية العلوم السوفيتية بموسكو في أعوام (١٩٥٦-١٩٦٠) الطبعة الأولى من كتابٍ يحمل عنوان: «قاموس لغة بوشكين»، ويقع في أربعة أجزاء، وهو قاموس فريد من نوعه، يضم المفردات الروسية التي استخدمها بوشكين في إبداعاته الأدبية المتنوعة في الشعر والنثر، وقد ضم أكثر من ٢١ ألف مفردة روسية. وفي عام ١٩٨٢ صدر ملحق إضافي لهذا القاموس، ضمَّ ١٦٤٢ مفردة جديدة أخرى، وتم إصدار الطبعة الثانية لقاموس لغة بوشكين عام ٢٠٠٠ من قِبَل أكاديمية العلوم الروسية أيضاً (أي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١)، بعد احتفالات مهيبية أقامتها روسيا الاتحادية بالذكرى المئوية الثانية لميلاد بوشكين عام ١٩٩٩.

أما تاراس شيفتشينكو، فيُعدُّ أحد أهم الشخصيات التي أثَّرت في تاريخ الثقافة الأوكرانية، ودشَّن بإبداعاته مرحلةً جديدةً ورائعةً ومتطورةً من تاريخ تطوُّر هذه الثقافة. كما يُعتبر مؤسس تيار الواقعية النقدية في الأدب الروسي، وبفضله نهض التوجه الثوري الديمقراطي في الأدب.

وقد عُرف في البداية في الإمبراطورية الروسية، مع صدور مجموعته الشعرية «كوبزار» في عام ١٨٤٠، وكوبزار هو اسم مُغنٍّ أوكراني شهير. وضمت المجموعة ثمانية مؤلفات، ولقيت شهرةً واسعة، حتى أصبح الناس يطلقون هذا الاسم على شيفتشينكو نفسه.

وُلد شيفتشينكو في ٢٥ فبراير عام ١٨١٤ بقرية موريتسا بمحافظة كييف في عائلة فقيرة، وبعد عامين انتقلت الأسرة إلى قرية كيريلوفكا؛ حيث قضى شيفتشينكو طفولته، وعندما بلغ التاسعة من العمر توفيت أمه من قسوة العمل والفقر الشديد، فنزوح أبوه من امرأة لديها ثلاثة أبناء، وعانى شيفتشينكو قسوة زوجة الأب. وكان يدرس ويساعد أباه في العمل، ويسافر إلى كييف وأوديسا لبيع القمح.

وفي عام ١٨٢٥ توفي الأب، فانتقل الصبي للخدمة لدى رئيس الكنيسة المحلية، وتعلَّم هناك القراءة والكتابة.

ومنذ سنواته الأولى، كان شيفتشينكو مولعاً بالرسم؛ ولذا فقد سعى إلى العمل لدى رجال الدين المتخصصين في رسم الأيقونات لكي يتعلم إتقان هذا العمل المقدس. كان الصبي يقوم بأكثر الأعمال مشقَّة، ولكنه في الوقت نفسه نال فرصة ممارسة الهواية التي يعشقها، وهي رسم الطبيعة

والأيقونات.

وفي عام ١٨٢٩ انتقل للخدمة في منزل الإقطاعي انجلجاردت، الذي ما إن رأى رسومات شيفشينكو حتى قرر أن يجعل منه رسامًا شخصيًا له، كما أرسله ليتعلم الرسم على يد أحد أساتذة جامعة فيلينسكي.

وبعد مُضي عام ونصف، انتقل الرجل إلى بطرسبورج، ولرغبته في أن يصبح شيفشينكو رسامًا خاصًا للعائلة، أوفده للدراسة والتخصص في الرسم، وتعرّف في هذا العام على الشاعر فاسيلي جوكوفسكي الذي كان يشغل منصب السكرتير الأول لأكاديمية الفنون الإمبراطورية، وسرعان ما لاحظ الفنانون الروس موهبة شيفشينكو، وقرروا مساعدته.

ونظرًا لأن روسيا كانت تترشح في نظام إقطاعي عبوديّ ظالم، وكان شيفشينكو بموجبه بمثابة عبدٍ في منزل سيده، فقد قرر الفنانون الروس شراء شيفشينكو من سيده وتحريره من العبودية. وقد منحت الطبيعة الشاب شيفتشينكو لقب الفنان والشاعر، وقد بدأ مسيرته الإبداعية كفنان، وعُرف بين الناس وهو بعدُ شاب صغير، فيما حصل في نهاية حياته على لقب أكاديمي. إلا أن اللقب الثاني كان أكثر هيمنة على شخصيته، كما عُرف بكونه مجددًا ومبدعًا.

وقد استفاد شيفتشينكو ببراعة من الخبرات الثرية لسابقه ومعاصريه في الآداب - الأوكراني، والروسي، والعالمي - إلا أنه قدم اكتشافات جديدة خاصة به في مجال الشعر. وتتشابه إبداعاته المبكرة مع المؤلفات الرومانسية التي سادت في تلك الفترة، غير أنه تفرّد دومًا عن غيره حتى في سنوات شبابه.

فقد ارتبط كتابه «كوبزار» بالإبداع الشعبي، وهو أمر يسهل فهمه نظرًا لأن الشاعر ينحدر من أعماق التراث الشعبي الأوكراني، ولم يحدث يومًا أن انقطعت صلته بهذا التراث؛ بل كان دومًا على تواصل معه ومتأثرًا به. وقد وصفه النقاد بعد صدور كتابه «كوبزار» أنه أول من قدّم الشعب كسيد للأدب الأوكراني وبطل أول له.

ودائمًا ما نلاحظ الصلة الوثيقة بينه وبين الشعب، وكيف استطاع أن ينهل من التراث الشعبي مختلف المضامين، والأفكار والصور والنماذج، ولم يُعرف عنه يومًا تقليد سابقه أو محاولة تقديم نص فلكلوري، كما كان يفعل الآخرون من معاصريه، وحتى من جاء بعده من الكُتاب والشعراء. فقد استطاع ببراعة أن يمزج بين عناصر الإبداع الشعبي الشفهي مع أفكاره كشاعر، ومن ثم ألقاه الخاصة به.

كان هذا التقارب الفريد بين الشاعر والفلكلور، وخاصة مع الأغنية الشعبية الأوكرانية، سببًا في أن يطلق عليه النقاد شاعرًا ومغنيًا شعبيًا ومبدعًا للأدب الشعبي. لقد اعتبره النقاد في عصره آخر مغني تراث شعبي، وأول شاعر أوكراني عظيم، يمثل الأدب الجديد العظيم للشعب السلافي.

ويُعتبر تاراس شيفتشينكو أول أديب استطاع التعبير عن مصالح وآمال شعبه في الأدب

الأوكراني، وقد برزت الملامح الأساسية في إبداعاته منذ الأعمال المبكرة له، ويمكن القول إنه شاعر عصره، عاش يحلم بتحقيق آمال شعبه، واقتسم معه المعاناة والفرح، وقام بالاحتجاج ضد مظاهر الحياة الظالمة، ونادى بالحرية، وعبر عن سخطه وعدم رضاه عن الواقع السيئ؛ وهو ما دفعه إلى اللجوء إلى الماضي والموضوعات التاريخية.

ولعل الطابع الثوري لرومانسية الشاعر قد برز في قصيدته «ثوار الهایدماك» التي صدرت بعد مرور عام تقريباً على صدور «كوبزار»، ويتغنى فيها الشاعر بالمآثر التي قام بها المناضلون ضد النظام الإقطاعي الظالم في أوكرانيا، وعلى الرغم من المشاهد الدموية في القصيدة فإنها تزخر بمشاعر الإنسانية والرحمة.

ويُذكر شيفنتشينكو القراء بأن الشعبين السلافيين الشقيقين كان بوسعهما العيش سوياً في سلام وصدقة، وفي مقدمة القصيدة نادى بفكرة الوحدة بين الشعوب السلافية.

وترتبط القصيدة، مثلها مثل كل أعمال شيفنتشينكو، بالأحداث التي تجري في الواقع؛ فمن خلال تصوير الماضي والأحداث التاريخية يُذكر الشاعر بالحاضر، ويُعبر عن رفضه لسلبية وضعف طبقة الفلاحين.

واكتسب الشاعر شهرةً واسعة كأديب وفنان، وتوالت أعماله في مجلات «ماياك» (المنارة)، و«نوفويا لونا» (القمر الجديد)، ومنها على سبيل المثال: «أوكرانيا الجميلة»، و«جماليا». أصبح الشاعر أكثر اهتماماً بأحوال الشعب وحياته، وصار يبحث عن وسائل إبداعية جديدة في كتاباته وأشعاره، وفي نضاله مع الوضع الاجتماعي الكارثي في بلاده.

سافر شيفنتشينكو إلى أوكرانيا وهو صبي، وقام بالعديد من الجولات في ربوعها، وأخذ يرسم الأماكن التاريخية، والكنائس القديمة والأديرة والأطلال والمقابر، وتحظى لوحاته حتى يومنا هذا بقيمة فنية وعلمية كبيرة.

وقد تُرجمت أعمال شيفنتشينكو إلى مختلف لغات العالم، وكانت أولى اللغات التي تُرجمت إليها هي: الروسية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والكرواتية، والبلغارية، والتشيكية. كما نشرت الكثير من الكتابات عن دوره وإبداعاته في تطوُّر الأدب الأوكراني.

وتُعدُّ الفترة بين عامي ١٨٤٠-١٨٤٦ من أفضل الفترات في حياة الشاعر؛ حيث برزت بجلاءً موهبته الشعرية. فبعد صدور ديوانه الشعري «كوبزار» وأكبر مجموعاته الشعرية «جاي داماك»، شهد عام ١٨٤٣-١٨٤٥ صدور عدد من الأعمال للشاعر، أهمها «القوقاز» و«يكاترينا».

ولم يكن النقاد الروس في بطرسبورج العاصمة حينها يميلون إلى قبول الأدب الأوكراني؛ بل وتعرضوا له بالانتقاد، ومنهم الناقد الشهير بيلينسكي. ولم يكن شيفنتشينكو استثناءً، فقد تعرَّض هو أيضاً للانتقادات؛ حيث اتُّهم بكون أشعاره تصطبغ بصبغة قروية ضيقة قاصرة. فيما لقي الشاعر

احترامًا كبيرًا من وطنه الأم أوكرانيا، وقُوبل بحفاوة كبيرة عند سفره إلى هناك في الفترة بين عامي ١٨٤٥-١٨٤٧.

وفي أبريل ١٨٤٧، تعرّض شيفشينكو للوشاية، وتم القبض عليه بعد العثور في منزله على قصيدة بعنوان «الحلم»، انتقد فيها السلطة الحاكمة، واستمرت التحقيقات شهرين كاملين، ثم أرسل به للخدمة العسكرية الإلزامية في مقاطعة أورينبورج، مع أمرٍ بالحرمان من الكتابة أو الرسم. وقام أصدقاؤه بالوساطة لتخفيف الحكم لاحقًا، فتم ابتعائه في رحلة استكشافية إلى بحر آرال ليقوم برسم المظاهر الطبيعية وجغرافية المكان، وقام برسم ما يزيد عن ٣٥٠ لوحة، وبعد العودة تم نفيه أيضًا بعيدًا عن العاصمة إلى قلعة توفوبيتروفسك في كازاخستان.

وظل شيفشينكو في هذا المنفى في الفترة من عام ١٨٥٠ حتى ١٨٥٧، وقد كانت فرصة رائعة للكتابة؛ حيث انتهى من كتابة ثلاث من روائعه: «الملكة»، و«الفنان»، و«التوأم».

وفي عام ١٨٥٧، استطاع مدير أكاديمية الفنون الحصول على قرار بالعفو عن شيفشينكو، وعاد الشاعر إلى العاصمة بطرسبورج؛ حيث عمل في متحف الإرميتاج.

وفي عام ١٨٥٩، سافر إلى أوكرانيا ووطنه الأم؛ حيث كان يرغب في شراء ضيعة على شاطئ نهر الدنيبر ويستقر هناك للأبد. وفي إحدى الأمسيات قرأ شيفشينكو بعض أشعاره على بعض من الحضور، وكان ينتقد فيها النظام الإقطاعي السائد في الإمبراطورية الروسية، فوشى به أحدهم، فتم القبض على الشاعر في مطلع صيف ١٨٥٩ ونفيّه إلى العاصمة بطرسبورج.

عاد شيفشينكو إلى عمله بالإرميتاج، وفي عام ١٨٦٠ حصل على لقب أكاديمي، كما أولى الكثير من الاهتمام باللغة الأوكرانية وتنقيتها، وكان يعمل على تأليف كتاب في الرياضيات لتلاميذ المدارس، ولكن لم يسعفه الوقت لإنهائه.

وتوفي الشاعر والأديب والفنان العظيم في مرسمه في عام ١٨٦١، وتم دفنه في البداية في مقابر سمولينسك في موسكو، ثم تم نقل الجثمان إلى أوكرانيا، وأعيد دفنه بالقرب من مدينة كانيف. امتلك شيفتشينكو كل ثراء الفكرة الإنسانية الأولى، وارتقى إلى القمة بحيث أصبح قادرًا على قيادة الشعب وإلهامه، وأن ينير الطريق أمام شعبه نحو الحرية. وتجدر الإشارة إلى أن تلك الفترة شهدت غياب الحياة السياسية في الإمبراطورية الروسية، وفي تلك الحقبة السوداء من تاريخ الدولة برز الكُتاب والشعراء التقدميون، واستطاعوا بكتاباتهم وإبداعاتهم التعبير عن مشاعر طبقة العبيد الفلاحين، وعن مصالح وآمال الطبقة العريضة، وعن الجماهير في نضالهم للحصول على حقوقهم البسيطة في الحياة بحرية وعدالة.

مما سبق يتضح لنا كيف ارتبطت إبداعات بوشكين وشيفشينكو بظواهر اجتماعية ووطنية حية، وكيف ارتبط كلُّ منهما بشعبه، وناضل من أجل رسالته، على الرغم من انتمائهما إلى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين؛ ولذا فمن غير المستغرب أن يظل تأثيرهما في الثقافة والأدب حتى بعد

وفاتهما بعقودٍ وما زال. وفي كل عصر وكل حِقبة يعاد تقييم إبداعاتهما وقراءتها من منظور جديد، والعثور على اكتشافات أخرى جديدة ملهمة. ويمكن القول بثقة إن ألكسندر بوشكين وتاراس شيفشينكو هما أكثر الشعراء في الأدب العالمي في القرن التاسع عشر، اللذان اعتبرا أن للشاعر رسالة مثلما للأنبياء، وأن حياته لا قيمة لها في سبيل تحقيق هذا الهدف الأسمى، وقد عبّرَا عن هذه الفكرة بإبداع فريد لا يضاهيهما فيه غيرهما من شعراء عصرهما.

ليرمونتوف.. أمير آخر للشعر في روسيا

في السابع والعشرين من يوليو عام ١٨٤١م سقط كبير شعراء الرومانسية الروسية في مبارزة وعمره لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين. ولعل هذا الشاعر لم ينل الاهتمام اللائق في عالمنا العربي، رغم ما قدمه من إبداعات أثرت ولا تزال في تطور الشعر الروسي الكلاسيكي. لم يكن هذا الشاعر بأقل من سابقه ألكسندر بوشكين شاعر روسيا الأول وأمير شعرائها. ويكفي أن نقتبس مقولة كبير نقاد الأدب الروسي بيلينسكي: «كان مقدراً ل (ليرمونتوف) أن يعبر بنفسه ويحقق بأشعاره أهدافاً أكثر سموًا (سواء من حيث متطلبات الشعر أو خصائصه أو التوقيت) من شعر بوشكين».



وُلد ليرمونتوف في موسكو عام ١٨١٤م، وكتب أول أشعاره وهو في الرابعة عشر من عمره. وكان قدر الشاعر أن يعيش في فترة من أكثر الفترات التاريخية الثورية في روسيا. فقد شهدت تلك الفترة دحر حركة الديسمبريين، ونشاط ما يعرف بالديمقراطية الثورية، كما كانت تلك الفترة من أكثر العصور رجعية وتخلّفًا في تاريخ روسيا الحديث. وينحدر الشاعر من عائلة أرستقراطية، قضى طفولته في ضيعة جدته بعد وفاة أمه وهو لم يزل طفلًا. ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يقضي معهم وقت فراغه؛ ولذا كان دائماً حزينًا مكتئبًا. إلا أن وحدته تلك دعتة إلى التأمل فيما حوله وتنامت قدرته على التخيل والإحساس العميق والتفكير. وقد ساعد التعليم الراقى الذي تلقاه الشاعر في صباه على تطوير موهبته؛ ففي عام ١٨٢٥م بدأ ليرمونتوف في تلقي علومه في ضيعة جدته التي جلبت له مدرسين أجانب «يوناني وفرنسي». واطلع ليرمونتوف على الكثير من الكتب، كما أتقن الإنجليزية والألمانية والفرنسية. ثم انتقل إلى موسكو وهناك شغف بالأدب، وبدأ في كتابة الشعر وكان في معظمه عن حياته الشخصية وتجاربه الحياتية حيث وصف في أشعاره معاناته من

الوحدة وفقدان الأمل بالحياة وغيرها من المشاعر الحزينة التي فرضها عليها واقع حياته. وفي عام ١٨٢٩م أنهى كتابة قصيدته «مونولوج» والتي يعكس فيها أحاسيس القلق والمعاناة الداخلية. وفي ١٨٣٠م كتب قصيدته «النبوءة» والتي تناول فيها موضوعاً سياسياً، وألمح إلى ضرورة القضاء على السلطة القيصرية في روسيا وقيام الثورة. وقد شغف الشاعر بإبداعات كبار الأدباء مثل: بوشكين وشكسبير وشيلير، ولعب ذلك دوراً كبيراً في تشكيل شخصيته كشاعر، كما تأثر كثيراً بالشاعر بايرون وروح التمرد في إبداعاته.

وفي سبتمبر ١٨٣٠م التحق رسمياً بجامعة موسكو وتحديداً بكلية الآداب. وخلال فترة دراسته الجامعية قام بتأليف الكثير من القصائد الشعرية في مختلف الموضوعات سواء السياسية أو الاجتماعية، وكذلك التي تتناول الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. ثم انتقل إلى عاصمة روسيا آنذاك «سان بطرسبورج» حيث التحق بالمدرسة العسكرية بإيعاز من جدته. وفي تلك الفترة كتب ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «الشراع». يقول فيها:

وسط البحر وضبابه الأزرق

يلوح بياض خيال شراع وحيد

فعم يبحث في البلد البعيد؟

وماذا ترك خلفه في الوطن؟

بين عبث الموج بالموج

وهزيم الرياح

يترنح الساري يمناً ويسرة

لكنه لا يبالي

كما لو كان لم ينشد يوماً سعادة

ولم يهجر محبوباً بإرادة....

وفي قصيدته «النبوي» يتناول ليرمونتوف الدور الذي يقع على عاتق الشاعر في مجتمعه، والرسالة التي يحملها. ونقرأ فيها:

منذ أن وهبني الله الخالد بصيرة الأنبياء،

وأنا أتطلع في عيون البشر

لأرى صفحات من الشر والرذيلة

صرت أنادي بالحب وأدعو إليه،

وأنشر تعاليم الحق والدين

فأصبح كل من حولي

يرمونني بالحجارة كارهين.

وكانت أول قصيدة شعرية مطبوعة للشاعر هي قصيدة «الحاج إبريك» في عام ١٨٣٥م حيث كان كل ما كتبه الشاعر قبل ذلك معروفاً فقط في دائرة الأصدقاء والمقربين فقط. عندما مات بوشكين شهيداً في مبارزة عام ١٨٣٧م كتب ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «موت شاعر» والتي تسببت في نفيه إلى القوقاز في نفس العام؛ نظراً لمديحه «بوشكين»، وانتقاده ضمناً للسلطات. يقول فيها:

مات الشاعر

سقط أسيراً للشرف

تدعو الرصاصة التي في صدره للانتقام

وانحنى هامته الشامخة في النهاية

مات الشاعر

فاضت روحه ألماً حتى الانفجار

من هول الافتراء

وقف وحيداً في المبارزة

وها قد قتل

فكل نواح الآن لا جدوى منه

كما هي تراتيل الإطراء

وهمهمات الأسي

أمام إرادة الموت

منهج ليرمونتوف في الأدب

في عام ١٩٣٧م نشر ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «بورودينو» والتي يصف فيها أحداث الحرب الوطنية ضد فرنسا عام ١٨١٢م. ويمتدح ليرمونتوف في القصيدة الشعب الروسي وحبه لوطنه واستعداده للتضحية في سبيله.

ويطرح ليرمونتوف بعمق في أشعاره قضايا فلسفية؛ مما يؤكد إلمامه بالفلسفة الأوروبية. وتميزت فلسفة ليرمونتوف بكونها طبيعية أو كونها فلسفة شعرية دون أن تفقد في الوقت نفسه إمكاناتها الفكرية وعمقها والدراما الغنائية والعاطفية فيها. يقوم ليرمونتوف بحل القضايا الفلسفية بطرق مختلفة معتمداً في كل مرة على تجربة معاناة روحية أصيلة. وتبرز شخصية الشاعر في قصائد ليرمونتوف سواء في النص أو في الخلفية، ويبدو لنا إنساناً ذا إرادة قوية جامحة. وبفضل مساعي جدته لم يبق الشاعر في منفاه طويلاً، حيث عاد في العام التالي إلى مدينة سان بطرسبورج وواصل خدمته في الجيش. وانعكس تأثره بالفترة التي قضاها في القوقاز على أعماله ومنها

قصيدته الشعرية «الشيطان».

وفي عام ١٨٤٠م تعرض الشاعر لأول مبارزة في حياته وكانت ضد ابن سفير فرنسا في روسيا بسبب وشاية من بعض الأشخاص إلى ابن السفير مفادها أن ليرمونتوف قد سخر منه. وانتهت المبارزة بتصالح الطرفين. وعلم قادة ليرمونتوف في الجيش بموضوع المبارزة فحولوه إلى المحاكمة، ونفي إلى القوقاز مرة أخرى.

وفي فترة النفي الثانية اقترب ليرمونتوف أكثر من حياة السكان المحليين وعاداتهم وشارك بنفسه في العمليات القتالية. وشهد العام نفسه صدور روايته الشهيرة «بطل هذا الزمان». وقد صدرت الرواية في البداية على شكل فصول في مجلة «المذكرات الوطنية». ثم نشرت ككتاب كامل لاحقًا. وقد نفذت الطبعة الأولى من الرواية بالكامل. ويسعى ليرمونتوف في الرواية إلى رسم صورة واقعية لجيل الشباب الذي يمثله. وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه عندما قال إن هذا العمل لا يجسد حياة رجل واحد بل رذائل جيل بأكمله. «وإذا قال أحد إن الأخلاق لن تجني من ذلك خيرًا، فلا تتعجلوا، فطالما غذي الناس بالحلوى حتى فسدت معدتهم. ولزامًا عليهم الآن تجرع العقاقير المرة، وأن يتقبلوا الحقائق اللاذعة.. لقد أردت على سبيل التفكه أن أرسم صورة لإنسان هذا العصر كما فهمته، وكما رأيته في أغلب الأحيان» وفي عام ١٨٤٠م كان الشاعر قد حسم أمره وقتها وقرر أن يكون الأدب هو هدفه الوحيد والأسمى في حياته.

وفي ربيع ١٨٤١م عاد ليرمونتوف للخدمة في القوقاز وأحس بمشاعر حزينة هذه المرة رغم حبه للقوقاز استشعر أمرًا سيئًا سيحدث. وفي طريقه إلى هناك نشب خلاف بينه وبين أحد الضباط يدعى نيقولاي مارتينوف. وحسب العادات الروسية حينها تبارز الاثنان ولم ينج ليرمونتوف هذه المرة.

ويستشعر القارئ للسطور الأولى من قصائده أنه على مشارف الدخول إلى عالم شعري فريد يفوح بالغموة والغموض، ويتسم بالمأساوية وغلبة التراجيديا. وتمثل فكرة الحرية الموضوع الرئيس لشعر ليرمونتوف؛ حيث وجد الشاعر في هذه الفكرة مادة مهمة جسدها في أشعاره بشغف وإصرار. وقد ساعدت إبداعات ليرمونتوف على إثارة الوعي النقدي لدى معاصريه، واستخدمها الشاعر ضد كل ما هو عنصري وغير إنساني. وبقيت أشعار ليرمونتوف حتى يومنا هذا تحافظ على قيمتها الثورية وأهميتها. ونجدها إلى اليوم تشحذ الهمم وترفع المعنويات. فأشعار ليرمونتوف ساعدت الناس حينها - كما هي اليوم أيضًا - في النضال من أجل الإنسان وقيمه وحرية وحقه في الفكر الحر الشجاع دون خوف. كما يقترب في نزعه النقدية من جوجول إلا أنه يتفوق على جوجول بقوة نبرته الاحتجاجية السياسية والاجتماعية وعمق المستوى الفكري لإبداعاته.

والطريف أن ليرمونتوف لم يستمتع بصدور كتبه في حياته حيث لم يصدر أثناء حياته سوى كتابين فقط يضم الكتاب الأول ٢٨ مقطوعة شعرية وقصيدة. أما الكتاب الثاني فيضم روايته

الشهيرة «بطل هذا الزمان». إن ليرمونتوف يمكن أن يوصف بكونه أكثر الشعراء في التاريخ قدرة على التخيل؛ فهو كمن سقط من السماء إلا أنه لم يتمكن من إتمام مهمته ورسالته إلى النهاية. لقد ترك ليرمونتوف أثرًا عظيمًا في الأدب الروسي، حيث تمثل إبداعاته مرحلة جديدة في تطور هذا الأدب وبداية ما يعرف بالنقد الثوري. ففي شخصه تجسدت للمرة الأولى وبجلاء صورة شاعر الشعب الذي يطرح في كتاباته القضايا الأخلاقية حول مصير وحقوق الإنسان الروسي. وترك ليرمونتوف فراغًا كبيرًا بعد وفاته حيث لم يظهر منافس له طوال عقدين كاملين، وقد ترك ليرمونتوف ميراثًا رائعًا استفادت منه الثقافة الديمقراطية الثورية، وعملت على إعادة صياغته وتطويره. ولم تكن وحدها التي أفادت من تراث الشاعر، بل الأدب الروسي الذي أصبحت إبداعات ليرمونتوف جزءًا عضويًا مكونًا له، وواحدة من عناصر قوته الحيوية والمؤثرة. فنجد صوت ليرمونتوف واضحًا في إبداعات: تورجينيف وليف تولستوي ودوستويفسكي وألكسندر بلوك وغيرهم. كما تأثر به أدياء الفترة السوفيتية بدءًا من ماياكوفسكي إلى باسترناك. ومن غير المستغرب أن يهدي باسترناك رائعته «أيا حياتي! شقيقتي» إلى ليرمونتوف.

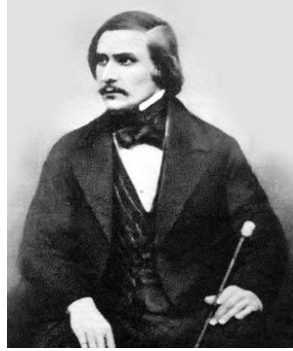
كان ليرمونتوف مبدعًا ليس فقط في الشعر بل وفي النثر أيضًا، اتسمت إبداعاته بالشمولية وبكونها صالحة لكل زمان ومكان؛ ولذا تخطت حدود روسيا لتحتل مكانة مهمة في الأدب العالمي. ولم يكن لديه برنامج سياسي معين أو فلسفة ما، بل كان مبدعًا وقديرًا في سبر أعماق الحياة والنقاط تياراتها الخفية التي تحمل في طياتها المستقبل، أخذ شاعرنا يقنعنا بقرب قدوم هذا المستقبل، ويحلم بالإنسان الحر والمعتز بنفسه، والمرتبط ببلاده وبوعياها الشعبي. تلك هي الفكرة الخفية التي تميز كل إبداعات الشاعر ليرمونتوف وهي بمثابة علامة مميزة لها تساعد القارئ في كل العصور، على التعرف على ليرمونتوف وفهم إبداعاته ومن ثمَّ الشغف بها.

(٤)

نيقولاي فاسيليفيتش جوجول

(١٨٠٩ - ١٨٥٢م)

يُعد نيقولاي جوجول أحد كبار الكُتَّاب الكلاسيكيين في الأدب الروسي والعالمي، وهو ناثر وشاعر ومؤلف مسرحيات، على قدر كبير من الموهبة.



وُلد جوجول في ٢٠ مارس ١٨٠٩م في قرية من القرى التابعة لمدينة بولتافا في أوكرانيا. وتنتمي عائلته إلى الطبقة الإرسنقراطية الروسية. توفي والده، وهو بعد صبيًا في الخامسة عشر من عمره، وكانت والدته شديدة التدين. قد توفي والده وكانت الأسرة كبيرة العدد، حيث يبلغ عدد الأبناء اثني عشر، تُوفي سبعة منهم في طفولتهم. وكان نيقولاي الابن الأكبر في العائلة، وقد أحب والدته بشدة.

وقد شغف جوجول منذ صباه بالمسرح والقيام بالأدوار المسرحية؛ ويمكن أن يرجع السبب في ذلك إلى كون والده كان محبًا للمسرح، وكانبًا لعدد من المسرحيات.

وقد قضى جوجول طفولته في أوكرانيا، حيث عشق التقاليد والأغاني والرقصات والحكايات الشعبية؛ ولهذا نجد فيما بعد كثيرًا من مؤلفاته تدور عن الحياة في أوكرانيا.

وعندما أتم العاشرة من عمره أرسله والده للدراسة في مدينة بولتافا. حيث تعهده مدرس خاص لإعداده للالتحاق بالمدرسة. ثم التحق جوجول بالمدرسة في مدينة نيجين وقضى فيها الفترة من ١٨٢١ - ١٨٢٨م.. ورغم أنه لم يكن طالبًا مثاليًا في الدراسة إلا أنه كان يتمتع بذاكرة قوية ساعدته على الاستعداد لاجتياز الاختبارات قبل موعدها بعدة أيام. وكان الأدب الروسي والرسم هما المادتين المفضلتين لديه. وأثناء الدراسة المدرسية أُلِع مثل رفاقه بأشعار بوشكين، وقاموا بإصدار مجلة حائط، كتب فيها جوجول أولى إبداعاته.

وفي عام ١٨٢٨م انتقل جوجول إلى عاصمة الإمبراطورية الروسية حينها - مدينة سان بطرسبورج. وكان حلمه أن يقوم بعمل ذي أهمية وقيمة، ويستفيد من موهبته الطبيعية في أي من

مجالات الحياة الإنسانية. وحاول أن يمتحن التمثيل في أحد مسارح بطرسبورج، كما جرب الوظيفة العادية، وكذا الكتابة. غير أنه لم يجد نفسه في أوساط الممثلين المسرحيين في العاصمة، كما لم يتقبله هؤلاء بينهم. كما بدا له العمل الوظيفي مملاً ورتيباً وهو ما دفعه للاستقرار نهائياً على تحقيق حلمه في الكتابة والإبداع الأدبي.

كان أول عمل أدبي منشور لجوجل هو قصيدته الرومانسية «هانز كيوخيلجارتين» (١٨٢٩م). إلا أنها كانت تجربة غير ناجحة. ولم يلق العمل إعجاب النقاد والقراء. حتى إن جوجل قد اضطر إلى شراء جميع النسخ من المكتبات وحرقتها.

وبعد هذه التجربة الفاشلة في الكتابة توجه جوجل إلى ألمانيا وتحديداً إلى مدينة ليوبيك. وكان لديه أحلام رومانسية، وكان يؤمن أنه سيحقق شيئاً غير عادي في الحياة. كما فكّر في السفر إلى أمريكا أيضاً حتى يستطيع تحقيق كل ما يحلم به. غير أنه عاد مرة أخرى إلى بطرسبورج خلال شهر، وبدا العمل موظفاً في مختلف الإدارات الحكومية بالعاصمة. وفي عام ١٨٣١م تعرف جوجل على الشاعرين الكبيرين فاسيلي جوكوفسكي وألكسندر بوشكين وتأثر بهم كثيراً وانعكس ذلك على إبداعاته.

واختار جوجل موضوعاً جديداً للكتاب ألا وهو حياة الشعب في أوكرانيا. وطلب من والدته أن تبعث إليه بأخبار الحياة المعيشية اليومية للسكان خاصة الفلاحيين وعن معتقداتهم الدينية والأساطير والخرافات والملابس والعادات وغيرها. وفي عام ١٨٢٩م نشر جوجل أولى مؤلفاته عن الحياة في أوكرانيا ألا وهو «ليلة في شهر مايو» و«أمسية بالقرب من إيفان كوبالي» وغيرها.

وفي عام ١٨٣٤م بدأ العمل مدرساً بقسم التاريخ بجامعة سان بطرسبورج، وكان قد كرت حياة كلها للكتابة والأدب.

وكان أول عمل أدبي كبير للكاتب هو «أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا» (١٨٣٢م) وقد صدر هذا الكتاب في بطرسبورج في جزئين. ويعد -بصدق - موسوعة في الحياة اليومية للفلاحيين الأوكرانيين، ويعكس بوضوح عاداتهم وتقاليدهم القديمة المتوارثة. ويتسم العمل بمسحة رقيقة من الفكاهة. وقد أعجب الشاعر بوشكين كثيراً بالكتاب. ولقي الكتاب نجاحاً واسعاً بين النقاد والقراء. جج

وشهد العام ١٨٣٢ قيام جوجل بأول رحلة إلى موطنه في أوكرانيا منذ أن غادرها. وفي الطريق إلى هنا قام بزيارة موسكو. وواصل جوجل تناول الموضوع الأوكراني في كتاباته. وفي عام ١٨٣٥م أصدر مجموعتين قصصيتين بعنوان «أرابيسك» و«ميرجورود». وجلب هذان العملان اعترافاً به ككاتب كبير في الأوساط الثقافية الروسية. ويضم كتابه «أرابيسك» مجموعته القصصية التي ألفها عن أحداث وأبطال في بطرسبورج ومنها «بورترية» و«مذكرات مجنون»

و«شارع نيفسكي». فيما ضمت المجموعة الثانية قصص «تاراس بولبا» و«قصة الشجار بين إيفان إيفانوفيتش وإيفان نيكيفروفيتش» و«ملاك زمان».

وقد حلم جوجول بأن يصبح عالم تاريخ عظيمًا. وقد شهدت ثلاثينيات القرن التاسع عشر تأسيس جامعة كييف، وسعى جوجول إلى الالتحاق بها رئيسًا لقسم التاريخ، وحلم بكتابة عمل مرجعي تاريخي كبير إلا أن أحلامه تلك لم يقدر لها أن تتحقق. غير أنه أصبح فيما بعد رئيسًا لقسم التاريخ بجامعة بطرسبورج والتي عمل بها أستاذًا حتى عام ١٨٣٥م. وخلال فترة عمله تلك قام بتأليف عدد من البحوث العلمية عن تاريخ القرون الوسطى في الشرق والغرب.

وفي عام ١٨٣٦ أصدر رائعته الجديدة الكوميديا المسرحية الشهيرة «المفتش العام» والتي يسخر فيها من طبقة الموظفين الروس والبيروقراطية الفاسدة أثناء حكم القيصر نيقولاى الأول.. وكان جوجول يعرف عن قرب بتفاصيل حياة الموظف، حيث عمل لسنوات موظفًا في بداية حياته. كما كانت له تجارب أخرى في مجال المسرحيات الكوميدية، ونذكر منها مسرحياته «اللاعبون» و«الزواج» وغيرها.

وفي عام ١٨٣٦ م قرر جوجول السفر إلى الخارج، وبقي هناك ١٠ سنوات عاش فيها متنقلًا بين فرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا، وقد أعجب كثيرًا بالحياة في روما حيث أنهى فيها قصته الشهيرة «المعطف» حيث البطل الرئيس موظف بسيط وإنسان على الهامش. كما أنهى فيها قصته بعنوان «روما».

وتعج روايته «الأنفس الميتة» العمل الأهم للكاتب في تلك الفترة. وقد انتهى من العمل فيها عام ١٨٤١ وهو بعد في إيطاليا. وكان من المفترض أن تصدر الرواية في جزئين. وقد أنهى جوجول الجزء الأول بعنوان «الأنفس الميتة» في عام ١٨٤٢م. وصور فيها واقع الحياة الروسية بكل ما يعترىها من عيوب وما يميزها من إيجابيات. ويعرض جوجول للحياة اليومية الروسية سواء في طبقة الملاك أو الفلاحين ويرسم لوحات رائعة للطبيعة الروسية. وفي عام ١٨٤٢ نشر روايته «تاراس بولبا» والتي تدور عن إحداث تاريخية واقعية وثورة الفلاحين في أوكرانيا في عام في ١٦٣٧ - ١٦٣٨م. وقد استخدم جوجول مصادر تاريخية حقيقية أثناء كتابة الرواية.

وفي عام ١٨٤٢م وأثناء إقامته في أوروبا فكر جوجول كثيرًا في حياته ومعناها وسبب وجوده وتوجه إلى الدين. وكان عام ١٨٤٥ صعبًا على جوجول حيث مر بمحنة وأزمة نفسية صعبة حتى إنه كتب وصيته كما لو كان يستعد للموت. كما قام بحرق الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة» والتي كان ينتظر نشره. حتى إنه قرر دخول الدير وأن يصبح راهبًا وينسحب من الحياة الدنيوية تمامًا. غير أنه وبعد فترة من التفكير تراجع عن أفكاره تلك.

وفي عام ١٨٤٧م صدر كتابه «مواضع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي» وكان يضم مراسلات حقيقية للكاتب مع أصدقائه.

وشهدت السنوات الأخيرة من حياته اهتمامه الشديد بموضوع الدين، وانعكس ذلك في مؤلفاته بوضوح. حيث قام بدراسة كتاب القديسين. وفي عام ١٨٤٨ قرر السفر للحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين. وبعد العودة واصل العمل في الجزء الثاني من روايته «الأنفس المميّنة» والذي سبق وأحرقه.

وفي شتاء عام ١٨٥٢م مر الكاتب بأزمة نفسية أخرى، وكان ذلك أثناء فترة الصيام حيث قرر جوجول الالتزام بشدة به حتى يطهر نفسه من الآثام التي ارتكبها في حياته. وقد تحول الصيام عنده إلى ما يشبه الإضراب التام عن الطعام حتى خارت قواه تمامًا ولم يفلح أصدقاؤه أو الأطباء بإقناعه بالعدول عن ذلك. وأدى ذلك إلى وفاته في ٢١ فبراير ١٨٥٢م.

هل جوجول روسي أم أوكراني؟

جدل ثقافي متجدد

لإثبات الأهمية بالكاتب العظيم

يحتل نيقولا ي جوجول مكانة كبيرة في تاريخ الأدبين الروسي والأوكراني، كما أنه يمثل حلقة هامة في تاريخ العلاقات الثقافية الروسية الأوكرانية، وقد ذهب العديد من النقاد إلى أن يطلقوا عليه لقب «الجسر الذهبي» الذي يربط بين القيم الروحية التي شكّلها الأدبان الروسي والأوكراني.

ومن وقت لآخر، وخاصة مع توتر العلاقات بين البلدين منذ عام ٢٠١٤، يدور جدل ثقافي حاد بين النخبة المثقفة في البلدين؛ حيث يرى كل طرف أحقيته بأن ينتسب جوجول له ولأدبه. يرى المثقفون في أوكرانيا أن جوجول هو أوكراني الجنسية، وأن الدعاية الروسية قد نسبته لروسيا عن غير حق، وأن الروس اعتمدوا في ذلك على كون الكاتب قد أبدع مؤلفاته باللغة الروسية، وعاش في عاصمة الإمبراطورية الروسية بطرسبورج.

فيما يرى الروس أن الكاتب عاش معظم سنوات عمره في روسيا، كما أبدع باللغة الروسية وليس الأوكرانية؛ لذا فإن من حقهم أن ينتسب الكاتب إلى قائمة عظماء الأدب الروسي الذين سطوروا تاريخه في عصره الذهبي في القرن التاسع عشر. ومن حيث النشأة والجنسية، يُعد جوجول أوكرانيًا بالفعل، على الرغم من أنه قد قضى فترة طويلة من عمره في بطرسبورج. وقد قضى جوجول أكثر من عشر سنوات من حياته القصيرة (مات عن عمر بلغ ٤٢ عامًا) خارج روسيا؛ حيث سافر إلى أوروبا والشرق الأوسط، وغاب طويلاً عن بلاده، وتعدّ الفترة التي عاشها في بطرسبورج أكثر الفترات إنتاجًا في حياته.

وقد كتب جوجول مؤلفاته باللغة الروسية، إلا أنه كان يتقن الأوكرانية أيضًا، وهو ما تؤكد المفردات والتراكيب الخاصة به، والتي استخدمها في نصوصه الروسية، بل وصل ببعض من النقاد القول بأنه كان يتقن لغته الأم تمامًا، وكان بمقدوره الكتابة باللغة الأوكرانية، إلا أنه لم يرغب في ذلك، وسلك الطريق الذي سلكه الجميع بالكتابة باللغة الروسية التي كانت أكثر شيوعًا ولغة سكان عاصمة الإمبراطورية الروسية.

ومن المعروف أن جوجول في بادئ نشاطه في الكتابة الأدبية لم يكن يتقن اللغة الروسية تمامًا، إلا أنه تمكن من ذلك خلال خمس سنوات فقط حتى أصبح الكاتب الأول في روسيا، وأعظم من أبدع باللغة الروسية في زمنه. ورغم ذلك كان جوجول كثيرًا ما يلوم نفسه ويعتبر نفسه أجنبيًا عن الأراضي الروسية، وهو ما جعله يبذل المزيد من الجهد لإتقان اللغة ودراستها على نحو أكثر عمقًا.

وهكذا تمتع جوجول منذ صغره بامتلاك هذه الثنائية اللغوية بإتقانه اللغتين الروسية والأوكرانية. ورغم اعترافه بعشقه لروسيا وانتمائه لها كوطن له، إلا أن ارتباط الكاتب بأوكرانيا والثقافة الأوكرانية عظيم، كما كان له أثر كبير على الكتاب الأوكران في القرن العشرين. ومع كل يوم تزداد شعبية جوجول وتتطور تقاليده وأثره في أدب من خلفه من الكتاب، ليس فقط في روسيا وأوكرانيا؛ بل في جميع أنحاء العالم وفي القرن التاسع عشر، لا ينافس في إبداعاته سوى ليف تولستوي وفيودور دوستويفسكي. وتتمثل قوة وسحر لغة مؤلفات جوجول في المرونة والتأقلم وانتقاء الوسائل الأسلوبية، من أجل تحقيق الأهداف الفنية المختلفة.

وقد ترك الكاتب أثرًا كبيرًا في تاريخ روسيا، التي رأى فيها قلبًا للعالم الأرثوذكسي الذي يحتاج إلى تجديد في الفكر الديني؛ حتى تحافظ على عقيدتها راسخة قوية في مواجهة هجمة العقيدة الكاثوليكية من الغرب.

وبالحديث عن الكاتب العظيم نيقولا جوجول، يمكن القول إنه أحد كبار الكتاب الكلاسيكيين في الأدب الروسي والعالمي، وهو ناثر وشاعر ومؤلف مسرحيات، على قدر كبير من الموهبة. وُلد في عام ١٨٠٩، في قرية من القرى التابعة لمدينة بولتافا في أوكرانيا، وتنتمي عائلته إلى الطبقة الأرستقراطية. توفي والده وهو بعدُ صبي في الخامسة عشرة من عمره، وكانت والدته شديدة التدين، وقد أحبها بشدة.

وعندما أتم العاشرة من عمره، أرسله والده للدراسة في مدينة بولتافا؛ حيث تَعَهَّدَه مدرس خاص لإعداده للالتحاق بالمدرسة، ثم التحق جوجول بالمدرسة في مدينة نيجين، وقضى فيها الفترة من ١٨٢١-١٨٢٨. ورغم أنه لم يكن طالبًا مثاليًا في الدراسة، إلا أنه كان يتمتع بذاكرة قوية ساعدته على الاستعداد لاجتياز الاختبارات قبل موعدها بعدة أيام. وكان الأدب الروسي والرسم هما المادتين المفضلتين لديه، وأثناء الدراسة المدرسية أُلِعَ مثل رفاقه بأشعار بوشكين، وقام بإصدار مجلة حائط، كتب فيها جوجول أولى إبداعاته.

ومنذ صغره شغف جوجول بالثقافة الأوكرانية، وقام مع أصدقائه بتمثيل مسرحية أوكرانية كتبها بنفسه، والطريف أن جوجول على مدى مسيرته الحياتية كان مولعًا بالفلكلور الأوكراني والعادات والحياة اليومية، وجمَع مادة ضخمة عن هذه الموضوعات، وهو ما نجد أثره في كتابته «أمسيات في مزرعة بالقرب من ديكانكا».

وقد شغف جوجول منذ صباه بالمسرح والقيام بالأدوار المسرحية، ويمكن أن يرجع السبب في ذلك إلى كون والده كان محبًا للمسرح، وكانبًا لعدد من المسرحيات.

وقد قضى جوجول طفولته في أوكرانيا؛ حيث عشق التقاليد والأغاني والرقصات والحكايات الشعبية، ولهذا نجد فيما بعدُ كثيرًا من مؤلفاته تدور عن الحياة في أوكرانيا.

وفي عام ١٨٢٨ انتقل جوجول إلى عاصمة الإمبراطورية الروسية حينها - مدينة سان بطرسبورج. وكان خُلمه أن يقوم بعملٍ ذي أهمية وقيمة، ويستفيد من موهبته الطبيعية في أيِّ من مجالات الحياة الإنسانية، وحاول أن يمتحن التمثيل في أحد مسارح بطرسبورج، كما جرَّب الوظيفة العادية، وكذا الكتابة. غير أنه لم يجد نفسه في أوساط الممثلين المسرحيين في العاصمة، كما لم يتقبله هؤلاء بينهم، كما بدا له العمل الوظيفي مملاً ورتيباً، وهو ما دفعه للاستقرار نهائياً على تحقيق خُلمه في الكتابة والإبداع الأدبي.

وكان أول عمل أدبي منشور لجوجول هو قصيدته الرومانسية «هانز كيوخيلجارتين» (١٨٢٩)، إلا أنها كانت تجربة غير ناجحة، حتى إنه اضطر إلى شراء جميع النسخ من المكتبات وحرقتها.

وبعد هذه التجربة الفاشلة في الكتابة، توجّه جوجول إلى ألمانيا، وكان لديه أحلام رومانسية، وكان يؤمن أنه سيحقق شيئاً غير عادي في الحياة. كما فكّر في السفر إلى أمريكا أيضاً حتى يستطيع تحقيق كل ما يحلم به، غير أنه عاد مرةً أخرى إلى بطرسبورج خلال شهر، وبدأ العمل موظفاً في مختلف الإدارات الحكومية بالعاصمة. وفي عام ١٨٣١، تعرّف جوجول على الشعاعين الكبيرين فاسيلي جوكوفسكي وألكسندر بوشكين، وتأثر بهما كثيراً، وانعكس ذلك على إبداعاته.

واختار جوجول موضوعاً جديداً للكتابة، ألا وهو: حياة الشعب في أوكرانيا، وطلب من والدته أن تبعث إليه بأخبار الحياة المعيشية اليومية للسكان، خاصةً الفلاحيين، وعن معتقداتهم الدينية والأساطير والخرافات والملابس والعادات وغيرها. وفي عام ١٨٢٩ نشر جوجول أولى مؤلفاته عن الحياة في أوكرانيا، ألا وهي: «ليلة في شهر مايو»، و«أمسية بالقرب من إيفان كوبالي»، وغيرهما.

وفي عام ١٨٣٤ بدأ العمل مدرساً بقسم التاريخ بجامعة سان بطرسبورج، وكان قد كرس حياته كلها للكتابة والأدب.

وكان أول عملٍ أدبي كبير للكاتب هو «أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا» (١٨٣٢)، ويُعدّ - بصدقٍ - موسوعة في الحياة اليومية للفلاحيين الأوكرانيين، ويعكس بوضوح عاداتهم وتقاليدهم القديمة المتوارثة. ويتسم العمل بمسحة رقيقة من الفكاهة، وقد أعجب الشاعر بوشكين كثيراً بالكتاب، ولقي الكتاب نجاحاً واسعاً بين النقاد والقراء.

وشهد العام ١٨٣٢ قيام جوجول بأول رحلة إلى موطنه في أوكرانيا منذ أن غادرها، وفي الطريق إلى هناك قام بزيارة موسكو، وواصل جوجول تناول الموضوع الأوكراني في كتاباته. وفي عام ١٨٣٥ أصدر مجموعتين قصصيتين بعنوان: «أرابيسك» و«مير جورود»، وجلب هذان العملان اعترافاً به ككاتب كبير في الأوساط الثقافية الروسية. ويضم كتابه «أرابيسك» مجموعته القصصية التي ألّفها عن أحداثٍ وأبطال في بطرسبورج، ومنها: «بورترية»، و«مذكرات

مجنون»، و«شارع نيفسكي». فيما ضمت المجموعة الثانية قصص «تاراس بولبا»، وقصة «الشجار بين إيفان إيفانوفيتش وإيفان نيكيفروفيتش»، و«ملاك زمان».

وقد حلّم جوجول أن يصبح عالم تاريخ عظيمًا، وقد شهدت ثلاثينيات القرن التاسع عشر تأسيس جامعة كييف، وسعى جوجول إلى الالتحاق بها رئيسًا لقسم التاريخ، وحلّم بكتابة عملٍ مرجعي تاريخي كبير، إلا أن أحلامه تلك لم يُقدّر لها أن تتحقق، غير أنه أصبح فيما بعدُ رئيسًا لقسم التاريخ بجامعة بطرسبورج، والتي عمل بها أستاذًا حتى عام ١٨٣٥، وخلال فترة عمله تلك قام بتأليف عدد من البحوث العلمية عن تاريخ القرون الوسطى في الشرق والغرب.

وفي عام ١٨٣٦ أصدر رائعته الجديدة الكوميديا المسرحية الشهيرة «المفتش العام»، والتي يسخر فيها من طبقة الموظفين الروس والبيروقراطية الفاسدة أثناء حكم القيصر نيقولاى الأول.

وكان جوجول يعرف عن قرب بتفاصيل حياة الموظفين؛ حيث عمل لسنواتٍ موظفًا في بداية حياته، كما كانت له تجارب أخرى في مجال المسرحيات الكوميديّة، وتذكر منها مسرحياته: «اللاعبون»، و«الزواج»، وغيرهما.

وفي عام ١٨٣٦ قرر جوجول السفر إلى الخارج، وبقي هناك ١٠ سنوات، عاش فيها متنقلًا بين فرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا، وقد أُعجب كثيرًا بالحياة في روما؛ حيث أنهى فيها قصته الشهيرة «المعطف»؛ حيث كان البطل الرئيس موظفًا بسيطًا وإنسانيًا على الهامش، كما أنهى فيها قصته بعنوان «روما».

وتعجُّ روايته «الأنفس الميتة» العمل الأهمّ للكاتب في تلك الفترة، وقد انتهى من العمل فيها عام ١٨٤١ وهو بعدُ في إيطاليا. وكان من المفترض أن تُصدر الرواية في جزئين، وقد صوّر فيها واقع الحياة الروسية بكل ما يعترّيها من عيوب وما يُميزها من إيجابيات. ويعرض جوجول للحياة اليومية الروسية سواء في طبقة الملاك أو الفلاحين، ويرسم لوحات رائعة للطبيعة الروسية. وفي عام ١٨٤٢ نشر روايته «تاراس بولبا»، والتي تدور عن أحداث تاريخية واقعية، وثورة الفلاحين في أوكرانيا في عام في ١٦٣٧-١٦٣٨، وقد استخدم جوجول مصادر تاريخية حقيقية أثناء كتابة الرواية.

لعبت قصة «تاراس بولبا» دورًا كبيرًا في الترويج لأسطورة القوزاق، والتي استفاد منها قادة الحركة الوطنية الأوكرانية كثيرًا في القرنين التاسع عشر والعشرين. وعلى الرغم من حقيقة أنه كتب القصة باللغة الروسية، كان جوجول بالنسبة لهم رجلًا ساعد ودعم القضية الأوكرانية. ولذا، فمن غير المستغرب أن يقوم الشاعر الأوكراني الأشهر تاراس شيفتشينكو بكتابة قصيدة عن جوجول، مستخدمًا إشارات من «تاراس بولبا».

وفي عام ١٨٤٢، وأثناء إقامته في أوروبا، فكّر جوجول كثيرًا في حياته ومعناها وسبب وجوده، وتوجّه إلى الدين. وكان عام ١٨٤٥ صعبًا على جوجول؛ حيث مرّ بمحنة وأزمة نفسية

صعبة، حتى إنه كتب وصيته كما لو كان يستعد للموت. كما قام بحرق الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة»، والتي كان ينتظر نشرها، حتى إنه قرر دخول الدير وأن يصبح راهبًا وينسحب من الحياة الدنيوية تمامًا، غير أنه - وبعد فترة من التفكير - تراجع عن أفكاره تلك.

وفي عام ١٨٤٧ صدر كتابه «مواضع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي»، وكان يضم مراسلات حقيقية للكاتب مع أصدقائه. وشهدت السنوات الأخيرة من حياته اهتمامًا شديدًا بموضوع الدين، وانعكس ذلك في مؤلفاته بوضوح؛ حيث قام بدراسة كتب القديسين. وفي عام ١٨٤٨ قرر السفر للحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، وبعد العودة واصل العمل في الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة» والذي سبق وأحرقها.

وفي شتاء عام ١٨٥٢ مر الكاتب بأزمة نفسية أخرى، وكان ذلك أثناء فترة الصيام؛ حيث قرر جوجول الالتزام بشدة به حتى يُظهر نفسه من الأثام التي ارتكبها في حياته. وقد تحوّل الصيام عنده إلى ما يشبه الإضراب التام عن الطعام، حتى خارت قواه تمامًا، ولم يفلح أصدقاؤه أو الأطباء بإقناعه بالعدول عن ذلك، وأدى ذلك إلى وفاته في ٢١ فبراير ١٨٥٢.

وبعد تتبّع مسيرة حياته، من الصعب أن ننسب جوجول إلى بلد بعينه، سواء روسيا أو أوكرانيا؛ بل يمكن القول بالتأكيد إنه كاتب عموم روسيا الإمبراطورية التاريخية، وإنه كاتب روسيا وأوكرانيا، ومؤلفاته كان لها تأثير قوي سواء على الثقافة الروسية أو على تطوّر الثقافة الأوكرانية. يمكن بالطبع أن نقول إن جوجول أوكراني الجنسية، ولكنه كان عاشقًا لروسيا، وكان عشقه لها يزداد يومًا بعد يوم، حتى إنه قال: «إن روسيا تصبح قريبة إلى قلبي أكثر فأكثر، أعتبرها وطنًا لي؛ بل ما هو أكثر من ذلك».

لم تكن تلك الروح «المزدوجة» لجوجول متشظية بين الثقافة الروسية من جهة والأصول الأوكرانية من جهة أخرى؛ بل كان الأمر بمثابة حب وعشق مضاعف ومتساوٍ تجاه أوكرانيا التي نشأ فيها، والإمبراطورية الروسية؛ حيث رحل ليخدم الدين والثقافة الأم. وكان الأدب الروسي بالنسبة لجوجول بمثابة منبر يتحدث من خلاله الكاتب مع روسيا بأكملها؛ روسيا الأم والإمبراطورية الكبرى، وكان هو بمثابة مبعوث أوكرانيا وممثلًا لها.

وهكذا يمكن القول إن جوجول، وما تركه من تراث عظيم، يمكن أن يُوحّد بين الشعبين لا أن يُفرق بينهما. كان جوجول يكتب بالروسية ويفكر بالأوكرانية، ولكنه لم يُقدّم يومًا على تقسيم الشعب السلافي، أو إلى نَبذ الفرقة بين أطيافه؛ بل على العكس من ذلك، فقد كان يشعر دومًا أنه ملك لهما معًا، وخدمتهما معًا من كل قلبه، كما أنه مدين لهما معًا في كل ما حقق من شهرة ومجدٍ وصيت ذاع في كل أرجاء المعمورة.

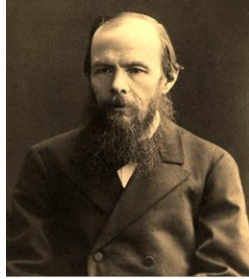
ولا إجابة شافية أكثر من عبارة قالها الأديب نيقولا ي جوجول بنفسه؛ حيث قال في حديثه لبعض أصدقائه:

«سأقول لكم كلمة واحدة ردًا على السؤال ما إذا كانت روعي أكرانية أم روسية؟ حَقًّا لا أعرف ماهية روعي، ولكن ما أعرفه أنني لم أُميز يومًا أكرانيا على روسيا، ولا روسيا على أكرانيا. فِكِلا الطَبِيعَتَين هبة كريمة من الرب، وكل منهما - وكأنما عن قصد - تمنحني ما ينقص في الأخرى، وهو ما يؤكد بوضوح أنهما يُكَمِلان بعضهما البعض».

(٦)

فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي

(١٨٢١ - ١٨٨١م)



هو كاتب روسي عظيم فيلسوف شهير ينتمي إلى القرن التاسع عشر، ويُعد من كبار الكلاسيكيين في الأدب الروسي والعالمي.

نشأة الكاتب

وُلد في الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٢١م بمدينة موسكو، وينتمي أبوه إلى عائلة أرستقراطية، أما والدته فكانت ابنة أحد التجار. وكان عدد الأبناء في الأسرة ثمانية. كانت عائلته ثرية؛ ولذا حصل كاتبنا على تعليم مميز.

وفي الفترة من ١٨٣٤ - ١٨٣٧م درس دوستوفسكي مع أخيه الأكبر في مدرسة بمدينة موسكو. ثم انتقل عام ١٨٣٧ إلى مدينة سان بطرسبورج حيث التحق فيها بمدرسة الهندسة العليا والتي كانت تعد حينها من أرقى المؤسسات التعليمية. ودرس الكاتب هناك العلوم الهندسية والإنسانية أيضاً. ولم يكن دوستوفسكي يرغب في العمل مهندساً حيث كان يحلم دائماً أن يصبح كاتباً وأديباً. عمل مهندساً لعامين فقط ثم استقال عام ١٨٤٤م وكرّس حياته للأدب وحده.

وفي يناير عام ١٨٤٤م قام دوستوفسكي بترجمة رواية بلزاك «أوجيني جراندي» من الفرنسية. ونشرت هذه الترجمة دون الإشارة إلى اسم المترجم. وفي مايو ١٨٤٥م كتب دوستوفسكي قصة قصيرة فكاهية بعنوان «رواية في تسع خطابات». كما نشر له أيضاً قصص «السيد بروخارتشين» (١٨٤٦م) و«الصلب الشريف» (١٨٤٨م) و«شجر عيد الميلاد والعرس» (١٨٤٨م). كما بدأ في كتابة القصة، حيث نشر له عام ١٨٤٨م قصتين وهما «سيدة المنزل» و«قلب ضعيف».

وفي عام ١٨٤٦م تعرّف دوستوفسكي على منظمة سياسية رؤسها ميخائيل بيتروفسكي. وكانمت تدعو إلى حرية الكلمة ونشر الكتب وإلى إصلاح النظام القضائي وتحرير الفلاحين. وفي عام ١٨٤٨م شكلت هذه المنظمة جمعية سرية تضم سبعة من الأعضاء شديدة الحماسة

للتغيير، وكان كاتبنا واحدًا منهم. وترأس هذه الجمعية الشيوعي ن. سيبشنيف. وقد سعى هؤلاء الأعضاء إلى تنظيم انقلاب سياسي في روسيا وإعلان حرية النشر وإصدار الكتب. وفي خريف عام ١٨٤٨م نشر دوستوفسكي قصته الشهيرة «الليالي البيضاء» في مجلة «مذكرات وطنية».

في إبريل عام ١٨٤٩م تم اعتقاله بعد اتهامه بالانتماء إلى منظمة سياسية. كما تم اعتقال العديد من أعضاء المنظمة السرية. وقضى دوستوفسكي في المعتقل السري فترة ثمانية أشهر كاملة في داخل قلعة (بيتر بول) بمدينة سان بطرسبورج. وكان هذا هو السجن المركزي والأكبر في روسيا ومخصصًا للمعتقلين السياسيين. وكانت الظروف داخل السجن شديدة القسوة. فقد كان يمنع على المساجين ممارسة أي نشاط بدني وكانوا معزولين في غرف انفرادية. وكانت السلطات تبرر ذلك بكون هؤلاء المساجين شديدي الخطورة على الدولة. وفي فترة سجنه كتب دوستوفسكي قصته القصيرة «البطل الصغير» (١٨٤٩م)

وفي أثناء محاكمته لم يعترف دوستوفسكي بذنبه غير أنه تم اتهامه ولقب بأنه من أعتى المجرمين. وأخطرهم. وقد حكمت عليه المحكمة في البداية بالإعدام، وحدد له تاريخ الثاني والعشرين من ديسمبر ١٨٤٩م. غير أن السلطات قررت في اللحظة الأخيرة استعمال الرأفة مع المحكومين واستبدال هذه العقوبة بالأشغال الشاقة. واتضح أن تنظيم منصة الإعدام في ديسمبر ١٨٤٩ لم تكن سوى مسرحية من السلطات كانت بمثابة تحذير للسكان ونوع من التعذيب النفسي للمعتقلين أيضًا. حتى إن أحد المحكومين فقد عقله بسبب هذا الضغط النفسي الشديد.

ثم تم إرسال دوستوفسكي ورفاقه المحكومين إلى سيبيريا لتنفيذ حكم الأشغال الشاقة. حيث قضى الكاتب أربع سنوات بمدينة أومسك في سيبيريا ولم يكن لديه الحق في كتابة خطابات لأصدقائه أو أقاربه. وعندما مرض ونقل إلى المستشفى قام بشكل سري بكتابة مذكراته التي وصف فيها مشاعره وأحاسيسه في المعتقل. ودون ذلك في كراسه أطلق عليها «كراسة سيبيريا». وبعد خروجه من السجن تناول دوستوفسكي حياته هناك في قصته «مذكرات من بيت الموتى». وفي المعتقل تعرف الكاتب على الكثير من الفلاحين الروس، واقترب من مشكلات الشعب البسيط وطريقة تفكيره. ولم يكن ذلك متاحًا له في الماضي لكونه ينتمي إلى عائلة أرستقراطية.

وفي عام ١٨٥٤م خرج الكاتب من السجن، وقضى شهرًا في مدينة أومسك. ثم انتقل للخدمة بالجيش في رتبة عسكري أو جندي بسيط في فرقة سيبيريا والتي تتمركز في مدينة سيميبيالاتينسك، وتقع على أراضي جمهورية كازاخستان.

وبعد وفاة الإمبراطور نيقولاي الأول في عام ١٨٥٥م كتب دوستوفسكي قصيدة مديح للقيصر وحكمه، بعث بها إلى أرملة الإمبراطور ألكسندرا فيدوروفنا. وبفضل هذه القصيدة تمت ترقيته في الجيش لرتبة ضابط، كما منح الحق في نشر مؤلفاته، وهو الأمر الذي أسعده كثيرًا.

وكانت قصته القصيرة «البطل الصغير» (١٨٥٧م) هي أول عمل أدبي نشر له بعد خروجه من السجن. وفي السادس من فبراير عام ١٨٥٧م تزوج دوستوفسكي من ماريا دميتريفنا ايسايفا، وفي نفس العام حصل الكاتب على عفو عام، وأعيد إليه لقب نبيل.

تغيرت أفكار وآراء الكاتب بعد انتهاء فترة سجنه، حيث أصبح أكثر تديناً وأصبحت الديانة المسيحية هي الفكرة الأساسية التي تسيطر على عقله ووجدانه. وأخذ من شخصية المسيح مثالاً يحتذيه في كل تصرفاته وطريقة عيشه حتى مات.

وفي عام ١٨٥٩م نشرت مجلة «مذكرات وطنية» قصتين للكاتب وهما «حلم العم» و«قرية ستيبانشيكوفا وأهلها».

وفي الثلاثين من يونيو ١٨٥٩م منح تصريح مؤقت للسفر من كازاخستان فتوجه مع زوجته إلى مدينة تغير الروسية والتي تقع بالقرب من موسكو. وفي ديسمبر ١٨٥٩م عاد مع أسرته إلى سان بطرسبورج. وعلى الرغم من الإفراج عنه إلا أن السلطات ظلت تراقبه بشكل سري حتى منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٨٦٠م تم طباعة جزئين من المجموعة الكاملة لأعماله. ثم سرعان ما قام دوستوفسكي بنشر قصته «مذكرات من بيت الموتى» والتي تعد أول محاولة لكاتب روسي لتصوير واقع الحياة داخل معتقلات سيبيريا. وقد لقي العمل استحسان وإعجاب القارئ الروسي، وذاع صيت دوستوفسكي ليس فقط في روسيا بل وفي العالم كله.

وفي عام ١٨٦١م قام دوستوفسكي مع أخيه بإصدار مجلة سياسية وأدبية جديدة تحمل اسم «العصر». وفي عام ١٨٦٣م تم إغلاق المجلة فأصدر الكاتب مع أخيه مجلة أخرى تحمل اسم «العهد» ونشر فيها عددًا من مؤلفاته مثل: «مذلولون مهانون» و«ملاحظات شتوية عن انطباعات صيفية» و«مذكرات من باطن الأرض».

وفي عام ١٨٦٤م قام الكاتب برحلة إلى أوروبا، حيث فتن بلعب القمار، وأنفق عليه كل ماله حتى أفلس. وفي نفس العام فقد أخيه وزوجته.

ويرصد النقاد خمسة أعمال للكاتب يطلقون عليها «الخماسية العظيمة» وتضم رواياته «الأبله» و«الجريمة والعقاب» و«الشياطين» و«المراهق» و«الإخوة كارامازوف».

ففي روايته الشهيرة «الجريمة والعقاب» يطرح الكاتب معتقداته وآراءه الإنسانية. ومن خلال البطل الرئيس للرواية راسكولنيكوف يظهر المؤلف أن الإنسان يمكن أن يُقدم على الجريمة لتحقيق هدف ما ولكنه في النهاية وبعد أن يرتكب الجريمة يعي أنه لا يوجد هدف في الحياة يستحق من أجل تحقيقه أن يقتل إنسانًا آخر.

ويتحدث دوستوفسكي في «الجريمة والعقاب» أن الحياة في وفق المعتقدات الدينية وتحقيق الهارموني والاتحاد بين الإنسان والله هو الطريق الوحيد والمتاح للإنسان. كما يتناول الكاتب

موضوع الموت. ويرى أنه يتوجب على الإنسان أن يفهم أن الموت أمر محتتم؛ ولذا ينبغي أن يسعد بحياته بوصفها هدية من الله؛ ولذا نجده في الرواية يظهر كيف يمكن للظروف الحياتية أن تدفع الإنسان لارتكاب جريمة إلا أن المجرم يجب وأن يتحمل العقاب والعقاب الأشد هو العقاب الإلهي. وأن السبيل الوحيد أمام البطل للتكفير عن ذنبه هو التوبة والحياة وفق تعاليم الدين.

وفي عام ١٨٦٧م تزوج دوستويفسكي للمرة الثانية من سيدة تدعى انا سنيتكينا دوستويفسكايا. وسافر الزوجان إلى أوروبا وساعدته زوجته على ترك لعبة الروليت التي أفقدته الكثير من ثروته. وأنجب من زوجته هذه أربعة أطفال. وبعد عودتهما إلى روسيا عاشا في مدينة ستاريا روس بالقرب من مدينة نوفجورود. وقضى في هذه المدينة الصغيرة ست سنوات حتى ١٨٧٨م، وكانت تلك فترة مثمرة في حياته، حيث كتب فيها رواياته «الشياطين» و«المراهق» وغيرها.

وفي عام ١٨٧٨م عاد الكاتب إلى بطرسبورج، وعاش بها وتحولت الشقة التي عاش فيها الآن إلى متحف أدبي، وفيها أبدع الكاتب رائعته «الإخوة كارامازوف». حدثت واقعة مهمة في حياة دوستويفسكي في تلك الفترة، حيث دعاه الإمبراطور ألكسندر الثاني كي تتعرف عليه عائلته.

وفي عام ١٨٨١م تُوفي دوستويفسكي في شقته في سان بطرسبورج.

(٧)

ليف نيقولايفيتش تولستوي

(١٨٢٨ - ١٩١٠م)

يُعتبر تولستوي أديبًا روسيًا كبيرًا وكاتبًا واقعيًا وفيلسوفًا وأحد أهم كلاسيكي الأدب الروسي والعالمي.



وُلد تولستوي في عائلة أرستقراطية في عام ١٨٢٨م في قرية تقع بالقرب من مدينة تول. وتوفيت أمه وهو بعد طفلًا رضيعًا لم يبلغ العامين. وقامت إحدى أقربائهم وتدعى تايانا يرجولسكايا بتربيته وأخواته الأربعة.

وفي عام ١٨٣٧ انتقلت الأسرة إلى مدينة موسكو. وتوفي أبوه فعاد تولستوي مع إخوته إلى قريته في ياسنايا بوليانا، وعاش فيها حتى عام ١٨٤٠م. ثم انتقلت الأسرة إلى مدينة كازان، حيث تولت عمتهم رعايتهم، وكانت تدعى براسكوفيا يوشكوفافا.

وقد تلقى تولستوي تعليمه الأولي على يد مدرسين أجانب من فرنسا وألمانيا. وعندما انتقل إلى بيت عمته في كازان التحق بجامعة كازان. وفي عام ١٨٤٤م التحق بكلية الاستشراف بجامعة كازان بقسم اللغات العربية والتركية. وقد اجتاز تولستوي اختبارات القبول بنجاح، غير أنه واجه صعوبات أثناء دراسته للغات الشرقية، واتخذ قرارًا بالانتقال إلى كلية أخرى وهي الحقوق.

وفي الحادي عشر من مارس ١٨٤٧م مرض تولستوي ومكث في مستشفى كازان لفترة، وفي تلك الفترة كتب يومياته التي وصف فيها حياته والأحداث التي مرت به، وقد استمر في كتابة يومياته حتى وفاته. وفي عام ١٨٤٧م ترك الدراسة بالجامعة وتوجه إلى ضيعة ياسنايا بوليانا والتي آلت إليه ملكيتها بعد وفاة أبيه. وخلال إقامته في ضيعة سعى تولستوي لإقامة علاقة جيدة مع الفلاحين حتى إنه قام بافتتاح مدرسة لأطفالهم، وكان يقوم بالتدريس فيها أحيانًا.

وفي يومياته يصف تولستوي الأهداف التي وضعها نصب عينيه في شبابه. وكان منها - على سبيل - المثال تعلم اللغة الإنجليزية والموسيقى والتشريع.

وفي أكتوبر ١٨٤٨م سافر تولستوي إلى موسكو بهدف دراسة الدكتوراة. غير أنه لم يبدأ الدراسة، حيث شغل وشغف بحضور فعاليات النخبة المثقفة والعلمانية في موسكو، وهناك وقع

فريسة للعب القمار، وخسر الكثير من ماله.

وفي فبراير ١٨٤٩م سافر تولستوي إلى بطرسبورج وهناك اجتاز بنجاح امتحانات القبول لدرجة الدكتوراه في كلية الحقوق إلا أنه فشل في اجتياز الامتحان الثالث والأخير فعاد مرة أخرى إلى ضيعته.

وفي تلك الفترة شغف تولستوي بالموسيقى وكان يجيد اللعب على البيانو. وكان عاشقًا لكبار الموسيقيين مثل باخ وشوبين. ومنذ عام ١٨٤٩م حضر إلى قرية ياسنايا بوليانا موسيقي يدعى رودولف فكان يقضي أوقاتًا كثيرة بصحبته في العزف حتى إنهما كانا يعزفان سويًا بأيديهم الأربعة.

وفي عام ١٨٥٢ نشر في مجلة «المعاصر» كتابه «الطفولة» وكان وقتها كاتبًا غير معروف فوقع بالحروف الأولى فقط من اسمه. وتعد قصة «الطفولة» بمثابة سيرة ذاتية للكاتب، حيث يصف فيها معاناته النفسية أثناء سنوات الطفولة والمشكلات التي واجهها والحب الأول. وقد لقيت القصة نجاحًا كبيرًا بين القراء في روسيا، وكتب النقاد الروس حينها أن تولستوي يمتلك مهارة التعبير عن أعماق النفس الإنسانية وتحليلها بدقة، ويطرح أفكارًا فلسفية مهمة ووضعوه في مصاف كبار الكتاب الواقعيين في تلك الفترة.

وفي عام ١٨٥٤م نشر تولستوي في نفس المجلة «المعاصر» قصته الثانية بعنوان «الصبا» والتي تعد استكمالًا لقصته الأولى. وهنا يصف الكاتب حياته في سن المراهقة والأحداث في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي أثناء الخدمة العسكرية شارك تولستوي في معارك شرسة في القوقاز وكذا في حرب القرم. ومن أشهر المعارك التي خاضها كانت موقعة الدفاع عن مدينة سيفاستوبول بالقرم. وفي عام ١٨٥٥م انتهى تولستوي من كتابة ثلاث قصص قصيرة عن الحرب وأطلق عليها اسم «قصص سيفاستوبول». ونشرت جميعها في مجلة «المعاصر» وقد أعجب بها الإمبراطور ألكسندر الثاني حينها كثيرًا، وتم منح تولستوي العديد من الأوسمة والجوائز نظير اشتراكه في القتال ومؤلفاته تلك.

وفي ١٨٥٦م استقال تولستوي نهائيًا من الخدمة العسكرية، وانتقل إلى سان بطرسبورج وشهد هذا العام صدور قصته «العاصفة الثلجية». وفي عام ١٨٥٧م نشر تولستوي الجزء الأخير من سيرته الذاتية والتي ضمت في جزئها الأول والثاني قصتي «الطفولة» و«الصبا». وأطلق على الجزء الثالث عنوان «الشباب» وفيه يتناول الكاتب مرحلة الجامعة وعلاقة البطل بأصدقائه ونظرته للعالم.

وفي عام ١٨٥٧م قرر تولستوي السفر من بطرسبورج في رحلة إلى أوروبا زار فيها فرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وإنجلترا. وقد تركت هذه الرحلة أثرًا سيئًا في نفسه، حيث أصيب

الكاتب باليأس والإحباط مما شاهده من قيم ثقافية في الغرب. وقد صور ذلك في قصته القصيرة «لوسرن».

وفي عام ١٨٥٩م أصدر تولستوي قصته «الوفيات الثلاثة» وروايته «السعادة الأسرية». وفي ١٨٦٢م سافر تولستوي إلى قرية تسمى كاراليك وتقع بالقرب من مدينة سامار الروسية وكان أغلبها من الشعب البشكيري، وقد أراد تولستوي أن يعالج هناك بحليب الخيول والتي يطلق عليه البشكيريون «كوميس». وأقام هناك في كهف بشكيري بسيط يسمى «يورطا». وقد أعجب الكاتب كثيرًا بهذا المكان حتى إنه اشترى ضيعة هناك وكثيرًا ما كان يسافر إليها.

ثم واصل تولستوي بعد عودته إلى قريته ياسنايا بوليانا التدريس لأطفال الفلاحين واستكمال بناء المدرسة الخاصة بهم وتطويرها. وقد أرسى الكاتب نوعًا جديدًا من العلاقة بين المدرسين ونظامًا جديدًا للحياة بين التلاميذ. فلم يكن هناك نظام صارم للتدريس أو مقررات ثابتة بل كان كل تلميذ يمتلك مساحة كبيرة من الحرية. وكان الشرط الوحيد هو أن تكون العلاقة بين المدرس والتلميذ مثالية وكانت مهمة المدرس الأساسية ان يجذب اهتمام التلميذ وينمي فيه حب المعرفة. وفي ١٨٦٢م بدأ تولستوي في إصدار مجلة تربوية بعنوان «ياسنويا بوليانا».

وفي عام ١٨٦٢ تزوج تولستوي من فتاة قروية تدعى صوفيا اندريفنا بيرس أنجبت له ثلاثة عشر طفلًا إلا أن خمسة منهم ماتوا في سن صغير. وفي عام ١٨٦٣م صدرت قصة تولستوي «القوزاق» والتي يصف فيها حياة هذا الشعب في القوقاز. وقد كتبه من وحي تجربته الشخصية والسنوات التي عاشها هناك أثناء خدمته العسكرية.

خلال السنوات الست من ١٨٦٣ - ١٨٦٩م عمل تولستوي على كتابة ملحمة الشهيرة «الحرب والسلام» والتي نالت نجاحًا وشهرة واسعة بين القراء وأهدت كاتبها شهرة عالمية. ويصف الكاتب في الرواية أحداث الحرب بين روسيا وجيش نابليون. وتعد الرواية عملاً نادرًا في الأدب الروسي عكس كل جوانب الحياة وكل طبقات المجتمع الروسي من الأرستقراطيين وحتى الجنود والفلاحين البسطاء. ويولي الكاتب اهتمامًا خاصًا فيها بموضوع الوطنية الحقيقية والحب الحقيقي للوطن.

وفي الفترة من ١٨٧٣ - ١٨٧٧م انشغل تولستوي في كتابة رائعته «انا كارينينا» والتي نالت بدورها شهرة عالمية واسعة. ويتناول فيها الكاتب موضوع الحياة العائلية ومكانة ووضع المرأة في الأسرة والمجتمع.

وقد أحب تولستوي الفلكلور الروسي كثيرًا والحكايات والأساطير والأغاني الشعبية الروسية؛ ولذا نجد الكثير من مؤلفاته تزدي بموتيفات الإبداع الشعبي الروسي. ومنها على سبيل المثال قصصه «بم يحيى الناس؟» (١٨٨١م) و«العجوزان» (١٨٨٥م) و«الأخوات الثلاثة» (١٨٨٥م) و«الصلاة» (١٩٠٥م) و«العجوز في الكنيسة» (١٩٠٧م)

وفي السنوات الأخيرة من مشواره الإبداعي اتجه تولستوي إلى موضوع الفلسفة الدينية وطرح

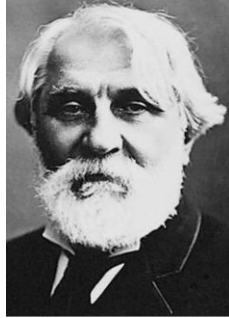
رؤيته وتصوراته الفلسفية وما خلص إليه من نتائج من خبراته الحياتية في كتابه «الاعترافات» والذي هو سيرة ذاتية للكاتب. و صدر في عام ١٨٨٤م. كما تناول في العقيدة المسيحية ورؤيته حولها في كتبه «الشيطان» (١٩١١م) و«البعث» (١٨٩٩). وقد تعرض تولستوي بالنقد في روايته «البعث» لبعض الطقوس التي تمارس في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وكان ذلك سبباً في أن تقوم الكنيسة في عام ١٩٠١م بطرده أي عدم الاعتراف به كمسيحي. وبعد تفكير عميق في معنى الحياة وأصلها قرر نهائيًا العودة إلى قواعد الدين المسيحي. حتى إنه امتنع تمامًا عن أكل اللحوم وأصبح يرتدي ثيابًا بسيطة ورخيصة تمامًا وأصبح يعيش كإنسان بسيط فقير.

وفي عام ١٩٠٠م كتب تولستوي مسرحيته «الجثة الحية» والتي نشرت بعد وفاته. وفي عام ١٩١٢م صدرت له قصة «الحاج مراد» والتي تصف فيها أحداث الحرب التي خاضها الإمام شامل في القوقاز.

وفي عام ١٩١٠م اتخذ تولستوي قرارًا بالانعزال عن أسرته وغادر سرًا ضيعته في قرية ياسنويا بوليانا. وتوجه في رحلة إلى المدن الروسية، وفي أثناء سفره داهمه المرض بشدة وتوفي في السابع من نوفمبر عام ١٩١٠ في محطة السكك الحديدية بالقرب من مدينة ريزان. ودفن تولستوي في ضيعته، وشارك الآلاف في جنازته.

(٨)

في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على مولده
«إيفان تورجينيف».. أفضل من تغنى بالطبيعة



يعد «إيفان تورجينيف» (١٨١٨ - ١٨٩٣م) واحدًا من أهم كُتَّاب العالم في القرن التاسع عشر، وأحد كبار الكُتَّاب في العصر الذهبي للأدب الروسي. استطاع هذا الكاتب، الذي نحتفل هذا العام بمرور ٢٠٠ عام على ميلاده، تأسيس منظومة فنية جديدة، كان لها عظيم الأثر في إحداث ثورة في بنية الرواية، ليس في روسيا بل في العالم بأكمله. تعرّضت كتاباته في حياته مرات للمديح، ومرات أكثر للانتقاد، فيما قضى هذا الأديب سنوات حياته بحثًا عن الطريق الذي يجب أن تسلكه روسيا نحو الازدهار والرخاء. ويُعد- بحق- أستاذًا ورائدًا في التحليل النفسي، وكان له أثر عظيم في تطور الأدب والثقافة الروسية.

تعود أسرة «تورجينيف» إلى أصول أرستقراطية، حيث كان أبوه «سيرجي تورجينيف» من قادة سلاح الفرسان، وأمّه «فارفارا لوتوفينوفا» من المُلَّاك وأصحاب الأراضي الأثرياء. وُلد «تورجينيف» في مدينة أريول الصغيرة في عام ١٨١٨م، وفي سن التاسعة انتقلت الأسرة إلى موسكو، وبعد وفاة أبيه، سافر الشاب «تورجينيف» إلى بطرسبورج، حيث التحق هناك بكلية الفلسفة، وفي عام ١٨٣٦م عرض أولى أشعاره على الأديب «بيتر بليتنيف» الذي قام بدعوة الشاعر الشاب إلى أمسية شعرية وأدبية، وهناك التقى- للمرة الأولى- الشاعر الروسي العظيم «ألكسندر بوشكين»، وفي أثناء دراسته الجامعية كتب أكثر من مائة قصيدة شعرية، وفي عام ١٨٣٨م نشر «تورجينيف» أولى قصائده الشعرية في مجلة «سوفريمينيك» (المعاصر). وفي العام نفسه، توجه إلى ألمانيا. كانت الرغبة في استكمال دراسته تبرز مع رفضه للواقع الروسي وكرهه للقانون الإقطاعي القائم. وعاش «تورجينيف» في برلين لمدة عام تردد فيها على محاضرات بالجامعة، ودرس اللغات الكلاسيكية، وكتب الشعر، وعاد إلى روسيا لفترة قصيرة، ثم

سافر مرة أخرى إلى إيطاليا وألمانيا.

وبعد إنهاء دراسته الجامعية، سافر «تورجينييف» إلى أوروبا لمواصلة دراسته، وتوصل إلى نتيجة مفادها: أنه على روسيا التخلص من الجهل الذي تعاني منه، وأن تتبع النموذج الأوروبي. وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر، عاد إلى وطنه روسيا، وتعرّف على كبار الكُتاب الروس حينها، أمثال: «جوجل»، و«أكسكوف»، و«خوميالكوف»، و«دوستوفسكي».. وغيرهم.

وفي نهاية الأربعينيات، كتب العديد من المسرحيات، منها: مسرحية «الأعزب» و«شهر في قرية» و«فتاة القرية» التي نالت شهرة ونجاحًا كبيرًا بين الجمهور والنقاد. وبعدها بسنوات قليلة صدرت مجموعة القصص القصيرة «مذكرات صياد»، والتي عكست كراهية الكاتب لنظام الإقطاع السائد في روسيا حينها. ونلاحظ من خلال هذه المجموعة القصصية موهبة الكاتب الكبيرة، وفهمه العميق وإحساسه بالطبيعة. ويُعد هذا الكتاب من بين أوائل المؤلفات التي تتحدث عن مآسي نظام الإقطاع. وقد حُكم على الرقيب الذي سمح بنشر المجموعة بالإحالة إلى التقاعد، وحرمانه من مستحقاته المالية، فيما تم منع إعادة نشر الكتاب مرة أخرى. وأتهم «تورجينييف» بأنه يقوم بعملية تسييس للأمر، ومبالغة في تصوير معاناة الشعب من سطوة مُلاك الأراضي الزراعية.

وفي عام ١٨٥٦م، صدرت أولى روايات الكاتب التي تحمل عنوان «رودين»، وقد استغرقت كتابة الرواية سبعة أسابيع فقط، وأصبح اسم البطل رمزًا للإنسان الذي لا تتفق أقواله مع أفعاله، وكانت هذه الرواية بمثابة انطلاقة لسلسلة من أعمال «تورجينييف» الكبيرة التي تتمحور حول شخصية البطل المفكر، صاحب الأيديولوجية، الذي يرصد «الواقع السياسي والاجتماعي». وطرح المؤلف قضية الأهمية الاجتماعية لهؤلاء الناس من أمثال «رودين»، ودورهم في تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي. وبعد ثلاث سنوات صدرت روايته الجديدة «بيت النبلاء»، والتي لاقت نجاحًا منقطع النظير في روسيا، حتى إنه يمكن القول: إنه لا يوجد شخص متعلم في روسيا إلا وقد قرأ هذه الرواية. تمحورت الرواية حول قصة حب عميق في مأساويته، وهي في الوقت ذاته رواية عن الواجب الأخلاقي، والإيثار، ومعنى الحياة.

وفي بداية الستينيات من القرن التاسع عشر، صدرت مقتطفات من روايته الأشهر «آباء وأبناء». وتتناول الرواية المزاج الشعبي في تلك الفترة، وخاصة الرؤي العدمية التي سيطرت على شباب روسيا. وقد وصفه الكاتب والفيلسوف الروسي «نيقولاي ستراخوف» قائلاً: «أظهر تورجينييف مقدرة كبيرة على الحفاظ على روعة الأدب، وفي الوقت نفسه على توظيفه في خدمة المجتمع».

ونالت الرواية استحسان النقاد، غير أنها هُوجمت من قِبَل الليبراليين، وساءت علاقة

«تورجينيف» بالكثير من أصدقائه في تلك الفترة، ومنهم على سبيل المثال: الكاتب «ألكسندر جيرتسين» الذي كان يري أن مستقبل روسيا الحقيقي في تحقيق الاشتراكية الزراعية، معتبرًا أن أوروبا البرجوازية قد انتهت، فيما كان «تورجينيف» يدافع عن فكرة دعم روابط الثقافة بين روسيا والغرب.

ناصر «تورجينيف» هذه الفكرة بقوة حتى أطلق البعض عليه لقب «الكاتب الأوربي» في الأدب الروسي. لكنه تعرّض لانتقادات لاذعة مع صدور روايته الجديدة «الدخان»؛ لأن تلك الرواية كانت تسخر بشدة من الطبقة الأرستقراطية المحافظة في روسيا، ومن طبقة الليبراليين الداعين للثورة في الوقت نفسه.

وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، عاش «تورجينيف» في باريس، وكان نادرًا ما يزور وطنه روسيا، وشارك الكاتب بشكل نشط في الحياة الثقافية في أوروبا الغربية، ودعا الأوروبيين لقراءة الأدب الروسي والثقافة الروسية، وكانت هناك اتصالات ورسائل بينه وبين «تشارلز ديكنز»، و«جورج ساند»، و«فيكتور هوجو»، و«جان دي موباسان»، و«جوساتف فلوبير».. وغيرهم.

وفي النصف الثاني من السبعينيات نشر «تورجينيف» روايته الكبرى «الأرض العذراء» التي انتقد فيها بشدة أعضاء الحركة الثورية في سبعينيات القرن التاسع عشر.

وقد كشفت أعماله الأخيرة عن اغترابه الشديد عن روسيا. وبالطبع لم تلق الرواية الأخيرة قبولًا من رفاقه، حتى إن الكاتب الكبير «سالتيكوف شيرين» وصف الرواية بأنها «قدّمت خدمة عظيمة للحكم المطلق في روسيا»، غير أن أعمال «تورجينيف» السابقة ظلت تحظى بشهرة وانتشار واسعين.

ونال الكاتب في سنواته الأخيرة شهرة كبيرة، سواء في روسيا أو في خارجها. وكان كتابه الأخير بعنوان «أشعار نثرية» التي بدأها بقصيدة بعنوان: «القرية»، وختمها بأخري بعنوان «اللغة الروسية». وكانت هذه المجموعة الشعرية بمثابة وداعٍ للأديب مع الحياة والفن عمومًا.

وفي تلك الفترة أيضًا التقى «تورجينيف» مع حبه الأخير الفنانة «ماريا سافينا»، وكانت تبلغ من العمر ٢٥ عامًا فقط. ورغم اعترافه بحبه لها فإنها كانت تعتبره صديقًا يعتمد عليه، ولم تكلل العلاقة بالزواج.

ومرض تورجينيف مرضًا شديدًا في نهاية حياته، وتوفي في الثالث من سبتمبر عام ١٨٨٣م في باريس. ونظمت مراسم جنازة ضخمة للأديب الكبير في باريس، ثم تم نقله إلي بطرسبورج الروسية، حيث دُفن هناك، وكانت وفاته بمثابة صدمة عنيفة لمحبيه واحتشد الجماهير بعشرات الآلاف في وداعه.

تغنّى «تورجينيف» بالطبيعة في كل أعماله تقريبًا، فالطبيعة لديه لا تنفصل عن حياة البطل،

ومزاجه وعالمه الداخلي ومعاناته. وصنّف الطبيعة لديه ليس فقط مسهبًا وباستخدام ألفاظ جميلة وعبارات مبهرة، بل وتحمل في طياتها زخمًا شعوريًا ونفسيًا قويًا، يترك تأثيره على القارئ. استخدم «تورجينييف» وصف الطبيعة للكشف عن العالم الداخلي لأبطاله، وفي كثير من المرات عن معاناته الشخصية، وكثيرًا ما يبدو مهمومًا بكشف ألغاز الطبيعة والعالم المحيط. وقد استفاد الكاتب من إتقانه للغة الروسية، ومفرداته في التعبير عن جمال الطبيعة.

ظل «تورجينييف» من أكبر أدباء روسيا، وظلت أعماله حتى يومنا هذا، وستبقى لكون القضايا التي تناولها تتسم بالخلود. ويُعد- بحق- أقدّر أدباء روسيا على الكتابة بحرفية وإتقان وفهم لبناء النص، حتى إن القارئ العادي يجد صعوبة بعض الشيء في فهم كتاباته وتذوقها. وسيظل اسمه لعقود وقرون أخرى عديدة لكونه خاض طيلة حياته نضالًا حقيقيًا من أجل القارئ، وقدم للعالم مثالًا فريدًا لكيفية ربط النص الأدبي بالأيديولوجيا.

(٩)

أنطون بافلوفيتش تشيخوف

(١٨٦٠ - ١٩٠٤م)

يُعد أنطون تشيخوف من كبار الكُتَّاب الروس في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد اشتهر ككاتب ومؤلف مسرحي، بلغ عدد مؤلفاته أكثر من تسعمائة عمل، تُعد من كلاسيكيات الأدب الروسي. وقد نالت أعماله شهرة واسعة على مستوى العالم، وترجمت إلى أكثر من مائة لغة أجنبية بما فيها العربية.



وُلد الكاتب في مدينة تاجانروج في جنوب روسيا في عام ١٨٦٠م، وتلقى تعليمه في مدرسة يونانية بالمدينة في البداية، ثم انتقل إلى مدرسة للبنين في عام ١٨٦٨م، وقد شغف تشيخوف بالأدب منذ طفولته، وبدأ في تجربة نفسه في الكتابة حيث صدر أول أعماله وهو لم يبلغ الثامنة عشر من عمره بعد، ويحمل عنوان «اليتيم» وقد انتهى من هذا العمل أثناء دراسته بالمدرسة، وكان يستخدم اسماً أدبياً مستعاراً، وهو تشيخونتي.

وفي عام ١٨٧٩ أنهى تشيخوف دراسته، وانتقل إلى مدينة موسكو، حيث التحق بكلية الطب جامعة موسكو. وأنهى دراسته بالجامعة عام ١٨٨٤م، وعمل طبيباً في المستشفى.

وفي أثناء دراسته الجامعية أنهى تشيخوف كتابة عدد من المؤلفات، نشرت في مجلات ساخرة في موسكو وسان بطرسبورج. وحيث صدرت له أولى مجموعته القصصية والتي تحمل عنوان «حكايات ميلبومينا»

وفي الفترة من ١٨٨٥ - ١٨٨٦م كتب تشيخوف عدداً كبيراً من القصص القصيرة. وكانت فترة مثمرة في حياته حتى إنه قال عنها لاحقاً إنه كان يكتب كل يوم قصة قصيرة.

وفي عام ١٨٨٧ توجه تشيخوف إلى جنوب روسيا لزيارة المدينة الأم، وسافر من هناك إلى القرم ثم إلى القوقاز. وقد تركت هذه الرحلة في نفسه أثراً عظيماً، وهو ما انعكس في قصته الشهيرة «السهوب» والتي نشرت في مجلة «أخبار الشمال». وقد لاقت هذه القصة إعجاب

واستحسان القراء، وذاع صيته في أنحاء روسيا.

وفي عام ١٨٨٨م حصل تشيخوف على جائزة بوشكين من أكاديمية العلوم الروسية. ثم نشر في مجلة «أخبار الشمال» قصته «حكاية مملّة» في عام ١٨٨٩م.

وفي عام ١٨٩٠ قرر السفر إلى مكان أبعد، وقام برحلة غير عادية عبرَ فيها كل أراضي روسيا نحو الشرق وتحديداً إلى جزر ساخالين. وقد استغرقت رحلته إلى هناك ٢٨ يوماً كاملة وتركت في نفس الكاتب انطباعات ثورية عن الطبيعة الروسية في منطقة سيبيريا، ودوّن تلك الانطباعات في مقالات بعنوان «من سيبيريا». وفي الجزيرة تحدث تشيخوف مع السكان المحليين ومعظمهم ممن يقضون عقوبة الإبعاد نتيجة قيامهم لتصرفات وأفعال مناهضة للدولة. وقام تشيخوف بسؤالهم عن حياتهم هناك وسبب نفيهم إلى الجزيرة ودوّن إجاباتهم. ثم قام بما يشبه بإحصاء للسكان في الجزيرة حيث جمع آلاف الكروت في كل منها معلومات كثيرة عن كل ساكن هناك. حذرت السلطات الكاتب من التواصل مع المعتقلين السياسيين إلا أنه لم يلتزم بالتحذير وواصل الاتصال بهم وتدوين المذكرات.

وعاد تشيخوف من هناك عبر البحر على باخرة اسمها

«بترسبورج». وزار أثناء رحلة العودة بلداناً عديدة، نذكر منها هونج كونج وسنغافورة وسيلان ومصر وتركيا.

وبعد العودة إلى موسكو قضى تشيخوف خمس سنوات في كتابة رائعته «جزيرة ساخالين» واعتمد فيها على انطباعاته أثناء رحلته إلى هناك. وقد ترك هذا الكتاب أثراً كبيراً في إبداعات تشيخوف فيما بعد.

شهدت الفترة من ١٨٩٠ - ١٨٩٥م صدور عدة قصص قصيرة له ومنها «قصة إنسان مجهول» و«العنبر رقم ٦» و«المبارزة». وعاش تشيخوف في تلك الفترة ما بين مدينة موسكو وما بين ضيعته في قرية ميليخوفو بالقرب من موسكو. وفي ضيعته تلك كتب تشيخوف ٤٢ عملاً أدبياً أهمها قصته الشعرية «الرجل المنطوي».

ويصور تشيخوف في كتاباته مشكلات الناس بواقعية، ويسعى إلى اتباع النهج الموضوعي في الحكم على الظواهر المختلفة. أما أبطاله فهم أناس معاصرون له، وينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع. أما البطل المفضل لديه فهو الإنسان البسيط الذي يعيش على هامش المجتمع، والذي يعيش داخل الإطار الذي حدده له المجتمع ولا يخرج أو يحاول الخروج عنه أي أنه يعيش في عالم محدد، وفي داخل شرنقة من نوع خاص. ويعرض الكاتب في أعماله لحياة أناس يمثلون مختلف طبقات المجتمع ومختلف المهن والوظائف، ويعرض لسمااتهم الخاصة سواء الظاهرية أو النفسية وأثبت بحثه أنه أستاذ قدير في التحليل النفسي ورسم السمات النفسية لكل أبطاله.

وفي عام ١٨٩٦م صدرت رائعته المسرحية «النورس» والتي نشرت للمرة الأولى في مجلة

«الفكرة الروسية» ثم تم تحويلها إلى عرض مسرحي لأول مرة في سان بطرسبورج عام ١٨٩٧م. وفي نفس العام نشر تشيخوف مسرحيته الثانية «الخال فانيا».

وفي عام ١٨٩٨م بنى تشيخوف منزلاً خاصاً به في مدينة يالتا بجزيرة القرم، وأصبح يقضى هناك معظم أوقاته. وفي عام ١٩٠٠م كتب تشيخوف مسرحية من أربعة فصول وهي «الأخوات الثلاثة» وعرضت على مسارح موسكو عام ١٩٠١م. وتزوج في العام نفسه من الممثلة المسرحية أولجا كنيبير، وكانت تعمل واحدة من كبار ممثلات مسرح موسكو، وتحت قيادة المخرج الروسي العظيم قسطنطين ستايسلافسكي.

وتُعد مسرحية «بستان الكرز» من أهم وأشهر مسرحيات الكاتب، وصدرت عام ١٩٠٤م وعرضت على مسرح موسكو أيضاً. وتعكس أحداث المسرحية حالة المجتمع الروسي قبيل حدوث التحولات السياسية والاجتماعية في بداية القرن. وقد جعل الكاتب من حياة عائلة روسية أرستقراطية نموذجاً لتصوير حياة المجتمع الروسي بأكمله.

وتُعد هذه المسرحية حتى يومنا هذا جزءاً أصيلاً في برنامج جميع المسارح الروسية، وتلقى نجاحاً هائلاً بين الجماهير حتى اليوم، ليس فقط في روسيا بل وترجمت إلى معظم لغات العالم. وفي الثاني من يوليو ١٩٠٤م توفي تشيخوف أثناء رحلته إلى المانيا للعلاج من مرض السل. ونقل جثمان الكاتب الروسي بالقطار، ودفن في موسكو في التاسع من يوليو ١٩٠٤م.

(١٠)

نيقولاي ستيبانوفيتش جوموليوف

(١٨٨٦ - ١٩٢١م)



ينتمي جوموليوف إلى شعراء العصر في الفضي في الأدب الروسي، وكان له الفضل في تأسيس مدرسة الذروة الروسية. كما عمل جوموليوف مترجمًا وناقِدًا أدبيًا ورحالة وضابطًا. وُلد في الثالث من أبريل عام ١٨٨٦م في جزيرة قريبة من بطرسبورج تسمى كرونشتاد. وينتمي الشاعر إلى عائلة أرستقراطية.

وكان أول أشعاره وهو بعد في السادسة من عمره، حيث قام بكتابة عدة أبيات عن شلالات نياجرا. وفي خريف ١٨٩٤م التحق بالمدرسة إلا أنه سرعان ما انسحب من الدراسة وانتقل إلى التعليم المنزلي بسبب مرضه المتكرر وضعف بنيانه.

وفي عام ١٨٩٥م انتقلت العائلة إلى مدينة سان بطرسبورج، وفي العام التالي التحق جوموليوف بمدرسة خاصة. في عام ١٩٠٠ اضطرت عائلته إلى السفر إلى القوقاز نظرًا لمرض أخيه بالسل. واضطر شاعرنا مرة أخرى إلى ترك المدرسة وهو في الصف الرابع. وهناك التحق بمدرسة بمدينة تفليسي ونشر أثناء دراسته بالمدرسة أول أشعاره بعنوان «لقد فررت من المجن إلى الغابة» في عام ١٩٠٢م.

وفي عام ١٩٠٣م عادت العائلة مرة أخرى إلى سان بطرسبورج، وواصل جوموليوف تعليمه في الصف السابع بالمدرسة القيصرية. وكان طالبًا سيئًا في الدراسة حتى إنه تعرض لخطر الفصل من المدرسة مرة لولا إصرار مدير المدرسة على منحه فرصة إضافية لعام آخر.

وقبل تخرجه من المدرسة بعام أصدر جوموليوف على نفقة عائلته ديوانه الشعري الأول. وقد كتب الشاعر الشهير حينها فاليري بريوسوف مقالًا نقياً مستقلاً عن الديوان. وعلى الرغم من أن مؤسس الرمزية الروسية لم يمدح جوموليوف إلا أنه اختتمها بجملة عبّر فيها عن خالص أمانيه للشاعر الشاب. ثم توطدت الصداقة بين الشاعرين، واعتبر جوموليوف بريوسوف أستاذًا له ومعلمًا في بداياته.

وفي عام ١٩٠٦م انتقل جوموليوف للعيش في باريس، حيث استمع إلى محاضرات عن الأدب الفرنسي بجامعة السوربون ودرس فن الرسم، وزار الكثير من المدن في أوروبا. وفي فرنسا

أصدر مجلة أدبية بعنوان «سير يوس»، وقد نشرت فيها أولى قصائد الشاعرة الروسية الشهيرة أنا أخماتوفا، كما زار جوموليوف المعارض الفنية، وتعرف على كثير من الكتّاب الروس والفرنسيين، وتعاون أدبياً مع الشاعر الكبير بريوسوف الذى ساعد تلميذه جوموليوف وتحدث عن موهبته في الدوائر والحلقات الأدبية. كما تعرف جوموليوف على كبار الشعراء الروس مثل زينايدا جيبوس ودميتري ميرجكوفسكي وانردية بيلي.

وفي أبريل ١٩٠٧م عاد جوموليوف إلى روسيا حيث استدعي للجيش. والتقى الشاعر الشاب عند عودته مع الشاعر بريوسوف ومع محبوبته الشاعرة الشهيرة أنا أخماتوفا. ثم توجه إلى مدينة سيفاستوبول ومنها إلى بلاد الشام في رحلة طويلة هي الأولى إلى هذه المنطقة. ولا توجد أخبار عن رحلته تلك سوء إشارة في إحدى المكاتبات بينه وبين الشاعر بريوسوف. كما أن هناك أقوالاً بأن جوموليوف سافر إلى أفريقيا في هذا العام أيضاً.

وفي عام ١٩٠٨م أصدر جوموليوف ديواناً شعرياً بعنوان «أزهار رومانسية». وقد استفاد من الأموال التى جناها من بيع هذا الكتاب بالإضافة إلى مساعدة مالية من والديه، وسافر مرة أخرى إلى الشرق، حيث زار تركيا واليونان ومصر. وفي القاهرة زار الأزبكية وكتب عنها. وهناك أنفق الشاعر كل ما لديه من مال واضطر إلى العودة مرة أخرى إلى بطرسبورج.

لم يكن نيقولاى جوموليوف شاعرًا فحسب بل وواحدًا من أهم الباحثين الروس في قارة أفريقيا. فقد قام بعدد من الرحلات الاستكشافية في منطقة شرق وشمال شرق القارة وأحضر منها عند عودته إلى وطنه مجموعة نادرة وقيمة من من المقتنيات أهداها إلى متحف الأنثروبولوجيا والأثنوغرافيا في مدينة سان بطرسبورج.

وفي عام ١٩٠٩م قام بالتعاون مع سيرجي ماياكوفسكي بإصدار مجلة مصورة تعنى بقضايا الرسم والموسيقى والمسرح والأدب وتحمل عنوان «أبوللو» وترأس فيها قسم النقد الأدبي ونشر فيها «رسائل في الشعر الروسي».

وفي عام ١٩١٠م أصدر جوموليوف ديوانه «الدرة» والذي يضم قصيدته الشهيرة «القباطنة». وقد نال الكتاب شهرة واسعة سواء من النقاد أو القراء. وفي العام نفسه تزوج الشاعر من الشاعرة أنا أخماتوفا بمدينة كييف الأوكرانية.

وفي عام ١٩١١م أسهم الشاعر في تأسيس «ورشة الشعراء». وضمت الورشة كلاً من أنا أخماتوفا واوسيب ماندلشتام وفلاديمير ناربوط وسيرجي جوروديتسكي وغيرهم. وكان الاتجاه الرمزي في تلك الفترة يعيش أزمة، وسعى الشباب من الشعراء إلى تجاوز هذه المرحلة الأدبية. ودعى إلى الاعتراف بالشعر كحرفة وقسموا الشعراء إلى صنفين محترفين وهواه. وكان جوموليوف يُعد من المحترفين والأساتذة بين جيله. وفي البداية لم يكن للورشة توجه أدبي معين إلا أنه وفي عام ١٩١٢م تم الإعلان عن ميلاد اتجاه جديد في الأدب وهو مدرسة الذروة والتي انضم

إليها أعضاء «ورشة الشعراء». ودعت مدرسة الذروة إلى دقة الكلمة والمادية وتصوير الموضوعات والشخصيات. وافتتح شعراء الذروة دار نشر خاصة، كما أسسوا مجلة أدبية. وعلى الرغم من الشهرة والنجاح الذي حققه جوموليوف إلا أنه كان دائماً ما يرى نفسه تلميذاً يحتاج إلى مزيد من التعلم والعمل على تطوير نفسه. فالتحق بكلية التاريخ والآداب في جامعة سان بطرسبورج، حيث درس فيها الشعر الفرنسي القديم وسرعان ما أصدر ديوانه الشعري «سماء غريبة» في عام ١٩١٢م.

وفي عام ١٩١٣م شارك جوموليوف في الحملة الاستكشافية الثانية إلى أفريقيا، وضمت بلدان أثيوبيا وجيبوتي وإريتريا وأرض الصومال. وعاد إلى روسيا عام ١٩١٤م غير أن طريق العودة كان شاقاً، وتوافق مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. وتم تجميد نشاط «ورشة الشعراء» وانلذت الخلافات الزوجية بينه وبين الشاعرة أنا اخماتوفا حيث أصيبت الشاعرة بالضجر من حياته البوهيمية التي اعتاد عليها قبل زواجه.

وتطوع جوموليوف في الجيش في نوفمبر ١٩١٤م وشارك في المعارك التي وقعت في جنوب بولندا. وأظهر شجاعة نال نظيراً لها وسام جريجوري الرفيع من الدرجة الرابعة وتمت ترقبته. وقضى الشاعر سنوات الحرب كاملة على الجبهة ونال عدة أوسمة، وكان ينتهز أية فرصة راحة بين المعارك لممارسة هوايته المحببة وهي الشعر. وفي سنوات الحرب صدرت له ثلاثة دواوين شعرية.

وفي الخامس من أغسطس عام ١٩١٨م تم الطلاق بينه وبين الشاعرة أنا اخماتوفا وكانا قد انفصلاً فعلياً منذ فترة، غير أنه قبل عام ١٩١٧م لم يكن من المسموح بالطلاق مع الاحتفاظ بحق الزواج مرة أخرى.

وفي عام ١٩١٩م تزوج جوموليوف من أنا نيقولايفنا انجيلجاردت وهي ابنة المؤرخ والأديب ن.انجيلجاردت. وخلال عام تم اختيار الشاعر رئيساً لفرع مدينة بيتراجراد في اتحاد الشعراء الروس. وتوطدت علاقته في تلك الفترة مع الكاتب الكبير ماكسيم جوركي. وعندما فكر جوركي في إصدار كتاب «تاريخ الثقافة المصور» ساعده جوموليوف وقدم له ثلاثة من مسرحياته للنشر في فصل الدراما بالكتاب.

وفي عام ١٩٢١م نشر جوموليوف ديواني «عمود الذهب» و«الخيمة». ويضم الأخير انطباعات الشاعر عن رحلته إلى إفريقيا وكان من المفترض أن يصبح جزءاً من «كتاب شرح الجغرافيا شعراً». وكان جوموليوف ينوي أن يصف بلدان العالم المأهولة بالشعر.

وفي ربيع ١٩٢١م ترأس جوموليوف استوديو إبداعي نقل من خلاله خبراته إلى شباب الشعراء وقرأ محاضرات عن الشعر. غير أن الشاعر لم يكن يخفي اتجاهاته وميوله الدينية، وكان ذلك أمراً مرفوضاً في الحقبة السوفيتية. كما أنه كان يتحدث أيضاً في آرائه السياسية. وفي إحدى

الأمسيات الأدبية وردًا على سؤال عن رؤيته للنظام السياسي الأفضل للدولة رد أنه يعتقد أن الملكية هي الأفضل.

وكان نتيجة ذلك أن تم اعتقاله في أغسطس ١٩٢١ بتهمة المشاركة في مؤامرة ضد الدولة. وحاول الأصدقاء من الشعراء التوسط لدى السلطات للعتف عنه دون فائدة. وتم إعدام الشاعر بالرصاص وإخفاء مكان الدفن. ولم يتم إعادة الاعتبار للشاعر سوى في عام ١٩٩٢م.

(١١)

أنا أندرييفنا أخماتوفا

(١٨٨٩ - ١٩٦٦م)



نشأة الكاتبة

تُعتبر أنا اخماتوفا من عظماء الشعر الروسي في القرن العشرين، ويطلق عليها أميرة الشعر الروسي في العصر الفضي. كما عملت اخماتوفا ناقدة أدبية ومترجمة. وُلدت في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٨٩م بمدينة أوديسا في أوكرانيا. وكان أبوها من النبلاء يعمل ضابطًا في أسطول البحر الأسود، كما أن أمها أيضًا تعود إلى أصول أرستقراطية.

في عام ١٨٩٣ انتقلت العائلة إلى مدينة سان بطرسبورج، حيث التحقت اخماتوفا بالمدرسة. وكانت مجدة في دراستها ولكن لم تكن نجاحاتها مبهرة. وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها تعرفت على زوجها في المستقبل الشاعر نيقولا ي جوموليوف، وكان حينها يستعد لإصدار أول ديوان شعري له.

وفي عام ١٩٠٥م تم الطلاق بين أبويها. وبقي الأب في بطرسبورج أما الأم فانتقلت مع أطفالها إلى القرم.

وفي عام ١٩٠٦م سافرت اخماتوفا إلى مدينة كييف لإنهاء دراستها، وعاشت هناك عند أقربائها، وهناك ظهر شغفها الشديد بالمسرح.

وفي خريف عام ١٩٠٨م التحقت بجامعة كييف بكلية الحقوق، وهو ما منحها في المستقبل إمكانية لتحقيق دخل مرتفع واستقلالية مادية. وقد كتبت اخماتوفا عن تلك المرحلة أنها استمتعت بمواد تاريخ القانون واللغة اللاتينية، في حين كانت تشعر بالملل من مواد القانون نفسها.

وفي تلك الفترة كان الشاعر نيقولا ي جوموليوف قد تقدم عدة مرات للزواج منها لكنها كانت دائمًا تقابل عروضه بالرفض حتى إنه حاول الانتحار لهذا السبب ثلاث مرات. وفي عام ١٩٠٩م اقترح جوموليوف مرة أخرى عليها الزواج فوافقت، وتم الزواج في ٢٥ أبريل عام ١٩١٠م بمدينة كييف.

وعاش الزوجان في قرية بوشكين تسارسكوي سيلو في الفترة من ١٩١١ - ١٩١٦م وكانا

يسافران في الصيف إلى مدينة نغير، حيث وُلد جوموليوف. وفي عام ١٩١٢م أصدرت الشاعرة ديوانها الأول بعنوان «الأمسية» وتجسدت فيه مبادئ مدرسة الذروة بوضوح. وسرعان ما لاحظ النقاد القدرات الهائلة لدى اخماتوفا وأهمها الخط الغنائي العاطفي العميق والتحليل النفسي الدقيق والشاعرية. وقد تميزت الشاعرة عن زملائها في مدرسة الذروة بحبها الشديد للإنسان والإيمان بقدراته الروحية وإمكاناته.

منهج اخماتوفا في الأدب

نشطت اخماتوفا في المشاركة في الصالونات الأدبية في بطرسوبرج حتى أطلق عليها أميرة العصر الفضي. كما أطلقت عليها الشاعرة الشهيرة مارينا تسفيتايفا لقب «أنا لعموم روسيا». وازدادت شهرة الشاعرة، وفي عام ١٩١٧م صدر لها ديوان جديد وشهدت تلك الفترة انفصالها عن زوجها الشاعر نيقولا ي جوموليوف.

وواصلت اخماتوفا الكتابة والنشر حيث صدرت دواوينها الجديدة «رفقاء السفر» و«انو دوميني» في عام ١٩٢١م غير أن أشعارها في تلك الفترة لم تكن تنفق، والروح الثورية السائدة؛ ولذا أخذ الكارهون للشاعرة يقللون من قيمة أشعارها، ويتحدثون عن نزعتها للتدين، وكان ذلك سبباً في قلة أعمالها في السنوات التالية.

واعتبر عام ١٩٢٥م عام «الوفاة المدنية» للشاعرة، حيث أصدر الحزب البلشفي مرسومًا «بسياسة الحزب فيما يتعلق بالأدب». فتوقفت دور النشر تمامًا عن طباعة أعمال اخماتوفا خلال السنوات من ١٩٢٥ - ١٩٣٩م. وكان ذلك بمثابة حكم بالموت على الشاعرة، ولم يسمح لها بالنشر سوى في عام ١٩٤٠م، حيث صدر ديوان لها بعنوان «من بين ست كتب». واضطرت اخماتوفا إلى ممارسة الترجمة حتى تنفق على متطلباتها الحياتية، حيث ترجمت أعمال ١٥٠ شاعرًا.

وقد تعرضت مدينة ليننجراد في سنوات الحرب العالمية الثانية إلى حصار من القوات الفاشية الألمانية، وعانت الشاعرة من هذا الحصار ثم تم ترحيلها إلى طشقند في أوزبكستان. وهناك كتبت الشاعرة قصيدة «الشجاعة» الشهيرة في فبراير ١٩٤٢م. كما تمكنت الشاعرة من إصدار ديوان جديد لها، وساعدها في ذلك الكاتب الروسي الكسي تولستوي.

ومع انتهاء الحرب عادت اخماتوفا إلى ليننجراد إلا أنه سرعان ما تعرضت الشاعرة مرة أخرى إلى هجوم أدبي من النقاد المرتبطين بالسلطة، حيث اعتبرت أشعارها غريبة على الشعب السوفيتي، وتم طردها من اتحاد الكتاب السوفيتي. وبقيت اخماتوفا دون مورد مادي يكفيها للمعيشة، كما تم تدمير كل نسخ أعمالها وكتاباتهما.

وبعد مضي خمس سنوات كاملة أعيدت عضويتها في اتحاد الكتاب، وبعدها بعدة سنوات تم منحها بيتًا ريفيًا صغيرًا في قرية كوماروفا القريبة من بطرسبورج، والتي كتبت فيه الشاعرة

الكثير من الأشعار الرائعة الغنائية والفلسفية.

وفي عام ١٩٦٢م صدرت قصيدتها الشعرية «صلاة الجنازة» والتي تحكي صفحات من زمن المعتقلات الحكومية والمعاناة التي عاشها الشعب الروسي. وقد نشرت القصيدة في البداية خارج الحدود الروسية عام ١٩٦٣م، ولم تنتشر في روسيا سوى عام ١٩٨٧م، وبعد أن توفيت. وفي عام ١٩٦٤م نالت اخماتوفا شهرة عالمية، حيث حصلت على جائزة إيتنا تاورمين الإيطالية في الأدب ثم في عام ١٩٦٥ على جائزة جامعة أكسفورد وشهادة الدكتوراة الفخرية من الجامعة. أما آخر ديوان صدر في حياة الشاعرة فكان بعنوان «ركض الزمن» (١٩٦٥م) وفي العام التالي توفيت الشاعرة الكبيرة، ودفنت بقرية كوماروفا بعد أن أصبحت المرأة الرمز للعصر الفضي في الأدب الروسي.

(١٢)

فلاديمير فلاديميروفيتش ماياكوفسكي

(١٨٩٣ - ١٩٣٠م)



نشأة الكاتب

يُعد ماياكوفسكي واحدًا من كبار الشعراء الروس في القرن العشرين، كما عرف ككاتب مسرحي وكاتب سيناريو وفنان. وُلد في يوليو ١٨٩٣م في جمهورية جورجيا لأب موظف.

وفي عام ١٩٠٢م التحق بالمدرسة ودرس أربع سنوات فقط حيث تُوفي أبوه في عام ١٩٠٦م وانتقلت العائلة إلى موسكو. وهناك واصل الشاعر دراسته في مدرسة تقليدية إلا أنه لم يستطع استكمال الدراسة لعجزه عن سداد المصروفات وتم فصله في عام ١٩٠٨م. وبعد ذلك تعرف الشاعر الشاب على عدد من الطلاب الماركسيين الذين كانوا يقومون بنشاط ثوري وأعجب بأفكارهم وأصبح عضوًا في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

وقد اعتقل ماياكوفسكي ثلاث مرات خلال عامي ١٩٠٨ - ١٩٠٩م وقضى في السجن ١١ شهرًا ونظرًا لكونه لم يكن قد أتم سن البلوغ بعد فقد تم العفو عنه. وفي السجن خطى ماياكوفسكي أولى خطواته في كتابة الشعر.

وفي عام ١٩١١م وبعد عدة محاولات للانضمام في أي معهد أو مؤسسة لتعليم الفنون التحق ماياكوفسكي بمدرسة الرسم في موسكو. وتعرف في تلك الفترة على كبار الفنانين والأدباء المستقبليين. وظهرت أولى أشعار ماياكوفسكي في عام ١٩١٢م حيث نشرت في مجلات الكتاب المستقبليين. وكانت أول قصيدة بعنوان «الليل».

وفي عام ١٩١٣م أصدر ماياكوفسكي أول جزء من سلسلة أشعاره بعنوان «أنا» والذي اعتبر أول ديوان شعري. ونسخ منه ٣٠٠ نسخة بخط اليد ومدعوم بالرسومات للفنان فاسيلي شيكريجين والفنان ليف جيجين.

وسرعان ما تم فصله من مدرسة الفنون عقابًا له على مشاركته في فعاليات خطابية عامة؛ ولذا

قرر الشاعر أن يطور الفن التكعيبي بين الجماهير، وسافر مع زملائه في رحلة عبر مدن روسيا. وأثرت الحرب العالمية الأولى في احتجاج ماياكوفسكي، فكتب عدة مؤلفات يفضح قسوة وبشاعة وعدم جدوى الحرب ونذكر منها «أنا ونابليون» وقصيدته الشهيرة «الحرب والسلام» (١٩١٥م). في عام ١٩١٦م صدر أول ديوان لأشعار ماياكوفسكي وفي عام ١٩١٧ نشرت قصيدته «الثورة والتطور التاريخي للشعر».

وقد بدأ الواقع الاشتراكي الجديد قريباً من ماياكوفسكي من الناحية الجمالية. فلم يكن للشاعر في الماضي أي مستقبل اجتماعي في ظل الوضع الحكم السابق؛ ولذا بدأ في مؤلفاته يدعو إلى نشر أفكار الشيوعية. وعلى الرغم من توجهه الشيوعي لم يعجب البلاشفة بإبداعاته وكتاباتة. حتى إن الزعيم فلاديمير لينين كتب مقالة انتقد فيها قصيدة ماياكوفسكي «١٥٠٠٠٠٠٠٠» (١٩٢١م) وفي تلك الفترة أظهر ماياكوفسكي قدراته وموهبته كفنان ورسام. ففي عام ١٩١٩م بدأ في كتابة الشعارات الدعائية ورسماها والتي بلغ عددها أكثر من ١١٠٠. وقد أطلق الشاعر على نفسه لقب «الشاعر العامل» الذي يسخر طاقته لخدمة الثورة.

في بداية العشرينيات ظهرت عناصر جديدة في إبداعاته حيث أصبح الشاعر عضواً في الجمعية الأدبية «جبهة اليسار» وهناك تعرف عن قرب على الشاعر بوريس باسترناك وسيرجي تريتنيكوف ونيقولاي اسيف وغيرهم. وجرب الشاعر نفسه في مختلف الأجناس والاتجاهات الأدبية وعمل أيضاً مراسلاً للعديد من الصحف، وكتب أشعاراً مختلفة ومنها للأطفال كما عمل في مجال الدعاية الصناعية والسياسية. وقام معرض باريس للفنون التطبيقية والجميلة بمنحه ميدالية فضية وشهادة تقدير.

وأخذ ماياكوفسكي يتردد على أوروبا حيث زار لاتفيا وفرنسا وألمانيا وعاد من هناك بأفكاره المعادية للبرجوازية.

وفي عام ١٩٢٥م قام بأطول رحلة سفر إلى أمريكا حيث زار كوبا والمكسيك وقضى في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاثة أشهر، وشارك هناك في مختلف الفعاليات الثقافية والأدبية وألقى العديد من المحاضرات. ولاحقاً أصدر ديواناً شعرياً بعنوان «إسبانيا والمحيط وهافانا والمكسيك وأمريكا».

وفي نهاية العشرينيات عمل ماياكوفسكي ككاتب مسرحي أكثر منه كشاعر. وشهدت تلك الفترة صدور أكثر المسرحيات الساخرة له ونذكر منها «الحمام». غير أن انتقاده وسخريته من عيوب المجتمع السوفيتي جلب على الشاعر متاعب وانتقادات شديدة حيث لم يرق لقادة الحزب ما فعله الشاعر، وظهرت في الصحف حملات للانتقام من الشاعر.

وحدث تحول في مصير الشاعر؛ لذا حظي في السابق بدعم السلطات وحياء رغبة حيث بدأت الاتهامات تنهال عليه بالكذب وخيائته للشيوعية، وتم عزله من معظم الجمعيات والمؤسسات

الإبداعية. وفي مارس ١٩٣٠م نظم ماياكوفسكي معرضًا بعنوان «٢٠ عامًا من العمل» حيث طرح فيه الكثير من أعماله. إلا أن المعرض لم يحظ بأي اهتمام سواء من رفقاءه السابقين أو من السلطات. كما بدأت المشاكل تنهال على الشاعر، ومنها الصحية، حيث فقد صوته. ومنيت مسرحيته الأخيرة «الحمام» بفشل ذريع، وهو ما أدى بالشاعر إلى الانتحار في أبريل ١٩٣٠م.



وُلد الشاعر الروسي الكبير سيرجي يسينين عام ١٨٩٥م بالقرب من مدينة ريزان. وقد انفصل الوالدان وهو بعد طفل في الثالثة من عمره، حيث سافرت والدته إلى مدينة ريزان للعمل وبقي هو مع جدته وجدته. وكانت جدته تحفظ الكثير من الأغاني والحكايات والأشعار ويعترف الشاعر أن جدته كان لها الفضل الأول في دفعه إلى الاهتمام بالشعر وكتابة أولى قصائده.

وفي عام ١٩٠٤م التحق يسينين بالمدرسة حيث أنهاها في عام ١٩٠٩م ثم التحق بالمدرسة الكنسية في ريزان. وفي عام ١٩١٢م سافر إلى موسكو حيث عمل أولاً في محل لبيع اللحوم ثم في مطبعة.

وفي عام ١٩١٣م التحق يسينين بقسم التاريخ والفلسفة مستمَعًا وهو قسم يتبع جامعة موسكو الشعبية. وكان يجمع بين الدراسة والعمل في المطبعة. وشهدت تلك الفترة لقاء الشاعر بالشعراء الأعضاء في الجمعية الأدبية الموسيقية.

وفي عام ١٩١٤م نشر أول أشعاره في مجلة «العالم الصغير». وفي عام ١٩١٥م انتقل يسينين إلى بطرسبورج حيث قرأ أشعاره على ألكسندر بلوك وسيرجي جوروديتسكي وغيرهما من كبار الشعراء.

وفي يناير ١٩١٦م تم استدعاء الشاعر إلى الجيش حيث عمل في قطار حرب - واستشفائي أي تابع للإمبراطورة الروسية ألكسندرا فيودوروفنا زوجة القيصر نيقولا الثاني.

وشهدت تلك الفترة تقاربًا بين الشاعر وشعراء القرية الجدد وأصدر أول ديوان شعري في عام ١٩١٦م وذاع صيته في روسيا. ونشط الشاعر في المشاركة في الفعاليات الثقافية وقراءة المحاضرات وأشعاره بما في ذلك في حضور الإمبراطورة ألكسندرا وبناتها. وعرف يسينين شاعرًا عاطفيًا رقيقًا ومرهفًا وأستاذًا في التحليل النفسي وتصوير الطبيعة وأفضل من تغنى بالقرية الروسية، وعالمًا في اللغة الروسية الشعبية.

وتوطدت العلاقة بينه وبين الشاعر أناتولي مارينجوف منذ عام ١٩١٨، وخلال العشرينيات.

حيث قاما سوياً بتأسيس المدرسة التصويرية في موسكو. وأصدر خلال تلك السنوات عددًا من الدواوين الشعرية أشهرها «اعترافات رجل متمرّد» و«أشعار مروج فضائح» و«بوجاتشوف» غيرها.

وفي عام ١٩٢١م زار الشاعر الأورال واورينبورج كما سافر إلى آسيا الوسطى إلى مدينتي طشقند وسمرقند. وألقى المحاضرات والأشعار في الأمسيات الشعرية ومنازل الأصدقاء.

وفي خريف العام نفسه تعرف الشاعر على الراقصة الأمريكية ايسدورا دونكاك وسرعان ما تزوجا وسافرا سوياً إلى أوروبا، حيث زارا ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ثم أمريكا. وبعد عودته نشر عددًا من المقالات عن أمريكا في صحيفة اذفيسيتيا. ولم يدم زواجه طويلاً.

لم يجد الشاعر نفسه في روسيا الجديدة، ولم يتفق وسياسات الحكومة البلشفية؛ ولذا تورط في عدد من المشكلات وتم القبض عليه من قبل الشرطة أكثر من مرة إلا أنهم كانوا يطلقون سراحه سريعاً لكونه شخصية شهيرة في المجتمع بوصفه شاعرًا شعبيًا مناصرًا للفلاحين. وعلى الرغم من حالته الصحية والمعنوية السيئة إلا أنه واصل الكتابة، وعمل على تطوير نفسه أكثر وأكثر.

وفي بداية العشرينيات شارك يسينين بنشاط في سوق النشر وبيع الكتب. حيث استأجر محلاً صغيراً في وسط موسكو، وأصبح يقضي معظم وقته هناك. ورغم ذلك استمر حرصه على السفر والترحال حيث سافر في ربوع روسيا وزار منطقة القوقاز ثلاث مرات وليننجراد عدة مرات.

وفي الفترة بين عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ زار يسينين جمهورية أذربيجان، ونشر هناك ديوانه الشعري «الشرق الجميل». وشهدت هذه الفترة انشغاقه عن المدرسة التصويرية بسبب خلافات حادة نشبت بينه وبين شريكه مارينجوف. وقام بكتابة إعلان عن حل الجمعية الأدبية. غير أن الشاعر ظل يعاني من أزمة نفسية وروحية لا سيما مع ظهور عدد من المقالات النقدية التي اتهمته بالإدمان على الشراب وافتعال الشجار والتصرفات غير المسئولة. كما اتهم بمعاداته للسامية وعبر عن ذلك في قصيدته «قضية الشعراء الأربعة». كما تسببت له قصيدة «الإنسان الأسود» في الكثير من المشكلات، وعبرت بجلاء عن معاناته ورفضه لمصيره الشخصي ومصير بلده.

وفي نهاية عام ١٩٢٥ انفقت زوجته الرابعة صوفيا تولستايا حفيدة الكاتب الروسي الشهير ليف تولستوي مع مدير مستشفى نفسي تابع لجامعة موسكو على إدخال زوجها المستشفى وعلاجه بها. غير أن يسينين فر من المستشفى خلال شهر وألغى كافة العقود التي وقعها مع دار النشر وسحب كل أمواله بالبنوك وسافر بعد يوم إلى ليننجراد حيث أقام في فندق إنجلترا.

وشهدت الأيام الأخيرة من حياة الشاعر لقاءات مع الأدباء في ليننجراد. وفي ٢٨ ديسمبر، وبعد وصوله بأسبوع فقط عثر عليه مشنوقاً في غرفته. انتحر الشاعر شنقاً باستخدام حزام حقيبتة. وكانت آخر قصيدة قبل موته بأيام إلى صديقه فولف ايرليخ يقول فيها «إلى اللقاء يا صديقي... إلى اللقاء». وقد اشتكى لصديقه من عدم وجود حبر في غرفته للكتابة؛ ولذا فقد كتب الأبيات الأخيرة

بسمه

(١٤)

مارينا ايفانوفنا تسيفتايفا

١٨٩٢ - ١٩٤١م

هناك بعض الكتّاب والشعراء في تلك الفترة لم ينضموا أو ينتموا إلى أي من المدارس الأدبية أو الجمعيات. ومنهم الشاعرة الروسية الكبيرة مارينا تسيفتايفا.



نشأة الكاتبة

تُعد تسيفتايفا شاعرة أصيلة من الشعراء الروس الكبار في العصر الفضي، كما اشتهرت بكونها مترجمة بارعة. ولدت في عام ١٨٩٢م في موسكو. والدها كان عالمًا في التاريخ والفنون والعمارة والآداب ومديرًا لمتحف الفنون الجميلة في موسكو. أما والدتها فتتحدّر أصولها إلى عائلة ألمانية بولندية. وكانت عازفة موسيقى. وقضت تسيفتايفا سنوات طفولتها في موسكو ثم في مدينة تاروس الصغيرة بالقرب من موسكو. وتلقت تعليمها الابتدائي في موسكو ثم واصلت دراستها في سويسرا. وألمانيا حيث اصطحبتها والدتها معها أثناء فترة علاجها في الخارج.

وبدأت الشاعرة في الكتابة وعمرها لا يتجاوز السادسة، حيث كتبت أول قصة بعنوان «الذين حلوا في المرتبة الرابعة»، كما ترجمت إلى الروسية دراما للكاتب الفرنسي غ. روستان بعنوان «الغزال الصغير» والتي تحدث عن مصير مأساوي لابن ناليون. غير أن كلاً من القصة والترجمة قد ضاعا ولم يتم العثور عليهما.

وفي عام ١٩١٠م نشرت تسيفتايفا على نفقتها الخاصة أول ديوان شعري بعنوان «الألبوم المسائي». وجذبت إبداعاتها القراء والنقاد وكبار الشعراء حينها ومنهم فاليري بربوسوف وماكسيميليان فالوشين ونيقولاي جوموليوف، وفي عام ١٩١٢ نشرت كتابها الثاني بعنوان «الفرار البديع» غير أنه تعرض لانتقادات.

وفي عام ١٩١٣م أصدرت ديوانها الثالث بعنوان «خلاصة كتابين». حيث انتقت بدقة نصوصًا

من بين ٢٣٩ نصًا يضمها كتابها الأولان، وانتقلت الشاعرة أربعين قصيدة فقط وأعدت نشرها. وذاع صيتها بشدة وكانت قد تعرفت في تلك الفترة على الأديب سيرجي ايفرون وتزوجا في عام ١٩١٢م وأنجبت منه طفلة.

لما اندلعت الحرب العالمية الأولى رأت فيها الشاعرة انفجارًا للكراهية ضد دولة ألمانيا العزيزة على قلبها. وكتبت أشعارًا عن هذا الحدث اصطدمت بالمشاعر الوطنية التي كانت تسيطر حينها على معظم الأدباء الروس.

كما رحبت الشاعرة بثورة فبراير ١٩١٧م أما ثورة أكتوبر ١٩١٧ فناهضتها الشاعرة وظلت على مدى ثلاثة أعوام ١٩١٧ - ١٩٢٠ تكتب شعرًا يدعم الجيش الأبيض ضد الأحمر. وقد ضمت هذه الأشعار لاحقًا في كتاب لم ينشر إلا عام ١٩٥٧. غير أن تمجيد تسفيتايفا للبيض لم يكن بدوافع سياسية إنما لأسباب روحية وأخلاقية. لم تتضامن الشاعرة أو تدعم الجانب المنتصر أي البلاشفة بل دعمت الطرف المحتم فشله وكان زوجها أيضًا بينهم. وقد كتبت قصيده أهدتها لزوجها بعنوان «الفراق» ١٩٢١. وقد فقدت الشاعرة في تلك السنوات ابنتها الصغيرة وكتبت أيضًا مرثية لها.

وفي يوليو ١٩٢١م تلقت تسفيتايفا خطابًا من زوجها يخبرها أنه هرب إلى تركيا ومنها إلى التشيك. وبعد عدة محاولات سمح للشاعرة بالسفر إلى خارج الاتحاد السوفيتي، وكان ذلك في مايو ١٩٢٢م.

وقضت الشاعرة في التشيك أربع سنوات وأنجبت ابنها جيورجي وأقامت علاقات مع الجمعيات الأدبية ودور النشر والمجلات. وصارت كتاباتها تنشر في مختلف دور النشر، ومنها «إرادة روسيا» و«على طريقتنا». كما اشتغلت الشاعرة في التحرير لبعض المجلات الأدبية.

وفي نهاية عام ١٩٢٥م قررت الشاعرة السفر إلى فرنسا. حيث اعتقدت أنها ستمكن بشكل أفضل من العمل وتحقيق نجاحات وتوفير حياة كريمة في باريس لها ولعائلتها، وكانت باريس حينها قد أصبحت مركزًا للهجرة من روسيا. وهناك تمكنت من كتابه «قصيدة العام الجديد» وتراجيديا «فيدرا». كما شهدت فترة إقامتها في فرنسا صدور عدة دواوين لها إهداء إلى كبار الشعراء الروس ومنها «إلى ماياكوفسكي» و«أشعار إلى بوشكين» و«أشعار لليتيم». كما جربت الشاعرة نفسها في كتابة النثر حيث كتبت سير ذاتية ومقالات عن بوشكين ومؤلفاته «بوشكين وبوجاتشوف» و«بوشكين الخاص بي»

غير أن انتقالها إلى فرنسا لم يخفف من صعوبة الحياة لا سيما وأن زوجها لم يكن من محبي العمل أو الكد والكفاح وكان يجنى القليل من المال، ولم تكن المكافآت التي تحصل عليها تسفيتايفا من الكتابة تكفيهم. وكانت الشاعرة غريبة على مجتمع الأدباء الروس المهاجرين حيث كان معظمهم يدور في فلك الأدب الروسي الكلاسيكي في حين كانت تسفيتايفا أكثر عاطفية وحماسة. فقد قيم الشعراء والكتاب المقيمون في باريس حينها (جيبوس واداموفيتش وايفانوف وغيرهم) إبداع

تسفييتايفا بشكل سلبي. وساعد على ذلك طبيعتها وشخصيتها المعقدة والصعبة في التعامل وسمعة زوجها

والإشاعات التي كانت تدور حول محاولاته للعودة إلى روسيا وانضمامه إلى اتحاد العائدين إلى الوطن بل وتعاونه مع المخابرات السوفيتية.

وفي النصف الثاني من الثلاثينيات عانت الشاعرة من أزمة إبداعية شديدة. حيث توقفت تقريباً عن كتابة الشعر باستثناء قصيدة واحدة بعنوان «أشعار عن التشيك» عبّرت فيها عن احتجاجها على احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا. وحدث خلاف شديد بين الشاعرة وعائلتها التي كانت ترغب في العودة إلى الوطن. وبعد تردد طويل غادرت مع أسرتها عائدة إلى روسيا السوفيتية عام ١٩٣٩ ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

غير أنه سرعان ما تم اعتقال زوجها وابنتها واعتبروا أعداء للوطن. ومنذ تلك اللحظة وأفكار الانتحار تراود تسفييتايفا، حيث لم تكن تتوقع أن تكون عودتها إلى الوطن على هذا النحو وتؤدي إلى هذه النتيجة. وانتقلت الشاعرة مع ابنها إلى بيت الأدياء في قرية جوليتسينو بالقرب من موسكو غير أن اتحاد الكتّاب رفض مساعدتها لوصفها زوجة وأمّاً لأعداء الوطن. ولم يتم طباعة الديوان الذي كتبه في عام ١٩٤٠ وعانت الشاعرة من نقص شديد في المورد. وكان دخلها شحيحاً من بعض التراجم، واضطرت إلى تلقي المساعدات من بعض الأصدقاء.

وبعد بداية الحرب في روسيا عام ١٩٤١ تم ترحيل الشاعرة وابنها من موسكو إلى مدينة صغيرة في تاتارستان. ولم تعثر على عمل هناك، وأخذ الابن يلومها فيما آلت إليه أحوالهم. ولما لم تحمل الخلافات وضيق العيش انتحرت شنقاً في أغسطس عام ١٩٤١م ومن غير المعروف المكان الذي دفنت فيه الشاعرة.



يعتبر بونين من كبار الشعراء والكتّاب الروس في القرن العشرين، ومن بين خمس شخصيات روسية حصلت على جائزة نوبل في الآداب. وُلد الكاتب في أكتوبر ١٨٧٠م بالقرب من مدينة فورونيج. وكان أبوه ضابطاً شارك في الدفاع عن جزيرة القرم. وبعد ميلاد بونين انتقلت الأسرة إلى محافظة أخرى تسمى أرلوف حيث قضى الكاتب طفولته.

ولم يلتحق الكاتب المدرسة إلا وعمره ١١ عاماً. أما قبلها فقد تلقى تعليمه بالمنزل على يدي والدته. وبقي في المدرسة خمس سنوات وكانت مدرسة داخلية. وتخرج فيها عام ١٨٨٦م وعاد إلى منزله حيث تولى تعليمه أخوه الأكبر يوليا. وانشغل بونين في تعليم نفسه ذاتياً واهتم بقراءة الأدب العالمي وكلاسيكيات الأدب الروسي. وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره بدأ في كتابة الشعر، وصدرت أولى أعماله عام ١٨٨٧م.

وفي عام ١٨٨٩م انتقل بونين إلى مدينة أوريول، وعمل مصححاً ومدققاً في صحيفة «أخبار أورولوف». وتعرف الكاتب على زميلته بالصحيفة وتقدم لخطبتها إلا أن والداها رفضا؛ ولذا تزوج منها سرّاً في عام ١٨٩٢م وسافرا إلى أوكرانيا. وكان قبلها قد تمكن من نشر أول ديوان شعري له في عام ١٨٩١م بعنوان «قصائد شعرية».

وفي عام ١٨٩٥م تعرف بونين على أنطون تشيخوف، وكانا قبلها قد تراسلا لمدة طويلة. كما تعرف في تلك الفترة على كل من ميروا لوخفيتسكايا وقنسطنطين بالمونت وفاليري بريوسوف. وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر سافر الشاعر كثيراً وزار العديد من المدن الروسية، حيث استقل باخرة تجوب نهر الدنيبير وزار ضريح الشاعر الأوكراني العظيم تاراس شيفشينكو، والذي كان يعشقه وترجم لاحقاً الكثير من أعماله.

وفي سبتمبر ١٨٩٨م تزوج من السيدة هانا نيقولايفنا تساكين ابنة الناشط الثوري والثري الأوكراني ن. تساكين. غير أن زواجهما لم يستمر طويلاً وتوفي ابنهم الوحيد بعد خمس سنوات

فقط من مولده. وفي عام ١٨٩٨م صدر ديوانه الشعري «تحت السماء المفتوحة». وفي عام ١٩٠٠ ظهرت أولى قصصه القصيرة بعنوان «تفاحات أنطون» وتعد من أعماله المميزة. في عام ١٩٠١م صدر له ديوان «تساقط الأوراق في الخريف» وفي عام ١٩٠٣م منح الشاعر جائزة بوشكين الأدبية. وواصل بونين ترحاله، حيث زار جنوب روسيا والقوقاز ثم زار فرنسا وسويسرا وإيطاليا وتركيا. وفي عام ١٩٠٩م تعرف الشاعر على السيدة فيرا نيقولايفنا مورومتسيفا، وسافر معها في العام التالي إلى فلسطين وسوريا ومصر.

وفي حين تناول بونين في قصصه المبكرة «على حافة العالم» و«تفاحات أنطون» حياة صغار طبقة النبلاء والذين بدعوا يعانون ويفقدون أملاكهم، فقد شهدت الفترة التالية تطورًا ونضجًا في موهبة الكاتب الذي أصبح الموضوع الرئيس في أعماله يدور حول دراماتيكية المصير التاريخي الروسي وتجسد ذلك بوضوح في أعماله «القرية» و«الوادي الجاف» ١٩١٠ و ١٩١٢ على التوالي.

وقد نال هذان العملان نجاحًا عظيمًا لدى القراء والنقاد، حيث أشار الكاتب الكبير ماكسيم جوركي إلى أهميتهما، وقال: إن بونين قد طرح قضية مصير روسيا ومستقبلها. اعتقد بونين أن القرية الروسية مهددة بالزوال والانهييار، وقد اتهمه البعض بأنه يعكس نظرة تشاؤمية وسلبية للحياة في القرية.

وفي عام ١٩١٠م سافر بونين مرة أخرى حيث زار في البداية أوروبا، ومنها انتقل إلى مصر وجزيرة سيلان. وفي خريف ١٩١٢م وحتى ربيع ١٩١٣م زار بونين مدن طرابزون والقسطنطينية وبوخارست. وانتقل إلى كابري في إيطاليا وعاش فيها حتى ١٩١٤م. وقد انعكست انطباعاته عن تلك الرحلات في أعماله الأدبية وخاصة في قصته «الإخوة» ١٩١٤م.

وفي العامين ١٩١٥ - ١٩١٦م أصدر مجموعات قصصية للكاتب وهي «السيد من سان فرانسيسكو» و«كأس الحياة» ويعرض بونين في أعمال تلك الفترة مأساوية الحياة للمصير التراجيدي والمحتوم الذي ينتظر الناس في روسيا والكراهية التي وصلت مداها بين الحضارات والتي تسعى لتدمير بعضها البعض. وأصبحت أعماله تدور في معظمها عن الموت والمصير وعادة ما ينتهي التصارع بين الشخصيات إلى القتل. ويرى بونين أن القيم الوحيدة الباقية في عالمنا المعاصر تبقى الحب والجمال والطبيعة. حتى الحب بين أبطال مؤلفاته نجده يحمل مسحة مأساوية ونهايته مؤلمة.

وقد استقبل ايفان بونين ثورة فبراير ١٩١٧م باستياء حيث تنبأ بالأحداث المأساوية التي ينتظرها الشعب الروسي، أما ثورة أكتوبر من نفس العام فقد عمقت في نفسه الثقة واليقين بقرب الانهييار. وقد كتب ما يشبه يوميات لتلك الأحداث ورؤاه وأفكاره حولها وصدر ذلك في كتاب يحمل

عنوان «أيام لعينة» (١٩١٨).. وقد أجبرت الأحداث الثورية بونين على الفرار من روسيا بصحبة زوجته. حيث سلكا طريقًا عبر كييف وأوديسا ثم بلجراد حتى وصل إلى باريس في مارس ١٩٢٠م.

وفي المهجر قام بونين بنشاط اجتماعي وسياسي فعّال وكبير، حيث كان يلقي المحاضرات، وتعاون مع المنظمات السياسية الروسية ذات التوجهات القومية والعودة للملكية. كما كتب بانتظام مقالات في الصحف. وفي عام ١٩٢٤م أصدر بيانًا يحمل عنوان «مهمة الروس في المهجر». وفيه أعطى بونين تقييمه الشخصي لما حدث في روسيا ورؤيته لشخص زعيم البلاشفة فلاديمير لينين. كتب بونين: «هذا الكائن الأحمق منذ مولده لينين أظهر العالم مكانًا موحشًا مخيفًا وأفقر أغني دولة في العالم وقتل ملايين البشر. وما زالوا هناك يتجادلون، ماذا كان هذا الشخص نعمة على الإنسانية أم نقمة».

وكتب بونين في أثناء إقامته في المهجر أروع إبداعاته شعرًا ونثرًا ونذكر منها «ضربة شمس» ١٩٢٤ و«حياة أرسينيف» ١٩٣٣ ومجموعته القصصية «الدروب المظلمة» ١٩٤٠م. ومثلت هذه الأعمال مرحلة جديدة في إبداعات الشاعر والكاتب بونين، وكذا في تاريخ الأدب الروسي بشكل عام. ورأى النقاد في قصته «حياة أرسينيف» واحدة من أروع المؤلفات في الأدب الروسي، وكذا ظاهرة في الأدب العالمي.

وفي عام ١٩٣٣م منح بونين جائزة نوبل في الأدب.

وقد عاش بونين سنوات الحرب العالمية الثانية في فرنسا وعانى فيها من الفقر والجوع إلا أنه لم يتعاون أبدًا مع النازيين، ولم يقد بنشر أي عمل خلال تلك السنوات.

وقضى بونين السنوات الأخيرة في حياته في باريس، حيث تعرض لمرض طال علاجه. وأخذ يحلم بالعودة إلى الوطن ورؤية موسكو من جديد إلا أن المرض لم يمهل، حيث توفي في الثامن من نوفمبر عام ١٩٥٣م.



الاسم الحقيقي للكاتب مكسيم جوركي هو الكسي مكسيموفيتش جوركي، وهو كاتب روسي بارز ومؤلف دراما وناشط اجتماعي. وُلد جوركي في مارس ١٨٦٨م بمدينة كانافينو بالقرب من مدينة نيجني نوفجورود. قضى سنوات طفولته في منزل

جده فاسيلي كاشيرين بعد وفاة أمه وأبيه. وتولت جدته أكولينا إيفانوفنا رعايته وأخذت تحكي له القصص والأساطير الشعبية والحكايات وقام جده بتعليمه القواعد الأولية في اللغة الروسية.

ولم ينل الكاتب حظه من التعليم حيث درس في مدرسة للحرفٍ وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره اضطر بسبب فقره إلى ترك المدرسة والعمل في محل وفي مخبز وفي غسيل الصحون على إحدى السفن، كما تعلم رسم الأيقونات وغيرها.

وفي عام ١٨٨٤م حاول جوركي الالتحاق بجامعة كازان إلا أن محاولته باءت بالفشل إلا أنه تعرف في تلك الفترة على الأدب الماركسي وأصبح يفكر بإمعان في ضرورة تغيير النظام العالمي. وبعد أربع سنوات وبسبب علاقته الوطيدة بالثوريين وضع تحت المراقبة من الشرطة.

وفي عام ١٨٨٨ عمل جوركي حارساً في محطة سكك حديدية في جنوب روسيا. وقد تركت هذه المنطقة انطباعات قوية في نفسه، وهو ما انعكس لاحقاً في كتاباته عن حياته «الحارس» و«في سبيل القليل من الممل»

وفي يناير ١٨٨٩م، وبناء على طلبه (قدم شكوي مكتوبة شعراً) تم نقله إلى محطة بوريسجلبيسك ثم إلى محطة كرواتيا وفي ربيع ١٨٩١م توجه جوركي في رحلة عبر روسيا. وفي الرحلة جرب الحياة في الكهوف وبين الرعاع، وعانى الجوع وعمل أجيراً في بعض الأوقات للحصول على المال، وهكذا عبر منطقة الفولجا كاملة سيراً على الأقدام، وكذا منطقة نهر الدون، كما زار أوكرانيا والقرم والقوقاز.

وبدأ جوركي مشواره الأدبي بالعمل في صحيفة محلية. ونشر فيها أولى أعماله، وكان يوقع

تحتها باسم مستعار، ولم يعرف باسمه الحقيقي سوى في عام ١٨٩٢م عندما نشر قصته «ماكار تشودرا» في صحيفة «القوقاز»

ثم عاد الأديب الشاب إلى نيجني تنوفجورود، واستطاع هناك أن ينشر قصصه القصيرة الرومانسية «العجوز ايزيرجيل» و«تشيلكاش» وعندها فقط أحس الكاتب بنفسه أديبًا حقيقيًا. وقد كتب جوركي معظم مؤلفاته المهمة في الفترة بين عامي ١٨٩٧ - ١٩٠١م. حيث ضمت هذه المرحلة صدور أعماله «أناس من الماضي» «مالفا» وفي عام ١٨٩٨م نشر الجزء الأول من أعماله الكاملة ثم رواية «فوما جوردييف» ومسرحية «في الحضيض».

انعكست في أعماله الروح الثورية التي سادت المجتمع الروسي وخاصة في رواية «الأم» التي صدرت في عام ١٩٠٦م. حيث وصف فيها الكاتب أناسًا عاديين من عامة الشعب ومعاناتهم في الحياة. واستطاع جوركي أن يظهر ويصور التوجهات الثورية التي تتنامى في المجتمع يومًا بعد يوم والحراك الديمقراطي وعدم قبول الشعب بسلطة القيصر، وهو ما منح جوركي شهرة عالمية.

وعاش جوركي بعد ذلك في إيطاليا وشهدت الفترة بن الثورتين في روسيا ١٩٠٥ - ١٩٠٧م بعض التغيرات على القناعات والرؤى السياسية له. حيث أخذ ينتقد سياسة البلاشفة بزعامة فلاديمير لينين. وانعكست فلسفته المناهضة للبلاشفة في روايته «الاعترافات» ١٩٠٨م. وعلى الرغم من ذلك انخرط جوركي عند عودته في عام ١٩١٣ في العمل محررًا في صحف البلاشفة «البرافدا» و«زفيزدا» كما عمل في صحيفة «التنوير» واشتغل في تلك الفترة في إعادة قصته «حكاية عن إيطاليا» ١٩١٢ - ١٩١٦م

كما انتهى جوركي في تلك الفترة من كتابة سلسلة من القصص القصيرة جمعها في كتاب سماه «في رحاب روسيا» وكذا قصصه في سيرته الذاتية «الطفولة» و«بين الناس» أما الجزء الثالث من هذه الثلاثية فكان اسمها «جامعاتي»، ونشرت في عام ١٩٢٣م.

ونشط الكاتب سياسيًا واجتماعيًا في عامي ١٩١٨ و ١٩١٩م، ولم يمنعه ذلك من انتقاد منهج الشيوعية العسكرية وعلاقة السلطة السوفيتية الجديدة بطبقة المثقفين القديمة. ونظرًا لكثرة نقاط الخلاف بينه وبين الشيوعيين في العديد من النقاط، وكذا نظرًا لمرضه الشديد بالسل اضطر جوركي إلى مغادرة روسيا وانتقل إلى إيطاليا في عام ١٩٢١م. وهناك أصدر روايته «قضية أرطامان»

وفي عام ١٩٢٨م دعت الحكومة السوفيتية للعودة، وكان ذلك بخطاب من الزعيم جوزيف ستالين نفسه، فسافر جوركي إلى روسيا السوفيتية في رحلة تركت انطباعات غنية في نفسه، وكتب عن ذلك في عدة مقالات أدبية بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٢٩م. وفي عام ١٩٣١م وبعد أن اقتنع بضخامة الإنجازات التي تحققت في عصر الاشتراكية قرر العودة إلى وطنه بشكل نهائي.

ونظرًا لمكانته الكبيرة على الساحة الأدبية كلفته الحكومة بتأسيس أول مؤتمر للكاتب السوفييت

والذى انعقد في موسكو عام ١٩٣٤م، وفي تلك الفترة أنهى الكاتب كتابه مسرحيات «يجور بوليتشيف وأخرون» ١٩٣٢، كما واصل عمله في كتابة روايته الشهيرة «حياة كلیم سامجين» وفي يونيو ١٩٣٦ تُوفي مكسيم جوركي، وتم دفنه بالميدان الأحمر.

(١٧)

لودميلا أوليتسكايا..

شاهدة على زمن التحولات في روسيا

تعتبر الكاتبة لودميلا أوليتسكايا ظاهرة فريدة في الأدب الروسي المعاصر. وعلى الرغم من الجوائز الأدبية العديدة التي حصلت عليها الكاتبة وكون مؤلفاتها تتمتع بانتشار واسع في روسيا ويعاد إصدارها مرات ومرات ويتم ترجمتها إلى مختلف اللغات، إلا أن أعمالها كثيرًا ما تتعرض لانتقادات أيضًا ليس فقط من الناحية الأدبية بل والأخلاقية أيضًا.



ولدت لودميلا يفجينيفنا أوليتسكايا عام ١٩٤٣م بجمهورية بشكيريا الروسية، حيث تم ترحيل أسرتها في سنوات الحرب إلى هناك. وقضت الكاتبة طفولتها المبكرة في مدينة دافليكانوفا إلى أن انتهت الحرب فعادت الأسرة مرة أخرى إلى موسكو.

وفي العاصمة التحقت لودميلا بجامعة موسكو الحكومية حيث اختارت أكثر الأقسام صعوبة وهو قسم علوم الجينات. وليس ذلك بغريب حيث كان أبواها يعملان في المجال نفسه. فقد كانت أمها ماريانا جينزبورج عالمة أحياء وكيميائية شهيرة. أما الأب يفجيني ياكوفليفيتش أوليتسكي فكان أستاذًا في العلوم التقنية وله عدة كتب ومؤلفات عن الميكانيكا والاقتصاد الزراعي.

وبعد أن أنهت دراستها الجامعية التحقت بالعمل بمعهد علوم الجينات العامة التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية واستمرت عامين فقط حيث أرغمت على الاستقالة من وظيفتها لما لوحظ عليها من الوله بالقراءة وإعادة نسخ الكتب الممنوعة يدويًا وهو الأمر الذي لم يكن مرحبًا به في تلك السنوات.

وكانت تلك اللحظة فارقة في مسارها الإبداعي حيث ظلت لودميلا بلا عمل لسنوات ثم التحقت بمساعدة أصدقائها للعمل رئيسًا لقسم الأدب في المسرح الموسيقي اليهودي. وكان من بين واجبات الوظيفة كتابة المسرحيات والسيناريوهات، وكذا نقد المسرحيات والعروض المسرحية. كما كانت

أوليتسكايا تقوم أيضًا بترجمة الأشعار من اللغة المنغولية وكان هذا أمرًا نادرًا. كان عملها يتطلب مهارة إبداعية كبيرة وقدرة على رؤية العالم المحيط بتفاصيله الصغيرة. ودفعتها الوظيفة إلى التفكير في أن يكون لها نشاطها الأدبي الإبداعي الخاص وبدأت أعمالها القصصية في الصدور منذ نهاية الثمانينيات.

نالت الكاتبة شهرة واسعة ككاتبة سيناريو بارعة. وكان ذلك بفضل كتابتها لسيناريو فيلمي «الأخوات ليبيرتي» و«امرأة للجميع». كما قامت بكتابة سيناريو لأفلام «الموت السهل» و«ملكة البستوني» و«مراسم دفن مرحة».

وصدرت أول مجموعة قصصية للكاتبة تحت عنوان «الأقارب الفقراء» في عام ١٩٩٣م باللغة الفرنسية. وبعد مرور عام واحد نالت ترجمة «صونيشكا» جائزة بوصفها الأفضل بين الكتب المترجمة. وقد نالت الكاتبة على هذه القصة جائزة ميديتشي. ثم منحتها إيطاليا جائزتها الأدبية التي تحمل اسم جوزيبي أتشيريبي.

وبلغ عدد الأعمال التي نشرت للكاتبة منذ ذلك الوقت أكثر من عشرة أعمال بما فيها الروايات والقصص والمجموعات القصصية والتي تم ترجمة الكثير منها إلى أكثر من ٣٠ لغة. وتعد لودميلا أوليتسكايا المرأة الأولى في روسيا التي تنال جائزة البوكر الروسية عن روايتها «قضية كوكونسكي» والتي تم تحويلها أيضًا إلى مسلسل. وما تزال الكاتبة تبذل إلى يومنا هذا.

وفي عام ٢٠٠٧م قامت لودميلا أوليتسكايا بتأسيس صندوق يحمل اسمها يهدف إلى تقديم الدعم للمبادرات الإنسانية. وشهدت الفترة من ٢٠٠٧ - ٢٠١٠م تقديم دعم مكثف من الصندوق لإصدار عناوين محددة من كتب الأطفال التي تتناول تفسير الاختلافات الثقافية والاجتماعية والإثنية بين مختلف الأمم. ونال هذا المشروع دعمًا من معهد التسامح الديني واثنين من كبريات دور النشر الروسية.

وقد جمعت الكاتبة في إبداعاتها بين القيم الرفيعة للأدب الروسي الكلاسيكي مع عناصر وأدوات أدب ما بعد الحداثة. ويمثل أدب ما بعد الحداثة ظاهرة أدبية عالمية فريدة يمثل مجموعة من التصورات الفلسفية والجمالية التي تعكس أزمة الإيمان والقبول بكل القيم السابقة. وينطلق من اتجاه «الحداثة» ويركز اهتمامه على تنوع وتعدد أوجه جمالياته. وهذا ما يبرر تسامحه في التعامل مع كل أشكال الأدب والفنون الأخرى بشكل عام. ويخلق أدب ما بعد الحداثة مزيجًا من جماليات الأدبين الجماهيري والنخبوي، وبذا يتسم بازدواجية التوجه. وتتسم نصوص ما بعد الحداثة بكونها ممتعة لكل من المثقف الراقى والقارئ العادي. أما اتجاه ما بعد الحداثة الروسي فيجمع بين المذهب العقلي الغربي والروحانية الشرقية، وهذا ما يميزه عن نظيره الغربي.

وتحمل إبداعات أوليتسكايا مؤثرات أدب ما بعد الحداثة ممزوجة بالتقاليد الكلاسيكية في الأدب الروسي. وقد لعبت وظيفة الكاتبة الأولى دورًا مهمًا حيث نراها تعشق التفاصيل الدقيقة وهو ما

يجعل وصفها لطباع الأبطال وعالمهم الداخلي مميّزًا.

وتجمع أوليتسكايا في إبداعاتها بين مختلف الأجناس الفنية، حيث يخرج العمل الأدبي فريدًا ومميّزًا. وربما المثال الواضح على ذلك رواية «المترجم دانيال شتاين» والتي تعد نموذجًا للتنوع الفني فهي رواية كولاج وكتاب سيرة ذاتية ووثائقي ولاهوتي.

وتمس إبداعات أوليتسكايا مختلف الموضوعات. وأغلب هذه الموضوعات تحمل طابعًا انطولوجيًا. كما يغلب موضوع العائلة في كتبها وغالبًا ما يرتبط بمشكلات الطفولة. وتؤكد الكاتبة في أعمالها على أهمية العائلة في المجتمع وتظهر ما يعاني منه المجتمع من افتقاد التفاهم بين الناس وغياب الوحدة الروحية بين الأقارب. حيث لم تعد الأسرة تمثل قيمة عند أبطال أوليتسكايا. وهذا ما نلاحظه جليًا في قصة «صونيشكا»

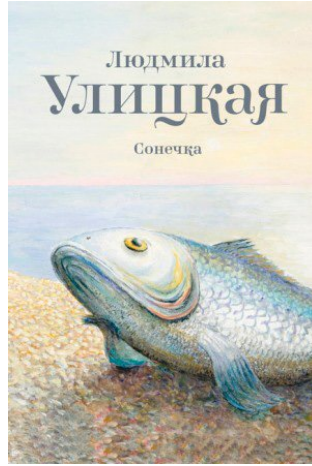
وفي الوقت نفسه تظهر أوليتسكايا وجهًا آخر محتملًا للحياة عندما تصبح العائلة درعًا وسندًا للإنسان. ويمثل ذلك الموضوع الرئيس لقصتها «الثاني من مارس من نفس العام» ويرتبط موضوع العائلة بموضوع الطفولة. ودائمًا ما يكون الحديث عن الطفولة مرتبطًا بسرد بيوغرافيا الأبطال. وهنا تكشف الكاتبة العالم الداخلي لأبطالها ويساعدنا ذلك على فهم سمات الشخصيات وأسباب سلوكياتهم. وتتنظر أوليتسكايا للقضايا العائلية من وجهه نظر اجتماعية، وكذا من منطلق تكوين الشخصية والعلاقات الإنسانية.

وتدور أحداث قصة «صونيشكا» حول فتاة شابة غير جميلة حادة الطباع وليس لديها أصدقاء، تقضي معظم وقتها في قراءة الكتب. وتضع البطلة نفسها مكان بطلات الروايات التي تقرأها فتعاني معهن عذابات الحب والخيانة ومتعة النجاح. ثم تلتحق بالعمل بمكتبة الحي فتقضي وقتًا أطول في القراءة - هوائيتها المفضلة الوحيدة.

وتمر السنوات وتنتهي الحرب والفتاة تلتهم الكتاب تلو الآخر ولا تفكر في حياتها الخاصة. إلى أن حدثت الصدفة التي غيرت حياتها. حيث التقت صونيشكا في المكتبة بفنان مغمور يدعى روبرت فيكتورفيتش. وكان يكبرها بسنوات كثيرة حتى إنها كانت تراه في الأيام الأولى من التعارف كأب لها. كان يبدو لها رجلًا حكيمًا طيبًا واعيًا. وفي المقابل نظر إليها روبرت كامرأة تصلح له زوجة مخلصه وقادرة على تأسيس عائلة. لم يكن يشعر تجاهها بأحاسيس الحب الجارف بل كان أقرب إلى الاحترام والمشاعر الطيبة. وتزوجا وسرعان ما أنجبا ابنتهما وكرست صونيشكا حياتها لعائلتها بالكامل. وسرت الحياة هادئة حتى التقى الزوج بفتاة تدعى ياسا استطاعت أن تسلب الرجل الحكيم عقله حيث أغرم بها وهو العجوز وعاود الرسم من جديد بفضلها. وعندما علمت زوجته صونيشكا بذلك لم تتألم كثيرًا فقد كانت تعي أنها تشغل مساحة معينة في حياة روبرت وكذا ياسا تشغل مساحة أخرى. وكان هذا الوضع يرضي الجميع.

وأصبح الزوج يقضي وقتًا أطول مع ياسا. وكبرت الابنة وانفصلت لتعيش بمفردها. أما

صونيشكا فعادت للقراءة مجددًا بالتدريج. ويموت الزوج فجأة فنقوم صونيشكا على تنظيم أمور الدفن وتحيط ياسا بعنايتها ورعايتها وتنظم معرضًا للوحات الزوج المتوفى. وتعود الحياة مرة أخرى لتتنظم وتنقضي أيام المعاناة وتغرق صونيشكا مرة أخرى في القراءة وفي عالمها الأدبي. وتنقضي أيامها بين الكتب التي تمنحها السعادة الكاملة. وهكذا تبدو الحياة الزوجية والعائلة كفترة مؤقتة ابتعدت فيها البطلة عن طريقها الأساسي في الحياة. أما الآن فلن تترك عالمها أبدًا.

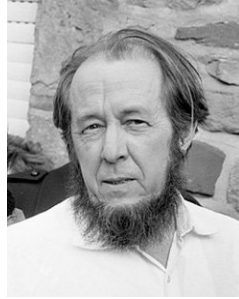


غلاف قصة «صونيشكا»

وتعترف أوليتسكايا أن كتبها الأولى صدرت في الخارج وليس في روسيا، حيث صدر كتابها الأول «الأقارب الفقراء» في باريس حيث كانت الأوضاع السياسية في روسيا حينها تحول دون إصدار كتبها في الداخل الروسي. وكان ذلك من مسببات شهرتها الواسعة، حيث تم إصدار كتبها في بلدان أوروبا كافة وترجمتها إلى لغات كثيرة.

ومن أهم الجوائز التي حصلت عليها الكاتبة جائزة بريز ميديتشي الفرنسية في عام ١٩٩٦م وجائزة البوكر الروسية عام ٢٠٠١م جائزة «كتاب العام» في ٢٠٠٤م وجائزة سيمون ديوبوفوار الفرنسية ٢٠١١م وغيرها.

وهكذا يمكن القول إن أوليتسكايا كانت شاهدًا على العصر ومراقبًا دقيقًا للتحويلات التي شهدتها المجتمع الروسي في العقود الثلاثة الأخيرة.



عرف الأديب الروسي الكبير ألكسندر سولجنيتسين والحاصل على جائزة نوبل في الآداب في عام ١٩٧٠ بكونه شاعرًا، وكاتبًا اجتماعيًا، ورجل سياسة، وألف العديد من الكتب، التي تتناول تاريخ روسيا، وطوال الحقبة السوفيتية كانت أعماله ترمز للحرية، والنضال ضد السلطة السوفيتية. على الرغم من ذلك فقد شارك الكاتب في الحرب العالمية الثانية، ونال عددًا من الأوسمة. غير أنه - وبسبب إحدى الرسائل المريبة - تم الاشتباه به ورُجَّح به إلى السجن، وظلَّ صامتًا لفترة طويلة إلى أن قرر الحديث، وسرد ما رآه من أهوال في معتقلات ستالين، وكيف كان يزج بالآلاف من البشر إلى هناك ليلقوا حتفهم.

نال سولجنيتسين احترامًا واسعًا من النخبة المثقفة في روسيا. وحتى بعد اتهامه بالعداء للشيوعية، وترحيله خارج البلاد، ظل يحظى بسمعة كبيرة. وواصل الكاتب إبداعاته في أوروبا، ونال في تلك الفترة جائزة نوبل في الآداب. وقد اعترف في أحد كتبه، أنه لم يكن يتصور أن تطبع مجموعة مؤلفاته الكاملة يومًا ما في روسيا. كان سولجنيتسين عدوًا للشيوعية، دائم الانتقاد لها، غير أنه أثناء إقامته في أوروبا، كثيرًا ما انتقد الديمقراطية أيضًا. لم يكن مُعجبًا بسياسة الغرب، وكان يرغب في العودة إلى وطنه متى سمحت له الظروف بذلك. وما إن قام جورباتشوف بتطبيق سياسة البيروسترويكا أو إعادة البناء، حتى تم السماح له بالعودة إلى الوطن، حيث مُنح جائزة الدولة.

وقد صدرت أولى إبداعات سولجنيتسين في عام ١٩٦٢ بعنوان: «يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش»، وجلبت له شهرة واسعة. ثم سرعان ما صدرت قصصه القصيرة «حادثة على محطة كوتشيتوفكا» و«زأخار كاليتا» و«حوش ماتريونا». إلى ذروة الاهتمام بإبداعات الكاتب في روسيا، فكانت في الفترة بين عامي ١٩٨٨ - ١٩٩٤م. طُبعت كتبه في تلك الفترة بالملايين. غير أن الاهتمام به خفت كثيرًا في السنوات التي سبقت وفاته وما بعدها. وقد اعتبر سولجنيتسين

أن أهم عمل في حياته هو الرواية الملحمية «العجلة الحمراء».

ويرى **سولجنتسين** أن روايته تلك، استغرقت منه حياة كاملة، قضاها في دراسة فترة بدايات القرن العشرين، حاول فيها ألا يغفل أي واقعة أو تفصيلا تاريخية في تلك الفترة. وقد طُبعت الرواية بالإنجليزية في البداية، وكان ذلك في عام ١٩٧٢، في حين لم تصدر الطبعة الروسية إلا في عام ١٩٩٣م.

تحكي روايته «**عنبر السرطان**» عن الفترة التي قضاها الكاتب في العلاج من مرض السرطان في أحد مستشفيات **طشقند** في عام ١٩٥٤. أما الأبطال الرئيسيون في العمل، فهم مرضى عنبر السرطان، الذين تجمعوا من أطراف البلاد المختلفة، وينتمون إلى طبقات اجتماعية متباينة. ويدور الموضوع الرئيس للرواية عن كفاح الإنسان ضد الموت. ويتناول الكاتب فكرة أن الناس المصابين بمرض يهدد حياتهم لا يفقدون الأمل الأخير في الشفاء، وهم أكثر عزمًا وقدرة من الأصحاء. وقد تم نشر الرواية مباشرة في الغرب، فيما لم تنتشر في روسيا إلا في عام ١٩٩٠.

أما قصته الشهيرة «**يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش**»، التي جلبت له شهرة عالمية، فقد أطلق عليها في البداية عنوان «**ش ٨٥٤**». ويحكي **سولجنتسين** في قصته تلك، عن أحداث يوم واحد من حياة معتقل سوفيتي، وهو الجندي **إيفان دينيسوفيتش شوخوف**. وللمرة الأولى يستطيع القارئ السوفيتي، التعرف على الوضع داخل معتقلات **ستالين**، من خلال عمل أدبي موضوعي. وبعد أن قرأت القصة صرحت الأديبة الروسية **أنا أخماتوفا**: أن كل مواطن سوفيتي يجب ألا يكتفي بقراءة هذه القصة، بل ويحفظها عن ظهر قلب. وقد تم ترجمة رائعة **سولجنتسين** هذه إلى أربعين لغة، كما تم تحويلها إلى فيلم في أوروبا.

أما «**أرخبيل الجولاج**» - الرواية - السيرة الذاتية الشهيرة، فقد استغرقت ١٠ سنوات كاملة لكي ينتهي منها. وقد صدر الجزء الأول منها في عام ١٩٧٢ في باريس. وتتضمن الرواية مذكرات، وخطابات، وقصص المعتقلين في معسكرات **ستالين**، وشهادات أقاربه، فضلًا عن الخبرة والتجربة الشخصية للكاتب. ولم تنتشر الرواية كاملة في روسيا إلا في عام ١٩٩٠. إلا أن هناك خلافًا بين النقاد حول هذه الرواية، كما هو الحال تجاه الكاتب نفسه في السنوات الأخيرة. وفي عام ٢٠٠٨ تم تحويل الرواية إلى فيلم يحمل عنوان: «**التاريخ السري لأرخبيل الجولاج**».

اتسمت إبداعات الكاتب دومًا بطرح القضايا الملحمية الشاملة، واستعراض الأحداث التاريخية بأعين شخصيات رواياته الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، وإلى جبهات سياسية متباينة. كما اتسم أسلوبه باستخدام الإسقاطات إلى الإنجيل، وكثرة استخدام الأساليب الملحمية في السرد، وكذا استخدام الرمز. ونادرًا ما يعبر الكاتب عن رأيه الشخصي في أعماله، بل يطرح في الغالب صدامًا لوجهات نظر مختلفة بين أبطاله. ومن السمات المميزة لأعماله أيضًا استخدام الوثائق بشكل مكثف، كما أن أغلب أبطاله واقعيون أو أنهم يجسّدون أشخاصًا حقيقيين أو من

أصدقاء الكاتب، ومعارفه. فالحياة بالنسبة إليه رمزية، ومتعددة الأوجه أكثر منها خيال أدبي أو فني. ونجد مثلاً في روايته «العجلة الحمراء» استخدام الكاتب للوثائق بشكل مكثف، فضلاً عن شيوع السمات المميزة لأدب الحداثة، وهو الأمر الذي اعترف به الكاتب فيما بعد. أما فنياً، فقد تأثر كثيراً بالفكر الفلسفي للأديب الكبير ليف تولستوي.

كما اهتم **سولجنتسين** كثيراً باللغة الروسية وراثتها، وعرف عنه استخدام الألفاظ النادرة التي سبق أن استخدمها الأدباء الروس القدامى، وكذا تلك التي تستخدم في الحياة اليومية، وعمل على تنحية الألفاظ الأجنبية، والدخيلة على اللغة الروسية، وطرح ألفاظاً روسية أصيلة بدلاً منها.

أما عن حياة **سولجنتسين**، فقد وُلد في ١١ ديسمبر ١٩١٨م بمدينة **كيسلوفودسك**. وفي عام ١٩٣٦ التحق بمعهد الفيزياء والرياضيات بمدينة **روستوف**، وأنهى دراسته فيه في عام ١٩٤١. كما التحق أثناء دراسته بجامعة **موسكو** للفلسفة والأدب والتاريخ (دراسة عن بُعد).

وعلى الرغم من بنيانه الجسماني الضعيف، فقد حرص **سولجنتسين** على الالتحاق بالجيش، والمشاركة في الحرب دفاعاً عن وطنه. وفي عام ١٩٤٢، وبعد قضاء فترة التدريب في مدرسة المشاة أرسل إلى الجبهة، حيث شارك في القتال، وحصل على عدة أوسمة، منها: وسام النجمة الحمراء. ولم يتوقف **سولجنتسين** طوال هذه الفترة عن الكتابة.

وفي إحدى رسائله إلى صديقه **فيتكفيتش**، انتقد **سولجنتسين** سياسة **ستالين** و«التفسير المغلوط للنظرية اللينينية»؛ وكان ذلك سبباً في اعتقاله في عام ١٩٤٥، والحكم عليه بالسجن لمدة ثماني سنوات.

وفي عام ١٩٥٢، تم اكتشاف إصابته بمرض السرطان، وكانت تلك محنة وتجربة قاسية، وفي تلك الفترة استعاد **سولجنتسين**، الذي نشأ شبيوعياً مُلحداً إيمانه بالله وبالدين. لم يكن العلاج كافياً للتغلب على آلام المرض، والشفاء منه، فبدا له أن الدين والإيمان أقوى من الأيديولوجية؛ نظراً لأنه يصارع الشر في داخل الإنسان، ويتغلب عليه، في حين تنتشر الثورات الشرور والآلام. وقال الكاتب قولته الشهيرة: «إن الحدَّ الفاصل بين الخير والشر، لا يمر ما بين دول ولا طبقات اجتماعية، ولا بين أحزاب، بل عبر قلب كل واحد منّا».

وفي عام ١٩٥٣ تم نفيه إلى جمهورية **كازاخستان** السوفيتية استكمالاً للعقوبة، وعمل **سولجنتسين** مدرساً، ثم انتقل للعلاج من مرض السرطان في مدينة **طشقند** عاصمة جمهورية **أوزبكستان** السوفيتية حينها. وفي عام ١٩٥٦ نال عفوًا، وعاد مرة أخرى إلى روسيا.

وقد تناول الكاتب سنوات السجن الطويلة في مؤلفاته «**لوبي الثورة**» و«**في الدائرة الأولى**» و«**يوم من حياة إيفان دينيسوفيتش**» و«**الدبابات تعرف الحقيقة**» وغيرها.

وبعد عودته إلى روسيا اختار مدينة **ريزان** للإقامة، حيث عمل في مدرسة محلية، وواصل الكتابة. وفي عام ١٩٦٥ استولت السلطات السوفيتية على أرشيف الكاتب، وتم حظر نشر مؤلفاته.

في عام ١٩٦٧ بعث الكاتب برسالة مفتوحة إلى اتحاد الكتّاب السوفييت، كان من نتيجتها أن اعتبر **سولجنتسين** معاديًا للدولة، ومصدر خطر على استقرارها.

وفي عام ١٩٦٨ أنهى **سولجنتسين** العمل من كتابة روايته «**أرخبيل جولاج**»، وتم تهريب كتابين آخرين وهما «**عنبر السرطان**» و«**في الدائرة الأولى**» إلى الخارج، حيث صدرا في أوروبا.

وفي عام ١٩٦٩م تم طرد **سولجنتسين** من اتحاد الكتّاب السوفييت. وبعد صدور روايته «**أرخبيل الجولاج**» في ألمانيا في عام ١٩٧٤، تم القبض عليه، ونفيه إلى ألمانيا.

وقام الكاتب خلال الفترة بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٩٤ بزيارة ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا. وفي عام ١٩٨٩ صدرت «**أرخبيل الجولاج**» للمرة الأولى في روسيا.

وفي عام ١٩٩٤ عاد **سولجنتسين** إلى وطنه روسيا، وواصل الكتابة. وصدرت مجموعة مؤلفاته الكاملة في ٣٠ جزءًا في عام ٢٠٠٦. وتوفي الكاتب في الثالث من أغسطس عام ٢٠٠٨.

عاش **سولجنتسين** حياة أدبية مديدة. وعلى مدى عقود طويلة قضاها في الكتابة والتأليف، كانت مواقفه دومًا تتسم بالحسم، وعدم المهادنة تجاه مختلف القضايا في تاريخ روسيا وحاضرها؛ ولذا فقد كان الكاتب يفقد عددًا من مناصريه كل عام، ويكتسب آخرين أيضًا.

وكانت له رؤيته الخاصة تجاه حالة الأدب الروسي المعاصر، حيث قال: «فترات التحول الجذري المتسارع لم تكن قط فترات محبذة للأدب. فإنتاج الأعمال الكبيرة يتم دائمًا وفي كل مكان في أوقات الاستقرار، سواء كان استقرارًا جيدًا أم رديئًا. وليس الأدب الروسي الحديث استثناء من ذلك. والقارئ المثقف اليوم أكثر اهتمامًا بالكتابات غير الخيالية. ومع ذلك، أعتقد أن العدالة والضمير لن يغيبا عن الأدب الروسي كمؤسسة، بل سيبقيان ليكونا في خدمة تنوير أرواحنا وتعميق فهمنا».

ورغم بقاءه في الغرب لعقود طويلة، فإنه رفض الإيمان بعقيدة الغرب، كما فعل الكثيرون غيره من أدباء روسيا المنشقين، حتى إنه لم يتردد في مهاجمته بشدة في كثير من المواقف. ففي خطابه أمام طلاب وأساتذة جامعة **هارفارد الأمريكية** عام ١٩٧٨ وصف **سولجنتسين الولايات المتحدة** بالدولة التي تعاني خواءًا روحيًا، وتعيش واقعًا ماديًا فجًا. كما صرّح أن الأمريكيين يعانون من افتقاد الشجاعة، وبرر ذلك بقلة عدد الأشخاص المستعدين للموت في سبيل أمريكا، كما أدان تخاذل أمريكا حكومة وشعبًا في **فيتنام**.

وعلى الرغم من وفاته قبل عشر سنوات، فإن إبداعاته ما زالت تثري عقول الكثيرين، ولا يزال الجدل حوله دائرًا بين من يعتبره مناضلاً ووطنياً، وبين من يعتبرونه خائنًا للوطن.

ومن أقواله المأثورة: «لا أستطيع القول إن مؤلفاتي جميعها كان الهدف منها أن أكتشف للغرب

ما يدور لدينا في الشرق. لقد هدفت منها إلى استعادة الحقيقة حول ما يدور في بلادي، وكنت أضع نصب عيني بني وطني فقط. كان ذلك بمثابة الحل بالنسبة إليّ. ينبغي أن يحدث تغيير. ذاك التغيير الذي يسمح لي بنشر كتابي «أرخبيل الجولاج» كاملاً، وعلى نطاق واسع».



وفقاً لتقرير اليونسكو عن أكثر الأدباء مبيعاً في القرن العشرين، جاء الأديب القيرغيزي جنكيز أيتماتوف في المرتبة الثالثة بعد كلٍّ من شكسبير وتولستوي.

ويوافق شهر ديسمبر عام ٢٠١٨ مرور تسعين عاماً على ميلاده في عام ١٩٢٨. ويُعتبر أيتماتوف أحد أهم وأعظم الأدباء السوفييت. ورغم أن معظم الموضوعات التي تناولها، كانت مُعركةً في المحلية والقومية، فإنها لقيت انتشاراً واسعاً، وذاع صيتها في أنحاء الاتحاد السوفيتي كافةً، وفي سائر دول العالم.

أفنى أيتماتوف سنواتٍ طويلةٍ من شبابه بحثاً عن موضوعاته، وأبطاله، وأسلوبه الخاص به في السرد والقص. وقد لوحظ في إبداعاته المبكرة كونها دراميةً للغاية، تناول فيها موضوعاتٍ معقدةً، وقدم حلولاً مختلفة للمشكلات المعاصرة له.

وقد جلبت له قصته «جميلة» شهرة واسعة عالمياً؛ حيث تمت ترجمتها إلى لغاتٍ كثيرة. كما حصل في عام ١٩٦٣ على جائزة الدولة على قصته «حكايات الجبال والسُّهوب». وشهدت إبداعاته في فترة الستينيات حتى الثمانينيات من القرن العشرين، صدور العديد من الأعمال الرائعة له مثل «وجهها لوجه» و«المعلم الأول» و«الأرض الأم» وغيرها.

ولعل أشهر أعمال جنكيز أيتماتوف رواية «ويطول يوم أكثر من قرن»، التي طبعت مرات عديدةً، وتُرجمت إلى لغاتٍ كثيرة. تدور أحداث الرواية عن الأمّ وعاطفتها القوية تجاه أبنائها. تعاني البطلة من فراق ابنها، وتسعدُ أيما سعادةٍ عندما يقضي لحظاتٍ قليلةً بالقرب منها وتتلمسه لثوانٍ قليلة. الفكرة الأساسية في الرواية هي التضحية بالنفس، وألم الفراق مع الابن، الذي لا يطويه النسيان مهما طال الزمن. ويتناول الكاتب في روايته أحداثاً واقعية تختلط بأخرى خيالية، تتمثل في الاتصال بإنسان من كوكب آخر... ويتولد لدى القارئ انطباعٌ أن تحقيق التفاهم مع سكان الكوكب

الأخر هو أمر أيسر وأسهل من تحقيق التواصل والتفاهم مع بني البشر.

ويُعاود أيتماتوف الكتابة في الخيال العلمي في منتصف التسعينيات من خلال قصة «تافرو كاساندر»، التي تدور أحداثها حول خلق أناس صناعيين. أما باقي أعماله فكلها واقعية. وكانت الواقعية في الاتحاد السوفيتي اشتراكية المنحى، فيما كانت في أعماله شديدة التشاؤمية. فأبطاله واقعيون، يحيون ويعانون في واقع الأمر، ولا يصورهم مثلما يفعل سابقوه بكونهم بناءً للمجتمع الاشتراكي.

وعرف أيتماتوف بحبه للمرأة، فكثيرًا ما تغنى في أعماله بجمالها، وكان على دراية واسعة بشخصية المرأة؛ ولذا فقد وصف المرأة بصدق، ووصف نماذج لشخصيات أنثوية، ففي قصته «جميلة» تبدو المرأة القوية، وفي قصته «حوريتي في منديل أحمر» تبدو البطلة أسيل رومانسية وفي «الأرض الأم» تبدو البطلة تولجاناي حكيمة، وقد فقدت في الحرب أبناءها، ولكنها حافظت - رغم ذلك - على جمال روحها.

وفي كل رواية وقصة له، يرسم شخصية البطلة التي تضيء روح وقلب البطل الرئيس. كما كان للمرأة دور مهم في حياة الأديب أيتماتوف نفسه. فقد تعرّف على زوجته الأولى كيريز شامشيبايفا أثناء فترة الدراسة بالمعهد الزراعي. كانت الفتاة تدرس في معهد الطب، وكانت هي أيضًا تهتمّ بالأدب، وبعد أن أصبحت طبيبة معروفة، انتقلت للعمل في وزارة الصحة الكيرغيزية، وأنجبت لزوجها طفلين. وفي نهاية الخمسينيات، صادف أيتماتوف أهم حب في حياته وهي راقصة الباليه بيوبوسارا بيشيناليفا، وبدأت القصة في ليننجراد، واستمرت العلاقة أربعة عشر عامًا. ولم يتمكن من الزواج، حيث لم يكن باستطاعته كشيوعي الطلاق من زوجته للزواج من فنانة مشهورة، يتوق الكثير من رجال الدولة للارتباط بها.

وقد عبّر الكاتب عن هذه المعاناة في أعماله الأدبية، حيث كان يعاني من ضرورة الاختيار بين زوجته وحبيبته، وهو ما ورد على لسان بطله الرئيس، في «وداعا يا جولساري». وفي روايته «و يطول يوم أكثر من قرن»، يقع البطل في عشق أرملة صديقه. وتوفيت حبيبته بيوبوسارا في عام ١٩٧٣ بعد صراع طويل مع مرض السرطان. وبعد مرور اثنتي عشرة عامًا على وفاتها، كتب أيتماتوف «اعترافات نهاية القرن»، واعترف فيه صراحة عن حبه هذا.

وكانت الزوجة الثانية لأيتماتوف هي ماريا اورماتوفنا. وأنجبت لزوجها طفلين، وكان قد سبق لها الزواج ولديها طفلها من زوجها الأول.

وقد تمت طباعة أعمال جنكيز أيتماتوف في أغلب دول العالم، وكانت إبداعاته مادة لآلاف الأبحاث والدراسات الأدبية والرسائل العلمية؛ فاهتم الباحثون بدراسة أسلوب الكاتب، وسمات أبطال أعماله، وتطور موهبته الإبداعية. ويمكن القول إن جنكيز أيتماتوف قد وُحِد بين مختلف شعوب العالم. ترجمت أعماله إلى مائة وست وسبعين لغة، وطبعت في مائة وثمانين وعشرين

دولة، وبلغ عدد النسخ الموزعة من أعماله أكثر من مائة مليون نسخة؛ ولهذا فقد اعتبرته منظمة اليونسكو ثالث أكثر الكتاب مبيعًا في تاريخ الأدب العالمي بعد شكسبير وتولستوي. ورغم مرور عشرة أعوام على رحيله، فإن أثره لا يزال قويًا على شعبه، وعلى الإنسان في العالم؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى قرب شخصيات أبطاله من قلب القارئ، وتفوح كتاباته النثرية بأفكار الإنسانية، والحب لكل ما هو حيّ، سواء أكان بشراً أم حيواناً أم نبات، وللكوكب والعالم بأسره.

حصل أيتماتوف على جائزة لينين وثلاث جوائز دولة أخرى، وكذا جائزة نهر الدولية. وفي عام ٢٠٠٧ حصل على أعلى وسام تركي، ورشح لجائزة نوبل في عام ٢٠٠٨ إلا أن المنية قد وافته.

وفيما يلي نتوقف عند أهم المحطات في سيرة الكاتب، حيث وُلد في الثاني عشر من ديسمبر ١٩٢٨، في عائلة شيوعية بقرية شيكير كارابورينسكي بجمهورية كيرغيزيا السوفيتية. وفي عام ١٩٣٥ انتقلت الأسرة إلى موسكو العاصمة، حيث كان الأب يعمل في وظيفة مرموقة بالحزب الشيوعي. وبعد عامين، وبسبب الاشتباه في معاداته للشيوعية، تم القبض على والده ونفيه إلى مدينة فرونزي عاصمة جمهورية كيرغيزيا، ومن ثمّ إعدامه في عام ١٩٣٨. كما تم التضيق على والدته.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، تم استدعاء جميع الرجال للحرب، ومنهم أيتماتوف الذي لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره بعد. وبعد انتهاء الحرب واصل دراسته والتحق في عام ١٩٤٨ بالمعهد الزراعي العالي في كيرغيزيا.

وبدأ أيتماتوف رحلته الإبداعية في عام ١٩٥٢، حيث كتب قصة قصيرة تحمل عنوان «بائع الصحف دزويدو». وبعد انتهاء دراسته بالمعهد في عام ١٩٥٣، واصل الكتابة باللغتين الروسية والكيرغيزية، وتم طباعة أعماله في الصحف والمجلات المحلية في كيرغيزيا.

وفي عام ١٩٥٦ قرر أيتماتوف مواصلة دراسته، وسافر إلى موسكو، حيث التحق ببرامج دراسة عليا في الأدب والنقد. وفي أثناء ذلك ظل يكتب، حيث صدرت أولى قصصه «وجهًا لوجه» في عام ١٩٥٧ في مجلة «آلا - تو». وفي العام نفسه صدرت قصته الرائعة «جميلة»، التي جلبت له شهرة واسعة، وقد ترجمت الرواية إلى الفرنسية، وصدرت الترجمة قبل النسخة الروسية.

وأنهى الكاتب دراساته الأدبية في عام ١٩٥٨، وكان قد أنهى كتابة قصتين بالإضافة إلى العديد من القصص القصيرة. وصدرت أولى روايات الكاتب في عام ١٩٨٠.

وفي منتصف الثمانينيات دشّن الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف لسياسة جديدة تعتمد المكاشفة والمصارحة وإعادة بناء الدولة، وأصبح من الممكن أن يتناول الأدباء مشاكل البلاد.

وتناول أيتماتوف في كتاباته ما اعترى المجتمع السوفيتي من ظواهر سلبية جديدة عليه، مثل إدمان الشباب للمخدرات، والفساد وعن الدين والإيمان، ورجال الدين، وغير ذلك.

وقد عانى جنكيز أيتماتوف من مرض السكر في سنوات عمره الأخيرة، إلا أن حياته تميزت بالنشاط ووفرة الإبداع. وفي عام ٢٠٠٨ توفي أيتماتوف عن عمر بلغ الثمانين عامًا، وكان قبلها بأيام متواجدًا بمدينة كازان لتصوير فيلم وثائقي عن روايته «ويطول يوم أكثر من قرن»، وأصيب بوعكة شديدة، وتم نقله إلى ألمانيا، وتوفي هناك، واحتشد جمعٌ كبير لدرجة وقوع العديد من الإصابات أثناء وداع الجثمان. ثم نقل جثمان أيتماتوف ليُدفن في موطنه الأصلي في ضواحي مدينة بيشكيك الكيرغيزية، وقد اختار الكاتب هذا المكان بنفسه وهو الموقع نفسه الذي دفن فيه أبوه قبل عقود. وكان الموقع عبارة عن مقبرة جماعية دُفنت فيها مائة وثمانين وثلاثين جثة، أطلق عليهم النار، وكان منهم والده المتهم من قبل السلطات حينها بمعاداة الشيوعية.

وهكذا انتهت حياة كاتب، استطاع أن يفرض نفسه وبقوة على خريطة الأدب السوفيتي الضخمة، رغم انتمائه إلى بلد صغير، وتمكن بفضل عبقريته الفذة من مجابهة كبار العقول في عصره، ومحاكاته لكبار الفلاسفة والمفكرين، كاتب امتزج في أعماله الروحي والنفسي والإنساني، والواقع بالأسطورة؛ ما تميز إبداعاته بسحر فريد، شهد به كلُّ من حالفه الحظ بقراءة أعماله.

شهدت الستينيات من القرن الماضي ظهور جيل من شباب الكُتّاب الروس شكلوا ظاهرة أدبية فريدة. وضم هذا الجيل كلاً من: مارك مكسيموف وجيورجي فلاديموف وأناتولي بريستافكين وأناتولي جلاديلين وفاسيلي أكسيونوف في النثر وكل من: يفجيني يفتوشينكو وأندريه فوزنيسينسكي وروبرت روجديستفينسكي في الشعر.

وصور هؤلاء الأدباء في كتاباتهم نموذجًا جديدًا للبطل في الأدب وهو الشاب في مقتبل حياته والذي يسعى لمجابهة الواقع ورفضه في بعض الأحيان.

وقد وصف النقاد هذه المجموعة من الأدباء بالأدباء الستينيين وأدبهم «بالأدب الشاب». وقد مثلت كتاباتهم ثورة في الأدب الروسي حيث كان البطل شخصًا ثائرًا يحتج على الواقع المحيط وعلى القوانين السائدة وعلى النمط الرتيب في الحياة وعلى الذوق العام والعادات. وتجسد ذلك في تصوير مظهر البطل، واهتماماته بالثقافات الأخرى، وولعه بالموسيقى الغربية، ونظرته التشاؤمية للقيم الفكرية والأخلاقية السائدة بين الجيل الأكبر حتى وصل الأمر إلى إنكارهم لهذه القيم إجمالاً.



يعد الكاتب فاسيلي أكسيونوف من رواد هذا الجيل وربما هو الاسم الأبرز بين ممثلي هذا التيار. ذاع صيته شرقًا وغربًا وعاصر سنوات التحولات الكبرى في روسيا. ولد أكسيونوف بمدينة كازان عام ١٩٣٢م، وكان أبوه يعمل عمدة للمدينة وكان أخوه يعيش في مدينة ليننجراد، واستشهد أثناء الحصار. وقد تعرض والداه للقمع من جانب السلطات وتولى عمه رعايته بعد أن قضى سنوات في ملجأ للأطفال «أعداء الشعب». وعلى الرغم من المعاناة والظلم التي تعرض لهما والداه إلا أن أكسيونوف لم يهاجم السلطات أو يتخذ مواقف معارضة سياسيًا، بل تجلت روح المقاومة فيه من خلال أسلوبه وسلوكه المتحرر.

وكان اختيار أكسيونوف لمهنة الطب عملاً بنصيحة والديه حتى ينجو من السجن والنفي؛ ولذا فقد التحق بكلية الطب جامعة كازان إلا أنه تم فصله من الجامعة بسبب الحكم على أبويه. وسافر إلى موسكو حيث نجح في إعادة التسجيل ثم انتقل إلى معهد الطب بجامعة ليننجراد. وكان من المفترض أن يعين طبيباً على سطح باخرة إلا أنه حرم من الحصول على الوظيفة بسبب تهمة والديه أيضاً على الرغم من العفو عنهما وإعادة الاعتبار إليهما. وسافر الطبيب الشاب للعمل في الشمال الروسي.

وفي عام ١٩٥٨م نشرت أولى أعمال الكاتب في مجلة «الشباب» ثم تلتها في ١٩٦٠م روايته «الزملاء» والتي أصبح بفضلها كاتباً معروفاً. ويعد هذا الكتاب أول عمل جاد للكاتب حيث استخدم فيه موتيف «الطريق» بشكل ظاهر، حيث يقرر بطل القصة الخريج الجامعي أن يسافر للعمل في قرية نائية فيما يسافر أصدقاؤه للعمل على ظهر سفينة في بحر البلطيق. وهكذا يصور الكاتب رحلة حج أبطاله بحثاً عن فكرة أو فلسفة ما جديدة في الحياة، أو مثال رومانسي، وهو بمثابة هروب من الواقع اليومي إلى مكان يمكن أن يعيش الإنسان فيه حياته الكاملة.

ونجد الفكرة نفسها تمثل محور قصته «تذكره إلى النجوم» ١٩٦١م حيث يسافر البطل مع رفاقه في رحلة لمدة غير معلومة. يفر الأبطال من واقعهم الاجتماعي، ويحاولون العثور على فضاء خيالي وحرية كاملة ولو مؤقتة.

وأثارت كتاباته في الستينيات («تذكره إلى النجوم» و«البرتقال المغربي» و«حان الوقت يا صديقي. حان الوقت») ردود فعل رافضة من جانب السلطات. وتعرض الكاتب للتهميش والتضييق ورفضت دور النشر طباعة أعماله.

وفي قصته «النصر» ١٩٦٥م تدور الأحداث في كابينة قطار حيث يلتقي البطل بأحد الأشخاص في القطار ويحاولان قتل الوقت بلعب الشطرنج. ومن خلال رقعة الشطرنج يصور الكاتب لوحة لمصير الإنسانية، وهو رمز شاع تداوله بين الكتاب في تلك الفترة كما في فترات أخرى. وفي عام ١٩٦٨م انتهى الكاتب من قصته الشهيرة «أكياس التغليف المكسدة» وتعكس بجلاء مبادئ التيار الأدبي الجديد. ومرة أخرى يبتعد الكاتب عن المنحى الواقعي التقليدي. وقد اتسمت إبداعات الكاتب منذ بداياته بعدم الالتزام بالسمات التقليدية في الواقعية. حيث ينحو الكاتب إلى الاستفادة من أدوات اتجاه ما بعد الحداثة.

وفي عام ١٩٧٥م كتب روايته «حرقه» ومنعت الرواية من النشر حيث اتهم بأنه كاتب غير سوفيتي. وفي عام ١٩٧٩م كتب روايته «جزيرة القرم» ولقيت المصير نفسه. وساهم الكاتب في نفس العام في إصدار مجلة أدبية معارضة لا تخضع للرقابة الأدبية وكانت تصدر في أمريكا وسميت «ميتربول». وكان الكاتب قد ذاع صيته في روسيا والعالم وكان يحظى باحترام الكتاب الموالين للسلطات السوفيتية. إلا أن إصدار مجلة «ميتربول» والانتقادات التي وجهت إليه بسببها

وانسحابه من اتحاد الكتاب السوفيت احتجاجًا على فصل زميله: فيكتور يروفيف ويفجيني بوبوف، كان سببًا في سفره في عام ١٩٨٠م إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وبمجرد وصوله علم أنه وزوجته قد حرما من الجنسية السوفيتية.

واستقر الكاتب في واشنطن حيث عمل بالتدريس بالجامعات الأمريكية. وفي أمريكا أصدر روايته «**صغار البيض**» في عام ١٩٨٩م والتي كتبها بالإنجليزية ثم قام بنفسه بترجمتها إلى الروسية. كما أصدر كتابًا بعنوان «**بحثًا عن حبيبي الحزين**» ١٩٨٧م تناول فيه انطباعاته عن الحياة في أمريكا. وفي ١٩٩٢م صدرت الثلاثية الشهيرة «**الخرافة الموسكوفية**». وتصور الرواية أكثر الأحداث المأساوية في التاريخ الروسي المعاصر خلال الفترة من بداية العشرينيات إلى بداية الخمسينيات من القرن الماضي وأهمها الحكم الشمولي ومعسكرات الاعتقال والحرب ضد الفاشية. وفي عام ١٩٨٩م زار الاتحاد السوفيتي، وفي العام التالي أعيدت إليه الجنسية ولكنه لم يعد إلى الوطن مباشرة بل انتقل إلى فرنسا في نهاية ١٩٩٠م وكان دائم السفر إلى موسكو لكنه لم يعد نهائيًا إلى الوطن إلا عام ٢٠٠٧م. ومن مؤلفاته في المهجر أيضا رواية «**الطبيعة الورقية**» و«**عشر سنوات من الدسائس**» كما ألف عدة مسرحيات نذكر منها «**آه يا أرتور شوبنهاور**» وفي عام ٢٠٠٤م نال جائزة بوكر عن رواية «**الفولتيريون والفولتيريات الجدد**» ثم نال في العام التالي وسام الدولة للأدب والفنون في فرنسا.

يقسم النقاد مسيرة أكسيونوف الإبداعية إلى عدة مراحل أساسية. المرحلة الأولى تمثل الفترة بين عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٨م وكانت تلك الفترة التي واكبت مرحلة «**ذوبان الجليد**» في الاتحاد السوفيتي وقام أكسيونوف بكتابة قصصه الشبابية الواقعية التي تعكس حياة السوفييت وجاءت كتاباته في معظمها يسيطر عليها لغة الوعظ والوصايا والقصص الغنائي المنسجم مع الأفكار الديمقراطية في تلك الفترة. ثم بدأت مرحلة أخرى في إبداعات الكاتب استمرت منذ ١٩٦٨ - ١٩٨٠م وشهدت تلك الفترة تركيز الكاتب على استخدام السخرية في كتاباته، وتوجه إلى الاتجاه الطليعي في الأدب، وانتقد السياسات السوفيتية في اجتياح تشيكوسلوفاكيا وكذلك الحكم الشمولي، والذي تغول أكثر في نهاية الستينيات. وتبدأ المرحلة الثالثة في الطريق الإبداعي للكاتب في عام ١٩٨٠ وحتى قبيل انهيار الاتحاد السوفيتي وتحديداً حتى عام ١٩٨٩م واستمر فيها الكاتب في انتقاده للحكم الشمولي ولكن لوحظ في تلك الفترة تأثر الكاتب بتواجده في المهجر؛ فظهرت الموضوعات والموتيفات الغربية وخاصة الأمريكية. وكانت المرحلة الأخيرة في إبداعاته والتي بدأت في عام ١٩٨٩م وحتى وفاته، حيث عاد الكاتب إلى روسيا في نهاية الثمانينيات وأعاد نشر كتبه التي كانت ممنوعة سابقاً، وصدرت له العديد من الأعمال التي تعكس رؤيته للواقع الروسي الجديد بعد انهيار السلطة السوفيتية.

وقد احتفل باليوبيل الماسي للكاتب في عام ٢٠٠٧م وتم في العام نفسه تنظيم مؤتمر دولي

ومهرجان موسيقي باسم الكاتب وحضره أشهر كتاب وشعراء روسيا والعالم. وأصيب الكاتب في عام ٢٠٠٨م بسكتة دماغية ونقل إلى المستشفى قضيّ عامًا ونصف في إجراء جراحات حرجة تحت الرعاية المركزة حتى وافته المنية في السادس من يوليو ٢٠٠٩م.

ويعرف أكسيونوف بأنه أول من أدخل مفردات غريبة إلى اللغة الروسية في الستينيات مثل «الجينز» و«الجاز» وغيرها. كما يحسب للكاتب أنه مثل جسرًا إبداعيًا بين عصر «نوبان الجليد» الذي وعد به خروشوف وبين حاضره. ولعل أشهر ما قيل عنه هو عبارة الكاتب الروسي يفجيني بوبوف «كما خرج الأدب الروسي الكلاسيكي من معطف جوجول، فإن الأدب المعاصر في روسيا قد خرج من سترة جينز أكسيونوف.»

في ذكرى مرور مائة عام على مولده

الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف...

شاعر الحب والجبل الأول في روسيا

تحتفل روسيا هذا العام بمئوية الشاعر رسول حمزاتوف؛ حيث أعلن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ٢٠٢٣ عامًا للاحتفال بمئوية حمزاتوف.

كما تحتفل جمهورية داغستان الروسية - البلد الذي نشأ فيه الشاعر وإحدى جمهوريات وأقاليم روسيا الحدودية التي تقع في الجنوب في منطقة القوقاز - بهذه المناسبة، واعتُبر هذا العام عام رسول حمزاتوف في داغستان؛ حيث سيشهد تنظيم برنامج حافل من الفعاليات والمؤتمرات التي تُخلد ذكراه، وتتناول إبداعاته بالدراسة والبحث، وحيث سيتم قراءة أشعاره وأغانيه على مسارح وقاعات ومدارس الجمهورية، وفي عدد من المدن الروسية الكبرى أيضًا، وسيُطلق اسمه على عدد من شوارع المدن، ويعاد ترجمات أعماله إلى مختلف اللغات، وسيتم تنظيم مسابقة رسمية حكومية كبرى لإحياء تراثه.

ويرجع السبب في هذا الاهتمام الكبير والتقدير العظيم لشخصية رسول حمزاتوف؛ نظرًا لكونه يتمتع بشخصية نادرة وملهمة وشاملة متعددة المواهب والقدرات، كان لها تأثيرها ليس فقط على سكان موطنه الأصلي داغستان؛ بل وعلى روسيا والعالم أجمع.

فشاعرنا هو أديب سوفيتي وروسي عظيم، وشخصية عامة مؤثرة، ينتمي إلى قومية الأفار القوقازية، وهو بطل من أبطال الاتحاد السوفيتي السابق، وحائز على جائزتي الدولة، وملقّب بشاعر الشعب في جمهورية داغستان، وحاصل على أعلى وسام روسي.

وُلد رسول حمزاتوف في عام ١٩٢٣ في داغستان، في قرية تسادا الجبلية الصغيرة. والده، الشاعر والمترجم حمزة تساداسا، الرجل الريفى الأصل الذي عُرف هو أيضًا بكتابة الشعر والقصص الخرافية، وتُرجم حكايات ألكسندر بوشكين إلى لغة قومية الأفار. كان رسول حمزاتوف الابن الثالث في الأسرة، وبدأ في كتابة الشعر عندما كان طفلًا في التاسعة من عمره، وكان والده أول معلم له في الشعر.

وفي عام ١٩٣٩ تخرّج حمزاتوف من المدرسة الثانوية، وعُين مدرسًا بها، لكنه لم يمكث هناك لفترة طويلة. وبعد عام التحق بمسرح المدينة، وتم قبوله كمساعد مخرج، وكان يقوم بدور الملحن للممثلين على المسرح، وفي بعض الأحيان كان يؤدي بنفسه بعض الأدوار الصغيرة. كان المسرح يجوب البلاد، وسنحت الفرصة للشاعر الصغير للتعرف على مختلف القرى والمدن المحيطة، وكان يقرأ أشعاره على سكانها وعلى طلاب المدارس فيها.

وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية نُشر حمزاتوف أعماله في صحيفة «بلشفي الجبال»؛ حيث أبدع قصائد عديدة عن بطولات الجنود على الجبهة، وأعد مقالات ودوّن ملاحظات، وتحدّث عن أبطال الحرب من داغستان. وفي عام ١٩٤٢ بدأ العمل في الإذاعة، وكان محرراً إذاعياً. وقّع قصائده الأولى بلقب «تساداسا»، لكنه استعان لاحقاً باسم والده «حمزة» ليصبح هو نفسه لقباً له. وكانت أولى المجموعات الشعرية له قد صدرت في عام ١٩٤٣ عندما كان عمره ٢٠ عاماً فقط، ونُشر الكتاب بلغة المؤلف الأصلية، الأفارية. وأطلق على هذا الديوان اسم «الحب الناري والكراهية المحرقة»، وضم الديوان عدداً كبيراً من القصائد عن الحرب.

وفي عام ١٩٤٥ التحق رسول حمزاتوف بمعهد جوركي للأدب في موسكو، ولاحظ الشاعر انجذابه للعاصمة أكثر من ارتباطه بالدراسة. كان قد نشر كتابه الأول بالفعل، وكان الفضل في تعليمه مهارة كتابة الشعر يرجع لوالده في المقام الأول. وبعد مُضي بعض الوقت في الدراسة بالمعهد، شُغل بدراسته مرة أخرى بعد أن تعرّف بشكلٍ أفضل على الأدب والتاريخ والثقافة الروسية، وتعمّق في الدراسة، وزار المسارح. وداوم على حضور المحاضرات التي كان يلقيها كُتاب بارزون وعلماء لغة، منهم: الشاعر والمترجم بافيل أنتوكولسكي، والنقادان سيرجي رادتسيغ وجينادي بوسبيلوف؛ حيث درس على أيديهما قواعد التأليف، وتاريخ الأدب، وتبادلوا خبراتهم، وساعده في نشر أعماله.

وخلال دراسته، التقى حمزاتوف بالشاعرين نعوم غريبنيف وياكوف كوزلوفسكي، وأصبحوا أصدقاء مقربين. قام غريبنيف وكوزلوفسكي لاحقاً بترجمة قصائد حمزاتوف إلى الروسية، ونشرت هذه القصائد في عام ١٩٤٨ في كتابٍ يحمل عنوان «أرضي»، وكان هذا الكتاب هو أول إصدار لقصائد حمزاتوف باللغة الروسية، وبعد مُضي عام، وفي عام ١٩٤٩ نشرت دار نشر «الحرس الفتي» بموسكو ديوانه الجديد بعنوان «أغاني الجبال». ولقي الديوان استحسان النقاد، وأعدت المجلات الأدبية والصحف نشر مقتطفات وقصائد كاملة منه.

وبعد تخرّجه من المعهد عاد حمزاتوف إلى داغستان، وحتى أثناء دراسته كان يتردد على قريته لزيارة والديه، وذات مرة وقع في حب فتاة وقرر الزواج منها. كانت باتيمات يوسوبوفا تُقيم في قرية مجاورة، وكان يعرفها منذ الطفولة، وقد تزوجا عام ١٩٥١.

وفي نفس العام أصبح رسول حمزاتوف رئيساً لاتحاد كُتاب داغستان، وانخرط في العمل الاجتماعي، وساعد الكُتاب على نشر الكتب، ودرّس للمؤلفين الشباب ودربهم على كيفية التواصل مع دور النشر ومحرري الصحف.

ونُشرت العديد من قصائد حمزاتوف لأول مرة في داغستان بلغة الأفار، ثم نشرت بعد ذلك في موسكو بالروسية. وتتميز أعماله بالإخلاص والصدق العاطفي، فضلاً عن الإحساس بالارتباط القوي بالوطن، وتقاليد شعراء الأفار.

وفي عام ١٩٥٨ تم نشر قصيدة «بنت الجبال»، وقد أثار المؤلف في هذا العمل موضوعات مهمة تتعلق بالعادات الجبلية التقليدية والمواقف تجاه المرأة. وكانت الشخصية الرئيسية في القصيدة هي فتاة داغستانية تُدعى آسيا من قرية صغيرة، وعدّ الأب أن يزوجها دون موافقتها من شاب لا تحبه، فقررت القيام بعمل جريء ورفضت العريس؛ مما أساء إلى والدها. وبسبب عصيانها، طردها والداها من المنزل، فغادرت الفتاة آسيا إلى المدينة، والتحقت بالدراسة بمعهد تربوي، والتقت بشاب ووقعت في حبه، لكن الخطيب السابق قرر الانتقام منها وأصابها بجرح خطير، ولكن تم إنقاذها من قِبَل الأطباء، وعُوقب المجرم.

ترجم ياكوف كوزلوفسكي القصيدة إلى الروسية، وأعيد طباعتها عدة مرات، وتُرجمت إلى لغات أجنبية. كما كتب حمزاتوف مسرحية تحمل الاسم نفسه، وتم عرضها على مختلف مسارح البلاد. وفي عام ١٩٧٥ تم إنتاج فيلم روائي طويل مبني على القصيدة، وقد عمل رسول حمزاتوف على سيناريو الفيلم مع المخرجة إيرينا بوبلافسكايا. واختلفت النهاية في فيلم «بنت الجبال» عن خاتمة القصيدة؛ حيث تركت النهاية مفتوحة. وتم تصوير الفيلم في قرية شوخ، أحد أكثر الأماكن الخلابة في داغستان.

وفي عام ١٩٦٢، انضم رسول حمزاتوف إلى مجلس السوفييت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، أعلى هيئة لسلطة الدولة. وبوصفه نائبًا، قام حمزاتوف بزيارة العديد من الدول: بلغاريا، ألمانيا، إيطاليا، تركيا، إيران، اليابان، الهند، وغيرها.

وفي الستينيات والسبعينيات انتشرت أعماله من قِبَل دور النشر السوفيتية الكبرى، وطبعتها المجلات الأدبية الكبيرة. وأشار النقاد إلى روح الدعابة والثناء اللغوي الذي يسيطر على كتاباته بلغته الأم، والتي تم ترجمتها إلى الروسية على يد: نعوم غريبنيف، وإيليا سيلفينسكي، وياكوف كوزلوفسكي، ويوليا نيمان، وفلاديمير سولوخين، وروبرت روزديستفينسكي، ويونا موريتز، وأندريه فوزنسكينسكي، وكتاب آخرين. قام رسول حمزاتوف بنفسه بترجمة قصائد ألكسندر بوشكين، وشعراء روس آخرين مثل: ميخائيل ليرمونتوف، ونيكولاي نيكراسوف، وفلاديمير ماياكوفسكي، إلى لغة الأفار.

وفي عام ١٩٦٧، نُشرت القصة الغنائية «داغستان وطني»، والتي وصف فيها حمزاتوف بلاده وموطنه وسكانه، وسرد تأملاته عن الحياة والأدب والثقافة والشعر والإبداع.

وتحولت الكثير من قصائد حمزاتوف إلى أغانٍ شهيرة في داغستان، ثم سرعان ما انتشرت في ربوع الاتحاد السوفيتي، حتى إن كبار المطربين أصبحوا يتسابقون على غناء قصائده، ومنهم: أنا جيرمان، ومسلم ماجومايف، وليف ليشينكو، ويوسف كوبزون، ومارك بيرنز، وفاختانج كيكابيدزه، وصوفيا روتارو، وغيرهم من المطربين والفنانين.

وكتب الملحن السوفيتي يان فرنكل موسيقى لقصيدة «القلالقي البيضاء»، التي كتبها حمزاتوف

تخليدًا لشهداء الحرب العالمية الثانية، وقام بأداء الأغنية المغني والممثل مارك بيرنز، وتلقى الشاعر رسائل من مختلف أنحاء البلاد والعالم. أصبحت الأغنية رمزًا لذكرى الجنود الذين ماتوا خلال الحرب الوطنية العظمى، وترجم القصيدة إلى الروسية نعوم غريبنيف. وقد لاحت الفكرة لدى حمزاتوف لكتابة القصيدة عندما كان في زيارة مدينة هيروشيما اليابانية؛ حيث زار النصب التذكاري للفتاة اليابانية ساداكو التي توفيت بسرطان الدم متأثرة بتبعات انفجار القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية. كتب حمزاتوف عن القصيدة يقول: «تذكرتُ إخوتي الذين لم يعودوا من الحرب، حوالي سبعين قرويًا، حوالي عشرين مليونًا قُتلوا من مواطنينا».

كانت دواوين حمزاتوف الشعرية تُصدر بانتظام، وترجمت قصائده إلى اللغات الأجنبية. وفي السبعينيات والثمانينيات صدر له عدد من الكتب، أهمها: «أعلى سعر»، و«جزيرة النساء»، و«عجلة الحياة»، و«الصيد» و«الناس والظلال». كما نُشرت بانتظام مقالاته في الصحف والمجلات، تحدّث فيها عن التاريخ والمشاكل الاجتماعية والأدب والثقافة.

وفي نهاية حياته، ترأس رسول حمزاتوف اتحاد كتاب داغستان، حتى توفي عام ٢٠٠٣ في موسكو، ودفن في مدينة محج قلعة بجوار قبر زوجته.

وهكذا يأتي احتفال العالم هذا العام بمرور مائة عام على مولد هذه الشخصية العظيمة، والتي تحظى بشهرة عريضة في العالم بأسره دليلاً على اعتراف العالم بموهبته وقدراته الإبداعية، وأثره في شعبه وأمته. وقد تحدثت إحدى بناته عن افتتاح مركز متحف كامل يحمل اسم والدها؛ تخليدًا لذكرى وإبداعات حمزاتوف الذي اشتهر بأشعاره البديعة، والذي سيطر على قلوب وأفئدة، ليس فقط بني جلدته؛ بل وكل شعوب الاتحاد السوفيتي والعالم.

الباب الخامس

موضوعات الشرق وأفريقيا

في الأدب الروسي

(1)

ما سر ولع الأدباء الروس بالشرق؟

بدأ الأدباء الروس في التأثر بالشرق منذ أمد بعيد. وقد بدأ هذا التأثر في موجات متباعدة بعض الشيء. وشهدت فترة نهاية القرن الثامن عشر تمهيد الطريق وتهيئة الأجواء لمثل هذا التأثير، حيث لم تكن الموتيفات الشرقية قد تغلغت بوضوح في الثقافة والأدب الروسي، ولم يكن هناك اهتمام من الأدباء الروس بالإسلام والفلسفة الإسلامية.

غير أن تناول كل من فولتير ومونتيسك للإسلام وبيان مثالية العقيدة الإسلامية وترسخ هذه الفكرة في المنظومة الثقافية الأوروبية قد ترك أثره فيما بعد على الثقافة الروسية الأمر الذي فرض على الاتجاه الرومانسي الروسي في بداية القرن التاسع عشر أن يملأ هذا الفراغ ويتجه إلى هذا الجزء من العالم.



وفي منتصف القرن الثامن عشر نادى الأديب الروسي الكبير ميخائيل لومونوسوف بالتواصل مع الشرق وإرساء علاقات اقتصادية وثقافية وثيقة مع شعوب المشرق. وطرح لومونوسوف خطًا لتأسيس أكاديمية للدراسات الشرقية في روسيا وقسمًا علميًا للغات الشرقية في جامعة بطرسبورج عاصمة روسيا في تلك الفترة.

وتكررت الدعوات التي تنادي بالتقارب مع الشرق العربي والإسلامي في كتابات الأدباء الروس من أمثال ن. نوفيكوف ون. كارمزين وأ. راديشيف وأ. جريبويدوف. وكان كارمزين ونوفيكوف أول من تناول الملاحم الشعرية العربية في كتاباتهم النقدية وأفردا لذلك صفحات في المجالات التي يرأسون تحريرها.

كما كان للشرق العربي مكانة مهمة في إبداعات الشاعر الروسي الكبير وأمير شعراء روسيا بلا منازع ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين. حيث أولى الشاعر اهتمامًا كبيرًا بثقافات شعوب الشرق. ومن المعروف أنه بدأ في الكتابة عن المشرق وهو بعد شاب صغير، كما ارتبط بعلاقات صداقة

قوية مع كبار المستشرقين الروس من أمثال ن.بيتشورين. ولم يتوقف اهتمام الشاعر بالشرق العربي وحده بل بالشرق الأقصى أيضاً. وقد أعلن عن رغبته في السفر إلى الصين ذات مرة ولكن السلطات رفضت السماح له بالسفر. وعند وفاته عثر في مكتبته على الكثير من الكتب التي تتناول فلسفة شعوب الشرق.

ويحتل موضوع الشرق مساحة كبيرة في إبداعاته ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قصيدته «من وحي القرآن» و«محاكاة العربية» و«نافورة الدموع» و«ليالي مصرية» وغيرها وهو ما يعكس معرفة الأديب الجيدة بموتيفات الأدب الشرقي القديم بشعره ونثره.

كما يحتل الشرق العربي مكانة مهمة في إبداعات الشاعر العظيم ميخائيل ليرمونتوف. حيث نلمح الكثير من الموتيفات الفلكلورية لشعوب القوقاز وموتيفات الشعر الشرقي. ونذكر منها على سبيل المثال قصيدة «ثلاث نخلات» و«قصيدة عزرائيل» و«قصة شرقية» وغيرها. وفي قصيدة «الجدل» قدم ليرمونتوف صورة تعبيرية فنية مشتركة للشرق. وفي حوار شهير له مع أ.كرايفسكي يقول: «لقد تعلمت الكثير من شعوب الشرق في آسيا ولكم أود أن أتغلغل في وعيهم وفلسفتهم ورؤيتهم للعالم المحيط والذي لا زلنا لا نفهم إلا القليل منها. ولكن صدقني. المشرق منجم للتجليات والإلهام».

ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر أصبح موضوع الشرق من الموضوعات التي تحظى باهتمام دائم ومستمر ومتزايد على صفحات المجلات الروسية وإبداعات الأدباء. وقد ارتبط ذلك بفترة كانت فيها روسيا تبحث عن طريق تسلكه مستقبلاً وتحاول تحديد وجهتها الحضارية. وكان هذا هو التحدي الذي يقف أمامه المجتمع الروسي بعد الأزمة الطاحنة التي عاشتها روسيا بعد انهيار منظومة العلاقات الإقطاعية. وكان الأدباء يطرحون أفكارهم ورؤاهم عن طرق التطور في الشرق والغرب. واستمر النقاش حتى عندما احتدم الجدل بين مؤيدي التقارب السلافي السلافي ومؤيدي التقارب مع الغرب.

وفي فترة حراك الديمقراطيين الثوريين في منتصف القرن التاسع عشر استمر اهتمام الكتاب بالمشرق ونذكر منهم جيرتسين وبيلينسكي وشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف. كان هؤلاء ينادون بإحداث تحولات جذرية في روسيا وإلى استيعاب تجربة النضال الثوري في الغرب مع النظر دوماً إلى المشرق واستلهام الدروس منه بوصفه مهد الحضارات والثقافات الإنسانية. وتحدث هؤلاء عن أن الظروف التاريخية المعروفة كانت السبب في أن تبقى شعوب المشرق في أفريقيا وآسيا بعيدة عن التقدم العالمي. إلا أن هذا الوضع سيزول يوماً ما.

وقام ليف تولستوي بمواصلة هذا التقليد في الأدب الروسي بل وطوره وأثراه. وتميز عن سابقه باهتمامه البالغ بالتراث الروحي للشرق وتسامحه مع دياناته. وقد احتل الشرق مكانة كبيرة في إبداعات الكاتب حيث قضى وقتاً طويلاً في التعرف على الثقافات الشرقية والتواصل مع ممثلي

الشعوب الشرقية وكان له تواصل شبه يومي مع أناس من الشرق وربطته بالعديد منهم صداقات وإخوة.

كما درس تولوستوي الديانات الشرقية القديمة في الشرق وكان أول الأدباء الروس الذين تواصلوا مع كبار المفكرين في أفريقيا وآسيا، ويستحق بذلك أن يوصف «بالجسر الحي» للتواصل الثقافي بين الثقافة الروسية وثقافات شعوب الشرق.

ومن إبداعات الكاتب عن الشرق نذكر ترجماته لفلكلور شعوب آسيا ومقالاته عن قدامى المفكرين في المشرق ودعمه لإعادة إصدار أعمالهم في روسيا.

وتحدث كَتَّاب وشعراء روسيا في النصف الثاني من التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن مصير المشرق وشعوبه وثقافته. ونذكر منهم: دوستوفسكي ونيكراسوف وجليب اوسبينسكي وشيدريرين وتورجينيف وجونشاروف وبعدهم أنطون تشيخوف وكورولنكو ومكسيم جوركي. وكلهم تقريباً أعرب عن تعاطفه مع شعوب الشرق. ويمكن القول دون مبالغة إن الاهتمام بالشرق رافق الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية الروسية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن الماضي.

وعند الحديث عن الشرق في الأدب الروسي لا يمكن تجاهل دور الأديب الروسي وأول الحاصلين على جائزة نوبل من روسيا إيفان بونين. درس بونين القرآن قبل سفره إلى القسطنطينية في عام ١٩٠٣م وكان يعاني من أزمة نفسية شديدة. كما درس الإنجيل والمعتقدات الأخرى لدى شعوب الشرق. ومن مؤلفاته التي تأثر فيها بالإنجيل نذكر «يوم الغضب» و«الحلم». كما استلهم من القرآن الكريم أفكاراً للعديد من الأعمال منها «ليلة القدر» و«تمجيد» و«السر» و«الطائر» وغيرها.

وفي نهايات القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين عادت الثقافة الروسية إلى الاهتمام بالشرق بعد فترة من التجاهل أثناء الحقبة السوفيتية. وبدا موضوع الشرق مرتبطاً بمجموعة من القضايا الاجتماعية والسياسية.

ويبدو الشرق في إبداعات الكتَّاب الروس المعاصرين حضارة خاصة تحظى بأهمية كبيرة من قبل الأدباء الروس. ويمكن القول بأن عدد عناصر الثقافة الشرقية في الأدب الروسي المعاصر يتزايد يوماً بعد يوم. ولكن ربما القضية الأساسية تكمن في مدى قدرة الأدب الروسي في العقود المقبلة على تجنب نظرية الصدام الحتمي بين ثقفتي الشرق والغرب وأن يبقى هذا الأدب كما عهدناه دوماً أدباً قادراً على التفاعل مع الثقافات الأخرى وعلى النظر إلى نفسه بأعين الآخرين وهو السر فيما وصل إليه من رقي وتقدم بين آداب العالم.

تمثل مصر قيمة كبيرة وتحتل مكانة مهمة في تاريخ الحضارة والأديان. وقد شهدت الفترة من مطلع القرن الـ١٩ إلى مطلع القرن العشرين رحلات مكثفة من قبل الرحالة الروس لاستكشاف جغرافيتها وتاريخها وعادات أهلها وتقاليدهم.

وكانت أول رحلة قام بها رحالة روسي في القرن التاسع عشر قد قام بها الرحالة أو. سينكوفسكي (عام ١٨٢١) وتلاه الرحالة أ. مورافيف (عام ١٨٣٠) وهناك ١٢ رحلة آخر سجلوا بكتاباتهم ذكرياتهم عن رحلاتهم إلى مصر التي استمرت حتى مطلع القرن العشرين عندما قام الرحالة الروسي الشهير ن. بوجينبول بزيارته الشهيرة في عام ١٩١٠م.

وقد اختلفت الأهداف والغايات التي دفعت هؤلاء إلى زيارة مصر فمنهم من قام بذلك بهدف التجارة أو الحج أو المعرفة والعلم. وكما اختلفت غاياتهم اختلفت أيضاً درجة معرفتهم وإلمامهم بالثقافة العربية الإسلامية وكذا درجة إلمامهم وإتقانهم اللغة العربية. وكان لذلك تأثيره الواضح على درجة استيعابهم لما يشاهدونه ويلاحظونه ويدونونه حتى إنه كان أحياناً يثير لديهم مشاعر متناقضة.

غير أن أول وصف لمصر في الأدبيات الروسية يعود إلى عام ١٤٦١ - ١٤٦٢م وقد قام به أحد رجال الدين المسيحي ويدعى فارسونوفي والذي قام في ذلك العام برحلة حج إلى مصر زار خلالها جزيرة سيناء. وبطبيعة الحال عرف الروس بمصر من خلال الكتاب المقدس. حيث قام الأمير فلاديمير أمير مملكة روس القديمة بإيفاد سفيرة إلى مصر بعد اعتناق مملكته رسمياً للديانة المسيحية. كما جاء ذكر مصر في الأدبيات الروسية في القرن الحادي عشر. ومع حلول القرن الرابع عشر كان هناك انتظام لعملية الحج إلى سيناء ويعتقد البعض أن رجل الدين اجريفيني هو أول حاج روسي إلى سيناء وكان ذلك السبعينيات من القرن الرابع عشر. وقد قام بزيارة القاهرة والإسكندرية. وكانت أول معلومة سياسية مهمة عن مصر في مخطوطة حاج تعود إلى عام ١٤١٩م جاء فيها أن أراضي القدس وغزة والإسكندرية ودمشق وغيرها كانت خاضعة لسلطان مصر. كما وردت أسماء حكام مصر ودمشق حينها. وكان الطريق الذي يسلكه الحجاج عادة إلى مصر يمر عبر كيبف ومنها إلى بيلجورود ثم الإبحار إلى جزيرة كريت ورووس وقبرص إلى دمياط ثم الإبحار عبر النيل إلى القاهرة. وذكر الحاج الروسي أيضاً التمساح الذي رآه أثناء رحلته عبر النيل وأطلق عليه الوحش المائي. ووصف كيف كانت التماسيح تخرج إلى شاطئ النهر وتلتهم الفلاحين.

وفي حين اهتم حجاج القرون الأولى بالمسافات والأبعاد والطقوس الدينية في الأساس. بدأ الحجاج اعتبارًا من القرن السابع عشر بتدوين انطباعاتهم وآرائهم الشخصية حول العادات والتقاليد المحلية عند المصريين وكذا النظام السياسي للدولة المصرية. حيث قام الأب أرسيني سوخانوف بوصف الأهرامات المصرية وعادات المصريين وتقاليدهم ومهارتهم في تحضير الدواء وبفضله أصبحت مصر مصدرًا رئيسًا للدواء المصنوع من الأعشاب والنباتات إلى روسيا. واستمرت شهرة العلاجات المصرية تلك في روسيا إلى منتصف القرن التاسع عشر. وكانت وزارة الخارجية الروسية كثيرًا ما توفد بعثات إلى مصر للعثور على أدوية لأعراض مختلفة وإعداد تقارير علمية مفصلة عنها ومن ثم استيرادها.

كما قام الرحّالة أفرام نورو في بداية القرن التاسع عشر برحلة مهمة إلى مصر. وقد جمع الرحّالة بين الأهداف الدينية والعلمية في رحلته حيث لم يكن أي تناقض. وهو نفس ما حدث مع الرحّالة أ. مورافييف. وأوسبينسكي وكثير من رحّالة القرن التاسع عشر.

اهتم الروس منذ قديم الزمان بأخبار مصر. وجاء ذكرها للمرة الأولى في الأدبيات الروسية مع اعتناق الروس للمسيحية قبل حوالي ألف عام تقريبًا. وكان التصور التقليدي عنها يعتمد بشكل أساسي على ما ورد في الإنجيل، حيث رآها الروس دولة تضطهد المؤمنين. غير أن الأشعار الشعبية الروسية القديمة تحدثت عن مصر بوصفها منبع الحكمة في العالم.

وقد استخدم المبدعون الروس نموذج مصر في ثقافتهم للتأكيد على أفكارهم الأساسية فيما يتعلق برؤيتهم للعالم المحيط في هذه الحقبة الزمنية أو تلك. حتى بعد اعتناق الروس للعقيدة المسيحية تم الاستعانة بالميثولوجيا المصرية للتأكيد على حقيقة ومصداقية الدين الجديد، وأنه يمثل طوق النجاة للناس الذين عاشوا قبله لقرون في ظلام اللادينية.

وفي الفترة التي سبقت حكم بطرس الأكبر (القرن الـ١٧) قام عدد كبير من الرحالة الروس بزيارة مصر، وقاموا بوصفها في كتب سميت بالأسفار أو الرحلات.

وشهد القرن الثامن عشر عودة مصر بقوة إلى الثقافة الروسية، ولكن هذه المرة عبر بوابة أوروبا. حيث لم تكن اللغة المصرية القديمة قد اكتشفت بعد. واستقى الكُتاب الروس معلوماتهم من الأدبيات الرومانية والعربية واليونانية التي تحدثت عن الثقافة المصرية والوعي المصري.

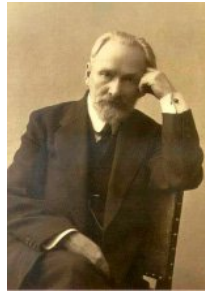
وقد شهد القرن التاسع عشر اكتشافات كبيرة في علم المصريات والميثولوجيا المصرية التي أصبحت أكثر استقلالية عن الأفكار السياسية والدينية. وشهدت هذه الفترة اهتمامًا كبيرًا بالثقافة المصرية بعد اكتشاف اللغة المصرية القديمة، وظهر علم المصريات الروسي وتطور بسرعة. وأخذ القارئ الروسي يتعرف على نماذج وشخصيات الآلهة المصرية القديمة في أدبه. وشهدت هذه الفترة زيارات مكثفة للكُتاب والأدباء الروس إلى مصر الحديثة والتي عاشت فترة تنويرية في بدايات القرن قبل الماضي. ومن أمثلة الأعمال التي تناولت موتيفات مصرية نذكر «أرابيسك» لنيقولاي جوجول و«ليالي مصرية» و«كليوباترا» لألكسندر بوشكين.

ومع نهاية القرن العشرين أخذ الأدباء الروس يولون اهتمامهم أكثر بالفكرة الدينية في الثقافة المصرية.

واتسم العصر الفضي في الأدب الروسي والذي يبدأ في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م باستشعار الأدباء والمثقفين قرب حدوث الكارثة وتوقع سنوات من الفوضى والدمار وهو الأمر الذي ساعد على انتشار أجواء تشاؤمية وانتشار خرافات قرب نهاية الزمان وصاحب هذه الحالة من الترقب لتحولات مهمة الحاجة إلى تجديد التطور الروحاني للمجتمع، والذي كان غارقًا في أزمة الهجوم على العقيدة المسيحية وغياب دور الدين، وانعدام

الأمل في إمكانية إنشاء نظام عالمي سليم. وكان من نتاج ذلك كله أن اضطلعت الطبقة المثقفة في روسيا بالبحث في أصول الحضارات والثقافات والديانات الأخرى فقادهم الطريق إلى الاستغراق في قراءة وفهم الميثولوجيا المصرية في ظل الواقع الجديد. هكذا نلاحظ في تلك الفترة اهتمامًا كبيرًا وتاريخيًا من قبل الثقافة الروسية بمصر. غير أن بداية القرن العشرين شهدت ظاهرة أقرب إلى الحنين إلى كل ما هو غامض. حيث شرع أدباء العصر الفضي في الأدب الروسي في خلق عوالم فنية تمثل بالنسبة إليهم رمزًا للعالم المثالي والمتكامل (فكان تصوير الشاعر الروسي روزانوف لمصر وجوموليوف لأفريقيا ودوستويفسكي لأمريكا). صور الأدباء الروس في تلك الفترة مصر بوصفها منبعًا للحكمة. وقد مثلت مصر أهمية خاصة بالنسبة إلى كتاب العصر الفضي بفضل طبيعتها المتناقضة والتي تجمع منتهى الخيال ومنتهى الواقع. وجذبت الديانة المصرية القديمة والتي تضم مفاهيم عن البدايات الأولى وأصل المفاهيم الفلسفية كالموت والخلود والخير والشر والعدل وغيرها اهتمام الأدباء الروس والمفكرين في تلك الفترة. ففي الفترة التي شهدت انتشارًا لأفكار الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في أوروبا أصبح من الضروري البحث عن ممارسات دينية وروحانية أخرى بما فيها الميثولوجيا المصرية القديمة. ومن أمثلة ذلك نذكر قصة «دون جوان في مصر» للكاتب نيقولا جوموليوف و«الدلتا» و«ضوء الأبراج» لايفان بونين وكتابات فيتشسلاف إيفانوف ودميتري يفيموف وغيرهم.

وقد عثر هؤلاء على بغيتهم في الديانة المصرية القديمة، حيث وجدوا فيها أفكارًا تنسجم ورؤيتهم الشخصية للعالم المحيط. فقدم الديانة المصرية التاريخي أكبر دليل على مصداقيتها. وكان الأدباء الروس يرون مصر بعيون تختلف عن تلك التي يراها بها العلماء حيث كان اهتمامهم مركزًا على أهمية مصر بالنسبة للحاضر والقرن العشرين الذي كان يمثل القرن الذهبي للإنسانية. ففي مصر والميثولوجيا المصرية وجدوا تصورات كاملة عن مفاهيم الأسرة والزواج والرجل والمرأة وجاءت هذه التصورات والأفكار متطابقة مع رؤيتهم وقناعاتهم الشخصية. وانتقد الأدباء والمفكرون الروس وخاصة روزانوف وجوموليوف تناول مصر بوصفها ثقافة وحضارة للموت فحسب وحولوها في كتاباتهم إلى ثقافة حياة ومستقبل، وبذلك خلق الأدباء الروس ميثولوجيا جديدة وخاصة بهم عن مصر.



وأصبحت مصر في الربع الأول من القرن الماضي أيقونة الموضوعات التقليدية والشائعة في الأدب الروسي. والقائمة عامرة بأسماء الكتاب والشعراء الذين تناولوها في كتاباتهم. فهناك كما أسلفنا الشاعر الروسي الشهير فاسيلي روزانوف (١٨٥٦ - ١٩١٩م). ومن أشهر أعماله عن مصر «**عن الجمال المصري القديم**» و«**في بلاط الوثنيين**» و«**موتيفات شرقية**» و«**مصر**» وغيرها. ويصف روزانوف في أعماله الحضارة المصرية القديمة ونمط التفكير عن المصريين القدماء وكذا المعاصرين. وقد اعتبر روزانوف المصريين شعبًا عبقرياً قي جميع مناحي الحياة سواء الدين أو الأخلاق أو الإبداع الفني. ويرجع الكاتب في أعماله الفضل لمصر القديمة في إرساء أسس التدين في العالم.

والكاتب من خلال إبداعه للنص الميثولوجي عن مصر فهو في الوقت نفسه يسعى إلى بناء نموذج للعلاقة بين الإنسان وربه. وقد تشكل هذا النموذج بشكل نهائي في موتيفاته الأسطورية المصرية. ويقدم روزانوف مصر القديمة بوصفها عالمًا مثاليًا يقارن بينه وبين العالم الواقعي الذي عايشه الروس في فترة ما قبل الثورة البلشفية. غير أن الكاتب على ثقة من أن اللجوء والاستعانة بالحضارة المصرية والديانة المصرية القديمة يمكن أن يساعد العالم المعاصر على الاقتراب من المثالية.

وقد انتقد روزانوف بشدة واتهم بالردة عن الدين نتيجة مساعيه وبحثه المتواصل عن النموذج الأمثل للعلاقة بين الإنسان وربه. وقد ساعدته كتاباته عن مصر أن يكتشف نفسه من جديد ويقدم نفسه كإنسان يسعى للحفاظ على إيمانه المسيحي من خلال بحثه عن أسس جديدة للمعتقدات الدينية. فهو يعترف بديانته ولكنه في الوقت نفسه يشير إلى ضرورة إعادة تقييم رؤية الدين إلى مكانة الأسرة والزواج والأطفال في حياة الإنسان.

أما الأديب والشاعر الروسي العظيم ألكسندر بلوك (١٨٨٠ - ١٩٢١ م) فقد تناول في بعض ما كتب مصر القديمة بوصفها رمزًا لروسيا المعاصرة. وقد كانت آخر مؤلفاته مسرحية بعنوان «**رمسيس. مشاهد من حياة مصر القديمة**» وصدرت عام ١٩١٩م. وكانت تلك فترة عصيبة في تاريخ روسيا الحديثة، فقد شهدت نهاية الحقبة الإمبراطورية وبداية العصر السوفيتي الذي لم تكن ملامحه قد اتضحت بعد للكثيرين. وقد اتخذ بلوك من مصر القديمة نموذجًا أسقط عليه واقع روسيا المعاصرة، وهنا يقوم أديبنا برسم لوحة رمزية لمرحلة انهيار الحضارة المصرية يستطيع القارئ بسهولة الربط بينها وبين ما كان يحدث في روسيا من انهيار لإمبراطورية عريقة.

كاتب آخر كبير في روسيا تناول مصر كثيرًا في أعماله، وهو نيقولاي جوميليوف (١٨٨٦ - ١٩٢١ م) والذي كانت مصر تمثل له عبر رحلته الإبداعية كلها مصدرًا للإلهام والوحي. واهتم هذا الأديب كثيرًا بعلم المصريات، حيث كانت تربطه علاقة بكبار العلماء والمستشرقين الروس وتعرف من خلالهم على الإنجازات التي توصل إليها هذا العلم. وقد زار مصر أكثر من مرة

وأعجب كثيرًا بالقاهرة والإسكندرية. كما زار حديقة الأزبكية التي ذكرها في ديوان صدر له بعد عشر سنوات تحدث فيه عن فضل هذه الحديقة في إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد فترة من الإحباط. ومن أعماله التي تتحدث عن مصر أيضًا مسرحيته الشهيرة «دون جوان في مصر» وصدرت عام ١٩١١. كما ألف الكثير من الأشعار عن أفريقيا عمومًا ومصر على وجه الخصوص. وهناك قصيدة له تحمل اسم «مصر» يتحدث فيها عن الفلاح المصري ومثابرتة ونشاطه وحبه للنيل وارتباطه به. وهكذا قدم هذه الشاعر نموذجًا شاعرًا لمصر في أعماله، وتحدث عن مصر برومانسية أحيانًا وواقعية أحيانًا أخرى.

وترى الناقدة والكاتبة الروسية ل. بانوفا أن الأدباء الروس في النصف الأول من القرن العشرين يرون مصر من منظورهم الخاص وواقع خبراتهم سواء الحياتية أو الدينية كما ترى أن نموذج مصر في الأدب الروسي في القرن العشرين يبدو ذا وجهين أولهما ثقافي والآخر ديني. ودفعت الأفكار عن الموت والخلود والتي انتشرت في بدايات القرن العشرين بالأدباء الروس إلى التوجه للديانة المصرية القديمة ومحاولة فهمها ومن ثم استخدامها كموتيفات في إبداعاتهم. وفي تلك الفترة نجد انصهارًا بين الفهم العلمي والخيالي لمصر وحضارتها وأصبح هناك طرح جديد يجمع بين الاثنين معًا. هذا المزيج العلمي الخيالي في تناول النموذج المصري كان العلامة والسمة المميزة لأدب القرن العشرين عن مصر.

وقد سعي بالمونت وبوريوسوف وميرجكوفسكي وروزانوف وسولوفيف إلى تصوير تاريخ روسيا بوصفة عملية واحدة ومتصلة وربما هذا هو السبب في بحثهم عن جذور ثقافتهم أن يلجئوا إلى التاريخ القديم بما في ذلك إلى الحضارة المصرية القديمة والتي بدت لهم تملك المعرفة الحقيقية حول أصل الأشياء. حيث يرى بريوسوف على سبيل المثال أن مصر تمثل أصلًا للحضارة الأوروبية كلها.

وفي حين يرى كل من فلاديمير سولوفيف ود.ميرجكوفسكي أن الحضارة المصرية هي أصل العقيدة المسيحية يرى روزانوف أن مصر تمثل نموذجًا مثاليًا للمضمون الديني والروحاني. وهذه الثنائية تعكس رؤية هؤلاء الأدباء للعالم في تلك الفترة.

وهكذا يمكن القول إن نموذج مصر في الأدب الروسي في القرن العشرين يقع عند نقطة الالتقاء بين الواقعي والميثولوجي، بين المعرفة الحقيقية والخيال. ومن هنا نجد هذه الرؤية المزدوجة للعالم عند تناول الأدباء الروس لهذا النموذج.

رغم اختلاف الموضوعات التي تطرق لها الكاتبان يوسف زيدان وبورييس أكونين في روايتيهما، وكذا أساليب معالجتها إلا أن هناك العديد من أوجه التشابه فيما بينهما سواء في شخصية البطل الرئيس أو كون الروائيتين يعالجان مشاكل اجتماعية متشابهة فيما بين المجتمعين الروسي والمصري.

كما أنه من المهم أيضاً النظر إلى رؤية الكاتبين للقضايا المعاصرة ومنها التعصب الديني والتطرف. ومن الأشياء التي تجمع الكاتبين أيضاً الأسلوب الرائع في الكتابة وأهمية الموضوع وعنصر التشويق والنسق الهادئ في السرد. كما يتسم كل من زيدان وأكونين بتمكنهما الشديد من نواصي اللغة وثراء التعبير باستخدام الألفاظ وتميز أسلوبهما عن غيرهما من كتّاب عصرهما. ويتسم موضوع رواية «عزازيل» أكونين ببساطته حيث تتناول الرواية الأحداث التاريخية التي وقعت في القرن التاسع عشر داخل روسيا وأوروبا. تلك الأحداث التي جعلت البطل الرئيس فاندورين يعتقد أن ثمة مؤامرة تحاك بروسيا. وفي خلال الأحداث يتمكن البطل من اقتفاء أثر سيدة تدعى إستر لديها شبكة عالمية من دور الأيتام، ويعتقد البطل أنها تقود منظمة إرهابية عالمية تسمى «عزازيل» وتسعى من خلالها للسيطرة على العالم.

وفي روايته «عزازيل» يتناول الكاتب يوسف زيدان قضية الصراع بين الدين والفلسفة في مصر القديمة. ويتحدث الكاتب عن رحلة البطل هيبا القادم من الصعيد والذي قدر له أن يكون شاهداً على العديد من الأحداث التاريخية الكبرى. وطوال الرواية هناك حوار دائر بين البطل وعزازيل الذي ينصحه بتدوين ما يراه.

ونلاحظ أن شخصية «عزازيل» في رواية زيدان تتجسد في شخص واحد يحمل نفس الاسم ويسيطر بشكل شبه تام على البطل هيبا، أما لدى أكونين فالوضع مغاير حيث يتجسد في مجموعة من الأشرار. فنراه أحياناً في شخص أعضاء الجمعية السرية «عزازيل» أو حارس الفندق أو شخصية أماليا. ومن كثرة هؤلاء اعتقد البطل أحياناً أن العالم كله أصبح يريد له الشر.

وما يوحد بين الروائيتين أيضاً احتجاج الأبطال على الظروف المحيطة والقاسية. غير أن الأبطال عند زيدان يواجهون هذه الظروف ليس استجابة لعزازيل بل لرجال الدين. أما بطل أكونين فاندورين فيتوجه للإدارة المحلية في موسكو بطلب احتجاج رسمي. وخلافاً لهيبا الذي لا يعرف إلى أين وإلى من يتوجه بشكواه فإن بطل أكونين يعرف تحديداً من المذنب.

يبدو عزازيل حاضرًا في كل صفحات رواية زيدان ويرتبط ذلك بعدم استقرار البطل نفسياً

وعدم قدرته على الحسم. وأحيانًا يبدو وكأنه يخضع لسيطرته تمامًا. فنرى عزازيل يدعو طوال الوقت لارتكاب الآثام والكشف عن رغباته ثم يدعو لتدوين ذلك. ويبدو الأمر مشابهًا للعبة الورق التي يقوم فيها عزازيل أكونين بتدريب البطل عليها ويحاول أن يجذب للعب غيره من اللاعبين الموهوبين.

وهناك انطباع يتكون لدى قارئ رواية أكونين أن عزازيل ظهر نتيجة لعدم اكتمال منظومة المجتمع المعاصر وحقيقة أنه إذا كان المجتمع لا يريد ولا يستطيع تحقيق شيء ما فربما تستطيع منظمات سرية أو خفية القيام بذلك. ومن هنا كانت المنظمة السرية «عزازيل» في رواية أكونين دليلًا واضحًا على ذلك. فكما جاء على لسان البطلة إستر في نهاية الرواية: عزازيل هو رمز للتنوير غير أن الناس ضعفاء لا يدركون وقد حولوا بأنفسهم هذا العالم الجميل إلى جحيم. والله قد منحهم أوراقًا للعب بها وعزازيل لا يفعل شيئًا سوى أنه يعلمهم كيف يستخدمونها.

وكثيرًا ما يلجأ زيدان في روايته إلى طرح العديد من الأسئلة دفعة واحدة في الحوارات بين الأبطال، وكثيرًا ما تبقى هذه الأسئلة دون إجابات أو تكون إجاباتها مبهمة وغير كافية. ويبدو الكاتب وكأنه يطرح هذه الأسئلة على القارئ لا على الشخصيات. فالبطل هيبا يريد إجابات على هذه الأسئلة ويريد أن يبحث القارئ عنها بنفسه. ونفس الأسلوب في طرح الأسئلة نلاحظه أيضًا في رواية أكونين والهدف نفسه أيضًا من طرحها.

ويولي الكاتبان في الروايتين اهتمامًا خاصًا بموضوع التطرف الديني. فالتطرف أدى إلى مقتل العاملة هيباتيا ونفس الموضوع يطرح على لسان بطل رواية أكونين. وتجدر الإشارة إلى أنه في حين تلعب شخصية عزازيل دورًا غريبًا لدى زيدان، حيث تتسم هذه الشخصية في معظم الأعمال الأدبية بكونها مسؤولة عن كافة المآسي والشروخ التي تحدث للبطل وغيره من الشخصيات، إلا أن زيدان يفسر وجود عزازيل في المجتمع بأنه نتيجة لحالة الاضطراب النفسي عند البطل. وكما لو كان المؤلف يريد أن يقول أن السلبية تجذب الشرور على صاحبها ورمزية عزازيل ترتبط لديه بعدم الفعل وبالاضطراب في سلوكيات البطل. وفضلاً عن دعوة الكاتب إلى أن يحتل كل إنسان مكانة وموقعه من العالم فهو في الوقت نفسه يدعو إلى التسامح الديني. فقد أشار بوضوح إلى أن الحقيقة الدينية واحدة ولها أساس واحد. وهو يعتقد أن الآلهة على اختلافها ليست في المعابد والتماثيل والمباني بل في قلوب الناس المؤمنين بها.

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن روايتي «عزازيل» لدى زيدان وأكونين يمكن أن ينتميا إلى صنف روايات الحداثة والتي تهدف إلى محو الحدود بين أدب النخبة والأدب الجماهيري. وقد نجح الكاتبان في إضفاء الصبغة الفلسفية (أكونين) والتاريخية (زيدان). وإذا كان أكونين قد نجح في تقديم النص ليكون متاحًا ومفهومًا من قاعدة عريضة من القراء فقد نجح زيدان أيضًا في أن يجعل من نصه الغني بالموتيفات الفلسفية عملاً جماهيريًا واسع الانتشار.

تعد الترجمة من أقدم أوجه النشاط الإنساني، حيث ظهرت بظهور الحاجة إلى وسيلة للتواصل بين الشعوب والأمم. وقد لعبت الترجمة ولا زالت دورًا مهمًا في التقارب بين الحضارات. ولا يخفى على أحد دور الترجمة المهم في إحداث النهضة الأوروبية عندما نقل مترجمو أوروبا أمهات الكتب العربية وخاصة في العصرين الأموي والعباسي، وكذلك في عهد دولة الأندلس الإسلامية. وقد مرت عملية الترجمة من العربية إلى الروسية والعكس بعدة مراحل صعودًا وهبوطًا. وارتبط ذلك دائمًا بمدى اهتمام العلماء والباحثين والمترجمين وشغفهم بعلم ومعارف وآداب الطرف الآخر.

وقد ساعدت نهضة العرب تلك على الارتقاء بفن الترجمة حيث كان لهم العديد من الإنجازات المشرفة سبقوا فيها أوروبا بخطوات. والأمر نفسه ينطبق على الإمبراطورية الروسية التي شهدت في مرحلة حكم بطرس الأكبر سلسلة من الإصلاحات وحققت تقدمًا كبيرًا في عديد المجالات. وأيقن القائمون على حكم روسيا في حينها أن بلادهم لا يمكن أن تتقدم في اتجاه ميادين الإبداع العلمي والأدبي إلا بالاهتمام بالترجمة.

وكان للكتاب الروس والعرب دور كبير في دفع حركة الترجمة من الروسية إلى العربية ومن العربية إلى الروسية، الأمر الذي أسفر عن وجود عدد كبير من الأعمال المترجمة من الروسية إلى العربية على وجه الخصوص.

وقد انطلقت عملية الترجمة بين العربية والروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ويعد كل من الشيخ **محمد عياد الطنطاوي** والمستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي صاحبي الفضل الأول والأكبر في تدشين هذه العملية. ولعلي لا أبالغ عندما أقول أن الشيخ **محمد عياد الطنطاوي** له النصيب الأكبر في هذا الفضل.



وُلد الشيخ **محمد عياد الطنطاوي** في مدينة طنطا بمحافظة الغربية وكان ذلك في عام ١٨١٠م.

وكانت مصر في تلك الفترة تعيش فترة تنويرية لم تشهدها منذ زمن بعيد. وبات الاحتياج للترجمة شديداً وكذلك تحرير الترجمة. تعرّف الشيخ على العلماء الأوروبين الشباب، وكان من بين تلاميذه المستشرقان الروسيان هما نيقولاي موخين ورودلف فرين اللذان يخدمان في القنصلية الروسية العامة، ومن خلالهما تمت دعوته للتدريس في روسيا بإذن من القيصر، وكان ذلك في عام ١٨٤٠. وقد عاش الطنطاوي نصف قرن فقط، ورغم ذلك كان إنتاجه ضخماً. حيث تتلمذ على يديه كثير من كبار المستشرقين الروس والذين ذاع صيتهم فيما بعد. وقد ترأس الطنطاوي قسم الدراسات الآسيوية بوزارة الخارجية الروسية ومنح أعلى وسام في الإمبراطورية على جهوده في نشر اللغة العربية والترجمة.

ومن أهم المؤلفات التي تركها الشيخ للتراث الإنساني كتاب «**تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا**» وكتاب «**أحسن النخب في معرفة لسان العرب**» الذي كتب **باللغة الفرنسية**، وهو كتاب أكسب الطنطاوي شهرة واسعة في كل أوروبا.

كما قام بترجمة كتاب «**تاريخ روسيا المختصر**» **لأوستروف**، وأعد قاموساً عربياً فرنسياً طُبع في كازان عام ١٨٤٩م. وقام الشيخ الطنطاوي أيضاً بترجمة الباب الأول من كتاب «**كلستان**» لسعدي الشيرازي. وغيرها من المصنفات الخاصة في العقائد وقواعد اللغة والبلاغة وحتى الجبر والحساب والميراث، كما ترجم الأمثال العربية الشهيرة إلى اللغة الروسية.

في المقابل يعد **اغناطيوس كراتشكوفسكي** أحد أهم مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسية، وُلد عام ١٨٨٣م وقد تولى عماده معهد الاستشراق في موسكو في الفترة من ١٩٣٨ - ١٩٤٥م. وقد ألف كراتشكوفسكي ما يزيد عن ٤٥٠ بحثاً أو كتاباً في مجال التعريب والدراسات الشرقية ولعل أهمها ترجمته لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية. كما يعد رائداً في بحوث ودراسات تاريخ الأدب العربي الحديث في روسيا وأوروبا. كما ترجم العديد من الأشعار العربية إلى الروسية ومنها قصائد المتنبي وأبي العلاء المعري، وكذا مخطوطات مكتبة الإسكندرية ومختارات من روائع الأدب العربي بالإضافة إلى إشرافه على تحرير الإصدار الروسي لكتاب «**ألف ليلة وليلة**».

وقد شهد القرن الماضي إنتاجاً ترجمياً مهماً، حيث مرت حركة الترجمة من وإلى العربية عدة مراحل صعوداً وهبوطاً نتوقف عند المحطات المهمة فيها.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نشطت الجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية الروسية ومدارسها التي كانت تضم بين جنبتها آلاف الطلاب العرب. وقد انصبت معظم الترجمات في تلك الفترة على التعريف بالأدب الروسي وتاريخ روسيا وحضارتها. ومن أبرز مترجمي تلك الفترة سليم قبعين وخليل بيدس ويعود لهما الفضل في ترجمة بعض مؤلفات كبار الكتاب الروس نذكر منهم ليف تولستوي وماكسيم جوركي وبوشكين وجوجل وتشيكوف.

وصدرت ترجمتهما في الفترة بين ١٩٠٠ - ١٩٠٩ م.

وشهدت فترة الحرب العالمية الأولى جمودًا في حركة الترجمة نظرًا للظروف السياسية والإقليمية المحيطة ثم عادت ونشطت مرة أخرى انطلاقًا من مصر هذه المرة. حيث أخذ المترجمون المصريون ينقلون أعمال الأدب الروسي إلى اللغة العربية ليس فقط عن اللغة الروسية ولكن عن لغات أخرى وسيطة كالإنجليزية والفرنسية. حيث ترجمت تقريبًا كافة أعمال كبار الكتاب الروس ومنهم دوستويفسكي وتولستوي وتشيفخوف. وشهد المسرح المصري طفرة هائلة وازدهارًا بفضل الاستفادة من هذه الأعمال. وقد لعب العامل الأيديولوجي دورًا مهمًا في ترجمة العديد من الأعمال التي تنوعت بين الاقتصادي والسياسي والاجتماعي أيضًا.

ثم كانت فترة الخمسينيات من القرن الماضي والتي شهدت ظهور ترجمات رائعة لأهميات الأدب الروسي، وعلى رأسها الأعمال الكاملة لدوستويفسكي وتولستوي. وقد قام بهذا العمل الكبير الأديب الشهير السوري الدكتور سامي الدروبي والذي يعد أشهر من ترجم الأدب الروسي رغم عدم درايته للغة الروسية حيث كان يترجم عن الفرنسية.

في عام ١٩٥٨ تأسس اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا الذي أصدر مجلة شهيرة اسمها «مجلة الآداب الأفروآسيوية» ثم أصبح اسمها فيما بعد «لوتس» ونشرت العديد من الترجمات الأدبية. وشهدت الترجمة من الروسية إلى العربية خلال الستينيات والسبعينيات، ففي عام ١٩٦٩ أسست جائزة لوتس في الترجمة وجائزة ابن سينا الدولية للترجمة.

وتضمنت مكتبة الأدب العالمي التي أصدرها الاتحاد السوفيتي السابق أكثر من ٢٠٠ مجلد تعريفية بالأدب العربي وترجمت نصوص أدبية لكتاب عرب منهم الطيب صالح ونجيب محفوظ وعبد السلام العجيلي وجبران خليل جبران ومحمود درويش وعبد الرحمن الخميسي ومعين بسيسو وعلى عقله عرسان ويوسف السباعي ويوسف إدريس.

ومن بين دور النشر الروسية التي لعبت دورًا مهمًا في الترجمة نذكر دار نشر «رادوغا» و«التقدم». ومن المترجمين العرب الذين نشرت كتبهم من خلال دور النشر تلك أبو بكر يوسف من مصر ويوسف الحلاق وشوكت يوسف من سوريا وخيري الضامن وغائب طعمه فرمان من العراق، حيث ترجموا أعمال ماياكوفسكي وجوركي وشولوخوف واخماتوفا وباسترناك وراسبوتين. أما أولئك الذين عملوا في حقل الترجمة من العربية إلى الروسية فنذكر المترجمة الروسية أولجا فلاسوا وفاليريا كيربيتشينكا وأولجا فرالوفا وفلاديمير شاجال.

وبفضل المترجمين الروس والعرب تعرف القراء في روسيا على مؤلفات أبرز الأدباء العرب المعاصرين من مصر وسوريا والعراق والمغرب العربي. وتشير الأرقام إلى أن ما صدر من مؤلفات الكتاب العرب في العهد السوفيتي بلغ نحو ٦٠٠ عنوان باللغة الروسية.

وهكذا نلاحظ أن عملية الترجمة بين الروسية والعربية قطعت أشواطًا مهمة خلال عمرها الذي

يزيد عن قرن من الزمان.

لقد ترجم العرب خلال القرن العشرين معظم أعمال الكلاسيكيين الروس، وأعيدت ترجمة بعض تلك الأعمال، أما طباعتها فتمت مرات ومرات. فأعمال بوشكين وتولستوي ودوستويفسكي وتورغينيف وتشخوف وليرمونتوف كلها ترجمت إلى العربية. ونستطيع القول إن القرن العشرين قد شهد أوسع دوائر التأثير والتواصل بين المثقفين والأدباء والمبدعين في كل من روسيا والعالم العربي ويرجع الفضل في ذلك إلى حركة الترجمة.

وفيما يتعلق بواقعنا العربي في الترجمة إلى الروسية فإنه يتسم بانعدام المنهجية وطغيان العمل الفردي. حيث ظل كل فرد يترجم في زاويته دون خطة مشتركة أو توجه عام إلا محاولات قليلة قامت بها مؤسسات علمية تعنى بتدريس اللغة الروسية، نذكر منها إسهامات أساتذة كلية الألسن بجامعة عين شمس وقسم اللغة الروسية بجامعة بغداد، وكذلك برنامج اللغة الروسية بجامعة الملك سعود.

وفي النهاية يجب القول إن ما تم إنجازه على طريق تحقيق حلم ترجمة كافة الأعمال الكبيرة في الثقافتين يعد قدرًا لا بأس به ويمكن البناء عليه. وفي ظني فإن صياغة منهجية وخطط كبيرة لترجمة الإصدارات المهمة أولاً بأول، واستقطاب كافة المترجمين بين اللغتين والاستفادة منهم بالشكل الأمثل، وتشجيعهم يمكن أن يوتي ثمارًا جيدة.

يحتفل العالم كل عام في الثلاثين من سبتمبر بيوم المترجم والذي يوافق يوم مولد القديس جيروم، مترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية. وقد فطن الأقدمون إلى أهمية وظيفة المترجم، واعتُبرت من المهن المعترف بها منذ القدم؛ حيث كان المترجم دومًا صاحب مكانة مرموقة في المجتمع، ومُقرَّبًا من الحاكم.

وقد ظهر المترجمون للمرة الأولى في مصر القديمة واليونان القديمة، وكلاهما كانت تربطهما علاقات وطيدة مع البلدان المجاورة وعبر البحر المتوسط؛ ولذا كانت هناك حاجة ماسة إلى أناس يتقنون اللغات الأجنبية.

ولعل أرمينيا هي الدولة الوحيدة في العالم التي رفعت مكانة المترجم إلى مرتبة القديسين؛ حيث تُزامن عيد المترجم مع عيد الأبجدية الأرمنية في السبت الثاني من شهر أكتوبر من كل عام، علامة على احترام وتقدير الشعب الأرمني للثقافة والكتابة الأرمنية. وتحتفل الكنيسة الأرمنية بعيد أوائل الرواد المترجمين ميسروب ماشدوتس، وتلاميذه أمثال: غيفونت، وكورون، ويزنيك، وموفسيس خوريناتسي، وغيرهم. كما يجري في الوقت نفسه الاحتفال بأول ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة الأرمنية. واستغرقت ترجمة الكتاب المقدس أكثر من ٣٠ عامًا؛ حيث يعود الفضل إلى ميسروب ماشدوتس في اختراع أو اكتشاف اللغة الأرمنية، وكان معروفًا بإمامه باللغات اليونانية والفارسية والسريانية، فضلًا عن اللهجات الأرمنية.

ومن المعروف عن الأرمن تقديسهم للغتهم وأبجديتهم، وتصل الترجمة عندهم في مكانتها إلى درجة التقديس. وتصنّف الكنيسة الأرمنية رجال الترجمة في درجة القديسين، أي تمنحهم القداسة؛ ولذلك سَموا المترجم ميسروب ماشدوتس قديسًا، واعتُبروا عيد المترجمين عيدًا من الأعياد الرئيسية لديهم.

ويُعتبر العلماء أن الترجمة الأرمنية للكتاب المقدس هي الأفضل بين ترجمات الإنجيل قاطبة؛ حيث أطلق الباحث الفرنسي الشهير لا كروز على هذه الترجمة وصف «ملكة الترجمات»، أما الباحث الإنجليزي كون بيير فيعتبر هذه الترجمة غير مسبوقه في جودتها من حيث التكافؤ مع النص الأصلي.

ويُعد عيد المترجم القديس من بين أهم الأعياد الدينية الوطنية لدى الشعب الأرمني، ويعرف الجميع في أرمينيا تاريخ وسير حياة ما يقرب من مائة مترجم، هم تلاميذ القديس ميسروب ماشدوتس واضع الأبجدية الأرمنية، والقديس ساهاك بارتيف الأب العاشر للكنيسة الأرمنية، واللذان عاشا في القرن الرابع الميلادي.

وقد لعبت ترجمة الكتاب المقدس دورًا هامًا في نهوض اللغة الأرمنية وتطورها، وترجمت بعدها أمهات الكتب الدينية من اللغة السريانية واليونانية، وأسهمت المؤلفات المترجمة في خلق تواصل حضاري مع اللغات والشعوب الأخرى، وبفضل حركة الترجمة تم الحفاظ على الكثير من المؤلفات الكلاسيكية، وتلك التي تعود إلى القرون الوسطى بالنسخ الأرمنية بعد فقدان أو تلف النسخ الأصلية، حتى أُطلق على القرن الخامس الميلادي العصر الذهبي في الثقافة الأرمنية.

وُلد ميسروب ماشدوتس - المترجم الأول والمعلم الأول ومؤسس أول مدرسة أرمنية - في عام ٣٦٢ ميلادية، وتوفي عام ٤٤٠. وبعد انخراطه في حياة الرهبة، عكف ماشدوتس على التبشير في المناطق التي كانت لا تزال تدين بالوثنية في سيونيك (حاليًا جنوب أرمينيا)، ثم في كوغته شرقي ناخيتشيفان، ولكنه واجه صعوبات في الدعوة باللغة الأرمنية بسبب سوء ترجمة الكتب المقدسة إلى هذه اللغة، مما دفعه لاستشارة بطريرك الكنيسة الأرمنية آنذاك سهاك بارتيف في الموضوع. كانت حينها فكرة خلق أحرف أرمنية منتشرة في الأوساط الثقافية في البلاد.

وجد ميسروب لدى مطران سرياني اسمه دانيال وثائق كثيرة حول الأبجديات المختلفة، استنبطت بفضلها أحرف أرمنية أولية، وبرعاية البطريرك سهاك قام بتدريسها لمجموعة من الأطفال على مدى عامين، ولكن مُنيت تلك التجربة بالفشل. تابع بعدها الراهب ميسروب أبحاثه في سوريا والرها ومن ثم في أميد، وهناك (أو في أنطاكية) تمكن أخيرًا من تحديد المحتوى الصوتي لكل حرف، ثم قام بإعطاء الأحرف رسمًا معيّنًا في ساموسات (قرية سامسات أو سميساط الحالية في تركيا)، مستعينًا بخطاط يوناني خبير اسمه هروبانوس. ومع عودته إلى أرمينيا امتلك ميسروب كل العناصر اللازمة ليؤلف أبجدية من ٣٦ حرفًا، زيد عليها حرفان إضافيان في نهاية القرن الثاني عشر. وهكذا أخذت الأبجدية الأرمنية الكلاسيكية شكلها النهائي، وغدا ميسروب ماشدوتس من أبرز أعلام الشعب الأرمني، وبذلك تعود الأبجدية الأرمنية إلى عام ٤٠٥ ميلادية، وفي عامي ١٩٢١ و ١٩٤٠ طرأت بعض التغييرات عليها. وفي البداية بلغ عدد حروف الأبجدية الأرمنية ٣٦ حرفًا، منها ٧ أصوات، و ٢٩ حرفًا ساكنًا. وفي القرن الثاني عشر تم إضافة حرفين. ويُطلق علماء اللغة على الأبجدية الأرمنية أنها من بين أكثر ٣ أبجديات الأكثر اكتمالًا في العالم.

وهناك أيضًا فرضية تقول إن الأبجدية الأرمنية كانت موجودة وتم إلغاؤها بعد اعتناق المسيحية، ثم جاء القديس ماشدوتس وأعاد إحياءها من جديد واعتمادها رسميًا في الدولة. ويرجع الفضل إلى القديس الأب بارتيف في اتخاذ قرار ترجمة الإنجيل إلى الأرمنية، وقد اعتبرت الكنيسة الأرمنية مترجمي الإنجيل في مرتبة القديسين؛ نظرًا لأنه وبفضل جهودهم استطاع الشعب الأرمني الحصول على إنجيل خاص به. ووضعًا في الاعتبار احتياجات ومتطلبات تلك الحقبة الزمنية، قام هؤلاء بوضع أصول الأدب الأرمني، فضلًا عن جهودهم في إحياء وبعث النهضة الثقافية والروحية في أرمينيا.

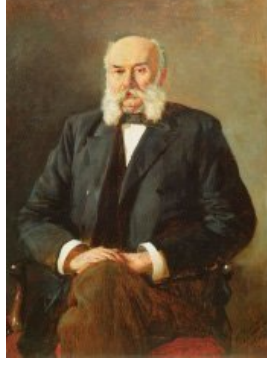
وقد أنهى ميسروب وتلاميذه ترجمة الإنجيل في عام ٤٢٨، كما تم إنجاز ترجمة العديد من الكتب الدينية والفلسفية أيضًا، وفي العام نفسه تم تأسيس دير ترجمانتشاس أو المترجمين القديسين؛ تمجيدًا وتخليدًا لذكرى ميسروب وبارتيف وتلاميذهم، كما تم اعتماد هذا اليوم عيدًا للمترجمين في أرمينيا.

اهتمَّ الأدب الروسي بالحضارات المحيطة به منذ نشأته، وبعد تولي القيصر بطرس الأكبر الحكم في عام ١٦٨٢م، أولى اهتمامه بالانفتاح على الحضارات الأخرى، خاصة المجاورة لإمبراطوريته، وكان من أوجه الاهتمام تشجيع العلماء والمفكرين والأدباء الروس على السفر إلى قارات العالم القديم، والتعرُّف على هذه الثقافات. ورغم بُعد المسافة التي تفصل الإمبراطورية الروسية عن القارة السمراء، وصعوبة الظروف التي كانت تعيشها أفريقيا في تلك الفترة؛ فإنها لم تبقى بعيدة عن اهتمام الأدباء الروس.

ومن بين أهم المصادر التي اعتمد عليها الروس في تكوين صورة عن القارة الأفريقية، كان الأدب الروسي؛ حيث كان لأفريقيا تأثير جليٍّ منذ بدايات القرن التاسع عشر في كتابات الأدباء الروس، ولعلَّ أشهرهم الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين، الذي تحتشد في كتابه: «عبد بطرس الأكبر» العناصر والإشارات الأفريقية، ويتناول فيها رؤية المواطن الروسي للقارة السمراء في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ورث الأدباء الروس فيما بعد تقاليد بوشكين في تناول أفريقيا في كتاباتهم.

وقد تناول العديد من النقاد الروس هذا الموضوع في كتاباتهم ونحاول في هذا المقال القصيرة التوقف عند أهم ملاحظاتهم. ولعلَّ أشهرهم ف.كوفشينوفا الذي يعدد مواطن تآثر الكتاب الروس الكلاسيكيين (بوشكين، ليرمونتوف، جونشاروف وتشيوخوف) بالموتيفات الأفريقية. ويرجع الفضل لبوشكين في لفت الاهتمام بهذا العالم الجديد على الشعب الروسي. حيث ساعدت كتاباته على بلورة صورة معينة عن القارة السوداء، تتسم بالغموض والأسطورية أحياناً، وبالرومانسية في أحيان أخرى، كما تبدو أفريقيا في كتاباته وأشعاره، بلاداً تنعم بالحرية على النقيض من روسيا.

كما ورد اسم أفريقيا في أشعار ميخائيل ليرمونتوف، وعلى الرغم من اطلاع الشاعر على العديد من الدراسات والأبحاث عن القارة السمراء، فإنه ذكرها مرات قليلة في قصيدته: «السكن الجديد الأخير»، حيث يصوِّر فيها سهول ووديان مصر في خضم حديثه عن حملة نابليون بونابرت على أفريقيا، ثم وردت مرة أخرى في قصيدة: «الجدال»، وتحدَّث فيها عن تدفق مياه النيل الصفراء بفعل كثرة الطمي فيها.



ثم ورد ذكر أفريقيا في كتابات الأديب إيفان جونشاروف، الذي كان له الفضل في تقريب صورة أفريقيا من وعي القارئ الروسي، ونزع عنها الغموض الذي اتسمت به في السابق، وسار على نفس النهج ككتاب آخرون مثل إيفان بونين ونيقولاوي جومليوف. ففي قصته القصيرة: «الدلتا» يصف بونين بالتفصيل زيارته الأولى إلى أفريقيا، حيث أعجب بالغرفة التي كان يقطنها والطعام الذي تناوله وانطباعاته عن سفرته بالقطار في القاهرة، وغير ذلك. كما كتب جوموليوف في: «يوميات أفريقية» وصفًا تفصيليًا لزيارته.

وفي مسرحيته الشهيرة: «الخال فانيا» (١٨٩٧م) وصف أنطون تشيخوف خريطة أفريقية المعلقة على حائط الغرفة، كما جاء ذكرها في نهاية المسرحية، بوصفها رمزًا للشيء البعيد العديم الأهمية، الذي لا يكثرث به شخوص المسرحية.

وصور الأدباء الروس أفريقيا بوصفها مكان الصدام بين قوى الشر وقوى الخير، ويبدو ذلك جليًا في قصة: «ماكسيمكا» فنسطنطين ستانيوكوفيتش (١٨٩٦م)، ويتحدث فيها عن حالة التخلف الذي يعاني منها سكانها وعن التدني الأخلاقي، الذي يتسم به المستعمرون.

ووفقا لكوفشينوف تصور أفريقيا في الأدب الروسي في القرن العشرين بوصفها المكان الذي سيشهد صراعًا، ومعركة بين القوى الاستعمارية الرأسمالية من ناحية وبين الشيوعية والبروليتاريا والعدالة من ناحية أخرى. ونلاحظ ذلك بجلاء في قصيدة بوريس كورنيلوف: «قارتي أفريقيا» (١٩٣٥م)، وقد صدر في عام ١٩٧٣م كتاب يحمل الاسم نفسه من تأليف يوري ناجيبين، يضم مجموعة من القصص القصيرة، كتبها المؤلف أثناء زيارته المتعددة إلى القارة السمراء، ويتعرف من خلالها القارئ على عالم الحيوان، والطبيعة، والفنون، وشكل الحياة الاجتماعية، والمشكلات اليومية لسكان أفريقيا، وخاصة بلدان مصر، وتونس، والمغرب، والسودان، والكونغو، وكينيا، ونيجيريا.

ويُعتبر نيقولاوي جوموليوف أول الأدباء الذين تناولوا القارة السمراء بوصفها كوكبًا خياليًا، تحيط به الألغاز والغموض، ويكاد يضاهي صورة الهند في وعي القارئ الروسي، وقد كتب جوموليوف الكثير من الأعمال عن أفريقيا، وصورها، وكأنها الجنة المفقودة على الأرض، ونذكر

منها كتابه: «يوميات أفريقية» ١٩١٣م، وتكرر نفس الموتيف (تصوير أفريقيا كجنة مفقودة) في أعمال أدباء آخرين، نذكر منهم أركادي أفيرتشينكو: «مزحة فاعل خير» و«وفاة صياد أفريقي» ١٩١٤م.

ومن أشعار جوميليوف عن مصر:
من ذاق يوماً ماء النيل
ستهفو نفسه إلى القاهرة
ليبق السادة هنا من الإنجليز
لا همّ لهم إلا شرب الخمر ولعب الكرة
فيما الخديوي هناك بعيداً
في برجه العاجي

رأى جوموليوف في أفريقيا مصدرًا للإلهام الروحي؛ ولذا فقد سيطرت القارة السمراء على كتاباته التي قدّم فيها أفريقيا بوصفها قارةً قويةً مليئةً بالألغاز، والغموض، والمخاطر، والقوة، والعظمة.

كما تعرّف الأطفال في روسيا على أفريقيا، بفضل القصائد الشعرية الكثيرة، ومن أشهرها كتابات كورني تشوكوفسكي، التي استخدم فيها أسماء الحيوانات والمدن الأفريقية، وكذا الظواهر والخرافات، وبفضل أشعاره تعرّف الأطفال الروس على هذه الأرض الغامضة الخيالية، وكوّنوا تصورًا كاملاً عنها من خلال الشعر.

وفي القرن العشرين، ووفقا لكوفشينوف أضحت أفريقيا لدى الكثير من الكتّاب الروس منارةً للأمل، وجنةً على الأرض، يجب السعي للوصول إليها، وظهر ذلك جلياً في كتاب يفجيني زامياتين: «أفريقيا» ١٩١٦م، غير أن أفريقيا بقيت جنةً يصعب تحقيقها على أرض الواقع الروسي. بقيت أفريقيا شيئاً ساحراً خيالياً.

وفي الوقت نفسه، وكما يرى الناقد بيول ف. في كتابه «رسائل من إفريقيا» كانت هناك كتابات تتحدث عنها بوصفها جحيماً، ورمزاً للوحشية والتخلف. ويهدف هؤلاء إلى المقاربة بينها وبين روسيا، التي لم تكن - في وجهة نظرهم - أكثر تطوراً من أفريقيا، ومثال ذلك كتاب: «على المحطة» للأديب ليونيد أندرييف (١٩٠٣م) ورواية: «الظلمة المصرية» للأديب ميخائيل بولجاكوف (١٩٢٥م)، حيث سعى الكاتبان إلى طرح المأساة الروسية باستخدام مفردات ومؤثرات أفريقية. ومثال آخر للاهتمام بأفريقيا، هو كتاب نيقولا زابولوتسكي: «رسائل من أفريقيا» (١٩٢٨م)، الذي يصف فيه تفصيلاً واقعاً، وعادات الشعوب الأفريقية، واعتبر الكتاب مادة وافية للباحثين والأطفال في المدارس.

ويرى الباحث أ.دافيدسون أن اهتمام الأدب السوفيتي بأفريقيا كان بمثابة وسيلة للسيطرة على

الأحزاب الشيوعية في القارة، حيث كان من المهم حشد التعاطف الشعبي تجاه شعوب القارة، وبدا ذلك جلياً في مقررات المدارس وأدب الأطفال، الذي تناول البشاعات التي ترتكب في القارة السمراء من المستعمرين.

وهكذا تراوحت صورة أفريقيا في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بين القول بأنها جنة مفقودة على الأرض والقول بأنها رمز للوحشية والتخلف والفقير. الأمر المؤكد أن الاهتمام بأفريقيا في الأدب الروسي لم يكن مصادفة ويرجع ذلك لأسباب معرفية في المقام الأول (القرن التاسع عشر وما سبقه) وأيديولوجية في المقام الثاني (القرن العشرين). وشاع استخدام نموذج القارة السوداء كمكان يمكن أن يشهد كل الاسقاطات المحتملة عن الواقع والحياة اليومية الروسية كما بدت رمزا للمكان البعيد وللحلم الذي يجب السعي لتحقيقه سواء مهما كلف الأمر.

الباب السادس

تفاعلات أدبية

(١)

ملاحح تأثر الأدب الروسي بالثقافة الفرنسية

لاشك أن تأثير الثقافة الفرنسية على أوروبا بأكملها كان طاعياً في القرنين ١٨ - ١٩ ميلادي. حيث كانت اللغة الفرنسية هي لغة طبقة النبلاء في أوروبا، وكانت فرنسا تمثل قبلةً لمشاهير الثقافة والفن والأدب. واحتلت اللغة الفرنسية مكانة مهمة في تاريخ وثقافة الشعب الروسي. وعلى الرغم من وقوع بعض الأخطاء التاريخية والأحداث المأساوية في العلاقة بين البلدين إلا أن الصداقة القائمة على وجود سمات

مشتركة وطبائع أخلاقية متشابهة بين الشعبين كالطيبة والكرم كان لها دور كبير في توطيد الأواصر بين الأمتين الكبيرتين الروسية والفرنسية. وبعد الإصلاحات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر، اندمجت روسيا في الحياة الأوروبية، وشهد القرن الثامن عشر تسارعاً في التقارب بين الثقافة الروسية والأوروبية، وكذا عمليات تعاون اقتصادي وتجاري واسعة.

وقد اهتم الروس على وجه الخصوص بفرنسا، التي كانت في تلك الفترة تمثل المشرع لكل ما هو جديد ونافع وكل ما هو فرنسي سواء كان تاريخياً أو أدبياً أو فناً أو علماً أو لغة.

وأتاح القيصرية الروس الفرصة للشباب للسفر للدراسة في الخارج ليس فقط في هولندا وإنجلترا بل في فرنسا. وأغلب هؤلاء قام بدراسة علوم البحار في مدينتي تولون وبريست والتي بدأ التوافد عليهما من قبل الطلاب الروس في عام ١٧٢٠. وفي منتصف ونهاية القرن الثامن عشر وصل عدد كبير من النبلاء الروس إلى باريس وليون ومونبوليه، ومنهم عدد من كبار الأدباء وأشهرهم تريدياكوفسكي وكارامزين وفونفيزين. وقد وصفت تلك الفترة بكونها فترة بناء وترسيخ العلاقات الثقافية بين روسيا وفرنسا.



كما أظهر الفرنسيون اهتماماً بل وولعاً بروسيا، حيث أولع الفلاسفة فولتير وديدرو وغيرهما بروسيا، وأعربوا عن إعجابهم بمنجزات الإمبراطورة يكاترينا الثانية. كما قام معماريون وفنانون وفلاسفة فرنسيون بالسفر إلى روسيا وزيارة العاصمة سان بطرسبورج.

اهتم فولتير بروسيا وهناك رسائل وخطابات متبادلة بينه وبين الإمبراطورة الروسية يكاترينا

الثانية، وكذا مع عدد من المثقفين الروس. وفي عام ١٧٤٦ تم اختياره عضوًا شرفيًا في أكاديمية العلوم الروسية. ومن أعماله المعروفة «تاريخ الإمبراطورية الروسية تحت حكم بطرس الأكبر» حيث أشاد كثيرًا بالإصلاحات التي قام بها القيصر. وفي عامي ١٧٨٢ - ١٧٨٣ صدر كتاب ضخ من ٥ أجزاء في باريس يحمل عنوان «تاريخ روسيا» لمؤلفه **ش. ليفيك**. أعقبه كتاب في قواعد اللغة الروسية للمؤلف **موردو**. كما اهتم **د. ديدرو** كثيرًا بروسيا، وكان على قناعة تامة بأن هذا البلد ينتظره مستقبل مشرق. وقام **ديدرو** بمتابعة التقدم الذي طرأ على العلوم الروسية، وتعرّف على أعمال كبار الفلاسفة والعلماء الروس أمثال **ميخائيل لومونوسوف**، كما درس اللغة الروسية لكي يتمكن من قراءة أعمال الأدباء الروس في أصلها. كما قام الفنانان **ج. بيرليوز** و**ك. ديبيوسي** بتنظيم حفلات موسيقية في روسيا.

وفي الوقت نفسه اهتم أهل العلم والثقافة في روسيا بقراءة كتب الفلاسفة الفرنسيين من أمثال **فولتير** و**ديدرو** و**مونتيسكي**، كما اهتموا كثيرًا بالإبداعات الأدبية الفرنسية، فعلى سبيل المثال حظيت أعمال **بومارشيه** بنجاح وانتشار كبير في روسيا. كما شهدت تلك الفترة حركة ترجمة واسعة من الفرنسية إلى الروسية. حتى إن كل الأدباء الروس تقريبًا في القرن الثامن عشر قد اشتغلوا بترجمة أعمال أدبية فرنسية إلى الروسية، ونذكر منهم **ميخائيل لومونوسوف** و**فلاديمير تريدياكوفسكي** و**د. فونفيزين** وغيرهم. وفي بداية القرن الثامن عشر كان الكتاب الفرنسي يحتل المرتبة الثالثة في روسيا بعد الكتاب اللاتيني والألماني. فيما مثلت الترجمات من الفرنسية أكثر من نصف حجم الأعمال المترجمة في منتصف القرن الثامن عشر.

وبعد قيام الثورة الفرنسية تم استئناف العلاقات بين البلدين بعد فترة قطيعة، وأصبح الروس ضيوفًا مرحبًا بهم في المدن الفرنسية. قام الروس بتنظيم حفلات وأعياد في باريس. وكان عددهم كبيرًا لدرجة أنه تم افتتاح محال تجارية ومقاهٍ خاصة بهم. وكان أغلب المترددين على المسارح والمتاحف الفرنسية من الروس.

وفي الفترة بين عامي ١٧٨٩ - ١٨١٢ كانت هناك منطقة لإقامة الفرنسيين وتجمعهم في موسكو. وبعد عام ١٨١٢ قام الفرنسيون بتأسيس جمعيات لرجال الأعمال والتجار في مختلف المدن الروسية الكبرى.

كما عمل عدد كبير من الفرنسيين في المؤسسات التعليمية الروسية مثل المدارس الثانوية والجامعات والمدارس الخاصة. كما اشتغل عدد كبير في مجال البحث العلمي ومنهم الدكتور **إ. فوجيوي** الأستاذ بجامعة **سان بطرسبورج**. وقد لعبت اللغة الفرنسية دورًا مهمًا في الحياة الجامعية. وكان هناك عدد كبير من الفرنسيين يعملون أساتذة بجامعة موسكو، ومنهم الأساتذة **لابون** و**راول وليفي** وغيرهم. وكان هناك العديد من المقررات التي تدرس باللغة الفرنسية مباشرة، ومنها على سبيل المثال التاريخ والجغرافيا؛ فضلًا عن اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي.

وفي القرن التاسع عشر ارتفعت أعداد الروس القادمين إلى فرنسا بغرض الدراسة في السوربون وأكاديمية الفنون الجميلة وكوليج دي فرانس. وظهر جيل من شباب الرخالة الروس ذوو التوجهات الليبرالية.

وفي مطلع القرن التاسع عشر زار فرنسا قادة ثورة الديسمبريين في روسيا ومنهم م. لونين وف. كوخيليكير. وفي عام ١٨٢٨ صرح وزير التعليم الروسي س. اوفاروف بأن الأدب الفرنسي يمثل المصدر الأساسي والدافع الرئيسي لانتشار الأفكار الكاذبة للثوار الديسمبريين. (ثورة الديسمبريين - ١٨٢٥) ومنذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر اختار مثقفو المهجر الروس فرنسا كمقر للإقامة الدائمة. حتى إن الأديب **جيرتسين** قام بإنشاء مكتبة للطلاب الثوريين في مدينة نيس الفرنسية، وقام الأديب **تورجينييف** بالأمر نفسه.

وقد أدى الاهتمام الكبير من قبل الروس بالثقافة الفرنسية إلى ميلاد ظاهرة **الفرانكوفيل** أو الولع والتقدير والشغف بكل ما هو فرنسي. وسادت هذه الظاهرة في روسيا في الفترة بين منتصف القرن الثامن عشر إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وتعرف ظاهرة **الفرانكوفيل** بأنها التغلغل المكثف للغة والثقافة الفرنسية في مجتمع ما. وقد حدث ذلك بوضوح في روسيا، كما قام العلماء الروس ببذل جهود كبيرة في دراسة فرنسا. وشهدت تلك الفترة تغلغلاً كبيراً للثقافة الفرنسية في شتى مناحي الحياة في المجتمع الروسي الجديد، الذي كان قيد التشكل. وانتشر التأثير الفرنسي في الفنون والموسيقى وفي اللغة الروسية. وقد سبق ظهور **الفرانكوفيل** في روسيا مرحلة سابقة تمهيدية، كما تبعتها مرحلة من الخوف في التأثير الفرنسي على الثقافة الروسية. وعاشت البلدان الأوروبية كافة هذه الظاهرة بدرجة أو بأخرى غير أنها في روسيا كانت أكثر وضوحاً.

كانت معرفة اللغة الفرنسية أمراً واجباً وإلزامياً على كل إنسان مثقف في روسيا، وكان المجتمع يقيس بها درجة تعليم الفرد وثقافته. ويرجع السبب في ذلك ليس فقط إلى الدور الذي كانت تلعبه فرنسا في الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية في أوروبا، بل وإلى الدرجة العالية من التطور الذي اتسمت به اللغة الفرنسية حينها.

كانت اللغة الفرنسية، هي لغة الدبلوماسية والصالونات، التي تضم النخب المثقفة والمتعلمين وكانت لغة البلاط الحاكم والنبلاء. كان الأثرياء والمثقفون الروس يتحدثون الفرنسية بطلاقة في القرنين ١٨ - ١٩. كما كان الشعراء يتراسلون فيما بينهم بالفرنسية وخاصة في الفترة التي عاش فيها الشاعر الكبير **ألكسندر بوشكين** وما قبلها، كما كانت اليوميات والمذكرات تكتب بالفرنسية. وقد تحدث الأدباء الروس عن الدور المهم للغة الفرنسية في الحياة الثقافية للمجتمع الروسي، وتؤكد المواد الأرشيفية درجة الإتقان والكمال والصحة والدقة والسهولة، التي كان الروس يكتبون ويتحدثون بالفرنسية بها. وكانت اللغة الفرنسية تدرس بالمنازل قبل أن يتم تقريرها كمادة دراسية

بالمدارس، كما اعتبرت معرفة هذه اللغة مكوناً وشرطاً أساسياً في تعليم كل مواطن روسي. وقد سعت طبقة الملاك والأغنياء في روسيا إلى تعلّم الفرنسية، حتى إنها كانت تتقن الفرنسية أكثر من اللغة الأم الروسية. وكان هناك اعتقاد أن اللغة الفرنسية تمتلك وسائل بديع وجمالاً في التعبير تمنح المتحدث بها قدرة على التعبير بشكل راقٍ ومؤثر عن أي شيء، سواء كان مهماً أو في أدق التفاصيل الحياتية، كما أتقن الروس من طبقة الملاك والنبلاء طريقة الفرنسيين في التعامل وسلوكياتهم في المواقف المختلفة، كما التزموا بالصيحات الفرنسية في الأزياء وأبدوا اهتماماً كبيراً بالأدب والفن الفرنسي. كل ذلك ساعد على شيوع اعتقاد بأن معرفة الفرنسية هي شرط أساسي لمنح الشخص صفة الإنسان المثقف والمتعلم والناجح.

كما استخدمت اللغة الفرنسية على نطاق واسع في المؤلفات الأدبية الروسية. فنصف أشعار **تريدياكوفسكي** كتبت باللغة الفرنسية، وهناك عدد من القصائد الشعرية التي كتبها **بوشكين** و**ليرمونتوف** بالفرنسية. كما شاع استخدام اللغة الفرنسية داخل النص الروسي وفي كثير من الأعمال الكبرى ومنها «الحرب والسلام» و«**انا كارينينا**» وغيرها.

غير أنه كان هناك رد فعل سلبي لظاهرة **الفرانكوفيل** من جانب بعض المثقفين الروس الذين يتقنون الفرنسية، ولكنهم انتقدوا طغيان هذه الظاهرة في المجتمع. كان شيوع استخدام اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ضرورة اقتضتها حاجة المجتمع الروسي حينها، حيث لم تكن هناك لغة روسية تصلح للاستخدام في المجتمع المثقف أو في أفرع العلوم التي كانت أوروبية التوجّه. كانت لغة حوار طبقة النبلاء والملاك في روسيا في القرن التاسع عشر تحتوي على كمّ هائل من المفردات والتراكيب والتعابير والاقتراسات الفرنسية. وكان من الصعب على هؤلاء المتحدثين باللغة الروسية في كثير من الموضوعات؛ ولذا فقد غلب استخدام اللغة الفرنسية في نقاشاتهم.

حظيت اللغة الفرنسية باهتمام كبير، كما شاع استخدامها لدرجة أن ظهر تيار رأى في ذلك خطراً على الهوية الروسية، وتأثير سلبي على اللغة الوطنية.

فقد هاجم الأديب الروسي **أ. سوماركوف** في أعماله المسرحية مختلف الظواهر السلبية في المجتمع الروسي، وعد من بينها إهمال الروس للغتهم الأم ولعهم باللغات الأجنبية. حتى إنه قام بكتابة قصيدة ساخرة يهجو فيها ولع الروس باللغة الفرنسية وأطلق عليها اسم «**وإذ نفسد لغتنا بأيدينا**».

كما هاجم الأديب الكبير **جربويدوف** في روايته الشهيرة «**ألم العقل**» ولع الروس باللغات الغربية عليهم وعدم احترامهم للغتهم. يقول **جربويدوف** على لسان أحد أبطاله «كان التأثير القوي للثقافة الفرنسية يجعل من السهل على أي فرنسي لا يعرف أي كلمة بالروسية العيش في روسيا وكأنه في وطنه.»

وأشار **ف. كونييسكي** إلى أن التلاميذ يقضون ثلثي وقتهم في تعلم تراكيب لغات أجنبية ناسين أنهم بذلك يفسدون ويدمرون لغتهم الأم. ويعود السبب في ذلك أن أغلب كتب تعليم اللغات الأجنبية كانت تستخدم لغة روسية مشوهة في الشروح والأمثلة.

وهكذا يمكن القول إن تأثير الثقافة الفرنسية على الروسية كان قويًا، وأن استخدام اللغة الفرنسية كان على نطاق واسع في المجتمع الروسي، وخاصة بين الأثرياء والنخب المثقفة وشريحة المتعلمين. وقد دفع ذلك العديد من علماء التربية ورجال المجتمع إلى الدفاع عن ضرورة تدريس اللغة الروسية والأدب الروسي في المدارس.

واختتمت عملية استيعاب الثقافة الفرنسية من قبل الروس بالاهتمام بالأدب، حيث زار فرنسا كل من **بيلينسكي وجوجل وتولستوي ودوستويفسكي وتورجينيف**. ويعتبر اللقاء الذي تم بين **إيفان تورجينيف وب. ميريمي** في عام ١٨٥٧ حدثًا مهمًا في تاريخ الحوار الفرنسي الروسي. كان ميريمي مولعًا بالأدب الروسي والثقافة الروسية، ولم يهتم فقط بالقضايا الأدبية بل والمشكلات التي تتعلق بتطور اللغة الروسية، وقد انخرط في النقاشات الدائرة عن اللغة الروسية، التي كانت على أشدها في روسيا، وأطلق **ميريمي** على اللغة الروسية لقب اللغة الأكثر ثراءً بين جميع اللغات الأوروبية.

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت أعمال **دوستويفسكي وتولستوي وأوستروفسكي** و**نيكرا سوف** و**سانتيكوف شيدرين** قد ترجمت بالكامل إلى اللغة الفرنسية.

وفي عام ١٨٩٨ تم في باريس تأسيس الجمعية الفرنسية الروسية، التي ضمت أدباء وعلماء مع رجال أعمال وصناعة. كما ظهر عدد من دور النشر المتخصصة في طباعة الكتب باللغة الروسية. وفي الوقت نفسه، انتشرت اللغة الفرنسية في روسيا، وشاعت سمات الثقافة الفرنسية في المجتمع الروسي، وتم ذلك ليس فقط بفضل الكتب بل وبجهود الفرنسيين أنفسهم، حيث سافر عدد كبير من الفرنسيين إلى روسيا. وكان من هؤلاء رجال ثقافة مشاهير قدموا إلى روسيا وأقاموا بها، ومنهم **ديدرو وديوما الأب والنحات فالكون** الذي قام بإبداع تمثال بطرس الأكبر والمعماري **مونفيران وفنان الباليه م. بيتيبا**، الذي تعاون مع الموسيقار الروسي **تشايكوفسكي**. كما كان بينهم رجال مجتمع وأرستقراطيون وكتّاب فروا من فرنسا ومن الثورة الفرنسية، ومنهم الكاتب والفيلسوف **جوزيف دي ميسيتير** وأخوه الفنان **كسافي دي ميستر** والأديبة **مدام دي ستال** والنيل **دي سيجيور** والكاتب **لويس فيليب دي سيجيور**.

ويمكن القول بثقة إن الروس قد تمكنوا خلال القرنين ١٨ - ١٩ من إرساء حوار بين الثقافتين الروسية والفرنسية، وكان الحوار يتسم بالتوازن في القوة بين الطرفين. حيث كان للفكر الروسي صدى وتأثير في فرنسا، وأصاب الولع والشغف بكل ما هو روسي ليس فقط لدى الشعب الفرنسي البسيط بل والنخبة المثقفة أيضًا والمبدعين.

وفي نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين خفت حدة ظاهرة **الفرانكوفيل**؛ إلا أن المؤسسات التعليمية أبقّت على تدريس الفرنسية. واستمر الوضع حتى قيام الثورة الاشتراكية في عام ١٩١٧م، كانت اللغة الفرنسية حتى ذلك تحتل مكانة مهمة في النظام التعليمي، وتأتي بعد اللاتينية والألمانية في الترتيب.

في نهاية القرن التاسع عشر، كانت دراسة الأدب الفرنسي من المتطلبات الإلزامية لفهم الأعمال الأدبية الروسية بشكل جيد. وقد اختارت لجنة الارتقاء بتدريس اللغات المشكلة في عام ١٨٨٣ عدد من مؤلفات كبار الأدباء الفرنسيين، الذين كان لهم عظيم الأثر على الأدب الروسي. ونذكر منهم **مولير وراسين وكورنيل وباولو وفولتير ولافونتين وديدرو وبومارشيه**.

ولعله من المهم أن نفرّد مساحة للحديث عن ظاهرة **نابليون بونابرت** في الأدب الروسي نظرًا للتأثير الكبير والملاحظ في أعمال العديد من الأدباء والشعراء الروس بفعل تأثرهم بالأحداث التاريخية التي وقعت بين البلدين أو بفعل انبهارهم بشخصية هذا القائد الشهير الذي حوّل مسار التاريخ العالمي، وكان لشخصيته تأثير كبير على الوعي الروحي لكثير من شعوب العالم. ولم يكن الأدب الروسي استثناءً من ذلك.

ويعود تاريخ ظهور شخصية **نابليون** في الأعمال الأدبية الروسية إلى عام ١٨١٢. فبفعل تأثرهم الشديد بأحداث الحرب الوطنية، قام كبار الشعراء الروس حينها (**بوشكين وديرجافين وكريلوف وجوكوفسكي وغيرهم**) بتصوير شخصية الإمبراطور الفرنسي بوصفه شخصًا وحشيًا طاغية محبًا للسلطة، ويرجع السبب في هذه الصورة أحادية الجانب تجاه شخصية **نابليون** إلى الروح الوطنية التي سيطرت على هؤلاء الأدباء خاصة في السنوات الأولى التي تلت الحرب، حيث كانت مشاعر الكراهية هي السائدة تجاه شخص اعتدى على الأراضي الروسية والشعب الروسي. كان **نابليون** في تلك الفترة العدو الأول لروسيا؛ لذا فقد انبرى الأدب الروسي مدافعًا عن الوطن، وأبدى استعدادًا كاملًا لتجاهل أي سمات شخصية، وقدرات يتمتع بها هذا القائد العظيم.

فقد قام الشاعر الكبير **ديرجافين** بكتابة عدد من القصائد عن **نابليون**، ولعل أهمها قصيدة «**نشيد... نبذ الفرنسيين من الوطن**» (١٨١٢). وفيها يصور القائد الفرنسي كحيه أو **نبوخذ نصر** ثاني يفوح منه دخان ورائحة نتنة. كما صوّره أنه «**مسيخ دجال**». وأصبح الوصف الأخير متداولًا وأصيلًا، نظرًا لأنه نقيض وعدو للمسيح؛ لذا فإنه محكوم عليه بالقتل والفناء. ونلاحظ في قصائد الشاعر أنه قد التقط بصدق الدافع الأساسي لتصرفات **نابليون** ألا وهو الطموح الزائد.

كما قام الشاعر **كريلوف** في عام ١٨١٢ بتصوير **نابليون** كمحارب، ويتناول المفاوضات التي دارت بينه وبين القائد الروسي الشهير **كوتوزوف**، التي باءت بالفشل، كما يصور في قصائده أحداث الحرب بالتفصيل ورد فعل الشاعر على هجوم **نابليون** على موسكو وسعيه لاحتلالها، واتسمت كل قصائد **كريلوف** بانتقاد **نابليون** بشكل حاد، واتهام جيشه بالسطو والنهب.

كما قام الشاعر **جوكوفسكي** في قصيدته «رسالة إلى الإمبراطور الاسكندر» بهجاء نابليون بشدة. ووصف الإمبراطور الفرنسي بكونه نبئًا شيطانيًا يبعث الرعب والفوضى والحرب. وفي قصائده عن حرب ١٨١٢ يتحدث الشاعر عن عجرفة نابليون وتعاليه غير المستحق ورغبته أن يهيمن على العالم.

ولا تختلف رؤية **ألكسندر بوشكين** لنابليون عن تناول سابقه لهذه الشخصية. ففي قصيدة بعنوان «نابليون على شاطئ نهر الإلبا» (١٨١٥) رسم **بوشكين** شخصية الإمبراطور الطاغية المتعطش للسلطة، الذي تسيطر عليه أحلام المجد والقوة.

وفي نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، والسنوات اللاحقة شهدت العلاقات بين الأباطرة الروس ونابليون بونابرت كثيرًا من التناقضات؛ الأمر الذي أدى إلى تباين الآراء حول شخصيته، حيث لم تعد شخصيته سلبية على الدوام. يشير الباحث **جرونسكي** إلى أن كتّاب تلك الفترة في روسيا استوعبوا حقيقة أن الإنسان الواحد يمكن أن تكون لديه مناقب مثلما لديه مثالب وعيوب. وشهدت العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر ظهور أعمال أدبية وكتابات تصور **نابليون** كشخصية تاريخية عظيمة بعيدًا عن تناول الأحداث، والصدام مع روسيا.

ولعل المثال الواضح على ذلك القصيدة الشهيرة للشاعر **بوشكين**، التي تحمل عنوان «نابليون» وقد كتبها الشاعر بمناسبة وفاة الإمبراطور الفرنسي. وتسيطر على أجواء القصيدة أجواء ومشاعر المغفرة لنابليون، ونسيان كل ما اقترفه من جرم، وتقديره كشخص عظيم وأن سياساته التوسعية في العالم أدت رغماً عنه إلى منح روسيا مجداً عظيماً وشعبها تقديرًا واحترامًا بين غيره من الشعوب. كما يشير **بوشكين** في قصيدته إلى أن **نابليون** قد أثار إلى الشعب الروسي بما يجب عليه القيام به ألا وهو الحفاظ وإنقاذ الحضارة الأوروبية من الانهيار.

كما أن عبقرية وعظمة **نابليون بونابرت** واضحة جلية في إبداعات الشاعر **ليرمونتوف** (العلاقان) (نابليون الإمبراطور الفرنسي). بقي **ليرمونتوف** طوال حياته مخلصًا لشخصية **بونابرت** ويكنُّ له تقديرًا واحترامًا كبيرًا. وفي قصيدته (القديسة يلينا) صور **بونابرت** منزلًا من كافة العيوب والنواقص. فضلًا عن ذلك صور **ليرمونتوف** القائد الفرنسي ضحية للخيانة والغدر.

وفي نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بدأ كتّاب النثر الروس أيضًا في الكتابة عن **نابليون**، حيث تناول كل من **زاجوسكين** و**بولجارين** و**بروتوبوبوف** شخصية **نابليون** في رواياتهم وانطلقوا من فكرة وحقيقة مسلمٌ بها ألا وهي عظمة الإمبراطور الفرنسي التي لا خلاف عليها.

وهكذا يمكن القول إن المستوى العالي لتطور الثقافة والعلوم والتحولات الاجتماعية، التي شهدتها فرنسا والروابط الثقافية الوثيقة بين روسيا وفرنسا والاهتمام الكبير من قِبل روسيا بفرنسا تمثل عوامل وأسبابًا قوية ساعدت على تحول معرفة اللغة الفرنسية إلى أحد أهم أسباب تضاعف

وتنامي القدرات الثقافية والفكرية في روسيا، ودعم تطورها الثقافي.
ولم يخفت الاهتمام بفرنسا وبالثقافة الفرنسية حتى اليوم في روسيا، حيث تلعب اللغة الفرنسية دورًا متناميًا في تطور علم اللغة الثقافي المعاصر في أوروبا ما بعد توحيدها، وينظر إليها الروس بوصفها اللغة الثانية في العالم، واللغة التي لها فضل كبير في تطور الحضارة الأوروبية، والتي تمثل قيمة كبرى لدى الكثير من شعوب أوروبا.

كازاخستان - دولة كبيرة، تتميز بتنوعها الثقافي والإثني، وبدرجة عالية من التسامح الديني والقومي. تقع في منطقة آسيا المركزية، ويمتد تاريخها لعشرات القرون، وترتبط مع الحضارة العربية بإرث كبير من التأثير والتأثر والتفاعل الحضاري. كما انفتحت في الوقت نفسه على الحضارة الأوروبية، وفي مقدمتها الروسية، وقدمت صورة رائعة للإسلام المستنير.

وكان للأدب الكازاخي نصيب من هذا الثراء، حيث يبدو أدبًا غنيًا، استفاد من ثراء التربة الكازاخية الشاسعة (كازاخستان -تاسع دولة من حيث المساحة في العالم)، وكذا من التماس مع حضارات الشرق والغرب، وتواجد ممثلي مختلف الثقافات على أراضيه.

يرجع تاريخ أول الآثار الأدبية الكازاخية إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ونعني هنا داستانة (قصة) «نهر باتير». وتعود جذور الأدب الكازاخي إلى عصور قديمة، وقد تميز بكونه لم يتوقف عن التطور قط. وقد ساد الخطاب الشفهي والأدب المنقول شفهيًا لقرون طويلة في الأدب الكازاخي؛ خاصة في أدب شعوب آسيا الوسطى والمركزية عامة. ومع مرور الزمن وتغير العصور، حافظ الأدب على ميزته وأفضليته، حيث كان -دومًا - السمة المميزة، التي يعتز بها الكازاخ، سواء من البدو أو المحاربين. وربما يرجع ذلك إلى احترام الشعب الكازاخي وتقديسه منذ القدم للروحانيات، وسعيه لفهم معنى الحياة وفلسفتها، وما هو وراء العالم المادي.

ويزخر الفلكلور الكازاخي بالعديد من الأساطير الدينية والحكايات والأمثال الشعبية والأقوال والأشعار البطولية والملحمية. ونذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - ملحمة «البطل الباميس» و«العلاق كوبييل أندي». وبفضل ثراء الأدب الشعبي الكازاخي، وجد الأدب المكتوب كنزًا زاخرًا بالموضوعات والموتيفات التي قام على تطويرها لاحقًا.



وعلى مدى سبعة قرون (القرون ١ - ٧ ميلادي) أبدع الشعراء الكازاخ من المحاربين الرّحل قصائد لإلهام زملائهم على القيام بالبطولات والمآثر، وعلى التحلي بالشجاعة والإقدام. وكتب هؤلاء الشعراء الكثير من القصائد، التي تغنّت بالعدالة، والشجاعة، وحب الإنسان لأخيه، واحترام وتقديس الحياة.

ويُعد الشاعر الأسطوري **دده قورقوت**، الذي عاش على الأرجح في القرنين السادس والسابع من أبرز شعراء الأدب الكازاخي القديم. ويحتوي كتابه الذي يحمل اسمه على مجموعة من الحكايات الأسطورية لشعوب الأوغور. وقد ظهر القسم الأكبر من هذا الكتاب، الذي يضم بين دفتيه اثنتي عشرة أسطورة، لأول مرة بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. وهناك أيضًا **قازتوغان جيراو**، الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان رائدًا للفلسفة الوجودية. لم يكن **قازتوغان** شاعرًا فحسب، بل كان أيضًا محاربًا، لا يعرف الخوف. وهناك أيضًا **أسان كايجي**، الفيلسوف والشاعر، الذي عاش في القرن الخامس عشر، ومؤلف الكثير من الوصايا والأغاني، التي تحمل أفكارًا فلسفية عميقة.

وشهدت الفترة بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، بداية مولد وظهور الأدب المكتوب جنبًا إلى جنب مع الأدب الشفهي.

هؤلاء من أحبّ السُّهوب، وعاش فيها كل حياته، وتغنّى بها. وفي المقابل كان هناك من ترك السهوب إلى الحضر، حيث المدن والشعوب المستقرة. ويتسم الكازاخ بانفتاحهم على الثقافات الأخرى، فقد عكفوا على دراسة علوم الشعوب المجاورة، وقبلوا ثقافتهم؛ ولذا نجد الكثير من الكتابات الكازاخية باللغات العربية والفارسية. ونذكر هنا - على سبيل المثال - العالم الشهير **الفارابي المنحدر** من شعب كيبيتشاك، الذي أثبت بالدليل أن البداوة ليست ثقافة مغلقة بل منفتحة على العالم، وأن سكان السهوب متسامحون مع الثقافات الأخرى. ويوصف **الفارابي** بأنه المعلم الثاني للشرق، وهو ينحدر من مدينة فاراب بكازاخستان، وعاش في القرن العاشر الميلادي، وهو الفيلسوف، وعالم الرياضيات، وواضع النظريات في الموسيقى، وأحد أهم ممثلي حضارة القرون الوسطى في الشرق.

ويُعد الشاعر **جيميبيت** آخر رواة البطولات الشفهية الكازاخ، فيما يعد **نسان باي جيراو** آخر شعراء الرثاء الشفهي.

ونظرًا لخصوصية بنية الحكم في مملكة الكازاخ، كانت أهم الموضوعات التي تناولتها إبداعات الشعراء في الفترة بين القرنين ١٥ - ١٨ هي ضرورة توحيد القبائل والتماسك بين مكونات مملكة الكازاخ، ودعم قوة المملكة العسكرية. ومن أشهر ممثلي تلك الفترة **أصان قايجي** (القرن الخامس عشر) والشاعر **صيبير** (القرن ١٥) والشاعر **جيميبيت** (القرن ١٧) والشاعر **ماراسكا** (القرن ١٧) والشاعر **أكتام بردي** (القرن ١٨) وغيرهم

كما تطور في تلك الفترة الأدب المكتوب، الذي أبدعه في الأساس شعراء وأدباء البلاط، وكانت كل موضوعاته تاريخية. ومن بين أهم الكتب التي بقيت من تلك الفترة كتاب «بابور نامه» لمؤلفه زاخر الدين بابور، وكتبا «جامع التواريخ» و«شجرة الترك».

وكان صدور المرسوم الإمبراطوري الروسي بإلغاء الخانات (الممالك) الكازاخستانية في عام ١٨٢٢ سبباً في حدوث تغييرات واسعة النطاق في الحياة الدينية لدى الكازاخ، حيث أدى ذلك إلى تراجع الأدب البطولي، الذي استمر لقرون هو السيد في السهوب الكازاخستانية، بما في ذلك الحكايات والملاحم والأساطير. لم يعد أدب الأساطير يتمتع بنفس المكانة كما كان في السابق، وعاشت السهوب الكازاخية فترة فراغ إبداعي، استمرت لنصف قرن قبل ظهور الشاعر العظيم آباي. كانت تلك العقود الخمس بمثابة فترة وداع بين الحضارة الكازاخستانية وإرثها البطولي الشجاع وترقب ظهور جيل جديد من الكازاخ. كتب هؤلاء الأغاني البطولية أيضاً، ولكنها كانت أقل بطولة وشجاعة، وكان أغلبها يتحدث عن الحنين إلى الماضي والحزن على فقدان المجد. عكست الأشعار الحزينة والمحبة تلك الحالة المزاجية في حقبة التغييرات الحادة، التي عاشتها كازاخستان، حيث فقدان القيم القديمة، في حين لم تكن القيم الجديدة قد تشكلت تماماً.

أما تقاليد الأدب المكتوب، فتعود أصولها إلى الشاعر الكازاخ العظيم آباي إبراهيم قونانباي، الذي يعد أول شاعر كازاخ يبدع شعراً مكتوباً وليس (شفهياً) لفظياً. ويعدّه الكثيرون مؤسساً للأدب الكازاخ والكتابة الكازاخية. ويعتبر آباي إبراهيم قونانباي من أهم شخصيات تلك الفترة بلا منازع. وهو شاعر، وموسيقي، ومفكر، ورائد في التنوير، وأول كاتب كلاسيكي كازاخ. كما قام بالعديد من الإصلاحات في مجال الثقافة، وعمل على التقريب بينها وبين الثقافتين الروسية والأوروبية؛ انطلاقاً من النظرة المستنيرة للدين الإسلامي، ومن أشهر أعماله «كتاب الأقوال»، الذي يتناول فيه مختلف القضايا التاريخية، والأخلاقية، والتربوية، والقانونية، لدى الكازاخ.

ويمثل القرن التاسع عشر في تاريخ الأدب الكازاخ، فترة رسوخ لعدد من التقاليد الأدبية والاكتشافات الإبداعية، التي ترتبط بتاريخ الشعب الكازاخ وعشقه للحرية. شهدت السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ترسيخاً لسلطة القيصر والحكم المطلق، حيث تم إلغاء نظام الملكية في كازاخستان، ودعم السلطة المركزية عوضاً عن ذلك. وكان لذلك أثره القوي على تطور الإبداعات الشفهية الشعرية التقليدية، حيث ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على إحداث التقارب بين الأدب ومصالح الجماهير والشعب الكازاخ. وتحولت اهتمامات الشعراء إلى تناول الموضوعات التي تهم البسطاء، والحديث عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية. كما عبّر الشعراء عن قلقهم ورفضهم لتنامي سيطرة المستعمر أو المحتل، وظهرت حركة التحرر الوطني، وظهرت الملاحم الشعرية البطولية، التي تنادي بالنضال ضد المستعمر.

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشاراً واسعاً للأدب الكازاخ، الذي نال اعترافاً

وتقديرًا كبيرين. ويرجع الفضل في ذلك إلى اهتمام هذا الأدب بالتعبير عن الواقع. اكتشف هذا الأدب إمكانات وآفاقًا جديدة للإبداع، بفضل العظمة دولت ومحبات وشورتان باي، ومن بعدهم أمير شعراء كازاخستان، ومؤسس الأدب الكازاخي الحديث، آباي قونانباي. كما أثرت الأغاني الكازاخية الشعر التركي القديم بالموضوعات والأجناس، حيث يرجع لها الفضل في تطور الموتيقات البطولية والتعبير عن الواقع. عكست هذه الأغاني الأحداث التاريخية، التي صاحبت نشأة مملكة الكازاخ وظهور الشعب الكازاخي. وكان لإبداعات الشعراء الكبارين قازتوغان وشالكيز دور كبير في إثراء الشعر الكازاخي.

كما يمثل القرن التاسع عشر بالنسبة للكازاخ فترة استيقاظ للوعي الوطني، حيث انعكست هذه التحولات السياسية والاجتماعية بجلاء في الأدب؛ ولذا تمثل إبداعات تلك الفترة معينًا لا ينفد للتراث الإبداعي الكازاخي، الذي يتحدث عن أخلاق الشعب، وكرمه، وسعيه الدؤوب للتحرر. وشهدت تلك الفترة تطور الأجناس الأدبية التقليدية، كالملمحة التاريخية، والشعر الغنائي الفلسفي، والأغاني الطقسية اليومية، كما شهدت تلك الفترة التقارب الإبداعي والتفاعل الأدبي بقوة مع الشرق العربي، وكذا التواصل عن كثب مع الأدباء الروس. كما نشطت حركة الترجمة عن العربية والروسية.

وشهدت بدايات القرن العشرين المزيد من التنوع في الأدب الكازاخي، من حيث الأجناس والموضوعات المطروحة، غير أنه ونظرًا للظروف التاريخية شهدت تلك الفترة أيضًا تشكُّل اللغة الكازاخية الفصحى المعاصرة، حيث ظهرت أشكال أسلوبية جديدة، وأتقن الأدباء الكازاخ الأجناس الأدبية الجديدة.

ومن أبرز الأدباء في تلك الفترة أحمد بايتورسينوف، الذي قد قام بترجمة أغاني الشاعر الروسي كريلوف وله العديد من الدواوين والمقالات عن اللغة الكازاخية، يناهز فيها بقاء اللغة وتحريرها من الألفاظ الدخيلة عليها من اللغتين الروسية والتترية. ويمكن اعتبار بايتورسينوف مؤسسًا لعلم اللغة الكازاخية.

وهناك أيضًا الأديب مير يعقوب دولت أولي، الذي يرجع له الفضل في تأليف أول رواية كازاخية «جمال التعيسة» (١٩١٠)، كما قام بتأليف العديد من الدواوين الشعرية باللغة الكازاخية. فضلًا عن ذلك قام بترجمة العديد من إبداعات الشعراء شيلير وبوشكين وليرمونتوف وكريلوف، وغيرهم. كما قام بالعديد من الإصلاحات في اللغة الكازاخية الفصحى المعاصرة، واستخدم ألفاظ وتراكيب جديدة في مؤلفاته.

وهناك أيضًا يوسف بك إماموت أولي والكاتب الصحفي محمد جان صاراليولي وسبانديارا كوبييفا وغيرهم.

كما شهدت بدايات القرن العشرين تطور الأدب الفلسفي الأخلاقي، ولعل أهم ممثلي هذا النوع

من الأدب سيفولين ساكين ومشهور يوسف ومحمد سليم كاشيموف وشاكاريم كوتسايرديولي وغيرهم.

وشهدت العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين نشأة وتطور وازدهار الدراما الكازاخية، وارتبط ذلك بازدهار فن المسرح في كازاخستان، الذي شهد عرض العديد من المسرحيات الكازاخية المأخوذة عن الأعمال الأدبية، وبطبيعة الحال، ونظرًا لوقوع كازاخستان تحت الحكم السوفيتي، فقد سيطرت الواقعية الاشتراكية على الإبداعات الأدبية كتوجه عام للدولة المركزية في حينها، وشهدت الأربعينيات والخمسينيات عودة الأدباء الكازاخ بقوة إلى النثر، خاصة الرواية. ومن أشهرها «العلم للغز» و«سير - داريا» و«الجندي الكازاخي» و«المليونير» وأشهر كتّاب تلك الفترة ج. مصطفىوف وج. موصرييوف وس. موكانوف. وغيرهم، كما واصلت الدراما الكازاخية توهجها، ووصلت إلى القمة، واكتشفت إمكانات جديدة، حيث نشط الكتّاب في تأليف المسرحيات في الموضوعات التاريخية وسير العظماء وكذا الموضوعات الملحمية والأسطورية. أصبحت تلك الأعمال من كلاسيكيات الدراما الكازاخية، نظرًا لجودتها. وكان لذلك أثره الكبير أيضًا في ازدهار فن المسرح في كازاخستان في منتصف القرن الماضي. كما شهدت تلك الفترة ازدهار النقد الأدبي في كازاخستان، وشهدت فترة ما بين الستينيات إلى الثمانينيات ازدهار أجناس نثرية أخرى، كالقصة والقصة القصيرة فضلًا عن الرواية. ومن أشهر أدباء تلك الفترة ت. عليم قولوف وأ. بوكيف وت. نور محمبيتوف وغيرهم. اتسمت كتابات تلك الفترة بالتححرر من القيود التي فُرضت في حقبة ستالين، ولو بشكل نسبي.

وفي عام ١٩٩١، حصلت كازاخستان على استقلالها من الاتحاد السوفيتي. وطراً تحول أيديولوجي كبير على مضمون الإبداعات الأدبية الكازاخية في العقد الأخير من القرن الماضي، وبدايات القرن الحالي. وبلغ إنتاج الكتّاب الكازاخ من الضخامة بحيث أصبح يمثل مرحلة مستقلة، وحقبة كاملة في تاريخ تطور الأدب الكازاخي. ولم يكن من الممكن للتحويلات الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع الكازاخي ألا تنعكس في كتابات المبدعين شعراً ونثراً. وواصل الأدباء الكازاخ إبداعاتهم في أجناس الحكاية والقصة والقصيدة، وسادت روح حرية الإبداع والزهو بالاستقلال في الأدب الكازاخي الحديث، واختفى مذهب الواقعية الاشتراكية، وتوقف الكتّاب عن تصوير الصراع الطبقي بين مختلف شرائح المجتمع، كما توقفوا عن المبالغة في الاستعانة بالأساطير والمثل الطوبوية البعيدة عن الواقع، وسعوا إلى التعمق في استخدام النهج التاريخي والقراءة الموضوعية لظواهر الحياة، مع تسليط الضوء على صالح الوطن والمجتمع، والدعوة إلى التسامح والتعددية الثقافية واحترام الآخر. ومن أشهر كتّاب كازاخستان حالياً أنور بيبصوف وز. جابدولوفا وس. مرتضى وك. سيجيزباييف، وغيرهم.

وهكذا يتبين لنا كيف تطور الأدب الكازاخي من الشفاهة إلى الكتابة، وكيف تأثر وأثر على

الأداب المحيطة، وكيف كان للأحدث التاريخية والتحويلات السياسية والاجتماعية أثرها القوي في توجيه دفته وألوياته. وما من شك في أن هذا الأدب ظل دوماً معبراً عن آمال وطموحات وآلام الشعب الكازاخي، كما بقيت القيم الروحية والفلسفية المعين الأساسي الذي لا ينفذ والذي ظل هذا الأدب ينهل منه حتى يومنا هذا. وفي مقال آخر قادم، إن شاء الله نتحدث تفصيلاً عن الأدب الكازاخي المعاصر.

يحتل الأدب البيلاوسي مكانة هامة بين آداب الشعوب السلافية الشرقية، وبين الآداب الأوروبية بصفة عامة. وقد تطور الأدب البيلاوسي من خلال اتصاله الوثيق وارتباطه بالآداب الأخرى المجاورة له، الروسي والأوكراني، ومن خلال اندماجه في عمليات تطوُّر أدبي أكثر شمولاً، ونعني بذلك أدب الإمبراطورية الروسية والأدب السوفيتي.

وقد تشكّل الأدب البيلاوسي الشفهي في بداياته تحت تأثير تقاليد شعوب مملكة كييف روس السلافية، ويمكن القول إن مضامين هذه الحكايات الشعبية كانت دينية بشكل كامل، وتعود أصول الأدب البيلاوسي إلى عصور قديمة، ويرتبط بشكل وثيق بالإبداع الشعبي الشعري عند سكان بيلاوس، والذي يُعتبر الأكثر ثراءً بين شعوب السلاف الشرقيين.

أما الأدب المكتوب، فقد ظهر للمرة الأولى في القرن العاشر الميلادي، وتحديدًا في عام ٩٨٨ ميلادية، وهو مرتبط باعتناق المسيحية. وقد ظهرت الكتابة في تلك الفترة أيضًا، وأصبحت مدينة بولوتسك المركز الرئيسي لنشر الكتابة البيلاوسية والأدب المكتوب عمومًا في بيلاوسيا. ومرت عملية تشكيل وصياغة اللغة البيلاوسية بمراحل معقدة وطويلة، حتى تم الانتهاء منها بشكل كامل في القرن السادس عشر، وهو ما ينسحب أيضًا على الأدب البيلاوسي.

وكما أسلفنا، تعود أصول الأدب البيلاوسي إلى القرن العاشر الميلادي، ومن أهم الآثار الأدبية التي تُعد رمزًا لتلك الفترة: كتاب «خطاب يوحنا من بولوتسك» (القرن العاشر الميلادي)، و«حياة القديسة يفروسينيا من بولوتسك» (نهاية القرن الثاني عشر)، و«تعاليم القديس كيريلس تروفسكي». وقد جاء في المخطوطات الروسية القديمة والأدب الروسي القديم ذكر مكانة مدينة بولوتسك؛ حيث نقرأ عنها في أقدم الأعمال والمخطوطات الأدبية الروسية.

وقد اعتُبر توحيد الأراضي البيلاوسية وتأسيس دوقية ليتوانيا الكبرى حدثًا شديد الأهمية ساعد على تشكُّل الأدب البيلاوسي بشكل كبير في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين؛ حيث تحولت اللغة البيلاوسية القديمة إلى لغة رسمية في الدولة، كما اعتُبرت المخطوطات المكتوبة باللغة البيلاوسية إنجازًا كبيرًا للنثر البيلاوسي في تلك الفترة، ووصل هذا الأدب إلى ذروته في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ومن الشخصيات الأدبية البارزة في تلك الفترة: العالم والمترجم والكاتب ومؤسس الطباعة باللغة السلافية القديمة فرانتيسكو سكورينا (ولد عام ١٤٩٠م، وتوفي عام ١٥٥١). وقضى سكورينا سنوات طويلة يترجم إلى لغة قريبة من البيلاوسية القديمة، وأصدر ترجمة الإنجيل وقدم تعليقًا وافيًا لها، وصدرت في عام ١٥١٧ في مدينة براغ التشيكية، وكان ذلك أول كتاب مطبوع

بلغة سلافية شرقية. كانت اللغة البيلاروسية القديمة هي اللغة الرسمية في دوقية ليتوانيا الكبرى، ومنذ مطلع القرن السادس عشر بدأت الكتب تُطبع وتُصدر باللغة البيلاروسية. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبفعل تأثير الثقافة البولندية، ظهرت أعمال شعرية وُفق تقاليد فن «الباروكية»، وأعمال درامية بيلاروسية «مدرسة سيمون من بولوتسك للدراما».

وفي القرن الثامن عشر تعرضت الكتابات الأدبية باللغة البيلاروسية القديمة لمرحلة اضمحلال وانهار بفعل ابتعاد الطبقة المثقفة عن ثقافتها الأم واندماجها في الثقافة الغربية، ثم عاد الأدب البيلاروسي للنهوض مرة أخرى في الربع الأخير من القرن الثامن عشر؛ حيث صدرت أول مسرحية كوميدية باللغة البيلاروسية تحمل عنوان «الكوميديا» للكاتب ماراشيفسكي. وبلي ذلك نشاط ملحوظ للإبداعات المكتوبة باللغة البيلاروسية، استمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ حيث صدرت أعمال شعرية ساخرة، منها: «تاراس على جبال باناسوس» للأديب قسطنطين فيرينيتسين، و«إنبيدا في وجهها الآخر» للأديب فيكينتي رافينسكي، وقصائد للشعراء بافليوك باجرين ويان بارشيفسكي ويان تشيشوت وألكسندر ريبينسكي. وكان أول كاتب في بيلاروسيا تُصدر أغلب أعماله باللغة البيلاروسية، هو الأديب فينيتسينت مارشينكيفيتش، الذي قام بتأليف أول أوبرا بيلاروسية بعنوان «الملحمة الصغيرة» (١٨٤٦).

وقد تطور الأدب البيلاروسي على مدى القرون من السادس عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، في إطار التيارات التي كانت سائدة في غرب أوروبا في تلك الفترة، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهرت ملامح الرومانسية في الأدب. ومن أبرز ممثلي تلك المرحلة: الشاعر البيلاروسي والبولندي الشهير آدم ميتسكسيفيتش، الذي أهدى إحدى أروع كتاباته - وهو ديوان «بان تاديوش» - إلى وطنه بيلاروس.

وساد التيار الواقعي في الأدب البيلاروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويمكن أن تُنسب أعمال الأدباء فرانتشيك بوجوشيفيتش وادم جورينوفيتش ويانكي لوتشينا إلى هذا التيار. وقد لعبت الصحف والمجلات الأدبية في القرن التاسع عشر دورًا هامًا في تطوّر الأدب البيلاروسي، وأهمها صحيفة «ناشا دوليا» التي نشرت أعمالًا للعديد من الأدباء من أمثال: يانكا كوبالا، ويعقوب كولاس، ومكسيم بوجدانوفيتش، ومكسيم جورينسكي، وأليس هارون، وغيرهم.

وبعد ثورة ١٩٠٥ بدأت مرحلة جديدة في الأدب البيلاروسي؛ حيث ظهرت أولى الصحف باللغة البيلاروسية، وتَشكّلت بفضلها العديد من الجمعيات الأدبية ضَمّت العشرات من الأدباء والكتاب البيلاروس، ومنهم: مكسيم بوجدانوفيتش، وسيرجي بوليان، ومكسيم جورينسكي، وإيميتروك بيدوليا، وغيرهم.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ سيطر الموضوع الوطني والنهضوي على الأدب، وأصبح الهدف الأساسي للأدباء في تلك الفترة السعي للمساعدة على إثبات وجود القومية البيلاروسية والاعتراف

بها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، ومع إعلان بيلاروسيا إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي في ١٩١٩، سيطر موضوع الروح الوطنية على الأدب البيلاروسي، وتمحورت الحياة الأدبية في العشرينيات من القرن الماضي حول بعض المجالات الأدبية، وأهمها: «مالادنيك» (الشاب)، و«أوزفيشا» (الارتقاء). وواصل كبار الكتاب إبداعاتهم باللغة البيلاروسية، كما ظهر جيلٌ جديد من الشعراء من أمثال: ميخاس تشاروت، وفلاديمير دوفوكا، وأليس دودار، وكتاب النثر من أمثال: تيشكا جارانتني، وميخاس زاريتسكي، وكوزما تشورني.

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين توقف تطوُّر الأدب البيلاروسي، وتعرَّض لحالة من الجمود بفعل سيطرة الأيديولوجيا الشيوعية والماركسية، غير أنه واصل إنتاج المؤلفات الغنائية العاطفية والملحمية والمسرحية على يد أدباء من أمثال: فلاديسلاف جولوبوك، وميخاس تشاروت، وفلاديمير دوفوكا.

وشهدت الثلاثينيات تطوُّر فن الرواية في الأدب البيلاروسي؛ حيث لم تكن لها تقاليد واضحة قبل ذلك، وفي عام ١٩٣٤ تم تشكيل اتحاد كتاب بيلاروسيا، وكان الاتجاه المهيمن في الأدب في تلك الفترة هو الواقعية الاشتراكية.

وتكبَّد الأدب البيلاروسي خسارة فادحة في النصف الثاني من الثلاثينيات؛ حيث قُتل الكثير من الكتاب والشعراء الشباب بفعل عمليات القمع ضد الأدباء إبان حكم ستالين. وفقد الأدب في بيلاروسيا أسماءً موهوبة مثل: أليس دودار، وميخاس زاريتسكي، وتودور كلياشتورني، وفاليري كورياكوف، وغيرهم كثيرون. وتُوصف ليلة ٣٠ أكتوبر ١٩٣٧ بكونها من الليالي السوداء في تاريخ الأدب البيلاروسي؛ حيث تم إطلاق النار على ٢٣ شاعرًا شابًا.

وفي فترة الحرب العالمية الثانية سيطر الأدب الاجتماعي والهجاء على الأدب البيلاروسي، ومن أهم المؤلفات الشعرية في تلك الفترة: ديوان الشاعر بيمين بانتشينكو «يوميات إبرانية»، وقصيدة الشاعر أركادي كوليشوف «رأية الكتيبة». أما قمة المؤلفات النثرية في سنوات الحرب فكانت رواية «اليوم العظيم»، للأديب كوزما تشورني. وشهدت تلك الفترة مزيجًا من الأدب الرومانسي والواقعي والحداثي. ومن أشهر الرمزيين في الشعر البيلاروسي: مكسيم بوجدانوفيتش، وفي النثر: إيميتروك بيادوليا، فيما يُعتبر يانكا كوبالا عميد الشعر الرومانسي والحداثي في تلك الفترة.

وبعد الحرب العالمية الثانية هيمنت موضوعات الحرب والعمليات العسكرية على الكتابات الأدبية البيلاروسية، ومن أهم أعمال تلك الفترة: قصص يانكا بريل، وإيفان ماليج، وإيفان شامياكين. واحتلت أعمال وإبداعات شعراء الجبهة مكانةً هامة في الأدب؛ حيث تحدَّث هؤلاء عن روح الشجاعة والبطولة والتضحية بالنفس والوطنية، ومن أشهر هؤلاء: ألكسي بيسين، وأركادي

كوليشوف. ومنذ النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي تم تناول القضايا الأخلاقية وحرية الإبداع في أعمال فاسيل بيكوف، وفلاديمير كوروتكيفيتش، وأندريه ماكايونوك، وإيفان بتاشنيكوف.

وفي الفترة من منتصف الخمسينيات إلى نهاية السبعينيات شهد الشعر تطورًا كبيرًا، وظهر جيل كامل من الشعراء الموهوبين من أمثال: ريجور بورودولين، وأوليج لويكو، وأليس ريزانوف، ونيل جيليفيتش.

وفي نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات ازدهر في الأدب البيلاوسي موضوع تناول القمع في فترة حُكم ستالين؛ حيث تناول هذا الموضوع الأديب فاسيل بيكوف في كتابه «عنوان المأساة» (١٩٨٥)، وتناول فيه الرابط والعلاقة المأساوية بين عمليات الإنتاج الجماعي في الاتحاد السوفيتي والقمع والتتكيل وبين الوضع على الجبهة. وهناك أعمال كاملة حُصصت لهذا الموضوع، أهمها قصة «رمال الصفراء».

كما اشتهرت في الثمانينيات كتابات اليوميات، ومنها: يوميات لاريسا جينيوش، وقصص بافل برودنيوكف «قفازات من القفد» و«الجحيم الشمالي» التي تتحدث عن سيرة حياة الكاتب. وهناك أيضًا موضوع الكُتاب العائدين من المنفى بعد انهيار النظام السوفيتي. كما واصل الأدب البيلاوسي تطوره في المهجر بفعل إبداعات الكُتاب البيلاوس من أمثال: ناتاليا أرسينيفا، وأليس سالافي.

أما الأدب البيلاوسي المعاصر فيتسم بالتجانس والمزج بين الاتجاهات التقليدية واتجاهات ما بعد الحداثة، كما تم التوسع في استخدام الأجناس الأدبية المختلفة والبحث عن جديد الموضوعات وشيوع الموتيفات الوطنية.

ويتم ترجمة الأعمال الأدبية البيلاوسية إلى مختلف لغات العالم، ويتم كل عام الاحتفال بعيد الأبجدية البيلاوسية والذي يهدف إلى التعبير عن المسار التاريخي للكتابة والطباعة في بيلاوس وتطور الأدب والثقافة البيلاوسية المعاصرة. ومن أشهر الأدباء البيلاوس الذين ذاعت شهرتهم داخل وخارج بلادهم: فرانيتسك بوجوشيفيتش، وفاسيل بيكوف، وإيفان بتاشنيكوف، وبيانكا بريل، وكوزما تشورني.

يعيش العالم حاليًا على وقع أحداث متصاعدة وحرب مستعرة بين روسيا وأوكرانيا، تُلقي بظلالها المظلم على مستقبل أوروبا والعالم بأكمله.

هذا الصراع الدائر يأتي بين بلدين تجمعهما أواصر ثقافية وتاريخية ودينية ولغوية واحدة؛ حيث انطلقت حضارة وثقافة شعوب السلاف الشرقيين (روسيا وأوكرانيا وبيلاروس) تحديدًا من مدينة كييف قبل أكثر من اثني عشر قرنًا من الزمان، ثم امتدت شرقًا حتى إمارة موسكو، ومن ثم تأسيس الإمبراطورية الروسية التي توسعت لتضم شعوبًا أخرى غير سلافية في آسيا الوسطى والقوقاز.

ولعل من المهم أن نتوقف عند نشأة ثقافة شعوب السلاف الشرقيين؛ لنتعرف عن قرب على الجذور الثقافية المشتركة، وتطور الأدب والفن والعمارة في تلك المناطق في القرون الأولى لنشأتها، وربما يساعدنا ذلك على وضع تصوّر أفضل لحقيقة ومستقبل هذا الصراع.

تُمثل كلٌّ من روسيا وأوكرانيا حالة فريدة وثرية، ونموذجًا للدول التي حافظت على تماسكها الروحي والثقافي، على الرغم من التنوع الكبير في الثقافات والديانات واللغات والقوميات التي قطنت هذه الأراضي.

وقد تميزت الثقافتان الروسية والأوكرانية بكونهما امتدادًا لبعضهما البعض، وقد نشأتا تحت تأثير قوي لثقافات أخرى عديدة لحضارات بيزنطة والشرق وغرب أوروبا، وقد شهد تطوّرهما مراحل عديدة.

لعبت بيزنطة دورًا كبيرًا في تطوّر الثقافة الروسية القديمة، والتي اصطُح على أن يُطلق عليها حضارة روس كييف، نسبةً إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا حاليًا. وربما من الأدق أن نقول إنه لم يكن تفاعلًا بقدر ما كان تأثيرًا قويًا من جانب هذه الثقافة على نظيرتها الروسية القديمة. وكانت بيزنطة في ذلك الوقت في ذروة نهضتها في العصور الوسطى؛ لذلك كان تأثيرها كبيرًا، كما استوعبت الثقافة الروسية القديمة تقاليد التراث الثقافي اليوناني والروماني القديم، وقد قامت بتطويع هذه التقاليد بما يناسبها، مما جعلها فريدة من نوعها.

وتجدر الإشارة إلى أن دولة كييف روس «كيفسكايا روس» قد تشكلت في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، وقد سكنها السلاف الشرقيون، وهم شعوب روسيا وأوكرانيا وبيلاروس حاليًا؛ ولذا فليس من قبيل الصدفة أن يطلق على مدينة كييف الأوكرانية لقب «أم المدن الروسية». وكان أول حاكم لها هو الأمير روريك الذي يُعتبر مؤسس أول سلالة حاكمة، ثم خلفه ابنه الأمير أوليج الذي جعل من المدينة عاصمة لإمارة روسيا كييف في عام ٨٨٢م، وهكذا أصبح روريك مؤسس سلالة

ريوريك التي حكمت روسيا حتى القرن السادس عشر.

اتسم عصر كييف روس بازدهار الثقافة، ومع بداية مرحلة تفتت الدولة فقدت الثقافة وحدتها، وتأسست مدارس مختلفة في كل إقليم (في العمارة والرسم وكتابة الحوليات وغيرها).

وقد حدث ذلك الانهيار بعد ما شهدته دولة كييف روس من انقسام بين الأمراء في القرن الثاني عشر الميلادي؛ حيث انقسمت الدولة إلى امارات مستقلة، واستمر هذا الوضع حتى الغزو المغولي في عام ١٢٣٧م، غير أن مدينة كييف بقيت المدينة الرئيسية.

وأصيب التطور الثقافي بالجمود والتوقف مع احتلال المغول لروسيا، وفي منتصف القرن الثالث عشر تحولت الأراضي الروسية إلى ركام وأطلال، وبدأت عملية إعادة البناء والنهوض بالثقافة الروسية من جديد في نهاية القرن الثالث عشر، واستمرت إلى منتصف القرن الرابع عشر. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر، شهدت تطورًا غير مسبوق، ووقعت عمليات تكامل واندماج بين المدارس الثقافية المحلية لتشكل ثقافة روسية مشتركة وواحدة. وفي القرن السادس عشر بدأت مرحلة جديدة من تطوّر الثقافة الروسية، مع تأسيس دولة روسيا الموحدة؛ حيث اكتملت عملية تشكيل الثقافة الروسية الموحدة أيضًا. وطوال القرن السابع عشر عانت الثقافة الروسية من التأثير المتنامي عليها من قبل الثقافة الغربية الأوروبية؛ حيث بدت السمات العلمانية أكثر وضوحًا، واتسعت الهوة بين ما الواقعي والتقليدي.

وكان الدين هو القناة الرئيسية التي تسللت من خلالها الثقافة البيزنطية في روسيا القديمة، فكانت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السلافية القديمة بمثابة حدث كبير، جعل أفكار ومضامين الديانة المسيحية في متناول الناس وفهمهم. كما امتد تأثير الثقافة البيزنطية إلى الفنون والعمارة، وامتد أثرها إلى الهندسة المعمارية والفسيفساء واللوحات الجدارية ورسم الأيقونات، وكذلك في الفنون التطبيقية كصناعة المجوهرات والحجر.

وتقوم الثقافة الروسية في فترة القرون الوسطى على رافدين أساسيين، وهما الرافد الأجنبي والرافد الوطني. وقبل القرن الرابع عشر كان الاتصال بين روسيا وبيزنطة وشعوب البلغاري والصرب وغيرهم قويًا ومنتاميًا، وفي القرن السابع عشر وصل التأثير القادم من شرق أوروبا ووسطها على روسيا إلى ذروته. وقد استوعب المجتمع الروسي القيم القادمة من الخارج وطوّعها لتناسبه؛ ولذا نلاحظ أنه، ومنذ المراحل المبكرة للتطور، اكتشف الأدب والعمارة وفنون الرسم الروسية سمات خاصة بها وملامح وطنية تميزها وتنفرد بها عن غيرها.

وبالحديث عن الأدب وتطوره، يمكن الإشارة إلى مرحلتين هامتين في نشأة هذا الفن في روسيا القديمة حُقبة ما قبل الغزو المغولي، ألا وهما: مرحلة أدب كييف روس، ثم مرحلة عصر الانقسام والاضمحلال.

وكان أسلوب الكتابة التاريخية وتخليد الأبطال هو المهيمن على الأدب الروسي القديم في

القرن الوسطى وحتى نهاية القرن الرابع عشر، ومن السمات المميّزة لهذا الأسلوب: الجدية والتوازن والرزانة. وظل الأدب الروسي القديم يقع على خط التماس بين الأدبين الشفهي والمكتوب، ومع الأسف لم تصلنا إلا عدة كتب وأعمال أدبية روسية الأصل من جعبة ما قبل الغزو المغولي لروسيا، غير أنه يمكن أن نخلص إلى نتيجة أن المدرسة الروسية في الأدب كانت رفيعة المستوى.

واتسمت الثقافة الروسية في القرون الوسطى بعدة خصال مميّزة؛ وذلك لكونها كانت على قدر كبير من الجدية، ومعظم مضامينها إرشادية تهييبية. ولم تتغلغل التفاصيل الترفيهية وعناصر الخيال فيها إلا في القرن الخامس عشر، ولم يسع الكتاب في تلك الفترة للتعبير عن أنفسهم، والتزموا بصرامة شديدة بقوانين وقواعد الأجناس الأدبية المختارة. كما اتسم الأدب في تلك الفترة بالطابع الديني الروحاني، ولم يُعانِ الأدب الروسي في تلك الفترة من التقسيم الصارم للإبداعات إلى كَنَسِيَّة وعلمانية؛ فالأعمال ذات المواضيع الدنيوية لم تكن تخلو من خط ديني قوي. كما ابتعد الأدب الروسي في تلك الفترة عن التحليل النفسي، ولم تُكتشف أسرار الطابع الإنساني للشخصية الروسية سوى في القرون الـ١٥-١٧. كما نلاحظ في الأعمال الأدبية في تلك الفترة تأكيدها على حقيقة أصل الحياة والكون. وعلى مدار فترة طويلة لم يتعامل الأدب الروسي بتعالٍ أو كبرياء ديني أو قومي. وقد كان الإنسان الروسي لا يرى نفسه مميّزًا عن الآخرين، وتعامل بالكثير من التعاطف مع الشعوب الأخرى.

ونشأ الأدب الروسي الوطني بعد تعميم روسيا كيبف القديمة؛ حيث ارتبط انتشار المسيحية بشكلٍ وثيق بتطور فن الكتابة نظرًا للحاجة إلى طباعة الكتب الدينية الدعوية.

أما أقدم عمل أدبي روسي فهو «عِظَةُ القانون والنعم»، لرجل الدين هيلاريون (صدر في الفترة بين عامي ١٠٣٧ ومطلع ١٠٥٠). وكان هيلاريون يعمل متروبوليتان، أو رجلَ دين رفيع المستوى في مدينة كيبف. ويُعد هذا النص من أقدم النصوص السلافية المتاحة، وكان له تأثير كبير في تطوُّر أسلوب ومحتوى أدب إمارة كيبف روس، ويُعد بمثابة مبحث سياسي يصف بدقة متناهية موضوع المساواة السياسية والثقافية والدينية بين روسيا كيبف وبيزنطة. ويشير الكاتب إلى وجود حكام في روسيا القديمة لا يقلُّون شجاعةً ولا بطولةً عن نظرائهم البيزنطيين، كما يشير إلى أن روسيا تضاهي بيزنطة من حيث وفرة الأبطال وصناع المآثر والأمجاد.

شهدت فترة التفكك والاضمحلال حدوث المزيد من التطور في الثقافة الروسية؛ حيث تأسست عدة مراكز أدبية جديدة في البلاد، وحافظ الأدب الروسي على التقاليد التي ورثها من أدب روسيا كيبف، وعلى علاقاته الوثيقة مع أدب بيزنطة وأوروبا. وما يميز أدب تلك الفترة هو الحنين إلى وحدة البلد المفقود، والدعوة إلى الاتحاد ونبذ الفرقة.

ويُعد كتاب «كلمة عن فوج إيجوريف» أو «ملحمة إيجور» الأهمَّ في القرن الثاني عشر،

وينتمي هذا الكتاب إلى جنس القصص الحربية، وتم تأليفه في الفترة بين عامي ١١٨٥ و ١١٩٠م. ومن بين أهم الآثار الأدبية لفترة ما قبل الاحتلال المغولي كتاب «رسالة توسل وخطاب دانيال المنفي» (النصف الثاني من القرن الثاني عشر - النصف الأول من القرن الثالث عشر). وفي العمارة كان من نتاج اعتناق روسيا المسيحية رسمياً ظهور فن العمارة الحجرية وتطوره، وقد جلب هذا الفن على يد العمال القادمين من بيزنطة، وقد اتسمت أغلب المباني الحجرية بالطابع الديني والطقسي.

وشهد تطوّر العمارة الروسية ما قبل الغزو المغولي مرحلتين أساسيتين، هما: عمارة روسيا كييف، وعمارة عصر الاضمحلال والتفكك؛ حيث كانت أغلب المباني الحجرية تُشيد بأيدي بنائين ومعماريين من اليونان، في الوقت الذي كانت فيه الأيدي والصناعات الوطنيون في مرحلة التعلم واكتساب المهارة.

وتُعتبر كنيسة العشور أو دورميتيون العذراء في كييف أقدم مبنى حجري، والتي شُيّدت في نهاية القرن العاشر الميلادي، وقد شُيّدها بنّاءون من اليونان، ولعبت دوراً هاماً في تطوير عمارة المعابد. وقبل ظهور كنيسة صوفيا بكييف، كانت كنيسة العشور تُعدّ بمثابة كاتدرائية.

وشهدت فترة حُكم الأمير ياروسلاف الحكيم الذي تولى حُكم إمارة مدينة كييف في الفترة من ١٠١٨-١٠١٦م، ومدينة نوفجورود الروسية ١٠١٠-١٠٣٤م، وقام بتوحيد الإماراتين تحت حكمه ١٠١٩-١٠٥٤م، وهو ابن الأمير فلاديمير الأول معمد روسيا، وقام بتأسيس مدينة ياروسلاف الروسية الشهيرة.

وأثناء حُكم ياروسلاف الحكيم ازدهر البناء في مدينة كييف للتأكيد على مكانة المدينة بوصفها عاصمةً لدولة عظمى، وسعيها لإظهار أنها لا تقل عن القسطنطينية. وظهر في مدينة كييف حي أُطلق عليه حي ياروسلاف، وتم في هذا الحي تشييد كاتدرائية القديسة صوفيا في عام ١٠٤٠م، وتم بناء هذه الكنيسة على طراز كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية تماماً، وتُعدّ أكبر وأكثر الأبنية تعقيداً في روسيا القديمة، وقد بقي المبنى حتى اليوم رغم حدوث الكثير من التعديلات عليه، ثم ازدهر البناء خارج كييف شمالاً في اتجاه موسكو؛ حيث شهدت الفترة بين عامي ١٠٢٤ و ١٠٣٦م - وبموجب مرسوم من الأمير مستيسلاف تموتاراكنسكي - تشييد كاتدرائية التجلي في مدينة تشيرنيجيف.

وشُيّدت المعابد والكنائس على طراز كنيسة القديسة صوفيا في كل مكان في أراضي روسيا القديمة وليس فقط في كييف، وكان الهدف هو نشر العقيدة المسيحية على أراضي روسيا كلها. وفي منتصف القرن الحادي عشر، وبناءً على مرسوم من الأمير فلاديمير ياروسلافيتش، تم في مدينة نوفجورود بناء كاتدرائية القديسة صوفيا، وقام بالبناء عمال وبنّاءون من مدينة كييف، ويُعدّ المبنى الرئيسي على أراضي إقليم نوفجورود. وقد حدث تغيير في شكل المعابد والكنائس بسبب

الظروف السياسية الجديدة (محدودية الموارد المادية لكل إمارة من الإمارات الروسية)، وسيطرة الأجواء الروحانية في المجتمع.

وفي تلك الفترة تأسست العديد من المدارس المحلية، والتي سعت - رغم التزامها بتقاليد بيزنطة وكيف - إلى تقديم طرازها الخاص بها. وكانت هذه المدارس مرتبطة بشكل وثيق فيما بينها، غير أن العمارة الوطنية استطاعت أن تجتاز مرحلة التلمذة والتعلم، ووقفت على قدميها برسوخ وثبات، واتجهت نحو مرحلة التطور الذاتي المستقل. شُيدت معابد وكنائس بأبراج ذات سُلم خارجي بفعل التأثير بالعمارة الشعبية الخشبية، وتميزت مدينة نوفجورود الروسية بوجود واحدة من أقوى مدارس العمارة الروسية على أراضيها.

وفي عام ١١٦٤م فشل السويديون في حصار مدينة لادوجا، وتمكن جيش نوفجورود بقيادة الأمير سفيتاسلاف راستيسلافيتش من دحرهم. وعلى ما يبدو تم تشييد كنيسة القديس جورج في مدينة لادوفا؛ تخليدًا لذكرى هذه الحرب.

وفي عام ١١٩٨م، وبطلب من الأمير ياراسلاف فلاديميروفيتش، تم بناء كنيسة المخلص على أطراف مدينة نوفجورود. وفي عام ١٢٠٧م تم في المنطقة شرق مدينة نوفجورود، وبمبادرة من التجار، بناء كنيسة القديس باراسكيفي.

وخلافًا لعمارة نوفجورود، ظل التجانس الروحي والسلام النفسي والشاعرية مكونات أساسية في فن عمارة مدن روستوف وسوزدال وفلاديمير الروسية القريبة من موسكو، ويرجع الفضل الرئيسي في بناء وتحمل تكلفة تشييد الكنائس الحجرية في هذه المنطقة إلى حكامها من الأمراء. وقد حقق هذا النمط المعماري تمازجًا بديعًا بين الفن البيزنطي وفي روسيا كيف، مع التقنيات الرومانية في البناء واستخدام عناصر الزخرف.

أما ذروة النهضة الثقافية في إمارة فلاديمير وسوزدال، فكانت إبان حكم الأمير أندريه بوغوليوبسكي. ولوحظ في الآثار المعمارية في تلك الفترة التأثير الشديد بالعمارة الأوروبية. ولإظهار هيمنته على عموم روسيا، بدأ أندريه عملية بناء واسعة في إمارة فلاديمير؛ حيث سعى لكي تكون المدينة مشابهة لمدينة كيف من حيث التخطيط والمباني. وكان من نتاج ذلك أن تحولت فلاديمير إلى واحدة من أجمل المدن الروسية، وكانت محاطة بأسوار شاهقة وعدد من الخنادق. وقد بقيت البوابات الذهبية الرئيسية التي شُيدت عام ١١٦٤م محتفظة بروبقها.

وقد سعى الأمير أندريه إلى التخلص من وصاية مدينة كيف الدينية؛ حيث قام بمحاولة لتأسيس أسقفية مستقلة في فلاديمير، وفي عام ١١٦٠م، وفي ذكرى الاحتفال بالنصر الجديد على بلغار الفولجا، تم تأسيس كنيسة الشفاعة في قرية نيرل غير بعيد عن قرية بوجولوبوفو. وإبان حكم فسيفولود الثالث، أصدر مراسيم تقضي ببناء كاتدرائية دميتري في مدينة فلاديمير، واستمر البناء منذ عام ١١٩٣ إلى عام ١١٩٧م.

وتميزت عمارة فلاديمير وسوزدال في الثلث الأول من القرن الثالث عشر بغلبة النزعة الروسية المحلية، وكان ذلك نتيجةً لضعف التأثير البيزنطي. ولسوء الحظ لم يَلَقَ التوجه القومي في العمارة تطورًا لاحقًا بسبب الغزو المغولي التتاري.

أما فن الرسم، فعلى ما يبدو يرجع تاريخه في روسيا إلى ما قبل اعتناق الروس للمسيحية، إلا أن هذه الآثار الفنية لم تَبَقْ؛ ولذا فإن النقاد اصطَلحوا على بدء تاريخ فن الرسم منذ دخول المسيحية. وقد ورثت روسيا من بيزنطة نظام النسب في فن الرسم، وخاصةً ما يتعلق بجسم الإنسان. ومن هنا كان استعارة أنواع الرسم مثل: الرسم الأثري (الفسيفساء واللوحات الجدارية)، وفن الرسم المعلق (الأيقونات)، والمُنمنمات (الكتب الصغيرة). أما أول فنَّائي جداريات ورسامي أيقونات وصناع مُنمنمات، فقدِموا من اليونان. وظل فن الرسم الروسي متأثرًا بالفن البيزنطي حتى القرن الخامس عشر، غير أنه يُلحَظ - ومنذ فترة مبكرة - تميُّزه وتفرده وخصوصيته؛ حيث أضاف الفنانون الروس موتيلات شعورية وجرعات من الأحاسيس والمشاعر على النماذج المستعارة من المدرسة البيزنطية. كما أضاف الروس أشكالًا جديدة من الرسوم الأيقونية.

وفي فترة ما قبل الغزو المغولي حقق فن الرسم الروسي تطورًا غير مسبوق، وكان ذلك هو العصر الذهبي الحقيقي لهذا الفن؛ حيث تبقى اللوحات الفنية التي رُسمت في القرون اللاحقة أقل جودةً وبراعةً.

وتتسم لوحات فن الرسم الروسي في القرون الوسطى بكونها دينية المضمون، ولها بعض الخواص، أولها أنها تجنبت الواقعية؛ حيث كان الهدف من العمل الفني هو إظهار وتصوير العالم السماوي، والتعبير عن مثالية كل ما هو مقدَّس. وكانت علاقتها بالزمن علاقةً خاصة؛ حيث يمكن أن نرى عدة أحداث مختلفة في عمل واحد، وقد تميزت هذه اللوحات بمضمونها الإرشادي التعليمي والتهديبي والرمزية الشديدة.

ويمكن وصف عصر روسيا كصيف في تطوُّر فن الرسم بكونه فترة التعلم وتنشئة وميلاد الكوادر المحلية، وكان الفن الروسي يسير تحت مظلة ورعاية الفن البيزنطي.

كما شاع على أراضي روسيا رسم الأيقونات، والذي نال احترامًا شديدًا بين فناني روسيا القديمة. ومن بين أقدم الأيقونات الروسية أيقونة «منقذ الرداء الذهبي» (القرن الحادي عشر).

وفضلاً عن الأيقونات أثرت المسيحية الثقافة الروسية بفن اللوحات الجدارية، إلا أن التصوير الجصِّي أو ما يُعرف بالفريسكو فقط هو ما بقي لأمدٍ طويل، ولم يندثر مع الزمن، فيما اختفت الفسيفساء في بدايات القرن الثاني عشر.

وفي الأربعينيات من القرن الحادي عشر زُيِّنت كنيسة صوفيا كليف بالكثير من أعمال التصوير الجصِّي والفسيفساء، وشارك في هذه الأعمال الفنية فنانون روس ويونانيون، والدليل على ذلك: المزيج الجريء الذي نجده بين مختلف أشكال التصوير، وعدم ترك أي مساحات خالية، وكذا وفرة

الزخارف في تأثر واضح بالفن الشعبي. وقد بقيت زخارف الفريسكو والفسيفساء لفترة طويلة في كنائس كييف، وظهرت فكرة الانسجام وتجانس النظام الكوني الإلهي، وركزت على الاهتمام على موضوع التنوير الديني.

وفي فترة التفكك والاضمحلال شهدت الحياة الفنية زخمًا ونشاطًا كثيفًا؛ حيث تأسست وتشكلت مدارس الرسم المحلية. وظل احترام تقاليد مدرسة كييف والتأثر بها باقياً، غير أن فن الرسم الروسي واصل تطوره في كنف وتحت مظلة الفن البيزنطي، الذي يُولي إتمامًا للمناسيب الكلاسيكية في الأشكال والانسجام والأناقة والدقة والتعبير المتزنة للشخصيات، وبقي الموتيف الديني هامًا ومُلمحًا. وبرزت هذه السمات بشكلٍ أوضح وأقوى في آثار وفنون إمارتي فلاديمير وسوزدال اللتين تقعان قرب موسكو؛ حيث تطوّر الفن هناك تحت إشراف ورقابة سلطات علمانية ارتبطت بعلاقات وثيقة مع القسطنطينية. مال الفن الروسي إلى تقليد فن القسطنطينية، والذي تُهيمن الشعاعية عليه. في حين لم يكن هذا الأثر بالقوة نفسها في إمارة نوفجورود؛ حيث تميّز الفن هناك بالتوازن بين التعبيرية والشعرية.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر، قام الصناع والفنانون في نوفجورود بالانتهاء من نقش جدران كنيسة جورج في مدينة لادوجا، وبقيت النقوش والفسيفساء محافظة على رونقها من حينها.

وشهدت نهاية القرن الثاني عشر إبداع لوحات من الفريسكو في كاتدرائية فلاديمير، ويبدو أنه تم استدعاء فنانين من القسطنطينية لنقش جدران المبنى.

وفي الفترة بين نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، ظهرت بشكلٍ أكبر السمات والملامح الوطنية في فن الرسم الروسي؛ حيث نلحظ العودة إلى الأشكال الضخمة تخليدًا للشخصيات على غرار فن القرن الحادي عشر، كما ارتفعت حدة الدراما الداخلية والتعبيرية.

وهكذا نخلص إلى أن الثقافة الروسية القديمة التي يمكن وصفها بثقافة شعوب السلاف الشرقيين (روسيا وأوكرانيا وبييلاروس)، والتي تمتد جذورها إلى حضارة كييف روس، قد اجتازت طريقًا طويلًا من التحقق والتطور، وشهدت فترات من التطور والاضمحلال. تطورت فنون الأدب والعمارة والرسم والنحت في الثقافتين عبر نفس المسار التاريخي المشترك، فجذور الثقافتين الروسية والأوكرانية واحدة ومشتركة منذ القدم، حتى إنه يصعب وضع حدود فاصلة بينهما، كما أن حجم التفاعل والتشابه بين الشعبين على المستوى الديني والتاريخي والثقافي كبير، لدرجة أنه من المستحيل التمييز بين نشأة كل ثقافة منهما بعيدًا عن الأخرى.

تعود جذور الأدب الأوكراني إلى القرن الثامن عشر مع صدور أول كتاب لأديب أوكراني وهو الضابط إيفان كوتلياروفسكي. وكان الكتاب عبارة عن رواية - محاكاة ساخرة وحمل عنوان «إينيديا». وقد استخدم فيها الكاتب فكرة ومضمون الكتاب الذي يحمل نفس الاسم لشاعر الروماني فيرجيل. ويعد هذا الكتاب الأول باللغة الأوكرانية الحديثة. وقد لقي الكتاب نجاحًا وانتشارًا واسعًا؛ ولذا سارع العديد من الأدباء الأوكران لمحاكاة التجربة.

وفي نهاية القرن الثامن عشر تم افتتاح أول جامعة أوكرانية بمدينة خاركوف. وبعد عدة سنوات تخرج فيها عدد كبير من الخريجين الذين يتقنون اللغة الأوكرانية الفصحى. وشهد القرن التاسع عشر ظهور الصحف المكتوبة باللغة الأوكرانية وخروج اللغة الأوكرانية من الريف إلى المدن وأصبحت اللغة الثانية رسميًا بعد الروسية والتي كان سكان المدن يفضلون التحدث بها.

وشهد الأدب الأوكراني في بدايات القرن العشرين سعيًا مزدوجًا إلى الاحتفاظ بتقاليد الأدب الكلاسيكي في القرن التاسع عشر والبحث في الوقت نفسه عن أشكال جديدة والاستفادة من إنجازات الآداب الغربية الأخرى. حيث شهد هذا الأدب في تلك الفترة شيوع تيارات تقليدية كالرومانسية والواقعية الجديدة وتطور تيارات الرمزية والمستقبلية. وبرز عدد من الكتاب الأوكران يميلون إلى استخدام الأسلوب الأوربي الحديث في تصوير حياة الشعب الأوكراني. وقد ارتبط تيار المستقبلية في أوكرانيا باسم الأديب م. سيمينكو الذي اعتبر أحد أهم منظري ومؤسسي هذا التيار في أوكرانيا.

كما ذاع في تلك الفترة صيت الأدباء الأوكران الذين تعرضوا لاحقًا أثناء الحقبة السوفيتية للتنشويه والحظر، ونذكر منهم الأديب فينيتشنيكو والشاعر إيتانت وشيفشينكو وغيرهم. واتسمت أعمال هؤلاء بتصوير الواقع الاجتماعي لمختلف طبقات المجتمع الأوكراني سواء في القرية أو المدينة والتعرض لمختلف المشكلات بجرأة وبراعة في التصوير.

وفي السنوات الأولى للحكم الشيوعي السوفيتي وسيطرة البلاشفة على السلطة في أوكرانيا أدت موجات الهجرة الاضطرارية للمبدعين الأوكران إلى الخارج إلى تشكل مشاعر سلبية تجاه السلطة السوفيتية في الوسط الثقافي الأوكراني. حيث ضمت هذه الموجة أسماء كبيرة مثل فينيتشنيكو وشيركاسينكا وشابوفالا ودونتسوبا وغيرهم. وقد تم اتهام هؤلاء بأنهم معادين للثورة وتم تجاهل إبداعاتهم في الداخل. وفي الوقت نفسه كانت الطبقة المثقفة القديمة على خلاف في وجهات النظر مع السلطة الجديدة التي قررت القضاء عليها وتأسيس طبقة جديدة من المثقفين المنتمين إلى طبقة العمال والفلاحين.

أصبحت الثقافة في العقد الثاني والثالث من القرن العشرين في أوكرانيا جزءًا من سياسة الحزب الحاكم ويتوجب عليها أن تقوم بما يطلب منها وأن تصبح تحت إشراف ورقابة صارمة من الحزب والسلطة.

أما التيار المستقبلي في الأدب الأوكراني فقد استمر لسنوات ما بعد الثورة، وتم تأسيس جمعيات أدبية لهذا التيار في مختلف المدن الأوكرانية. وهاجم الأدباء المستقبليون أنصار الأدب الكلاسيكي ودعو إلى التجريب والتحديث وتقليد الغرب في الأدب والفنون. وقد انضم إليهم الكثير من الأدباء الرمزيين في أوكرانيا ومنهم سليسارينكو وياروشينكو وتيريشينكو.

وشهد النصف الأول من العشرينيات صراع بين الثقافتين الروسية والأوكرانية. في الوقت نفسه كانت هناك مساع مختلفة من جانب الأدباء الأوكران للبحث عن سبل للتعبير الفني الفكري نتج عنه تأسيس عدد من الجمعيات الأدبية. ولعل أهمها اتحاد الكتاب الفلاحين «بلوج» والذي ضم الأدباء الأوكران من أمثال جولوفكا وكوبيلينكو وبانشا وغيرهم. وسعى هؤلاء إلى توجيه الأدب إلى تنظيم وعي الفلاحين والطبقة المثقفة في الريف الأوكراني في روح الثورة البرولوتارية.

وقد أيدت جمعية الكتاب البرولوتاريين «جارت» ودعمت الحزب الشيوعي، وتحدثت أعضاؤها عن ضرورة تشكيل ثقافة شيوعية أممية شاملة تصلح للإنسانية كلها وتخلو من أي طبقية. وقد انهارت الجمعية في عام ١٩٢٥م بوفاة مؤسسها الأديب بلاكيتني.

وفي عام ١٩٢٧م تم تأسيس اتحاد الكتاب البرولوتاريين في عموم أوكرانيا. كما لعب اتحاد كتاب غرب أوكرانيا دورًا مهمًا في تطور الثقافة الفنية الأوكرانية.

وفي عام ١٩٢٩م سيطر ستالين على زعامة الحزب بشكل مطلق، وكان لذلك تأثير مدمر ونتائج كارثية على الثقافة عمومًا. ووضعت الثقافة شأنها شأن مختلف جوانب الحياة الأخرى تحت رقابة صارمة إدارية وفكرية مشددة. ولم تعد هناك خصوصية أوكرانية في الفن والأدب. وفي بداية الثلاثينيات تم تأسيس اتحاد الكتاب والفنانين والموسيقيين الأوكران. وكان الهدف من ذلك تخفيف القيود على عملية تطوير الثقافة الأوكرانية. وشهدت تلك الفترة وضع نهاية لأي محاولات إبداعية للبحث عن سبل جديدة في التعبير الفني والأدبي وتم فرض رقابة صارمة على النشر الأدبي ومنع التواصل بين الأدباء في أوكرانيا ونظرائهم في بلدان العالم بما فيهم الأدباء الأوكران الذين هاجروا إلى الخارج.

وفي عام ١٩٣٢م ظهر مصطلح «الواقعية الاشتراكية» والذي وصف من قبل السلطات أنه المنهج الصحيح في الأدب والفن عمومًا، وهو ما قلص من إمكانات وفرص الإبداع. واتسمت الأعمال الأدبية المؤدجة في تلك الفترة بغلبة موتيفات تمجيد الإنجازات العظيمة للدولة وتزيين الواقع وتزييف التاريخ. لم يعد هناك مجال للتجريب رغم أنه كان التيار الأقوى في الآداب العالمية في تلك الفترة.

وشهدت الفترة بين عامي ١٩٣٨ - ١٩٥٤م التنكيل والقمع بحق ٢٣٨ أديبًا أوكرانيًا على الرغم من مناصرة العديد منهم للسلطات السوفيتية واشترآهم في الحروب. وتشير كتب تاريخ الأدب إلى مقتل ١٧ أديبًا رميًا بالرصاص في حين أقدم ٨ آخرون على الانتحار وقُفد ١٦ وتوفي ٧ في السجون. وقد تعرض الأديب الأوكراني الكبير ريلسكي للاعتقال. كما اعتقل الأديب أوستاب فيشنيا وسجن لمدة عشر سنوات بعد اتهامه بالمشاركة في مجموعة عسكرية مسلحة. وتم إعدام الأديب كوسينكا وزيروف وسيمينكو. وأنهى الكاتب خفيليفوي حياته منتحرًا.

وكانت سنوات الحرب العالمية الثانية عصيبة وقاسية على الأديب الأوكراني. وألزم الأديب بالكتابة في موضوع واحد لخدمة القوات على الجبهة. كانت كل المؤلفات تدور حول الوطن والدفاع عنه والتضحية من أجله. انتشرت القصائد الوطنية، وتم تكليف الأديب بكتابة المقالات في الصحف التي تدعو الناس إلى القتال من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفيتي.

وشارك عدد كبير من الأديب الأوكراني في الحرب على الجبهة. وشارك هؤلاء في كتابة المقالات في الصحف التي كانت تصدر على جبهات القتال. ومن أشهر المؤلفات التي صدرت في تلك الفترة «أوكرانيا على خط النار» للأديب دوفجينكو و«رحلة إلى سنوات الشباب» للكاتب ريلسكي و«وطني أوكرانيا».

وشهدت الخمسينيات والستينيات تطورًا كبيرًا في الأدب الأوكراني. حيث اتسم النثر الأوكراني بالبعد عن الوصف والتركيز على المشاعر والعلاقة بين الأخلاقي والروحي والاهتمام بالتحليل ومناقشة القضايا. وبرز ذلك في إبداعات أوليس جونشار وزاجريبالني وزباناتسكي وكوزانتشينك. ويعتقد الكثيرون من مؤرخي الأدب الأوكراني أن الستينيات والسبعينيات كانت فترة مثمرة في الأدب حيث شهدت تعمقًا في الأصول الإنسانية واهتمامًا بالتحليل والتركيب وابتكارًا لأساليب وأشكال جديدة وترسيخها. وبرز في تلك الفترة كتاب مثل دراتش وكوستينكو وسيمونينكو. كما تأسست في تلك الفترة مدرسة الترجمة الأوكرانية والتي أصبح لها سمعة وصيت دولي كبير.

غير أن الأدب الأوكراني عانى في تلك الفترة أيضًا من الرقابة على الإبداع وتعرض العديد من الأديب للنقد اللاذع في الصحافة الرسمية. ولم يكن القارئ في أوكرانيا على اطلاع بإبداعات الكتّاب الأوكراني في المهجر حيث تم عزله تمامًا. وقد ذاع صيت العديد من الكتّاب الأوكراني في المنفى ومنهم إي. باجريانكو الذي هاجر إلى ألمانيا وأسس هناك الحزب الديمقراطي الثوري الذي ناضل من أجل تحرير أوكرانيا من الاتحاد السوفيتي. ومن أهم رواياته «حديقة جافسيمانسكي» و«رجل يركض فوق هوة سحيقة».

وفي السبعينيات أيضًا ظهرت عدت شخصيات أدبية أوكرانية مؤثرة. ولعب هؤلاء دورًا كبيرًا في الحفاظ على تقاليد أدب الستينيات، ونذكر منهم كالينتس وتشوباي وبافولياك وغيرهم. وظهرت في تلك الفترة حركة معارضة بين الطبقة المثقفة وضعت من بين أهدافها النضال من

أجل الحفاظ على حرية الإبداع والرأي. وذاع صيت الأديب والشاعر ستوس الذي انتقد بشكل حاد الواقع الأوكراني بلغة أوكرانية بديعة. وفي عام ١٩٧٢م تم اعتقاله للدعاية ضد الاتحاد السوفيتي حيث قضى ٥ سنوات في السجن. وفي عام ١٩٨٠م حكم عليه مرة أخرى بالسجن ١٥ عامًا. ويمثل هذا الشاعر رمزًا للأدباء الأوكران المعارضين للحكم السوفيتي في السبعينيات والثمانينيات. كانت كتاباته التي صورت حقيقة حياة الفلاحين في المزارع الجماعية والاحتجاج على القمع ضد الأدباء كافية للقضاء عليه، حيث فقد حياته في المعتقل الواقع في منطقة الأورال في عام ١٩٨٥م، ولم يعيش حتى يرى التحولات الكبيرة التي عاشها الاتحاد السوفيتي بعد ٥ سنوات من وفاته.

وكانت منطقة جالتسيا هي المركز الأدبي في أوكرانيا في الثمانينيات حيث لم تتعرض هذه المنطقة إلى تأثير الروسنة كغيرها من مناطق أوكرانيا أثناء الحقبة السوفيتية.

وفي عام ١٩٩٠م تم إعادة الاعتبار للشاعر الكبير ومنح اسمه أعلى جائزة أدبية في أوكرانيا وهي جائزة الدولة التي تحمل اسم الشاعر تاراس شيفشينكو.

وقد شهدت الثمانينيات من القرن العشرين تطورًا كبيرًا في الأدب الأوكراني الذي يمثل فسيفساء تضم مختلف المدارس والتيارات الأدبية.

كان عام ١٩٩٧م شاهدًا على ميلاد أدب جديد في أوكرانيا مع إعلان انسحاب عدد من أعضاء اتحاد الكتاب الأوكراني، حيث قام هؤلاء بتأسيس جمعية أدبية جديدة تحمل اسم «رابطة الأدباء الأوكران». ووضعت الرابطة ضمن أهدافها تجاوز الأزمة الإيديولوجية الهيكلية في الوسط الأدبي الأوكراني والتي نتجت بسبب عجز قادة اتحاد الكتاب الأوكراني عن إعادة إصلاح هذه المنظمة حتى تتجاوز ومتطلبات العصر.

ويتمس الأدب الأوكراني الحديث بالتنوع في استخدام الأساليب والموضوعات والاتجاه غربًا نحو أوروبا في تناول. ومن بين أهم الكُتَّاب على الساحة الأدبية الأوكرانية اليوم يوري أندروخوفيتش ويوري فينيتشوك ويفجينيا كونونينكو وأوليج ليشيجا وإيفان مالكوفيتش.

وبدراسة تطور الأدب الأوكراني خلال القرن العشرين نجد أن هناك تشابهًا كبيرًا بين مراحل تطور الأدب الروسي والأوكراني نظرًا لتشابه الظروف السياسية والاجتماعية التي تعرض لها الشعبان. غير أن الأدب الأوكراني تميز بوجود مجموعات من الأدباء تسعى طوال الوقت للتخلص من التأثير الروسي والاقتراب من التيارات الغربية الأدبية السائدة.

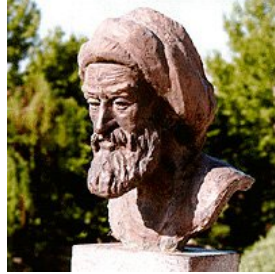
* * *

(٦)

أدب الرحلة في طاجكستان

ناصر خسرو، الأديب العاشق لمصر

وصاحب كتاب «سفر نامه»



تُعتبر شخصية الأديب والعالم الرَّحَّالة الطاجيكي ناصر خسرو، من الشخصيات المهمة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى عامة، والشعب الطاجيكي على وجه الخصوص.

وتمثل إبداعاته النظرية والشعرية مادة خصبة للباحثين والنقاد، رغم مرور عشرة قرون على وفاته. وخلص الكثيرون منهم إلى كونه أفضل من صاغ شعراً ونثراً بالفارسية في التاريخ. ويعتبر ضريحه مزاراً تاريخياً مهماً بالنسبة للشعب الطاجيكي. كما يمثل كتابه «سفر نامه» الذي يحكي تفاصيل رحلته إلى الحج أهمية خاصة، حيث يقدم لنا نموذجاً لما يجب أن تكون عليه مذكرات الرحلة. وحظي هذا الفن الأدبي بشهرة واسعة لدى أدباء آسيا الوسطى. كما يكتسب الكتاب أهمية أيضاً؛ نظراً لما احتواه من وصف مفصّل للمدن، والمجتمعات، والعادات.

ولعل الدليل على مكانة ناصر خسرو في خارج بلاده، أن الباحثين الغربيين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا قد قاموا بتتبع أثره في رحلته التاريخية إلى الشرق، وقاموا بزيارة الأماكن التي زارها لتقييم مضمون كتابه.

وُلد ناصر خسرو (أبو معين حميد الدين ناصر بن حارث القبدياني المروزي) في مدينة قبيديان في محافظة خراسان في عام ١٠٠٤م، لعائلة من موظفي الدولة وملاك الأراضي الأثرياء. ولم تصلنا معلومات كافية عن فترة طفولته، سواء في الكتابات التي تناولت سيرته أو في كتابه «سفر نامه».

وتُعد تلك المنطقة منشأ الشاعر من البقاع، التي شهدت تمازجاً بين مختلف الشعوب والأعراق والأديان، وخاصة مقاطعة بلخ التابعة لولاية خراسان الكبرى، التي كانت تمتد من شمال غرب أفغانستان حتى نهر جيحون في طاجكستان. وكانت العاصمة المحلية نيسابور، ومدينة مرو نقطتي توقف مهمتين على طول طريق الحرير، وفي زمن ناصر، كانت تعيش جاليات كبيرة من اليهود والمسيحيين والبوذيين جنباً إلى جنب مع المسلمين من كلتا العقيدتين السنية والشيعية: الأمر الذي

ساعد على إنتاج فكري وديني وفني مثمر وثري.

وفي شبابه عمل في بلاط الغزنويين في الإدارة المالية، ثم في أثناء حكم السلاجقة. وقد ذكر ذلك بنفسه في «سفر نامه». وكان واسع المعرفة في مختلف العلوم في تلك الفترة. وبفضل سفرائه الكثيرة التي كلف بها في عمله؛ اكتسب الكثير من الخبرات والمعارف، حتى أصبحت الوظيفة مملة ولا تشبع نهمه في المعرفة.

عاش ناصر خسرو في تلك الفترة المزدهرة ثقافياً، وكان لهذا أثر بالغ في تكوينه. ويكفي أن نذكر أنه كان في السادسة من عمره، عندما صدر كتاب الفردوسي الشهير «الشاهنامه» أو «كتاب الملوك».

ومنذ فترة مبكرة من حياته، طرح الشاعر على نفسه العديد من الأسئلة الفلسفية المهمة عن حقيقة الحياة، والكون، والسبيل إلى تحقيق السعادة الإنسانية. وحاول أن يجد إجابات وافية عنها لدى الشيوخ والعلماء، وفي كل المدارس الفكرية. وكان نهماً في القراءة باحثاً عن الحقيقة، التي وجدها أخيراً في الإيمان.

وفي الأربعين من عمره مر بانقلاب روحي، وتحولت حياته بشكل راديكالي، وانطلق في رحلته الشهيرة التي لم تكن رحلة دينية فقط بل تجربة لاستكشاف أسرار عالم الشرق. ترك ناصر خسرو مدينته، وتخلّى عن وظيفته، وهجر عائلته، وسافر مع أخيه في رحلة طويلة إلى مكة. استمرت الرحلة سبع سنوات، زار فيها ناصر خسرو الكعبة أربع مرات. وفي طريقه نحو الحجاز مر ببلاد كثيرة، حيث عبر أراضي أرمينيا وشمال إيران وأذربيجان وسوريا والقدس، وقضى عدة سنوات في مصر، التي كانت تحت الحكم الفاطمي في تلك الفترة. تعرّف الشاعر على المذهب الإسماعيلي عن قرب، حيث التقى بالعديد من كبار علماء هذا المذهب حينها، ومنهم المؤيد الشيرازي، الذي أصبح لاحقاً كبير علماء الخلافة الفاطمية.

وفي مذكراته رصد الشاعر والمفكر ناصر خسرو العادات والتقاليد في البلدان التي زارها أو مرّ بها، حيث تناول النظم الإدارية لكل بلد، والإنجازات والتراث الثقافي، ووصف مخططات المدن الكبرى، والمباني الرئيسية في واجهة ومداخل المدن. وقد تحدث تفصيلاً في مذكراته الشهيرة «سفر نامه» عن انطباعاته ورحلته إلى بلدان الشرق الأوسط. وقد نشر الكتاب في عام ١٨٨١ لأول مرة، وتمت ترجمته إلى عدة لغات. ويحتوي الكتاب على وصف تفصيلي للمدن، والجماعات العرقية، والدينية، وعاداتهم، وتقاليدهم، وثقافتهم، حيث أكد الرحالة على حقيقة أهمية القاهرة كمركز ثقافي وحضاري ضخم في العالم، ومكانتها بالنسبة لمسلمي العالم.

ولكونه عالمًا، فقد اهتم على نحو خاص بإنجازات هذه الشعوب في العلوم المختلفة، كالتاريخ والسياسة، والآثار، والمعتقدات الدينية، وفنون القتال، وسجّل كل ذلك.

وخلال هذه الرحلة زار مكة عدة مرات، وعاد إلى مدينة بلخ في طاجكستان شخصاً آخر بعد أن

عثر على إجابات لمختلف الأسئلة التي كانت تقلقه.

ونلمح في كتابه إعجابًا شديدًا بمصر، التي كانت تُعد في مصافّ الدول المتقدمة في العالم في تلك الفترة، وذكر أن التجار لا يغلقون أبواب متاجرهم ليلاً، وأن هناك نظامًا دقيقًا ومتطورًا في جباية الضرائب، وبشكل تصاعدي. كما وصف النظام الإداري في المجتمع المصري، ووصف القاهرة وأسوارها، وأقنية الري والشوارع والحارات، وذكر أهم عشر حارات فيها، وشروط الضرائب، وأنظمة التوظيف وتأجير المحلات التجارية، حيث ذكر أنها كانت مملوكة بالكامل للخليفة، وكان التجار يقومون بسداد إيجار شهري، وكذا معظم المنازل، التي بلغ عددها بالقاهرة وحدها عشرة آلاف منزل. كما وصف أسواق الفاكهة بالقاهرة، وقارن بينها وبين أسواق مكة وخراسان.

وتمثل حكاياته عن مصر مادة ثرية شيقية، حيث أعرب عن انبهاره بالقاهرة والحياة فيها، وذكر أنها تكاد تخلو من أي عيب، ولا تعاني من أية مشكلات. وتمنى لو أصبحت المدن في بلاده هكذا. ووصف الخليفة بكونه حاكمًا عادلًا، لا يُظلم عنده أحد. ولم يكن يجبر أحدًا على دفع الضرائب أو الخراج. ووصف كيف كان المصريون يبادرون بأنفسهم بالتبرع بأموالهم في فترات نقصان مياه النيل. ووصف كيف كان القضاة يتقاضون أعلى الرواتب لحماية من الوقوع في براثن الرشى، وبما يحفظ هيبتهم وكرامتهم. ووصف ناصر أول مدينة وطأتها قدماه، وهي تنيس بالقرب من دمياط، وكيف يعيش سكانها في ثراء حتى أنه لا يجبى فيها ضرائب، ووصف إخلاص المصريين وأمانتهم وطيبتهم. كما تحدث عن طبقة التجار والمحال المصرية التي تتوفر فيها كل السلع والبضائع التي ترد على متن السفن من أرجاء الدنيا، وعن الأمان التام الذي يشعر به، حيث لا جرائم؛ حتى أن أصحاب محال المجوهرات والسيارات لا يغلقون أبواب محالهم، بل يكتفون بإسدال الستائر فحسب.

كما تحدّث عن النيل، وقارن بينه وبين نهر جيحون، وذكر أن النيل أعظم وأكثر طولًا، ووصف منابعه، وحملة الخليفة لاكتشافها. كما وصف المباني المرتفعة، التي يبلغ عدد طوابقها ١٤ طابقًا، وذكر أنه بالقاهرة وحدها ١٤ - ١٥ مسجدًا جامعًا ضخمًا، وأكبرها مسجد عمرو بن العاص الذي يتسع لأكثر من خمسة آلاف شخص.

ونظرًا لعلمه الغزير، اختاره الفاطميون حجة دينية على إقليم خراسان، أي كبير شيوخ الدعوة هناك. وهو الأمر الذي أثار غضب الأغلبية من السُّنة عليه، ووصل الغضب إلى بلدته بلخ، فأدرك أن عليه الفرار، وسافر إلى الشرق في مكان يطلق عليه يغمان في إقليم بدخشان الجبلي.

وفي منفاه النائي، كتب ناصر العديد من الأعمال الفلسفية، وتراثه الباقي حتى يومنا هذا. وفي قصائده أطلق العنان لشعوره بالعُربة والحنين إلى الوطن، والأمل والثقة في انتصار الخير على الشر.

ومن غير المعلوم كم عاش بعد ذلك، إلا أنه في إحدى قصائده، ذكر أنه بلغ السبعين من العمر. وأغلب الظن أنه تُوفي في عام ١٠٨٨ - ١٠٨٩م. ويقع ضريحه على تل بالقرب من قرية جبرم في ضاحية فايز آباد.

أما عن أبرز إسهاماته، فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، أولها: مذكراته كرحالة أو كتاب «سفر نامه»، كما كانت تعرف حينها. أما الثاني: فيتمثل في ديوان أشعاره، وثالثها: الأعمال النثرية الفلسفية.

أما كتابه «سفر نامه» فمن غير المعلوم حتى الآن السنة التي كتب فيها. وربما كان ذلك بعد عودته من إحدى رحلاته. ويُعد الكتاب مصدرًا مهمًا جدًا للتعرف على الشرق الإسلامي في تلك الفترة، ويتسم الأسلوب بالبساطة والمصداقية.

أما مؤلفاته الفلسفية والشعرية، فقد كتبها في العشرين عامًا الأخيرة من حياته وفي منفاه الإيجاري في يومغان. ويتسم شعره بكثرة الموتيفات القرآنية، فيها يدعو في أشعاره إلى البحث عن الحقيقة وإصلاح النفس والشعور بمعاناة الآخرين. وقد ألّف ديوان شعر، يضم إضافة إلى القصائد الغنائية قصائد أصغر ورباعيات. وقد تُرجم عدد كبير من القصائد إلى لغات عدة، أهمها الإنجليزية والعربية. وفي عام ١٩٢٥ صدر كتاب شعري مهم له بعنوان «روشان نامه» (كتاب التنوير)، ويختلف عن العمل النثري الذي يحمل الاسم نفسه. أما القصيدة الطويلة الثانية فتحمل عنوان «سعادة نامه» (كتاب السعادة). ويبلغ إجمالي عدد الأبيات الشعرية التي أبدعها ناصر خسرو ما يقارب ١٥ ألف بيتا.

وقد لعب ناصر خسرو دورًا كبيرًا في تطوير فن القصيدة الشعرية، فقبل ناصر خسرو كانت الموضوعات التي تطرحها القصيدة تنحصر في الموتيفات السياسية، والفلسفية، والأخلاقية، والاجتماعية. فجاء خسرو وأضاف الموضوعات الرومانسية ومضامين الحب.

وهناك العشرات من الأعمال الأخرى التي جيء على ذكرها في كتابات المؤرخين، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب «بستان العقل»، الذي ذكره ناصر خسرو نفسه في كتابيه «زاد المسافرين» و«جامع الحكمتين». ولعل الأخير من أهم كتبه الفلسفية، التي يجمع فيها بين الحكمتين الفلسفة والدين، وتحديدًا الفلسفة اليونانية والإسلام، ويسعى الكاتب للتأكيد على أن الاتجاهين لا يتعارضان مع بعضهما بعضًا؛ باعتبارهما وسيلة للوصول إلى الحقيقة الإلهية، بل إنهما يتطابقان جوهريًا، ويؤديان إلى الوصول لنفس الحقيقة.

ويُعد كتابه «زاد المسافرين» آخر كتبه المحققة، ويتناول فيه ناصر خسرو الكثير من الموضوعات الطبيعية والميتافيزيقية، كالأجسام، والزمان، والمكان، والخلق، والعلة، والأثر، والثواب، والعقاب. ويبحث في النفس وأفعالها، وكيفية اتحادها مع الجسد، وكيفية ظهور الإنسان، وكيفية فنائه، وماهية السعادة والجنة، ويؤكد أن المعرفة والحكمة هما أهم ما يتزود بهما المسافر

في رحلته الدنيوية.

وبتحليل إنتاج ناصر خسرو الفلسفي والشعري، وأهمية كتابه عن رحلته إلى الشرق، يتضح لنا الإرث الفكري العظيم الذي تركه هذا الرجل، الذي أهله لنيل لقب حكيم والحجة في المعرفة في زمانه. وكثير من سكان آسيا الوسطى يدعون أنهم ينحدرون منه، كما تتصارع عدة دول بالقول إنه ينتمي إليها دون غيرها. ولا يزال الكثير من أعماله تحتاج إلى تحقيق وبحث ودراسة، هو وغيره من علماء ورخالة آسيا الوسطى الذين لعبوا دورًا مهمًا في نقل الحضارة العربية إلى هذه البقاع، وأثروا بعلمهم التراث والحضارة الإنسانية.

(٧)

تاريخ الأدب المنغولي



جنكيز خان

تقع منغوليا شرق ووسط آسيا في المنطقة بين روسيا والصين، ويعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر عندما اتحدت عدة قبائل ومجموعات من المغول تحت حكم جنكيز خان، الذي قام وأبناؤه وأحفاده من بعده بتوسيع حدود الإمبراطورية؛ لتمتد من كوريا والصين شرقًا إلى أوروبا غربًا. وتعرضت الإمبراطورية إلى فترات ضعفٍ وانهيار، ومن ثم نهضة ثانية في القرن الخامس عشر. وفي بداية القرن السادس عشر سيطر حكام منشوريا على منغوليا الداخلية في الصين، ومن ثم انتصروا على حكام الصين في عام ١٦٤٤، واستولوا بعدها على منغوليا الخارجية في عام ١٦٨٠.

وظلت منغوليا ضمن الحدود الصينية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى عام ١٩١١؛ حيث تمكّن جيشها من طرد القوات الصينية، ونصبوا قسًا يُدعى «بودا» حاكمًا، وطلبوا الدعم من الروس.

وفي عام ١٩١٣ تم منحها السيادة على أراضيها، وفي عام ١٩٢١ ومع قدوم الشيوعيين إلى السلطة في موسكو تم تأسيس جمهورية منغوليا الشعبية الحليفة للاتحاد السوفيتي.

ويتميز الأدب المنغولي بالقدم والعراقة؛ حيث تفرّد بكونه قد تأثر بالتقاليد الشفهية والأدب

الشعبي المنقول المرتبط بالحياة الرعوية للقبائل والشعوب المنغولية.

واتسمت ثقافة المنغول القدامى (القرن السابع قبل الميلاد) بكونها شفوية بالأساس وَفَقًا لما جاء في سجلات ومذكرات المؤرخ سيما تشيان؛ حيث انتشر فن الغناء وإنشاد الملاحم البطولية والأساطير والحكايات الشعبية والحكم، وهي الفنون التي ما زالت منتشرة في الأدب المنغولي حتى يومنا هذا. ويحتفظ التراث المنغولي بأغنيات تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ومنها أغنية «أخو سيان بي».

وقد عُثِرَ في عام ٥٨٤م على نقشٍ قديمٍ كُتِبَ بلغاتٍ متعددة باللغَة المنغولية، وهو ما يُؤرِّخ لهذه اللغَة التي استُخدمت في الفترة بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وهي لغة قريبة من اللغَة المستخدمة اليوم.

وقد اصطلح على تسمية عام ١٢٠٤ بعام انطلاق الحِقبة الإمبراطورية بعد تولّي جنكيز خان الحُكم؛ حيث تبَنّت الدولة النص المنغولي باعتباره النص الرسمي للإمبراطورية، وشهد الأدب في تلك الفترة ازدهارًا بفضل التنوع العرقي وامتداد الإمبراطورية جغرافيًا وما تبع ذلك من ضرورة الربط بين أطرافها بنظام تواصلٍ لغوي ومراسلات واتصالات، غير أن كثيرًا من أعمال وإبداعات تلك الفترة قد فُقدت بفعل التدمير والحرق الذي أعقب انهيار الإمبراطورية وسقوطها. ومن أهم الأعمال والكنوز الأدبية والتاريخية المفقودة: «الكتاب الذهبي»، و«النص المنغولي البديع»، و«قانون الياسا العظيم».

أما أهم أعمال الحِقبة الإمبراطورية، فنذكر منها: كتاب «التاريخ السري للمغول» (١٢٢٨)، و«مرسوم أوجي خان» (١٢٤٠)، و«مخطوطات القبيلة الذهبية» (١٢٤٠)، و«رسائل أرغون إلى فيليب الرابع من فرنسا» (١٢٨٩)، و«البابا نيكولاس الرابع» (١٢٩٠)، و«قصيدة محمد السمرقندي» (١٢٩٠)، و«الإسكندر الحالم» (القرن الثالث عشر - أوائل القرن الرابع عشر)، و«كتاب التضحية»، و«مراسيم أباطرة اليوان من قوبلاي خان إلى توغون تيمور» (١٢٧٩-١٣٦٨)، وغيرها.

ويُعتبر كتاب «التاريخ السري للمغول»، والذي كُتِبَت النسخة الأصلية منه بالخط المنغولي، من بواكير الأعمال العظيمة والمؤسّسة للأدب المنغولي، ويحتوي الكتاب على نصوصٍ نثرية وشعرية. كما شهد القرن الرابع عشر صدور كتابات وأعمال أدبية عظيمة، مثل: «حكمة جنكيز خان»، و«هزيمة ٣٠٠ تايغود لجنكيز خان»، و«النقاش الحكيم بين الفتى اليتيم والجنرالات التسعة لجنكيز»، وقد تم نَسْخُ هذه الأعمال في القرن السابع عشر، كما تحتوي مخطوطات تعود إلى حِقبة القبيلة الذهبية على قصائد تُعبر عن شوق الأم إلى لقاء ابنها الجندي.

ويُعتبر كتاب «التاريخ السري للمغول» بمثابة مخطوطة تاريخية، وأهم وأقدم النصوص المغولية. يتحدث الكتاب عن أصول الشعب المغولي وفترة حُكم جنكيز خان (١٢٠٦-١٢٢٧)،

ويضم أيضاً فترة حُكم أبنائه وخليفته أوديغي خان (١٢٢٩-١٣٤١). وعلى عكس معظم مصادر القرون الوسطى حول المغول، فقد كُتبت المخطوطة من وجهة نظر المغول أنفسهم. ويُعتبر هذا العمل تسجيلاً قيماً لأساطيرهم الشفوية وتاريخهم المكتوب، بالإضافة إلى ذكر جنكيز خان ومراسيمه الإمبراطورية، مما يُطلعنا على أهم القادة في تاريخ العالم. يضم العنوان كلمة «السري»؛ وذلك إما بسبب أن أفراد العائلة الإمبراطورية والأشخاص الذين لهم مكانة خاصة كان مسموح لهم بقراءته وحدهم، أو أن المغول فقط كان مسموحاً لهم بقراءته.

وقد تم كتابة «التاريخ السري للمغول» في القرن الثالث عشر ميلادياً، مع أن بعض أجزاءه كانت مكتوبة في بدايات ١٢٢٨ كما هو مذكور في المخطوطات القديمة. ومؤلف الكتاب غير معروف، ولكن بحسب محتوى المخطوطة فمن الواضح أنها كُتبت من قِبَل شخص له صلاحية وارتباط قوي بالباط الإمبراطوري المغولي. وأحد الكُتاب المحتملين للمخطوطة هو سيغي كودقو، ابن جنكيز خان بالتبني، وهناك مؤلف محتمل آخر هو أونغود سينغكاي، وثالث هو تاتاتونغا حامل ختم جنكيز خان.

ويتوفر الكتاب حالياً بنسختين مختلفتين: النسخة القصيرة مكتوبة باللغة المغولية، وقد طُبعت في القرن السادس عشر، أما النسخة الثانية الأكبر والأكثر تفصيلاً فهي باللغة الصينية. وعلى الرغم من أن مترجمي النسخة الثانية قد اعتمدوا على النسخة المغولية الأصلية، إلا أن بها معلومات غير دقيقة ومبهمّة، معظمها ناتجة عن القراءة الخاطئة للمصطلحات الأصلية. وتحتوي هذه النسخة من تاريخ المغول السري على اثني عشر فصلاً، ومئتين واثنين وثمانين فقرة، وهو مقسّم إلى أربعة أجزاء. يدور الجزء الأول حول الأساطير المغولية، والقصائد الملحمية دون ذكر تواريخها. أما الجزء الثاني فتاريخيٌّ أكثر، ويضم معلومات عن الأسلاف، وعن ظهور وبزوغ قوة جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية (١٢٠٦-١٣٦٨)، وعن انهيارها. ويضم الكتاب وصفاً للمراحل التاريخية المتعاقبة، كما يُولي اهتماماً خاصاً بحياة وشخصية جنكيز خان ونجاحاته في إخضاع مختلف قبائل السهول الآسيوية. ويحتوي الجزء الثالث على مستندات إضافية مرتبطة بالجزء السابق، ولا سيما المراسيم الرسمية الصادرة عن الحكام المغول والأوامر الإمبراطورية. أما الجزء الرابع فهو عن حياة وحُكم ابن جنكيز خان وخليفته أوغيدي خان، وقد كُتب هذا الجزء بنفس أسلوب الجزء الثاني، مما يعني أنه قد كُتب بواسطة نفس الكاتب.

وتتجلى قيمة كتاب «تاريخ المغول السري» كمصدر تاريخي مهم في الدراسات البحثية؛ حيث يُقدم نظرة فريدة لوجهة نظر المغول عن أنفسهم، إمبراطوريتهم وتاريخهم. كما يُعتبر الكتاب أحد أهم الآثار الأدبية عند الشعب المغولي؛ حيث يتم تدريسه للأطفال في المدارس.

وشهد مطلع القرن الرابع عشر صدور ترجمة شياو جينغ الكونفوشيوسية لكتاب «قواعد بر الوالدين» من الصينية إلى المنغولية. وقد تأثر الأدب المنغولي بشكلٍ كبير بالتقاليد الشفهية البدوية

التي سادت به منذ النشأة. ويتجلى ذلك بقوة في الأعمال الثلاثة الأعظم في هذا الأدب، وهي: «التاريخ السري للمغول»، و«ملحمة الملك جيزار»، و«ملحمة جانغار» والتي صيغت على غرار الملاحم البطولية التي كانت منتشرة بين قبائل آسيا الوسطى وأوراسيا. وانتشرت في القرن السادس عشر مؤلفات صينية وهندية مترجمة إلى اللغة المنغولية، وكانت في معظمها كتباً دينية تبشر بالديانة البوذية، واستمرت هذه الظاهرة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وشهدت فترة حُكم أسرة يوان العديد من الأعمال المترجمة؛ حيث صدرت العديد من الترجمات والتعليقات على العديد من كتب السوترا البوذية، وترجمة قواعد بر الوالدين (شياو جينغ)، وكذلك العهد الجديد والمزامير.

وتُعد قصيدة محمد السمرقندي القصيرة - المكونة من أربعة أسطر عن الحكمة - أحد الدلائل الهامة على التواصل بين الثقافتين المغولية والإسلامية. ومن المعروف أن القرن الثاني عشر قد شهد قيام عالم فارسي يدعى افتخار الدين محمد بترجمة قصص كليلة ودمنة (البانشاتانترا) من الفارسية إلى المغولية.

وعانت منغوليا في الفترة بين عامي ١٣٦٨-١٥٧٦ من انهيار تام وتحلُّف حضاري شديد، وهي الفترة التي أعقبت سقوط مملكة أسرة يوان؛ حيث تعرضت البلاد لهجمات ضارية من سلالة مينغ أدت إلى سقوط الإمبراطورية التي دخلت مرحلة جمود وظلام حضاري دام قرنين من الزمان، وحتى انتشار الديانة البوذية من جديد في نهايات القرن السادس عشر.

ورغم ذلك ظلت النصوص الشفهية والفلكلورية المنغولية تنتقل من جيل إلى جيل، ويتم تلقينها للأطفال، وهناك بعض المخطوطات المغولية عُثِر عليها في منطقة أولون سوم تعود إلى تلك الفترة. كما طُبعت أعمال باللغة المنغولية داخل أراضي مينغ، بما في ذلك المعجم (١٣٨٩)، والنسخة الصينية من كتاب «التاريخ السري للمغول» (١٣٨٦)، ودليل التانترا باللغات الصينية والتبتية والمغولية والسنسكريتية (١٥٠٢).

ويُطلق على الفترة بين عام ١٥٧٦ وحتى أواخر القرن الثامن عشر: عصر النهضة المنغولي؛ حيث استطاع دايان خان إعادة الوحدة السياسية للبلاد، وعودة انتشار الديانة البوذية، ما وحَّد بين القبائل المنغولية الشامانية سابقاً. وشهدت تلك الفترة نهضة ثقافية؛ حيث تم كتابة العديد من الأعمال الأدبية في مختلف الأجناس، بما في ذلك الأعمال الخيالية والتاريخية واللغوية والقانونية والطبية. ومن بين المؤلفات الباقية حتى يومنا هذا: كتاب «ألتان توبشي من لوبسانغدانزين»، وأعمال ساجانغ سيتشن، وهو كاتب وأمير منغولي، وهناك أيضاً القصة الرمزية مجهولة المؤلف التي تحمل عنوان «الجياد المرقطة» والتي يدور مضمونها حول الحرية والأخلاق، و«القصة الصفراء» التي كُتبت في مدح دايان خان في القرن السابع عشر.

وشهد القرن السابع عشر صدور كتابات أدبية هامة، كان لها دور كبير في النهضة الثقافية في منغوليا، ونعني بذلك «أطان طوبسي» للشاعر ليبسنگ دانزن، و«أرديني جين طوبسي» للشاعر صانغ صيسين، وهما عبارة عن دواوين شعرية فلكلورية مصحوبة بالغناء.

واستمرت النهضة المنغولية تحت حكم أسرة تشينغ (١٦٩١-١٩١١)، وحُكم بوجود خان (١٩١١-١٩٢١). وعلى الرغم من الاضطهاد الشيوعي الواسع في الثلاثينيات، مع تدمير معظم الأديرة؛ فقد نجا عدد كبير من هذه الأعمال. تسمى اللغة المنغولية الأدبية التي تطورت خلال هذه الفترة اليوم باللغة المنغولية الكلاسيكية، بينما تسمى لغة العصر الإمبراطوري والعصور المظلمة باللغة المنغولية ما قبل الكلاسيكية.

وشهدت تلك الفترة الانتهاء من كتابي الكنجور والتنجور، اللذين بدأت ترجمتهما في العصر الإمبراطوري، في عصر النهضة. وتم نشر مجموعة منغولية كاملة تسمى «الكتاب الذهبي» (التنجور) (١٦٢٨-١٦٢٩) في عهد الخان ليجدان في ١١٣ مجلدًا. وفي وقت لاحق، تم تحرير هذه النسخة وإعادة طبعها في ١٧١٨-١٧٢٠، واكتمل «الكتاب الذهبي» أخيرًا في ١٧٤١-١٧٤٩، وطبع في ٢٢٥ مجلدًا، وطُبعت أقدم نسخة مكتوبة من ملحمة «جيسر» العظيمة في نسختها المنغولية في بكين عام ١٧١٦. وقد ألهم هذا العمل الملحمي المكوّن من ٢٠.٠٠٠ بيت شعبي بوريات وجانغار، فيما يعود تاريخ ملحمة «كالميكس» إلى القرن السادس عشر. وصدرت قصة «إندوريل خان» عام ١٦٦٦، وهو عمل خيالي هام. أُلّف تسوغت تايجي قصيدته الشهيرة في عام ١٦٢١، والتي كُتبت لاحقًا على سطح صخري في عام ١٦٢٤.

ويُطلق على الفترة من أواخر القرن الثامن عشر وحتى عام ١٩٢١ حقبة ما بعد عصر النهضة، ففي القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه للتفكير النقدي؛ حيث كان المؤرخان إنجاناشي ودانزان رافجا يسخران من الملاحظات الدنيوية لرجال الدين البوذيين، بالإضافة إلى تجاوزات النبلاء تجاههما. وإنجاناشي هو ابن وانجشينجبالا (١٧٩٥-١٨٤٧) الذي عمل مسؤولًا وكاتبًا ومؤرخًا، كما قام بتأليف «الكتاب الأزرق عن تاريخ إمبراطورية يوان» والذي أكمله إنجاناشي بعد وفاة والده.

وقد شهدت تلك الفترة ترجمة الروايات المهمة في الأدب الصيني إلى اللغة المنغولية، وانتشرت بين القراء على نطاق واسع، وأثرت على أعمال المؤلفين المنغوليين، ومنهم إنجاناشي.

وشهد القرن التاسع عشر صدور أول كتابات أدبية خالصة في منغوليا الحديثة، ومن أهم أدياء تلك الفترة «فانشين بالين انجاش» الذي يُعتبر أول الروائيين في منغوليا، وقد عاصره مجموعة من الشعراء المجددين، ومنهم: دنزان رافجا، وقونرانزا فنشنبالي، وبورجيغين فانشنبالي غولارنس.

ويُعتبر داشدورجين ناتصاقدورج (١٩٠٦-١٩٣٧) مؤسس الأدب المغولي الحديث بنصوصه

الشعرية الجميلة، خاصة قصيدته «أرض أجدادي» التي يمجدها بلاده منغوليا. ومع استقلال منغوليا سنة ١٩٢١، وانضمام البلاد إلى المعسكر السوفيتي، تأثر الأدباء المنغول بالأدب السوفيتي، وساد تيار الواقعية الاشتراكية. ومن أشهر كتاب تلك الحقبة: صودنوم بالجيرين بويان ميش (١٩٠١-١٩٣٧)، وتسنديين دامدينسورين (١٩٠٨-١٩٨٦)، اللذان ذاع صيتهما بقوة، والأخير قام بكتابة كلمات النشيد الوطني لمنغوليا، ورواية «الأم ذات الشعر الأسود»، وقصة «البنيت المنبوذة»، ولكن عمله الأكبر تمثل في ترجمة موسوعة «التاريخ السري للمنغول» إلى اللغة المنغولية الحديثة.

ومع حلول عام ١٩٢١ دخلت منغوليا في مرحلة جديدة ومهمة من الثورة الصناعية، وما تبعها من تغيير جذري في المجتمع. وقد تجلّى التحالف مع الاتحاد السوفيتي في الأدب أيضاً؛ حيث ساد تيار الواقعية الاشتراكية بوصفه التيار الأدبي المهيمن على مدى العقود التالية، ومن بين رواد تلك الفترة: د. ناتساجدورج، وس. دامدينسورين. كما ذاع صيت عدد آخر في فترة ما بعد الحرب، ومنهم س. يردين، وس. أودفال، وسيطر موضوع القرية والحياة في الريف على كثير من الأعمال، كما تناولت أعمال أخرى تاريخ نضال منغوليا من أجل الاستقلال والثورة الشيوعية وأثناء الحرب العالمية الثانية، فيما تناول آخرون تاريخ منغوليا القديم.

ومن بين الكتاب المجددين في الأدب المنغولي نذكر: بيانين رنشين (١٩٠٥-١٩٧٧)، الذي اشتهر بنقل نصوص من الأدب العالمي إلى لغة بلاده، مثل: كتابات ناظم حكمت، وجي دوموباسان، ومكسيم جوركي، وفلاديمير ماياكوفسكي، وميخائيل شولوخوف، كما اهتم بتحديث وتطوير اللغة المنغولية. أما أهم كتاب النصف الثاني من القرن العشرين، فنذكر منهم: الشاعرين مندي أويو، وأوشيرباتين داشبالبار.

وقد تعرّض الأدب المنغولي لتغيرات بفعل التحولات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي والعمليات الديمقراطية في أواخر الثمانينيات؛ حيث دفع ذلك الكتاب المنغول إلى البحث عن أشكال جديدة للتعبير الأدبي، وتخلصوا تماماً من إرث الواقعية الاشتراكية. ومن أشهر كتاب تلك الفترة: ب. جوربازار، جالسان تشيناغ، تس. خولان، وغيرهم.

ويُعتبر الكاتب والمترجم والباحث بيامبين رينتشن أحد مؤسسي الأدب المنغولي الحديث، وُلد في بلدة بول سراي، وتوفي في العاصمة أولان باتور. كرّس أبحاثه ودراساته الأولى في ميدان قواعد اللغة المنغولية، وفي جَمع الأدب الشعبي المنغولي وتحقيقه ونشره بين ١٩٥٩ و١٩٦٥. ثم بدأ مرحلة الإبداع الأدبي شاعرًا في أواخر عشرينيات القرن الماضي؛ حيث أبدع قصائد نضالية ضد الهيمنة الصينية، وتدعو للتححرر من المَلَكِيَّة، ثم بدأ يجرب نفسه في الأعمال النثرية وتحديداً في الرواية، فاستقى موضوعات رواياته وقصصه بصورة رئيسية من حركة النضال التحرري الشعبي في وطنه.

ومن أهم أعماله: ثلاثية «شعاع حمرة الفجر» التي نُشر أجزاء منها بين عامي ١٩٥١-١٩٥٥، وقد اعتمد فيها الكاتب على وثائق تاريخية وشهادات حية؛ ليعرض مصير المواطن المنغولي البسيط شيرتشين وعائلته في أثناء الحقبة الممتدة من عام ١٨٨٠ حتى ١٩٤٠، أي في المرحلة التي انفصلت فيها منغوليا عن الصين، وأسست دولتها الجديدة، وعاشت تغلغل الأفكار الاشتراكية والماركسية في حياتها اليومية. وفي الأجزاء الثلاثة: «تحت نير وطغيان نظام المانشو»، و«عذابات النار والماء»، و«نضال الوطن الأم»، عبّر الكاتب عن المحن والتجارب الصعبة التي مرت بها هذه العائلة البسيطة، وعرض أسباب بؤس الشعب المنغولي وقهره. وحققت الرواية نجاحًا كبيرًا في منغوليا، كما تُرجمت إلى اللغتين الروسية والصينية.

ومن أعماله الهامة أيضًا: المجموعة القصصية «الأميرة أ» (١٩٥٩)، والقصة الطويلة «ولية العهد» (١٩٦٢). ويمكن القول بأن ريننتشن قد امتلك أسلوبًا لغويًا متميزًا وخاصًا به، واعتبره الكثيرون امتدادًا لتراث الأدب المنغولي.

وينشط في منغوليا اتحاد الكُتاب المنغول الذي يقوم على تنظيم الحياة الأدبية، ويقوم بإصدار دوريات أدبية. وقد احتفل بمرور ٨٥ عامًا على تأسيسه، ويضم في الوقت الحالي أكثر من ٨٠٠ عضو من الكُتاب والشعراء.

وهكذا يتضح لنا قِدم وعراقة الأدب المنغولي متعدد الأجناس والظواهر الأدبية، والمرتبط بقدم وعراقة تاريخ هذا البلد مترامي الأطراف على قلة سكانه. ويستحق هذا الأدب الكثير من البحث والدراسة؛ لاكتشاف ما به من مواهب فريدة، ولقياس التفاعل بينه وبين الثقافات الأخرى، ومنها الثقافة العربية والإسلامية.

- ١- تاريخ الأدب الروسي، ١٠ أجزاء، موسكو - برلين ،
٢٠١٤
- ٢- أخريمنكو ب.، تاريخ الأدب الاوكراني، موسكو، ١٩٧٠
- ٣- أبيلويك ي.، تاريخ الأدب الروسي في القرن العشرين، موسكو، ٢٠٠٩
- ٤- ألكسييفا ل.، تاريخ الأدب الروسي في القرن العشرين، موسكو، ٢٠٠٥
- ٥- يفديكيموفا أو.، تاريخ الادب الروسي في القرن التاسع عشر، موسكو، ٢٠١٤
- ٦- زايترسيف ف.، تاريخ الادب الروسي في النصف الثاني من القرن العشرين، موسكو،
٢٠٠٨
- ٧- ليبيديفا أو.، تاريخ الأدب الروسي في القرن الثامن عشر، موسكو، ٢٠١٦
- ٨- بيبين أن. تاريخ الادب الروسي، ٤ أجزاء ، موسكو، ٢٠١٤
- ٩- سبيرانسكي م. تاريخ الادب الروسي القديم، موسكو، ٢٠٠٤
- ١٠- سالنيكوف أ. الادب الروسي بعد جوجول. سير حياة وسمات وسمات مميزة، سان
بطرسبيورج ١٩٠٦،
- ١١- جورافل أ. تاريخ الادب الروسي نهاية القرن التاسع عشر الى مطلع القرن العشرين،
٢٠١٤
- ١٢- كوليشوف ف. تاريخ الادب الروسي، موسكو، ١٩٨٩

المؤلف في سطور

- أ.د. محمد نصر الدين محمد الجبالي
- أستاذ الأدب الروسي بكلية الألسن جامعة عين شمس ورئيس قسمي اللغة الروسية بجامعة مصر للعلوم وأكاديمية السادات.
- عميد كلية الألسن جامعة الأقصر، ورئيس قسم اللغة الروسية بجامعة عين شمس سابقاً.
- المستشار الثقافي المصري ومدير البعثة التعليمية المصرية في روسيا الاتحادية سابقاً.
- كاتب مقالات بالصحف والمجلات الأدبية العربية وباحث في الأدب الروسي والترجمة.
- رئيس قسم اللغة الروسية بجامعة الملك سعود بالرياض سابقاً.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة - لجنة الترجمة.
- له أكثر من ٣٥ كتاب ومؤلف ومترجم من الروسية إلى العربية والعكس.

المؤلفات والترجمات

المؤلفات:

- ١ - معجم المصطلحات السياسية والاقتصادية (روسي - عربي) (عشرون ألف مصطلح سياسي واقتصادي) (وزارة الثقافة المصرية - المركز القومي للترجمة).
- ٢ - مذكرات الرحالة الروس إلى مصر في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - باللغة الروسية - سان بطرسبورج - ٢٠٠٨م
- ٣ - كتاب تعريف عن المملكة العربية السعودية باللغة الروسية - وزارة الثقافة السعودية - ٢٠١٠
- ٤ - الكتب المرجعية في الترجمات السياسية والنفطية والاجتماعية والعسكرية (من وإلى اللغة الروسية) لطلاب كلية اللغات والترجمة - الرياض - ٢٠٠٥م
- ٥ - كتاب (مشاهد من المملكة) - وزارة الثقافة السعودية - ٢٠١١م
- ٦ - كتاب المطالعات في اللغة العربية للطلاب الروس. موسكو. ٢٠١٢م - ٣ طبعات
- ٧ - الاستراتيجيات الدولية في خدمة اللغة الوطنية. تجربة روسيا الاتحادية في حماية ودعم اللغة الروسية. الرياض. مركز اللغة العربية. ٢٠١٥م.
- ٨ - تاريخ الحج من روسيا الاتحادية، دار الملك عبد العزيز التاريخية، الرياض، ٢٠١٧م
- ٩ - تاريخ الحج من دول البلطيق، دار الملك عبد العزيز التاريخية، تحت الطبع.
- ١٠ - تاريخ الأدب الروسي، دار دؤن للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤.

الترجمات:

- ١ - ترجمة رواية «زمن النساء» - الهيئة العامة للكتاب -سلسلة الجوائز - نوفمبر ٢٠١٦م
- ٢ - ترجمة كتاب « الأدب الشعبي عند العرب والترك» من اللغة الروسية إلى العربية. مركز الترجمة بجامعة الملك سعود - الرياض - ٢٠١٢
- ٣ - ترجمة كتاب« تاريخ الحج من أوزبكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٣
- ٤ - ترجمة كتاب«تاريخ الحج من طاجكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٤م
- ٥ - ترجمة كتاب«تاريخ الحج من تركمنستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٦م
- ٦ - ترجمة كتاب«تاريخ الحج من كازاخستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٧م
- ٧ - ترجمة كتاب (الإستراتيجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين) إلى اللغة العربية - المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة -وزارة الثقافة - مصر - ٢٠٠٣م
- ٨ - ترجمة كتاب (النور والظل) في الجغرافيا السياسية لمنطقة آسيا الوسطى - مكتبة العبيكان - ٢٠٠٩ - الرياض
- ٩ - ترجمة دليل تاريخ مصر القديم والحرف والصناعات القديمة في مصر الفرعونية - القاهرة - ٢٠٠٤م
- ١٠ - ترجمة قصائد الشاعر ألكسندر بوشكين ضمن مشروع موسوعة ترجمة أعماله إلى ٢٠٠ لغة عالمية. ٢٠١٤م
- ١١ - ترجمة كتاب «حوار الحضارات. روسيا والعالم الإسلامي». مركز الترجمة بجامعة الملك سعود. الرياض. ٢٠١٧
- ١٢ - ترجمة كتاب« روسيا في الشرق الأوسط والأدنى»، دار نشر« أنباء روسيا»، القاهرة، ٢٠١٨م
- ١٣ - ترجمة كتاب« روسيا والغرب. لمن الغلبة؟»، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٩
- ١٤ - ترجمة رواية «مذكرات الكاهن الاعظم ايفان سيرجيفيتش»، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٢٠
- ١٥ - ترجمة رواية «النبطي» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية - دار نشر «أنباء روسيا» - ٢٠١٥م
- ١٦ - ترجمة رواية «عزازيل» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية. دار نشر

«أسترال». موسكو. ٢٠١٣.

١٧ - ترجمة إصدارات مركز زايد للتنسيق والمتابعة والتابع لجامعة الدول العربية إلى اللغة الروسية - دليل الإصدارات + دليل المحاضرات - ٢٠٠٣م

١٨ - ترجمة رواية الآخر للأديب فيودور ميخائيل دوستويفسكي، دار دَوْن للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م.

١٩- ترجمة كتاب : كريم حكيموف. سيرة حياة. موسكو، ٢٠٢١م

٢٠- ترجمة كتاب «الإمبراطورية الروسية وشبه الجزيرة العربية» ، المركز القومي للترجمة، تحت الطبع.

تقديم ٥

الباب الأول: نشأة الأدب الروسي ١١

(١) بين الديني والتاريخي ١٢

الباب الثاني: تطور الأدب الروسي عبر السنين ٢٢

(١) عصر بطرس الأكبر.. نحو علمانية الأدب ٢٣

(٢) القرن ١٩.. العصر الذهبي للأدب الروسي ٣٢

(٣) الأدب الروسي في عصره الفضي ٤٢

(٤) الأدب الروسي في المنفى ٥١

(٥) الأدب الروسي.. وعملية بناء الوعي ٥٩

(٦) الأدب الروسي العائد ٦٦

(٧) الأدب الروسي.. وجائزة نوبل ٧٤

(٨) مرحلة الحداثة وما بعدها ٨٢

(٩) الأدب الروسي المعاصر والبحث عن هوية ٨٨

الباب الثالث: تيارات وظواهر في الأدب الروسي ٩٣

(١) نشأة وتطور أدب الطفل في روسيا ٩٤

(٢) شعراء.. ودبلوماسيون ظاهرة فريدة في روسيا ١٠٠

(٣) الأدب النسائي الروسي ١٠٦

(٤) أدب الرحلات في روسيا ١١٩

(٥) ثنائية التأليف... ظاهرة فريدة في الأدب الروسي الأخوان

ستروجاتسكي - مؤسسًا تيار الخيال العلمي في الأدب

الروسي ١٢٤

(٦) أدباء روس أحرقوا كتبهم ١٣٢

(٧) نهايات غامضة: قصص وفاة أدباء روسيا الكبار ١٣٧

(٨) الدراما الروسية المعاصرة ١٤٥

(٩) كبار أدباء روسيا بين العبقرية والجنون ١٥٠

(١٠) أدباء منتحرون... ظاهرة روسية فريدة

انتحار الفكر... أم فكر الانتحار؟ ١٥٦

الباب الرابع: سيرة أهم أعلام الأدب الروسي ١٦٣

- (١) ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين ١٦٤
- (٢) ألكسندر بوشكين وتاراس شيفشينكو الشخصيتان الأكثر تأثيرًا في الثقافتين الروسية والأوكرانية ١٨٠
- (٣) ليرمونتوف.. أمير آخر للشعر في روسيا ١٩٥
- (٤) نيقولاي فاسيليفيتش جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢م) ٢٠٤
- (٥) هل جوجول روسي أم أوكراني؟ جدل ثقافي متجدد لإثبات الأحقية بالكاتب العظيم ٢١٠
- (٦) فيودور ميخايلوفيتش دوستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١م) ٢٢٠
- (٧) ليف نيقولايفيتش تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠م) ٢٢٦
- (٨) في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على مولده «إيفان تورجينيف».. أفضل من تغنى بالطبيعة ٢٣٣
- (٩) أنطون بافلوفيتش تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤م) ٢٣٩
- (١٠) نيقولاي ستيبانوفيتش جوموليوف (١٨٨٦ - ١٩٢١م) ٢٤٤
- (١١) أنا أندرييفنا أخماتوفا (١٨٨٩ - ١٩٦٦م) ٢٥٠
- (١٢) فلاديمير فلاديميروفيتش ماياكوفسكي (١٨٩٣ - ١٩٣٠م) ٢٥٤
- (١٣) سيرجي ألكسندروفيتش يسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥م) ٢٥٨
- (١٤) مارينا ايفانوفنا تسيفتايفا (١٨٩٢ - ١٩٤١م) ٢٦٢
- (١٥) إيفان الكسيفيتش بونين (١٨٧٠ - ١٩٥٣م) ٢٦٧
- (١٦) مكسيم جوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦م) ٢٧٢
- (١٧) لودميلا أوليتسكايا.. شاهدة على زمن التحولات في روسيا ٢٧٦
- (١٨) ألكسندر سولجنتسين رائد الأدب الوثائقي في روسيا ٢٨٣
- (١٩) جنكيز أيتماتوف ثالث أكثر الأدباء مبيعًا في القرن العشرين ٢٩١
- (٢٠) الأدباء الستينيون في روسيا فاسيلي أكسيونوف

نموذجًا ٢٩٨

(٢١) في ذكرى مرور مائة عام على مولده: الشاعر الداغستاني

رسول حمزاتوف... شاعر الحب والجبل الأول في روسيا ٣٠٤

الباب الخامس: موضوعات الشرق وأفريقيا في الأدب

الروسي ٣١١

(١) ما سر ولع الأدباء الروس بالشرق؟ ٣١٢

(٢) مصر في عيون الرحّالة الروس في القرن التاسع عشر ٣١٨

(٣) مصر في الأدب الروسي الحديث ٣٢١

(٤) روايتا «عزازيل» للأديبين المصري يوسف زيدان

والروسي بوريس أكونين ٣٢٩

(٥) تاريخ ترجمة الأدب بين العربية والروسية ٣٣٣

(٦) المترجم قديسًا ٣٤٠

(٧) صورة أفريقيا في الأدب الروسي ٣٤٥

الباب السادس: تفاعلات أدبية ٣٥١

(١) ملامح تأثر الأدب الروسي بالثقافة الفرنسية ٣٥٢

(٢) تاريخ الأدب الكازاخي: من الشفاهة إلى الكتابة ٣٦٥

(٣) تاريخ الأدب البيلاوسي ٣٧٥

(٤) روسيا وأوكرانيا... جذور ثقافية مشتركة ممتدة عبر

التاريخ ٣٨٢

(٥) تاريخ الأدب الأوكراني الحديث ٣٩٥

(٦) أدب الرحلة في طاجكستان: ناصر خسرو، الأديب العاشق

لمصر وصاحب كتاب «سفر نامه» ٤٠٣

(٧) تاريخ الأدب المنغولي ٤١١

قائمة المراجع ٤٢٢

المؤلف في سطور ٤٢٣